

ولكن الحال في الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه
في الآية التالية :

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ^(١) وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (١٨)

وحياتك في الآخرة - إن أصلحت عملك وكنت من المؤمنين -
تختلف عن حياتك في الدنيا ؛ فأنت تعلم أنك في الدنيا تحيا مع
أسباب الله الممدودة لك ؛ وتضرب في الأرض من أجل الرزق ،
وتجتهد وتتعب من أجل أن يهبك الله ما في الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المفلحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق
جل علاه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴾ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

[البقرة]

وشاء الحق سبحانه أن يأتي بلفظ المفلح كصفة للمؤمن في
الجنة ، لأن المؤمن قد حرث الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيم
منهج الله في الأرض ، ونصب قامته ، ونعلم أن نصب القامة يدل
على أن من يعمل قد أصابه التعب ، وذلك في الحياة الدنيا .

أما في الجنة ، فيقول الحق :

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٤٨) [الحجر]

(١) النصب : الإعياء والتعب والمشقة والأذى . ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٥٣/٢) .

أى : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تَكَلَّمُ سبحانه عن الْفَآوِينِ ، وقد كانوا أَخْلَاءَ فى الدنيا يَمْرَحُونَ فيها بالمعاصى ؛ وهم مَنْ يَنْتَظِرُهُمْ عِقَابُ الْجَحِيمِ . وتَكَلَّمُ عن الْعِبَادِ الْمُخْلِصِينَ الَّذِينَ سَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اخْتَلَفَتْ رُؤَاؤُهُ فى الدنيا ، ولم يربط بينهم تَأَلَّفٌ أَوْ مَحَبَّةٌ ؛ لكنهم يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وتتصافى قلوبهم من أى خِلاف قد سبق فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىَ أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته ؛ ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٦٧) ﴾ [النبأ]

وقال سبحانه أيضاً عن هذا النبأ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ [ص]

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة وما سوف يحدث فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخير غُفْرَانِهِ وَرَحْمَتِهِ الَّذِى يَخْتَصُّ بِهِ عِبَادَهُ الْمُخْلِصِينَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَيَتِمَتُّعُونَ بِخَيْرَاتِهَا خَالِدِينَ فيها .

ولقائل أن يسأل : أليست المغفرة تقتضى ذنباً ؟

ونقول : إن الحق سبحانه خلقنا ويعلم أن للنفس هواجس ؛ ولا يمكن أن تسلم النفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسوسة ؛ بدليل أنه سبحانه قد حَرَّمَ الكثير من الأفعال على المسلم ؛ حماية للفرد وحماية للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع في الاستقرار الأمن .

فقد حَرَّمَ الحق سبحانه على المسلم السرقة والزنا وشُرْب الخمر ، وغيرها من الموبقات^(١) والخطايا ، والهواجس التي تقوده إلى الإفساد في الأرض ، وما دام قد حَرَّمَ كل ذلك فهذا يعني أنها سوف تقع . ونزل منهجه سبحانه مُحَرِّماً وَمُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يلزم كل المؤمنين به بضرورة تجنب هذه الخطايا .

وهنا يُوَضِّح سبحانه أن مَنْ يغفل عن المؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألا يُورِّق نفسه بتلك الغفلات ؛ فسبحانه رءوف رحيم .

ونحن حين نقرأ العربية التي قد شَرَّفَ الله أهلها بنزول القرآن بها ، نجد أقسام الكلام إما شعراً أو نثراً ، والشعر له وَزْن وقافية ، وله نَغْم وموسيقى ، أما النثر فليس له تلك الصفات ، بل قد يكون مَسْجُوعاً أو غَيْرَ مَسْجُوع .

وإن تكلمت بكلام نثرى وَجِئْتَ في وسطه بببيت من الشعر ، فالذى يسمعك يُمكنه أن يلاحظ هذا الفارق بين الشعر والنثر ، ولكن القرآن كلام ربٍّ قدير ؛ لذلك أنت تجد هذه الآية التي نحن بصدد خواطرها عنها وتقرؤها وكأنها بَيْتٌ من الشعر فهي موزونة مُقَفَّاة :

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وأوبق : اهلكه . [لسان العرب - مادة : وبق] .

« نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

ووزنها من بَحْرِ الْمُجْتَثِ^(١) . ولكنها تأتي وَسَطَ آيَاتٍ مِنْ قَبْلِهَا
وَمِنْ بَعْدِهَا فَلَا تَشْعُرُ بِالْفَارِقِ ، وَلَا تَشْعُرُ أَنَّكَ انْتَقَلْتَ مِنْ نَثَرٍ إِلَى
شَعْرٍ ، وَمِنْ شَعْرٍ إِلَى نَثَرٍ ؛ لِأَنَّ تَضَامُنَ الْمَعَانِي مَعَ جَمَالِ الْأَسْلُوبِ
يُعْطِينَا جَلَالَ التَّأْثِيرِ الْمُعْجَزِ ، وَتِلْكَ مِنْ أَسْرَارِ عَظَمَةِ الْقُرْآنِ .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية :

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾

وهكذا يكتمل النبأ بالمغفرة لِمَنْ آمَنُوا ؛ وَالْعَذَابُ لِمَنْ كَفَرُوا ،
وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْغَوَايَةِ . وَنَلْحِظُ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ لَمْ يُشَدِّدْ فِي تَاكِيدِ
الْعَذَابِ ، ذَلِكَ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ ﷻ :

« إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةً رَحْمَةً ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ
تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً ، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً ، فَلَوْ
يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَبِئْسَ مِنَ الْجَنَّةِ ؛
وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُسْلِمُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ ؛ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ
النَّارِ »^(٢) .

ونلاحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْلُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ :

(١) سُمِّيَ هَذَا الْبَحْرُ بِالمُجْتَثِ ؛ لِأَنَّهُ مَجْتَثٌ مِنْ بَحْرِ الْخَفِيفِ بِتَقْدِيمِ (مُسْتَقْلَعٌ)
عَلَى (فَاعِلَاتِنِ) ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلْ إِلَّا مَجْزُوءًا ، وَلَهُ عَرُوضٌ وَاحِدَةٌ صَحِيحَةٌ تَقْطِيعُهُ : مُسْتَقْعٌ
لِأَنَّ فَاعِلَاتِنِ مُسْتَقْعٌ لِنِ فَاعِلَاتِنِ انْظُرْ كِتَابَ (فِي عِلْمِ الْعَرُوضِ وَالْقَافِيَةِ) - د . آمِينَ عَلَى
السَّيِّدِ - طَبْعَةُ دَارِ الْمَعَارِفِ ١٩٨٢ م .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ (٦٤٦٩) ، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ بَعْضَهُ فِي صَحِيحِهِ (٢٧٥٥)
كِتَابُ التَّوْبَةِ ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ
الْعِقَابِ (٦)﴾ [الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نُبِها إلى مقامى الرجاء والخوف ،
وعلى المؤمن أن يجمع بينهما ، وألا يُؤجل العمل الصالح وتكاليف
الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصى : لأن الله سبحانه وتعالى
يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسن الطوية . لذلك يقول
الحديث :

« لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن
رحمتى سبقت غضبى »^(١) .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية
والجمالية فى الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسية واقعية
تُوضِّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم - عليه السلام - ويعطيه
البشرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزِلُ بأهله
العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقري^(٢) أو استئناس ،
ويُسَمَّونه « الْمُتَضَوِّى » لأنه ينضوى إلى غيره لطلب القري ، ولطلب

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) ، والبخارى فى صحيحه (٢١٩٤) من حديث أبى
هريرة رضى الله عنه ، وفى لفظ : « غلبت » .

(٢) قري الضيف قري وقراء : أضاف ، واستقرأتى : طلب منى القري . والقري : طعام
الأضياف . [لسان العرب - مادة : قري] .

الامن . ومن معاني المتضوى انه مال ناحية الضوء .

وكان الكرماء من العرب من اهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم ، ولكنهم يعلنون عن انفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير في الطريق ليهتدى اليهم .

وكلنا قرأنا ما قاله حاتم الطائي للعبد الذي يخدمه :

أَوْقَدِ النَّارَ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرٌّ^(١)
وَالرَّيْحُ يَا غُلَامُ رِيحٌ صَرٌّ^(٢)
إِنْ جَلِبَتْ لَنَا ضَيْفًا فَانْتَ حُرٌّ

وهكذا نعرف أصل كلمة انضوى . أى : تَبِعَ الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرَدٌ يُطْلَقُ على المفرد والمثنى والجمع ، إنثاءً أو ذكورا ، فيقال : جاءنى ضيف فأكرمته ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتهما ، وجاءنى ضيف فأكرمتهم ، وجاءنى ضيف فأكرمتهن .

وكلُّ ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون « ضيف » على « أضياف » ؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضيفان » .

ولنتنبه إلى أن الضيفَ إذا أُطْلِقَ على جَمْعٍ ؛ فمعناه أن فرداً قد

(١) القر : البرد . والقُرُّ : اليوم البارد . وكل بارد : قُرٌّ . [لسان العرب - مادة : قرر] .

(٢) الريح الصر والصرصر : الشديدة البرد . والشديدة الصوت العاصفة : [لسان العرب -

مادة : صرر] .

جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتهَا جماعة أخرى نقول :
وجاءت ضيف أخرى .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنَا عنها نعلم أَنهم ليسوا
ضيفاً من الآية التى تليها ؛ التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴾ (٥٤)

ونلاحظ أَن كلمة (سلاماً) جاءت هنا بالنَّصْب ، ومعناها نُسَلِّمُ
سلاماً ، وتعنى سلاماً متجدداً . ولكنه فى آية أخرى يقول :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّكْرُونَ ﴾ (٢٥) [الذاريات]

ونعلم أَن القرآن يأتى بالقصة عبر لقطات مُوزَّعة بين الآيات ؛
فإذا جمعتها رسمت لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجد الحق سبحانه هنا لا يذكر أَن إبراهيم قد ردَّ
سلامهم ؛ وأيضاً لم يذكر تقديمه للعجل المشوى لهم ؛ لأنه ذكر ذلك
فى موقع آخر من القرآن^(١) .

إذن : فمن تلك الآية نعلم أَن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السلام ،
وجاء هذا السلام مرفوعاً ، فلماذا جاء السلام فى الآية التى نحن
بصدد خواطرنَا عنها منصوباً ؟

أى : قالوا هم : ﴿ سَلَامًا ﴾ (٥٢) [الحجر]

وكان لا بُدَّ من ردِّ ، وهو ما جاءت به الآية الثانية :

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قُلْ إِن جَاءَ
بِعِجْلٍ خَيْرٌ (١٥) ﴾ [مؤد] .

[الذاريات]

﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٢٥)

والسلام الذي صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتَجَدِّد ؛
بينما السلام الذي صدر منه جاء في صيغة جملة اسفلية مُثَبِّتة ؛
ويدلُّ على الثبوت .

إذ كان ردَّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة ؛ لأنه
يُوضِّح أن أخلاق المنهج أن يردَّ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها ؛ لا أن
يردها فقط ، فجاء رده يحمل سلاماً استمراريّاً ، بينما سلامهم كان
سلاماً تجديديّاً ، والفرق بين سلام إبراهيم - عليه السلام - و سلام
الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام
إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتى من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

[الحجر]

﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ (٥٢)

وجاء في آية أخرى أنه :

[هود]

﴿وَأَوْجَسَ^(١) مِنْهُمْ خِيفَةً ..﴾ (٧٠)

وفي موقع آخر من القرآن يقول :

[الذاريات]

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ (٢٥)

فلماذا أوجس منهم خيفة ؟ ولماذا قال لهم : إنهم قوم مُنْكَرُونَ ؟

ولماذا قال :

(١) أوجس في نفسه : اضممر الخوف في نفسه . وأجس بالفتح . [القاموس القريم

﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ﴾ (٥٤)

[الحجر]

لقد جاءوا له دون أن يتعرف عليهم . وقدم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه كما قال الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ^(١) وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧١)﴾ [هود]

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قدم ضيفاً وقدم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلى المرء ألا يتوقع منه الخير ؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين علم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط ؛ وطمأنوه بالخبر الطيب الذي أرسلهم به الله اطمأنت نفسه ؛ وفي ذلك تأتي الآية القادمة :

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَظِيمٍ^(٢)﴾ (٥٣)

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وهدأت من روعه ، وأزالت مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام^(٣) سيصير إلى مرتبة أن يكون كثير العلم .

(١) نكر الشيء نكراً ونكراً : جهله . نكره : جهله واستوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. (٧١)﴾ [هود] أي : استوحش منهم لأنه لم يعرف حقيقتهم . [القاموس القويم ٢٨٥/٢] .

(٢) الوجل : الفزع والخوف . [لسان العرب - مادة : وجل] .

(٣) المقصود بالغلام هنا هو إسحاق عليه السلام . قال تعالى : ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧١) وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ قَبَسْرَنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧٢)﴾ [هود] قال ابن كثير في تفسيره (٤٥٢/٢) : « من ههنا استدلل من استدلل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يستتبع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده » .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثير ، فيقول ما ذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشَّرُونَ ﴾ (٥١)

ونعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - يخلق الخلق على أنحاء متعددة : حتى يعلم المخلوق أن خلقه لا ضرورة أن يكون بطريقة محددة : بل طلاقة القدرة أن يأتي المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولد الولد من أب وأم ؛ ذكر وأنثى . أو بدون الأمرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثم خلق حواء من ذكر فقط . وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً ﷺ من ذكر وأنثى .

وفى الآية التي نحن بصددنا نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبشرونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكبر ، في قوله تعالى :

﴿ عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ۖ ﴾ (٥١)

[الحجر]

يعنى أن « على » هنا جاءت بمعنى « مع » أى : أنه يعيش مع الكبر ؛ ويرى أنه من الصعب أن يجتمع الكبر مع القدرة على الإنجاب .

واقول دائماً : إن كلمة (على) لها عطاءات واسعة فى القرآن الكريم ، فهي تترك مرة ويأتى الحق سبحانه بغيرها لتؤدى معنى معيناً : مثل قوله تعالى :

﴿ وَأَصْلَبَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ ﴾ (٧١)

[طه]

والصَّلْبُ إنما يكون على جذوع النخل ؛ ولكن الحق سبحانه جاء
بـ (فى) بدلاً من (على) ليدلُّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ،
بحيث تتداخل الأيدي والأرجل المصلوبة فى جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَبَشِّرْهُمْ نِىَّ عَلَى أَنْ مَسْنَى الْكِبَرِ ۖ ٥٤ ﴾ [الحجر]

أى : أتُبشروننى بالغلام العليم مع أنى كبير فى العمر ؛ والمفهوم
أن الكِبَر والتقدم فى العمر لا يتأتى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تاتى « على » بمعنى « مع » ، أى : كيف تُبشروننى
بالغلام مع أنى كبير فى العمر ، وقد قال قوله هذه مُؤمناً بقدرة
الله : فإبراهيم أيضاً هو الذى أورد الحق سبحانه قولاً له :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى
لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۖ ٣٩ ﴾ [إبراهيم]

وكان الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتى ردُّ الملائكة على
إبراهيم خليل الرحمن :

﴿ قَالُوا ابْشِرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَاتَكُنْ مِنَ الْقٰنِطِيْنَ ۝ ٥٥ ﴾

وكان الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكننا
نُبلغك بيشارة شاءها الله لك ؛ فلا تَكُنْ مِنَ اليائسين .

ونفس القصة تكررت من بعد إبراهيم مع زكريا - عليه السلام -
فى إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا رَبَّهُ أن يهبه غلاماً :

﴿يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾ [مريم]

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال ذكريا لربه :

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨﴾ [مريم]

وإن شئت أن تعرف سرَّ عطاءات الأسلوب القرآنى فاقرا قول الحق سبحانه زداً على ذكريا :

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ١١﴾ لَهُ زَوْجَةٌ ١٠﴾ [الأنبياء]

ولم يقل الحق سبحانه أصلحناكم أنتم الاثنين ؛ وفى ذلك إشارة إلى أن العطب كان فى الزوجة ؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحددها عمر ، ولكن قدرة المرأة على أن تحمل مُحددة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : ﴿وَوَهَبْنَا ١٠﴾ [الأنبياء]

نجد أنها تُثبت طلاقة قدرة الله سبحانه فيما وَهَبَ ؛ وفى إصلاح ما فسد ؛ فسبحانه لا يُعوزُه شيء ؛ قادر جلُّ شأنه على الوهب ؛ وقادر على أن يُهيىء الأسباب ليتحقق ما يهبه .

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :

(١) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاتراً لا تلد ، فولدت . [تفسير ابن كثير ١٩٢/٢] وأصلح الأمر [إصلاحاً] . أزال فسادَه . [القاموس القويم ٢٨١/١] .

[الحجر]

﴿يَشْرُوكَ بِالْحَقِّ.. (٥٥)﴾

أى : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة ؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :

[الحجر]

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)﴾

ويانى الحق سبحانه بما ردَّ به إبراهيم عليه السلام :

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾

وهنا يعلن إبراهيم - عليه السلام - أنه لم يقنط من رحمة ربه ؛ ولكنه التمسج من طلاقة القدرة التى توحى بالوحدانية القادرة ، لا لذات وقوع الحدث ؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففى كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم - عليه السلام - يعلم علم اليقين طلاقة قدرة الله ؛ فقد سبق أن قال له :

[البقرة]

﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى (٢١٠)﴾

ونلاحظ أنه لم يسأله « أتحى الموتى » ، بل كان سؤاله عن الكيفية التى يحى بها الله الموتى ؛ ولذلك يسأله الحق سبحانه :

[البقرة]

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ.. (٢١٠)﴾

وكان ردَّ إبراهيم - عليه السلام - :

[البقرة]

﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّبَطْمَنٍ قَلْبِي.. (٢١٠)﴾

(١) القنوط : اليأس . رفى التهذيب : اليأس من الخير ، [لسان العرب - مادة : قنط] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧٢٧

وحدثت تجربة عندما أمر إبراهيم بأن يأخذ^(١) أربعة من الطير ثم يقطعهن ويلقى على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً ، لذلك فلم يكن إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التي يجري الله بها رحمته .

ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زوجته سارة : إذ إن الحق سبحانه قد قال في سورة هود :

﴿ يَا وَيْلَتَى أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي ^(٢) شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٧١) قَالُوا أَنْتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٢﴾ [هود]

وهكذا نجد أن القرآن يكمل بعضه بعضاً ؛ وكل لقطة تأتي في موقعها ؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .

وهنا في سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم - عليه السلام - للملائكة التي حملت له بُشْرَى الإنجاب عن المُهمّة الأساسية لمجيئهم ، الذي تسبّب في أن يتوجّس منهم خيفة ؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارة بالغلام ؛ لأن البشارة يكفي فيها ملكٌ واحد .

(١) قال تعالى : ﴿ فَخَذَّ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَفَ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة] فعند إبراهيم إلى أربعة من الطير ، فذبحهن ثم قطعهن وبنف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ ريشهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهم فدعاهن ، كما أمره الله عز وجل فجعل ينثر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى اللحم واللحم إلى اللحم حتى قام كل طائر على حدة وأتينه يمشين سعياً . [نكره ابن كثير في تفسيره ٢١٥/١] .

(٢) للبل ، الزوج والزوجة . قال الأزهري : سمي زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . بعل القوم قوماً آخرين مبالغة : تزوّج بعضهم إلى بعض . [لسان العرب - مادة بعل] .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المهمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذي سألته إبراهيم - عليه السلام - :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٥٧)

أى : ما هو الأمر العظيم الذى جئتم من أجله ؛ لأن الخطب هو الحدث الجلل الذى ينتاب الإنسان ؟ وسُمي خطباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به ، وكلما التقت جماعة من البشر بجماعة أخرى فهم يتحدثون على هذا الأمر .

ولذلك سُميت رغبة الزواج بين رجل وامرأة وتقدمه لأهلها طلباً لبيدها « خطبة » ؛ لأنه أمر جلل وهام ؛ ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة ؛ ورأه واحداً من أهلها لثار من الغيرة ؛ ولكن ما أن يدق الباب طالباً يدها ، فالأمر يختلف ؛ لأن أهلها يستقبلون من يتقدم للزواج الاستقبال الحسن ؛ ويقال : « جدد^(١) الحلال أنف الغيرة » .

وهنا قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة : ما خطبكم أيها المرسلون ؟ أى : لئى أمر جلل أتيتم ؟

ويأتى الجواب من الملائكة فى قول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ (٥٨)

ونعلم أن كلمة « القوم » مأخوذة من القيام ، وهم القوم الذين يقومون للأحداث ؛ ويقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يقمن للأحداث ؛ والحق سبحانه هو الذى يفصل هذا الأمر فى قوله :

(١) الجدد . القطع . وقيل . هو القطع البائن فى الأنف والأنثى والشفة واليد ونحوهما . [لسان العرب - مادة جدد] .

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ۚ ۝١١٧ ﴾

[الحجرات]

فلو أن كلمة « القوم » تُطلق على النساء ؛ لوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً ؛ وذلك كي نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث ؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها في رعاية أسرتها ؛ فلا تقوم إلا بما يخص هذا البيت .

وهنا أخبرت الملائكة إبراهيم - عليه السلام - أنهم مُرسكون إلى قوم مُجرمين^(١) ؛ وهم قوم لوط الذين أرمقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصي التي أذنبوها .

ولكن الحق سبحانه يستثنى آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّا لَوَظُّ آلِ لُوطٍ إِنَّا لَمَنَجُّهُمْ أَجْمَعِينَ ۚ ۝١٢١ ﴾

وهذا استثناء لآل لوط من المجرمين^(٢) . والمُجرِم هو المنقطع عن الحق ، والجريمة هي الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، وغلب اسم

(١) جرم الشرع جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . وأجرم الرجل : أذنب وعصى وكفر وعاند فهو مجرم . [القاموس المزمع ١/ ١٢١] .

(٢) يقول الفخر الرازي متسائلاً : هل هذا استثناء متصل أو منقطع ؟ يقول صاحب الكشاف : إذا كان هذا الاستثناء من قوم كان منقطعاً ؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام وآل لوط ليسوا مجرمين ، فاختلف الجنسان . وهنا يكون الاستثناء منقطعاً ، وإن كان الاستثناء من الضمير في مجرمين كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وعدمهم (راجع الفخر الرازي في تفسير الآية) .

القوم على الجماعة المجرمين ، وهكذا كان الاستثناء من هؤلاء المجرمين ، الذين أجزموا في حق منهج الله ، والقيم التي نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه في مهمة واحدة .

ثم يأتي استثناء جديد ؛ حيث يقرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه :

﴿ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا مِنَ الْغَنِيِّينَ ﴾

وتعلم في اللغة أنه إذا توالى استثناءات على مُسْتثنى منه ؛ نأخذ المُسْتثنى الأول من المُسْتثنى منه ، والمُسْتثنى الثاني نأخذه من المُسْتثنى الأول ، والمُسْتثنى الثالث نأخذه من المُسْتثنى الثاني .

والمثل أن يقول لك من تدينه « لك عشرة جنيهاً إلا أربعة » أي : أنه أقر بأن لك ستة جنيهاً ؛ ولكنك تنظر إليه لعله يتذكر كم سدّد إليك ؟ فيقول : « لك إلا درهماً » وهكذا يكون قد أقرّ بسبعة دراهم كدّين ؛ بعد أن كان قد أقرّ بستة ؛ ذلك أنه قال : « لك عشرة جنيهاً إلا أربعة » ، ثم أضاف : « إلا درهماً » .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهاً التي قال إنه سدّدها لك جنيهاً آخر ؛ وبذلك يكون ما سدّده من دين ثلاثة جنيهاً ، وبقي عنده سبعة جنيهاً .

والحق سبحانه هنا يستثنى امرأة لوط من الذين استثناهم من

(١) الغايرون : الباقون المتخلفون في القرية للهلاك ، أو كانت من الماضين الظاهرين أي من الهالكين . [القاموس القويم ٤٧/٢] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

○ ٧٧٢ ○

قبل للنجاة^(١) ، وهم آل لوط ، والملائكة التي تقول ذلك لم تُقدَّر الأمر
بإهلاك امرأة لوط ؛ بل هي تُنفذ التقدير الأعلى ؛ فسبحانه هو مَنْ
قَدَّر وأمر :

﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠)﴾ [الحجر]

والغابر هنا بمعنى داخل ؛ أو هو من أسماء الأضداد ؛ وهي لن
تنجو ؛ لأن مَنْ تقررَتْ نجاتهم سيتركون القرية ؛ وسيهلك مَنْ يبقى
فيها ، وامرأة لوط من الباقيين في العذاب والاستثناء من النفي إثبات ؛
ومن الإثبات نفي . فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين .
وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط - عليه السلام - فيقول الحق
سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢)﴾

وهكذا قال لوط - عليه السلام - للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد
كان مشهودهم غاية في الجمال ؛ ويعلم أن قومه يُعَانُونَ من
الغلمانية^(٢) ، ويحترفون الفاحشة الشاذة ؛ لذلك نجد الحق سبحانه
يقول عن معاملته للملائكة في موقع آخر من القرآن :

﴿سَاءَ بِهِمْ مُضَاقٍ بِهِمْ ذَرْعًا (٧٧)﴾ [هود]

(١) قال صاحب الكشف : هذا استثناء من الضعيف المجرور في قوله (لمنجوهم) وليس ذلك
من باب الاستثناء من الاستثناء (راجع الفخر الرازي) .

(٢) الغلمانية : حب إثيان الغلمان والذكور من العالمين ، والتفلة شدة الشهوة .

ذلك أن لوطاً علم أن قومه سيظلمون في هؤلاء المرء^(١) ، لذلك ما أن جاءوه حتى أعلن لهم أنه غير مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه في صورة شبان تضرء ملامحهم بالحسن الشديد ؛ مما قد يُسبب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه . وليس على ملامحهم أى أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التى يعيش فيها ؛ لذلك أنكروهم . ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظة أن طمانوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم :

﴿قَالُوا بَلْ جِئْتِكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾^(٢)

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كى يُنزلوا العقاب بالقوم الذين أرمقوه . وكانوا يشكون في قدرة الحق سبحانه أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفي هذا تسرية عنه .

ثم يؤكدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٣)

أى : جئنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحق سبحانه ؛ فلا مجال للشك أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نبلغك به .

(١) غلام أمرد . والمرء : التملص . وقال ابن الأعرابي : المرء : نقاء الخفي من الشعر وتقاء الفصن من الورق . والأمرد : الشاب الذى بلغ خروج لحيته وطرا شاربته ولم تبق لحيته . [لسان العرب - مادة : مرد] .

(٢) امترى فى الشيء : شك فيه ولم يستيقن . وتمارى فى الشيء : شكك فيه . والمرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢٢٤/٢] .

ويقولون له من بعد ذلك :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾

أى : سر أنت وأهلك فى جزء من الليل . ومرة يُقال « سرى » ، ومرة يُقال « أسرى » : ويلتقيان فى المعنى . ولكن « أسرى » تاتى فى موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدية مثل قول الحق :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ۖ ۝١ ﴾ [الإسراء]

وقرأهم هنا (أسر بأهلك^(١)) هو تعبير مُهذَّب عن صُحبة النساء والأبناء . ونجد فى ريفنا المصرى مَنْ لا يتكلم أبداً فى حديثه عن المرأة أو البنات ؛ فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكان اسم المرأة مبنياً على السُّتْر دائماً . وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمُورة فى حكم الرجل إلا فى الأمر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ۖ ۝٦٥ ﴾ [الحجر]

وكلمة « قِطْع » هى اسم جمع^(٢) ، والمقصود هو أن يخرج لوطاً

(١) الأهل هم الذين اتبعوا لوطاً فى منهج الله . ويخرج من الأهلية امرأته لعصياتها كما نُفِيت الأهلية من ابن نوح يمحصيان . قال الله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّ نِسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّمَا عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود]

(٢) اسم الجمع هو اسم يدل على الجمع ، ولكنه ليس جمعاً سالماً سلمت فيه بنية المفرد من التفسير ، وليس جمع تكسير ، تفرقت فيه بنية المفرد ، ويفرق بينه وبين مفردة بالتاء . مثل (تمر) فهنا اسم جمع مفردة (ثمرة) . و (صب) مفردة (غيبة) ، كذلك قطع هنا اسم يدل على الجمع مفردة (قطعة) ، وليس من أنواع الجموع المعروفة .

بأهله فى جزء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذى أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوه أن يتبع أدبار قومهم بقولهم :

﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ.. (١٥)﴾

[الحجر]

أى : أن يكون فى المؤخرة ، وفى ذلك حثٌ لهم على السرعة .
وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ويرحلون منه ؛ فكل منهم يحمل رَحْلَه على ناقته ؛ وأهله فيها - فوق الناقة - ويبتدون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعْقَب » كى يرقب إن كان أحد من القوم قد تخلف أو تعثر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويسمون هذا الشخص « مُعْقَب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعْقَباً لأهله والمؤمنين به ؛ ليحثهم على السير بسرعة ؛ ثم لينفذ أمراً آخر يأمره به الحق سبحانه :

﴿وَلَا يَلْقَئْ مِنْكُمْ أَحَدٌ.. (١٥)﴾

[الحجر]

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضى أن يكون لوط فى مؤخرة القوم ؛ ذلك أن الالتفات يأخذ وقتاً ، ويقلل من سرعة مَنْ يلتفت ؛ كما أن الالتفات إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحتين إلى مواقع التذكار وأرض المنشأ ؛ وكل ذلك قد يعطل حركة القوم جميعهم ؛ لذلك جاء الأمر الإلهى :

﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (١٥)﴾

[الحجر]

أو : أن الحق سبحانه يريد ألا يلتفت أحدٌ خلفه حتى لا يشهد العذاب ، أو مقدمة العذاب الذى يقع على القوم ، فتأخذه بهم شفقة .
ونحن نعلم قول الحق سبحانه فى إقامة أى حدٍّ من الحدود التى أنزلها :

﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ لِّى دِينِ اللَّهِ ۖ ﴾ (٢) [النور]

قلو أن أحداً قد التفت إلى العذاب ، أو مقدمة العذاب : فقد يحزن إليهم ، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنب كبير ، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة : وتعلم أن بشاعة الجريمة تبهرت ! وقد يبقى فى النفس عظم ألم العقوبة لحظة توقيعها على المجرم .

أو : أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أن يوجد ، ولو التفريع الذى هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هول هذا العذاب القادم .

وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم ، والكيفية هى أن يكون الخروج فى جزء من الليل ، وأن يتبع لوطاً أدبارهم ، وألا يلتفت أحد من الناجين خلفه ! ليمضى هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هى الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ ^(١)

مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

(١) دابر الشيء : آخره . وقطع الله دابرهم أى آخر من بقى منهم . [لسان العرب - مادة : دبر] والتعبير كناية عن استئصالهم وإهلاكهم عن آخرهم . فالدابر التسابع ، وقطع النايح قطع لهم جميعاً . [للقاموس للقرين ١/ ٢٢٠] .

وقوله الحق : ﴿ وَقَضَيْنَا.. (٦٦) ﴾ [الحجر]

أى : أوحينا . وسبحانه تكلم من قبل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط ؛ ثم تكلم عن عذاب الكافرين المنحرفين ؛ والأمر الذى قضى به الحق سبحانه أن يُبِيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطَعَ الدَّابِر هو الخلق من الجنود .

ولذلك يقول القرآن :

﴿ قَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا.. (٤٥) ﴾ [الأنعام]

وهكذا نفهم أن قَطَعَ الدابر هو أن يأخذهم الحق سبحانه أَخَذَ عزيز مقتدر فلا يُبْقَى منهم أحداً . وموعِد ذلك هو الصباح ، فبعد أن خرج لوط ومن معه بجزء من الليل وتمت نجاتهم يأتى الأمر بإهلاك المنحرفين فى الصباح .

والأخذ بالصُّبْح هو مبدأ من مبادئ الحروب ؛ ويقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ^(١) فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يأخذهم وهم فى استرخاء ؛ ولا يملكون قُدْرَةَ على المقاومة .

وقول الحق سبحانه هنا :

(١) السَّاحَةُ : الناحية والقضاء بين الدُّور . جمعها : سَاحٍ وَسُوحٌ وساحات . [القاموس القويم

[الحجر]

﴿أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ (٦٦)﴾

لا يتناقض مع قوله عنهم لى موقع آخر :

[الحجر]

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٢)﴾

فكان بدء الصيحة كان صَبْحًا ، ونهايتهم كانت فى الشروق .
وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لوط من قبل أن يبدأ التنفيذ : فهكذا أخبرت الملائكة لوطاً بما سوف يجرى .

ويعود الحق سبحانه بعد ذلك إلى قوم لوط الذين لا يعرفون
ما سوف يحدث لهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾

وعندما علم أهل المدينة من قوم لوط بوصول وقد من الشبان
الحسان المرد عند لوط جاءوا مُسْتَبْشِرِينَ فَرِحِينَ . وكان حُسْنُهُم
مضرباً للأمثال ؛ وكان كلاً منهم ينطبق عليه قوله الحق عن يوسف
عليه السلام :

[يوسف]

﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾

وقوله سبحانه :

[الحجر]

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾

(١) مشرقين : وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس : أى : أضاءت . وأشرق القوم :
أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . [تفسير القرطبي ٢/٥ : ٢٧٦٥] .

يجمع لقطات مُركبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ،
وكانوا يستبشرون بفعله ويفرحون به ؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله
الحق :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ ^(١) عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾

[المائدة]

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يحيق بهم ؛
وأراد أن يجعل بينهم وبين فعل الفاحشة مع الملائكة سدا ؛ فهم قى
ضيافته وفى جواره ، والتقاليد تقضى أن يأخذ الضيف كرامة
المضيف ، وأى إهانة تلحق بالمضيف هى إهانة للمضيف ، فيقول
الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط :

﴿ قَالَ إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ^(٦٨) ﴾

والفضيحة هى هتك المساتير التى يستحيى منها الإنسان ،
فالإنسان قد يفعل أشياء يستحي أن يعلمها عنه غيره . والحق -
سبحانه وتعالى - حين يطلب منا أن نتخلّق بخلقه ؛ جعل من كلّ
صفات الجمال والجلال نصيبا يعطيه لخلقّه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتى بمقابل لها ؛ فهو
قد قال مثلاً « الضَّارُّ » ومقابلها « النافع » . وقال « اليأسط »
ومقابلها « القايض » وقال « المُعَرِّ » ومقابلها « المُذَلَّ » . ومن

(١) تنهوا عن الأمر وعن المنكر : نهى بعضهم بعضاً . فكان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم
بعضاً عن منكر فعلوه ، فاستحقوا اللعنة . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿ ٧٧٢٩ ﴾

أسمائه « الستار »^(١) ولم يأت بالمقابل وهو « الفاضح » ؛ لماذا لم يأت بهذا المقابل ؟

لأنه سبحانه شاء أن يحمي الكون ؛ لكي يستمتع كل فرد بحسنات المُسِيء ؛ لأنك لو علمت سيئاته قد تبصق عليه ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يستر المُسِيء ، ويظهر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهامهم عن الاقتراب الشائن من ضيوفه :

﴿ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْا ﴾

أي : خضعوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية ؛ ولا تكونوا سبباً في إحساسى بالخزي والعار أمام ضيوفى بسبب ما ترغبون فيه من الفاحشة .

والاتقاء من الوقاية ، والوقاية هي الاحتراس والبعد من الشر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٦)

[التحريم]

أي : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ، بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فعل المحذور طريق إلى النار ،

(١) قال القرطبي في « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » (١ / ١٦٧) : « من أسماء الله الستار والساتر ، هذان الاسمان لم أر من ذكرهما ، ولا من جعلهما في عدائد الاسماء ، إلا أن القل منهما وارد في شيء ما حديث ، منها حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » خرجه مسلم . »

والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم - والقرآن كله كلام الله .

يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة]

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران]

كيف تأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيُعَذَّب فيها الكافرون ؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعَذَّبوا في النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصي ، وإن فعلت المأمورات ، ورضيت بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تَمَادَوْا في غِيهِم وقالوا ما أورده الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) ﴾

أى : أَلَمْ تُحذِّرْكَ مِنْ قَبْلِ مِنْ ضَيَافَةِ الشَّيَآنِ الَّذِينَ يَتَمَيِّزُونَ بِالْحُسْنِ ، وَلَأنَّكَ قُمْتَ بِاسْتِزَاقَةِ هَؤُلَاءِ الشُّبَّابِ ؛ فَلَا يَدُ لَنَا مِنْ أَنْ تَفْعَلَ مَعَهُمْ مَا نَحِبُ مِنَ الْقَاسِحَةِ ، وَكَانُوا يَتَعَرَّضُونَ لِكُلِّ غَرِيبٍ بِالسَّوْءِ .

وحاول لوط أن ينهائهم قَدْرَ استطاعته ؛ ولكنهم رفضوا أَنْ يُجِيرَ ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أَنْ يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا في الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شيء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أن يثنّيه عن ذلك بأن قال لهم ،
ما جاء به الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٧١)

أى : انكم إن كنتم مُصرّين على ارتكاب الفاحشة ؛ فلماذا
لا تتزوجون من بناتى ؟ ولقد حاول البعض أن يقولوا : إنه عرض
بناته عليهم ليرتكبوا معهن الفاحشة ؛ وحاشا لله أن يصدر مثل هذا
الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ۖ ﴾ (٧١) [الحجر]

أى : أنه تحدث عن جمع كثير ؛ ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا
للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم
أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرن من بناته^(١) .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يوضح ذلك فى آية أخرى :

﴿ أَتَأْتِرُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء]

أى : أن لوطاً أراد أن يردّ هؤلاء الشبوان إلى دائرة الصواب ،
والفعل الطيب . وذيل كلامه :

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ۖ ﴾ [هود] قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً إنما
قال : هؤلاء بناتى نسألكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهري قوم فهو أبوم . [أورده
السيوطى فى الدر المنثور ٤/ ٤٤٧] .

[الحجر]

﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)﴾

ليوحى لهم بالشك في أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب الممجوج والمرفوض .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و « عَمُرُكَ » معناها السنُّ المُحدَّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق « عُمُرُكَ » ومرة تنطق « عَمْرُكَ » ، ولكنهم في القَسَم يختارون كلمة « عَمْرُكَ » ، وهذا يماثل قولنا في الحياة اليومية « وحياتك » .

ومن هذا القول الكريم الذي يُحدِّث به الحق سبحانه رسوله استدل أهل الإشراف والمعرفة أن الحق سبحانه قد كَرَّمَ سيدنا رسول الله ﷺ ؛ بأنه حين ناداه لم يُنَادِهِ باسمه العَلَنِي « يا محمد » أو « يا أحمد » كما نادى كل رُسُلِهِ ، ولكنه لم يُنَادِ الرسول ﷺ إلا بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ . (٧٣)﴾

[المائدة]

أو : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ . (٧٤)﴾

[المتحنة]

وفي هذا تكريمٌ عظيم ، وهنا في هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسم بحياة رسوله ﷺ . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسم

(١) السكرَةُ الغشبية . أى كانوا في غشبة شهوانهم على عقولهم وغفلتهم واعتراهم بالندى اغتراراً يُضلُّهم فيعمون عن الحق . [القاموس القويم ١/ ٢٢٠] والعمه : التخيُّر والتريد . أى يتردد متغيراً لا يهتدى لطريقه ومذهبه . [لسان العرب - مادة : عمه] .

بما شاء على ما شاء ، أقسم بالشمس وبمواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .

فهو الخالق العليم بكل ما خلق ؛ ولا يعرف عظمة المخلوق إلا خالقه ، وهو العالم بمهمة كل كائن خلقه ، لكنه أمرنا ألا نُقسم إلا به ؛ لأننا نجهل حقائق الأشياء مُكْتَمَلَةٌ .

وقد أقسم سبحانه بكل شيء في الوجود ، إلا أنه لم يُقسم أبداً بأى إنسان إلا بمحمد ﷺ ؛ فقال هنا :

﴿لَعَمْرُكَ (٧٢)﴾ [الحجر]

بحياتك يا محمد إنهم في سكرة يعمهون .

والسُّكْرَةُ هي التخدير العقلية التي تحدث لمن يختل إدراكهم بفعل عقيدة فاسدة ، أو عادة شاذة ، أو يتناول مادة تثير الاضطراب في الوعي .

و ﴿يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر]

أى : يضطربون باختيارهم .

ويأتى العقاب ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)﴾

وسبق أن أخبرنا سبحانه أنه سيقطع نابرهم وهم مصبحون .

(١) الصيحة . العذاب . وأصله من المنياح . والصيحة . الفارة إذا فرجى الحي بها . [لسان العرب - مادة : صبح] . قال في القاموس للزواجر (٢٨٦/١) . « الصيحة . العذاب الذى يصعبه صوت شديد » .

وهنا يخبرنا أن الصيحة أخذتهم وهم مُشْرِقُونَ ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة « الكاراتيه » تصدر صيحة من اللاعب في مواجهة خصمه لِيزيد من رُعبه .

كما نرى في تدريبات الصاعقة العسكرية : نوعاً من الصرخات ، مدفها أنْ يُدخل المقاتل الرُّعب في قلب عدوه .

وكل ما يتطلب إرهاب الخصم يبدأ بصيحة تُفقد توازنه الفكري ؛ ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ ^(١) الْمُحْتَظِرِ ^(٢) ﴾

[القمر]

ومرة يُسميها الحق سبحانه بالطاغية : فيقول :

﴿ قَامَا فَمُودُ فَأَهْلَكُوا ^(١) بِالطَّاغِيَةِ ^(٢) ﴾

[الحاقة]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ^(١) ﴾

(١) الهشيم المحتظر : أى كالحطب والخشب المحطم في يد المحتظر صانع الحظيرة أو حامل الحطب فيها ، [القاموس القويم ٢٠٢/٢] .

(٢) الطاغية : طغيانهم ، أى : أهلكوا بطغيانهم . [لسان العرب - مادة : طغا] . قال قتادة : هي الصيحة التي أسكتتهم وأنزلت التي أسكتتهم ، وقال السدي : قاهلكوا بالطاغية يعنى عاقب الناقة - [تفسير ابن كثير ٤١٢/٤] .

(٣) السجيل : الطين المتحجر . قال ابن كثير في تفسيره (٤٥٤/٢) : « هي بالفارسية حجارة من نين ، قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أى : من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين » .

وما دام عاليها قد صار أسفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظَّم
المُوجَّه ؛ ولو لم يكن انتقاماً مُنظماً ؛ لانقلب بعضُ ما فى تلك المدينة
على الجانب الايمن أو الايسر .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يأتى لنا بصورة ما حدث ، ليدلنا
على قدرته على أن يفعلَ ما شاء كما يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه
بحجارة من سجيل ؛ كتلك التى أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة فى عام
ميلاد رسول الله ﷺ .

وهى حجارة صُنِعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَها إلا الحق سبحانه ،
والطين إذا تحجَّر سُمِّيَ « سجيلاً » .

والحق سبحانه هو القائل عن نفس هذا الموقف فى سورة
الذاريات :

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٢٢)﴾ [الذاريات]

وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عليهم ليبيدهم ، فلا يبقى
منهم أحداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾

وهكذا كان العذاب الذى أنزله الحق سبحانه بقوم لوط آية
واضحة للمتوسمين . والمتوسم هو الذى يدرك حقائق المُستور
بمُكشوف المظهر . ويُقال « توسَّمتُ فى فلان كذا » أى : أخذ من
الظاهر حقيقة الباطن .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. ﴾ (١٦) [الفتح]

أى : ساعة تراهم ترى أن الملامح تُوضَّح ما فى الأعماق من إيمان .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ^(١) .. ﴾ (٢٧٢) [البقرة]

وهكذا نعرف أن المتوسم ^(٢) هو صاحب الفراسة التى تكشف مكنون الأعماق . وما هو ^(٣) يقول : « انقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ^(٤) .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابى الذى فقد جملة ، فذهب إلى قَيْمِ الناحية - أى : عمدة المكان - وقال له : « ضاع جملى ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد » . وبينما هو يُحدِّث القَيْمِ جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور ؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أبتر ؟ أى : لا ذئيل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم .

(١) ألحف أسائل فى سؤاله : ألح وأكثر الإنحاح . أى : لا يلصقون فى طلب الصدقات . [القاموس القيم ١٩٠/٢] .

(٢) قال ثعلب : « الراسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التوسم : التثبيت والتتكر ، وذلك يكون بجودة الفريجة وحدة خاطر وصفاء الفكر . زاد غيره . وتفرغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أناس المعاصى ، وكدورة الأخلاق . وفخول الدنيا ، نقله القوطى فى تفسيره (٢٧٦٦/٥) .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٢١٢٧) وقال : حديث غريب ، وفيه مصعب بن سلام . قال المناوى فى « فيض القدير » (١٤٢/١) « أورده الذهبى فى الضعفاء . وقال ابن حبان : كثير الغلط لا يحتج به » . والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

فسأل الرجل سؤالاً ثالثاً : أجملك أشول ؟ أى : يعرج قليلاً عندما يسير ؛ فأجاب الرجل : نعم ، والله هو جملى .

وأراد قِيمَ الحى أن يعلم كيف عرف الرجل الذى حضر كل هذه العلامات التى فى الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات ؟

قال الرجل : لقد رأيته فى الطريق ، وعرفتُ أنه أعورُ ، ذلك أنه كان يأكل العُشْبَ الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْبِ الأخضر فى الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينه الاثنتين لرأى العُشْبَ الأخضر .

وعرفت أنه أبتَر مَقْطُوع الذَّيْلُ نتيجة أن بَعْرَه لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التى لها ذَيْلٌ غير مَقْطُوع .

وعرفت أنه أشول : لأن أثر ساقه اليمنى أكثر عُُمُقاً فى الأرض من أثر ساقه اليسرى . وهكذا شرحت الذاكرة العربية معنى كلمة « المتوسم » .

ثم يُبَيِّن الحق سبحانه مكان مدينة قوم لوط ، فيقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَّقِيمٌ ﴾

أى : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إن ذهبتم ناحية هذا المكان ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴾ (١٤٧)

[الصافات]

فهذه المدينة إذن فى طريق ثابت ؛ لن تُضَيِّعه عوامل التَّعَرِّيَةِ أو الاغيار ، ولن تُضَيِّعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه له أن

يَكُونُ مُحْكَمَ التَّكْوِينِ وَمُحْكَمَ التَّثْنِيتِ . وَهُوَ مَا يُسَمَّى « سِدُومَ » .
وَمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٧)

وقد قال من قبل :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٧٥) [الحجر]

فَكَانَ مِنْ مَسْئُولِيَّاتِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَفَحَّصَ فِي أَدْبَارِ الْأَشْيَاءِ ، وَأَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى الْأَشْيَاءِ بِسَيِّمَاها ، وَأَنْ يَمْتَلِكَ فِرَاسَةَ الْإِيمَانِ الَّتِي قَالَ عَنْهَا ﷺ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » .

وَهَكَذَا يُنْهِى الْحَقُّ سُبْحَانَهُ هُنَا قِصَّةَ قَوْمِ لُوطَ : وَمَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابٍ يَجِبُ أَنْ يَتَعَطَّ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ ؛ فَقَدْ نَالُوا جِزَاءَ مَا فَعَلُوا مِنْ فَاخِشَةٍ .

وَيَنْقُلُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ نَقْلَةً أُخْرَى : إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ ، وَهُمْ قَوْمٌ شُعَيْبَ . وَهُمْ أَصْحَابُ الْآيَةِ ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ :

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ ﴾ (٧٨)

و « الْأَيْكُ » هُوَ الشَّجَرُ الْمُتَنَفِّذُ الْكَثِيرَ الْأَغْصَانِ . وَتَعْلَمُ أَنَّ شُعَيْبًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ بُعِثَ لِأَهْلِ مَدْيَنَ وَأَصْحَابِ الْآيَةِ ، وَهِيَ مَكَانٌ قَرِيبٌ مِنْ مَدْيَنَ ، وَكَانَ أَهْلُ مَدْيَنَ^(١) قَدْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّرِكِ .

(١) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢/ ٢٢١) : « مَدْيَنُ تَطْلُقُ عَلَى الْقَبِيلَةِ وَهِيَ الْمَدِينَةُ وَهِيَ الَّتِي بِقَرِيبِ مَعَانَ مِنْ طَرِيقِ الْحِجَازِ » . وَقَالَ أَيْضًا (٢/ ٤٨٥) : « هِيَ قَبِيلَةٌ مِنَ الْحَرْبِ كَانُوا يَسْكُنُونَ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ قَرِيبًا مِنْ مَعَانَ » .

وقد قال الحق سبحانه :

[الأعراف]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... (٨٥)﴾

وقال عن أصحاب الأيكة :

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (٧٧)﴾

[الشعراء]

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعثَ لأمتين متجاورتين^(١) .

ويقول سبحانه عن هاتين الأمتين :

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُم وَإِنَّهُمَا لِيَا مَامِ مِينِ (٧٩)﴾

ويقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشجر المُلْتَف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعثَ إلى أمتين هو قوله الحق :

[الحجر]

﴿وَإِنَّهُمَا... (٧٩)﴾

وقد انتقم الله من الأمتين الظالمتين : مَدْيَنَ وأصحاب الأيكة .

ويقول الحق سبحانه :

(١) مضمون كلام الشيخ - رحمه الله - أن مدين وأصحاب الأيكة هما أمتان مختلفتان بُعثَ إليهما شعيب عليه السلام . ويدل لهذا حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ أورده السيوطي في الدر المنثور (٩٦/٥) من حديث عبيد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان . بعث الله إليهما شعيباً ، وعزاه لابن مردويه وابن عساکر . ولذلك فقد أرجع الشيخ الضمير في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمَا لِيَا مَامِ مِينِ (٧٩)﴾ [الحجر] إلى هاتين الأمتين . أما القرطبي وابن كثير فقد عابا بالضمير إلى قوم لوط . وقوم مدين على اعتبار أن أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة . راجع القرطبي (٢٧٦٨/٥) وابن كثير (٥٥٦/٢) .

[الحجر]

﴿ وَإِنَّهُمَا لَعِندَ رَبِّكَ لَمُبِينٌ ٧٦ ﴾

والإمام هو ما يؤتم به في الرأي والفتيا : أو في الحركات والسكنات ؛
أو : في الطريق الموصول إلى الغايات ، ويسمى « إمام » لأنه يدل على
الاماكن أو الغايات التي نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من
هذا الطريق .

وفيما يبدو أن أصحاب الأيكة قد ثَمَدُوا في الظلم والكفر^(١) ، وإذا كان
سبحانه قد أخذ أهل مَدْيَن بالصيحة والرجفة ؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن
سلط عليهم الحرّ سبعة أيام لا يُظْلَمُ منه ظلٌّ ؛ ثم أرسل سبحانه وتمتوا
أن تمطر ، وأمطرت نارا فاكلتهم ، كما قالت كتب الأثر^(٢) .

وهذا هو العذاب الذي قال فيه الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾ [الشعراء]

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذي يقود إلى التيسر بعواقب
الظلم والشرك .

وينقلنا الحق سبحانه إلى خبر قوم آخرين ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ٨٠ ﴾

وأصحاب الحجر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التي يقيمون فيها

(١) كان ظلم قوم شعيب يشركهم بالله وتطعمهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . [تفسر
ابن كثير ٥٥٦/٢] .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٩٢/٥) من قول قتادة ، وعزاء لعبد بن حميد وابن
جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٧٥١

كلها من الحجارة ؛ ولا يزال مقامهم معروفاً في المسافة بين خيبر
وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ أَتَيْتُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ^(١) آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ^(٢) لَكُمْ
تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وهم قد كذبوا نبيهم « صالح » وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل
الرسل ؛ ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون في الأحكام
العامّة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا في الجزئيات المناسبة لكل بيئة من
البيئات التي يعيشون فيها .

فبيئة : تعبد الأصنام ، فثبت لهم نبيهم أن الأصنام لا تستحق أن
تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطَفَّف الكيل والميزان ؛ فياتي رسولهم بما يتهاهم عن
ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذِّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل في الجزئيات المناسبة لكل بيئة ؛ لكنهم لم
يختلفوا في المنهج الكلي الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق
سبحانه عن قوم صالح أنهم كذبوا المرسلين ؛ بمعنى أنهم كذبوا صالحاً
فيما جاء به من دعوة التوحيد التي جاء بها كل الرسل .

(١) الريع : الجبل أو ما يشبهه من المباني المرتفعة أو المكان المرتفع . [القاموس القويم
٢٨٢/١] .

(٢) المصانع : أبنية عمالية وتصور متينة تصنعون صنعها راجين أن تخلدوا فيها ولستم
بخالدين . [القاموس القويم ٢٨٤/١]

﴿وَءَايَاتُهُمْ ءَايَاتُنَا فَأَكُونُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٨١﴾

(١) قَالَ تَعَالَى : ﴿وَأُولَئِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ صَالِحًا فَلَا يَأْكُلُونَ ثَمَرَهُمَا لَمْ يَحْتَضِرُوا اللَّهَ فِي إِتْقَانِهِمْ لِأَوَّلِ حَرْثٍ هَكَذَا دُونِ الْحَرِّ هَكَذَا دُونِ الْقُرْحِ مُغْلِبٌ عَلَيْهِمُ مِمَّنْ ذُو الْعَرْشِ الْمَلَائِكَةُ الَّتِي هِيَ أَقْبَلُ لِلْعِبَادَةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُدْعَوْنَ إِلَى قَوْلٍ لِّمَنْ أُعْتَذَرَ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَكُنَّا مَسْكُونَةً مِنْ رَبِّنَا أُولَئِكَ الْفَرِيقَ الْاَوَّلَ خَلَقْنَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَبَنَيْنَا فَوْقَهَا سَبْعَ بَنَائِدٍ جَنَّاتٍ زَاهِيَاتٍ بِهِنَّ الْأَنْجَارُ لَكُمْ فِيهَا مَا تَشَاءُونَ فِي التَّمْرِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ النَّارِيُّ وَمِنْ فَسِيلِهِ أَعْنَابٌ وَعَنْ شَجَرٍ لَهُ ثَمَرٌ كَأَنَّ الرَّيَّةَ تَنْزِيلًا لِّلسَّمَاءِ فَاخْرَجُوا مِنْ تَحْتِهِ أَنْجَارًا وَفِي الْجِبَالِ هَاجِلَاتٌ مِنْ بَيْنِ السُّبُورِ وَأُولَئِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٦-٨٢] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٧٥٢﴾

أَيُّ : تَكْبَرُوا وَأَعْرَضُوا عَنِ الْمَنِهْجِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ صَالِحٌ ،
وَالْإِعْرَاضُ هُوَ أَنْ تُعْطِيَ الشَّيْءَ عَرْضَكَ بِأَنْ تَبْتَغِدَ عَنْهُ وَلَا تُقْبِلَ عَلَيْهِ ،
وَلَوْ أَنَّكَ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ لَوَجَدْتَ فِيهِ الْخَيْرَ لَكَ .

وَأَنْتَ حِينَ تُقْبِلُ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ سَتَجِدُ أَنَّهَا تَدْعُوكَ لِلتَّفَكُّرِ ، فَتُؤْمِنُ
أَنْ لَهَا خَالِقًا فَتَلْتَزِمُ بِتَعَالِيمِ الْمَنِهْجِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ .

وَأَنْتَ حِينَ تُفَكِّرُ فِي الْحِكْمَةِ مِنَ الطَّاعَةِ سَتَجِدُ أَنَّهَا تُرِيحُكَ مِنْ
قَلْقِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى أَحَدٍ غَيْرِ خَالِقِكَ ، لَكِنْ لَوْ أَخَذْتَ الْمَسَائِلَ بِسَطْحِيَّةٍ ؛
فَلَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى الْإِيمَانِ .

وَلِذَلِكَ نَجِدُهُ سَبْحَاتِهِ يَقُولُ فِي مَوْقِعٍ آخَرَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٩)

وَفِي هَذَا تَكْلِيفٍ لِلْمُؤْمِنِ - كُلِّ مُؤْمِنٍ - أَنْ يُمْعِنَ النَّظَرَ فِي آيَاتِ
الْكَوْنِ لَعَلَّهُ يَسْتَنْبِطُ مِنْهَا مَا يَفِيدُ غَيْرَهُ .

وَأَنْتَ لَوْ نَظَرْتَ إِلَى كُلِّ الْمُخْتَرَعَاتِ الَّتِي فِي الْكَوْنِ لَوَجَدْتَهَا نَتِيجَةً
لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهَا مِنْ قَبْلِ عَالَمٍ أَرَادَ أَنْ يَكْتَشِفَ فِيهَا مَا يُرِيحُ غَيْرَهُ بِهِ .

وَالْمِثْلُ فِي اكْتِشَافِ قُوَّةِ الْبَخَارِ الَّتِي بَدَأَ بِهَا عَصْرٌ مِنَ الطَّاقَةِ
وَالْمُخْتَرَعَاتِ الَّتِي تَعْمَلُ بِتِلْكَ الطَّاقَةِ ، وَحَرَكَتِ بِهَا الْقِطَارَ
وَالسَّفِينَةَ ؛ مِثْلَمَا سَبَقَهَا إِنْسَانٌ آخَرٌ وَاخْتَرَعَ الْعَجَلَةَ لِیُسَهِّلَ عَلَى الْبَشَرِ
حَمْلَ الْأَثْقَالِ .

وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي أَمْرِ الْكَوْنِيَّاتِ ؛ فَهَاجَتْ أَيْضًا إِذَا تَامَلْتَ آيَاتِ

الأحكام في « افعل » و « لا تفعل » ستجدها تقيدك في حياتك ،
ومستقبلك ، والمثل على ذلك هو الزكاة ؛ فأنت تدفع جزءاً يسيراً من
عائد عملك لغيرك ممن لا يقوى على العمل ، وستجد أن غيرك يعطيك
إن حدث لك احتياج ؛ ذلك أنك من الأغيار .

ويتابع الحق سبحانه قوله عن قوم صالح :

وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾

وهنا يمتنّ عليهم بأن منحهم حضارة ، وهبهم مهارة البناء
والتقدم في العمارة ؛ وأخذوا في بناء بيوتهم في الأحجار ، ومن
الأحجار التي كانت توجد بالوادي الذي يقيمون فيه ، وقطعوا تلك
الأحجار بطريقة تُتيح لهم بناء البيوت والقصور الآمنة من أغيار
التقلبات الجوية وغيرها .

ونعلم أن من يعيش في خيمة يعاني من قلّة الأمن ؛ أما من
يبنى بيته من الطوب اللبن ؛ فهو أكثر أمناً ممن في الخيمة ، وإن
كان أقلّ أمناً من الذي يبنى بيته من الاسمنت المسلّح ، وهكذا
يكون أمن النفس البشرية في سكنها واستقرارها من قوة الشيء
الذي يحيطه .

وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيوتهم من الحجارة فهي بالتأكيد
أكثر أمناً من غيرهم ، ونجد نبيهم صالحاً ، وقد قال لهم ما أورده
الحق سبحانه في كتابه الكريم :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ^(١) فِي الْأَرْضِ تَسْخَدُونَ
مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ^(٢) اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا^(٣) فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف]

ولكنهم طَغَوْا وَبَغَوْا وانكروا ما جاء به صالح - عليه السلام -
فما كان من الحق سبحانه إلا أن أرسل عليهم صيحة تأخذهم .

وقال الحق سبحانه :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جبلية الموقع أمنا لهم ! فقد جاءت
الصيحة من الحق سبحانه لتدك فوق رؤوسهم ما صنعوا ، وقد قال
الحق سبحانه عنهم من قبل في سورة هود :

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

[هود]

وقال سبحانه عنهم أيضا :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]

وَالرَّجْفَةُ هِيَ الزَّلْزَلَةُ ، وَالصَّيْحَةُ هِيَ بَعْضُ مِنْ تَوَابِعِ الزَّلْزَلَةِ .

(١) بَوَّأَهُ فِي الْأَرْضِ : مَكَّنَ لَهُ فِيهَا . وَأَبَاءَهُ مَنْزِلًا وَبَوَّأَهُ إِيَّاهُ . هَبَّأَهُ لَهُ وَمَكَّنَ لَهُ فِيهِ .
[لسان العرب - مادة : بَوَّأَ] .

(٢) الْآلَاءُ : النِّعَمُ . مَفْرُوعًا : إِلَيَّ . أَوْ إِلَى بِكسر الهمزة ويفتحها . [القاموس القويم ٢٧/١] .

(٣) عَتَا عَتَا : أَفْسَدَ أَشَدَّ الْإِفْسَادِ . [لسان العرب - مادة : عَتَا] .

(٤) جَثَمَ : لَزِمَ مَكَانَهُ لَا صِفًا بِالْأَرْضِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [هود] .

ذلك أن الزلزلة تُحدث تموجاً في الهواء يؤدي إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمن يسمعها .

وهم حسب قول الحق سبحانه قد تمتعوا ثلاثة أيام قبل أن تأخذهم الصيحة كوعد نبيهم صالح - عليه السلام - لهم :

﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ (٦٥)

[هود]

ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أن أخذتهم الصيحة :

﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٤)

وهكذا لم تنفعهم الحصون في حمايتهم من قدر الله ، وتعلم أن قدر الله أو عقابه لا يمكن أن يمنعه مانع مهما كان ؛ فهو القائل :

﴿ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ (٧٨) .

[النساء]

وهكذا لا يمكن أن يحمي الإنسان نفسه مما قدره الله له ، أو مما يشاء الحق أن ينزله على الإنسان كعقاب .

وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١٥١)

[آل عمران]

وهكذا خروا جميعاً في قاع الهلاك ، ولم تحميهم حصونهم من العذاب الذي قدره سبحانه .

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وملاؤه . [القاموس القويم ١/ ٣٦٢] .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الآيات الكونية : فيقول :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ قَاصَّةٌ فَاصِّحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥)

والحق هو الشيء الثابت الذي لا تتغيره الاغيار ، والمثل هو نظام المجرات وحركة الشمس والقمر ؛ تجدها منضبطة ؛ ذلك أن الإنسان لا يتدخل فيها ، وليس للإنسان - صاحب الاغيار - معه أي اختيار .

ولذلك نجد أن الفساد لا ينشأ في الكون من النواميس العليا ، ولكن من الأمور التي يتدخل فيها الإنسان ، وليس معنى ذلك أن يتوقف الإنسان عن الحركة في الأرض ؛ ولكن عليه أن يرضى منهج الله . ويمتنع عما نهى عنه وأن يطيع ما أمره به .

وأنت لو طبقت أوامر الحق سبحانه في « افعل » و « لا تفعل » لاستقامت الدنيا في الأمور التي لك دخل فيها كانتظام الأمور التي ليس لك دخل فيها .

واقرا إن شئت قوله الحق :

﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ (٤) الْبَيَانَ (٥)﴾

(١) الربان : النطق . قاله الحسن . وقال الضحاك وقتادة وغيرهما . يعني الخير والشر ، قال ابن كثير في تفسيره (٢٧٠/١) : « قول الحسن ههنا احسن وأقوى ، لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن وهو أداء ثلاثه . وإما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفقتين على اختلاف مخرجها وأنواعها » .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا
وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ ﴿٨﴾ [الرحمن]

فإن كنتم تريدون أن تنتظم أموركم في الحياة الدنيا ؛ فلا تطغوا
في ميزان أي شيء .

وهنا يذكّرنا الحق سبحانه ألا نقع في خطأ الوهم بأننا سناخذ
نعم الدنيا دون ضابط أو رابط ؛ فالحساب قادم لا محالة ، ولذلك
قال الحق سبحانه :

﴿ فَإِنَّمَا أَزْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ۝ (١١) أَوْ لِرَبِّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۝ (١٢) ﴾ [الذخرف]

أي : ما قدره الله سيقع دون أن يصدّه شيء مهما كان ، وإما
ترى ذلك في حياتك ، أو تراه لحظة البعث .

والدليل هو ما حاق بمن كفرُوا وظلمُوا وكذبُوا الرسل ، وعاثوا
في الأرض مفسدين . وأهلكهم الحق سبحانه بعذابه تطهيراً للأرض
من قسادهم ، هذا جزاؤهم في الدنيا ، وهناك جزاء آخر في اليوم
الآخر .

وفي هذا القول تسلية لرسول الله ﷺ ، فهو حين يعلمه الله
ما حاق بالأمم السابقة التي كذبت الرسل ؛ هانت عليه المتاعب
والمشاق التي عاناها من قومه ، وليس سهل عليه من بعد ذلك أن
يتذرع^(١) بالصبر الجميل ، حتى يأتى وعده سبحانه ، وليس عليك
يا محمد أن تحمل نفسك ما لا تطيق .

(١) الذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشيء . وقد نذر فلان بذريعة أي : توسل ، [لسان
العرب - ملحة - ذرع] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦)

وقد جاء سبحانه هنا بالاسم الذى خلق به من عَدَم ، وأَمَدٌ من عَدَم . وقِيُومِيَةِ الربوبية هى التى تعدُّ كل الكون برزقه وترعاه ؛ فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الكون ، وهو الذى يرعاه .

وكلمة : ﴿رَبِّكَ (٨٦)﴾ [الحجر]

تُوحى بأنه إنْ أصابك شىءٌ بسبب دعوتك ، وبسبب كنود^(١) قومك أمامك وعدائهم لك ، فَرَبُّكَ يا محمد لن يتركهم .

والربُّ - كما نعلم - هو مَنْ يتولَّى تربية الشىء إلى ما يعطيه مناط الكمال ، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط ، ولكنه ينطبق على الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿الْخَلَّاقُ (٨٦)﴾ [الحجر]

مبالغة فى الخلق ، وهى امتداد صفة الخلق فى كل ما يمكن أن يُخلق ، لأنه سبحانه هو الذى أعدَّ كل مادة يكون منها أىُّ خلق ، وأعدَّ العقل الذى يُفكر فى أىُّ خلق ، وأعدَّ الطاقة التى تفعل ، وأعدَّ التفاعل بين الطاقة والمادة والعقل المُخَطَّط لذلك .

وما يفعله الإنسان المخلوق هو التوليف بين ما خلقه الله من

(١) الكنود : الجور . كنه النعمة : جحدما ولم يشكرها . قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [التعانيات] أى : كنور شديد الجور . [القاموس التبريم ١٧٥/٢] .

مواد . وإنْ وُجِدَ خَلَّاقٌ مِنَ الْبَشَرِ ؛ فَهُوَ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَهْبِ
إِنْسَانًا مَا أَفْكَارًا لِيَنْقِذَهَا ، ثُمَّ يَأْتِي مَنْ هُوَ أَذْكَى مِنْهُ لِيُطَوِّرَهَا .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

[يوسف]

وهكذا رأينا كل المخترعات البشرية تتطور ؛ والمثل على ذلك هو
آلة الحياكة التي صارت تعمل الآن آلياً بعد أن كانت المرأة تجلس
عليها لتكُدَّ في ضيّطها ، وكذلك غسالة الملابس ، وغسالة الأطباق
والسيارات والطائرات .

ونلاحظ أن كل ما خلقه الله يمكن أن يُستفاد من عادته مثل روث
البهائم ؛ الذي يُستخدم كسماد ، أما عادم السيارات مثلاً فهو يُلَوِّثُ
الجو . وشاشة التلفزيون تُصَدِّرُ من الإشعاعات ما يضر العين ، وتمَّ
بحثٌ ذلك لتتلافى الآثار الجانبية في مثل تلك الأدوات التي يسهل
الإنسان بها حياته .

أما ما يخلقه الله فلا توجد له آثار جانبية ؛ فسبحانه ليس صاحب
عِلْمٍ مُكْتَسَبٍ أو ممنوح ؛ بل العلم صفة ذاتية فيه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي^(١) وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

(١) المثنائي من القرآن ؛ ما نُكِّى مرة بعد مرة . قال أبو عبيد : سُمِّيَ القرآن مثنائي لأن الأنبياء
والنصص ثنيت فيه ، ويسمى جميع القرآن مثنائي أيضاً لافتقار آية الرحمة بآية العذاب .
[لسان العرب - مادة : ثنى] .

سُورَةُ الْحَجَرِ



وهنا يمتنُّ الحق سبحانه على رسوله ﷺ بأنه يكفيهِ أَنْ أنزلَ عليه القرآن الكتاب المعجزة ، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فالقرآن يضمُّ كمالات الحق التي لا تنتهي ؛ فإذا كان سبحانه قد أعطاك ذلك ، فهو أيضاً يتحمَّلُ عنك كُلُّ ما يُؤلمك .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧)

[الحجر]

ويقول له الحق أيضاً :

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ (٢٢)

[الأنعام]

وإذاح الحق سبحانه عنه هموم اتهامهم له بأنه ساحر أو مجنون ؛ وقال له سبحانه :

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٢٣)

[الأنعام]

ويكشف له سبحانه : إنهم يؤمنون أنك يا محمد صادق ، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبك .

ويتمنَّى امتنانُ الحق سبحانه على رسوله أنه أنزلَ عليه السَّبْعَ المثاني ، واتفق العلماء على أن كلمة « المثاني » تعني فاتحة الكتاب ، فلا يُثنى في الصلاة إلا فاتحة الكتاب .

(١) أي بما تسمعه من تكذيب ربه فذلك . وقوله ويناله أصحابك من أعدائك . [تفسير القرطبي ٣/٢٧٨٦] .

ونجده سبحانه يَصِفُ الْقُرْآنَ بِالْعَظِيمِ ؛ وهو سبحانه يحكم بعظمة القرآن على ضَوْءِ مَقَائِيْسِهِ الْمُطْلَقَةِ ؛ وهي مَقَائِيْسُ الْعِظَمَةِ عِنْدَهُ سبحانه .

والمثل الآخر على ذلك وَصَفَهُ سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القم]

وهذا حُكْمٌ بِالمقاييس العُلْيَا للعظمة ، وهكذا يصبح كُلُّ مَتَاعِ الدُّنْيَا أَقْلُ مِمَّا وَهَبَهُ الْحَقُّ سبحانه لرسوله ﷺ ، فَلَا يَنْظُرُنَّ أَحَدٌ إِلَى مَا أُعْطِيَ غَيْرُهُ ؛ فَقَدْ وَهَبَهُ سبحانه لرسوله ﷺ .

ونلاحظ أَنَّ الْحَقَّ سبحانه قَدْ عَطَفَ الْقُرْآنَ عَلَى السَّبْعِ الْمَثَانِي ، وهو عَطَفَ عَامٍ عَلَى خَاصٍّ ؛ كَمَا قَالَ الْحَقُّ سبحانه :

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى^(١) . (٢٣٨)﴾ [البقرة]

ونفهم من هذا الْقَوْلِ أَنَّ الصَّلَاةَ تُضَمُّ الصَّلَاةُ الْوُسْطَى أَيْضًا ، وكذلك مثل قول الْحَقِّ مَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ :

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . (٧٨)﴾ [توح]

(١) اختلف العلماء في تحديد الصلاة الوسطى على ثلاثة أقوال
القول الأول : الصبح ، حكاه مالك في الموطأ بإلفاً عن علي وابن عباس .
القول الثاني : الظهر ، قاله زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة .
القول الثالث : العصر ، قال الترمذي والبخاري . هو قول أكثر علماء الصحابة . [انظر تفسير ابن كثير ٢٩٠/١ - ٢٩٢] قال الشيخ سيد سابق في فقه السنة (١/٧٧) . « قد جاءت الأحاديث الصحيحة مصرحة بأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى » . وقيل . إن كل صلاة من الصلوات الخمس تعتبر وسطى ، وذلك لِدَوَامِ الْحِفَاظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ الخمس ، وفي الكل خير .

سُورَةُ الْفَجْرِ

○ ٧٧٦٣ ○

وهكذا نرى عَطَفَ عام على خاص ، وعَطَفَ خاص على عام .

أو : أنْ نقولَ : إن كلمة « قرآن » تُطلق على الكتاب الكريم المنزَّل على رسول الله ﷺ من أول آية في القرآن إلى آخر آية فيه .
ويطلق أيضاً على الآية الواحدة من القرآن : فقول الحق سبحانه :

﴿ مَدَّاهُمَا ۚ ۝ (٦٤) ﴾ [الرحمن]

هي آية من القرآن : وتُسمى أيضاً قرآناً .

ونجده سبحانه يقول :

﴿ إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۚ ۝ (٧٨) ﴾ [الإسراء]

ونحن في الفجر لا نقرأ كل القرآن ، بل بعضاً منه ، ولكن ما نقرؤه يُسمى قرآناً ، وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مًسْتُورًا ۝ (١٤) ﴾ [الإسراء]

وهو لا يقرأ كلَّ القرآن بل بعضه ، إذن : فكلُّ آية من القرآن قرآن .

(١) مَدَّاهُمَا : سوداوان من شدة الخضرة وكثرة الخلال . وهذا كناية عن النعيم السام .
والدُّعْمَةُ : السواد . [القاموس القويم ٢٢٥/١] .

(٢) اخرج احمد في مسنده (١٧٤/٢) من حديث ابي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَرَقْرَقَ الْفَجْرِ إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۚ ۝ (٧٨) ﴾ [الإسراء] قال : « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار » .

(٣) الحجاب المستور : طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة .
وقيل : نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم ابو جهل وابو سفيان والنخعي بن الحارث وأم جميل امرأة ابي لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن ابصارهم عند قراءة القرآن . [تفسير القرطبي ٢٩٩٨/٥] .

وقد أعطى الحق سبحانه رسوله ﷺ السُّبُحِ المثنى والقرآن العظيم ، وتلك هي قِمة العطايا ؛ فلكه عطاءات متعددة ؛ عطاءات تشمل الكافر والمؤمن ، وتشمل الطائع والعاصي ، وعطاءات خاصة بمن آمن به ؛ وتلك عطاءات الألوهية لمن سمع كلام ربه في « افعل » و « لا تفعل » .

وسبحانه يمتد عطاؤه من الخلق إلى شربة الماء ، إلى وجبة الطعام ، وإلى الملايس ، وإلى المسكن ، وكل عطاء له عُمْر ، ويسمو العطاء عند الإنسان بِسُمو عمر العطاء ، فكل عطاء يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السعيد .

فإذا كان عطاء الربوبية يتعلّق بمُعْطَيَاتِ المادّة وقوام الحياة ؛ فإن عطاءات القرآن تشمل الدنيا والآخرة ؛ وإذا كان ما يُنْقُصُ أيُّ عطاء في الدنيا أن الإنسان يُفَارِقُهُ بالموت ، أو أن يذوي هذا العطاء في ذاته ؛ فعطاء القرآن لا ينتفد في الدنيا والآخرة .

ونعلم أن الآخرة لا نهاية لها على عكس الدنيا التي لا يطول عمرها فيها بعمرها ، بل بالأجل المُحدّد لك فيها .

وإذا كانت عطاءات القرآن تحرم القيم التي تهبّد عطاءات الحياة التي لا تفنى وهي الحياة الآخرة ؛ فهذا هو أسمى عطاء ، وإياك أن تتطلّع إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نعم الدنيا الفانية ؛ لأن مَنْ أُعْطِيَ القرآن وظنَّ أن غيره قد أُعْطِيَ خيراً منه ؛ فقد حقر ما عَظُم الله .

وما دام الحق سبحانه قد أعطاك هذا العطاء العظيم ، فيترتب عليه قوله :

لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

وَالْمَدُّ : هُوَ مَطُّ الشَّيْءِ وَزِيَادَتُهُ . وَاللَّعِينُ مَسَاقَاتُ تُرَى فِيهَا
الْمَرَاتِي ؛ كُلُّ عَيْنٍ حَسَبَ قُدْرَتِهَا ، فَهَنَاكَ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِبَصَرٍ قَوِيٍّ
وَحَادٍ ، وَهَنَاكَ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ .

وَيَتَرَاوَحُ النَّاسُ فِي قُدْرَةِ إِبْصَارِهِمْ خَسْبَ تَوْصِيفٍ وَضَعَهُ
الْأَطْبَاءُ ؛ لِيَعْمَلُوا ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ اسْتَطَاعَتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ . وَفِي الْمَثَلِ
الْيَوْمِيِّ نَسْمَعُ مَنْ يَقُولُ « فَلَانُ عِنْدَهُ بَعْدَ نَظَرٍ » أَيْ : يَمْلِكُ قُدْرَةً عَلَى
أَنْ يَفْهَمَ رُؤُودَ الْأَفْعَالِ ، وَيَتَوَقَّعُ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى
نَتَائِجِ أَيْ فَعْلٍ .

وَالْمَرَادُ بِمَدِّ الْعَيْنِ لَيْسَ إِخْرَاجُ حَبَّةِ الْعَيْنِ وَمَدُّهَا ؛ وَلَكِنْ الْمَرَادُ
إِدَامَةُ النَّظَرِ وَالْإِمْعَانِ ، وَلَكِنْ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَبَّرَ فِي الْقُرْآنِ هَذَا
التَّعْبِيرَ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ سَيُخْرِجُ حَبَّةَ عَيْنِهِ لِيَجْرِيَ بِهَا ، وَلِيُفْهَمَ
النَّظَرَ ، وَهَذَا مَا يَفْهَمُ مِنْ مَنْطُوقِ الْآيَةِ ، وَالْمَنْطُوقُ يُشِيرُ إِلَى الْمَفْهُومِ
الْمَرَادِ ، وَهَذَا عَيْنُ الْإِعْجَازِ .

وَكَلِمَةُ « مَتَاعٌ » تُفِيدُ أَنْ شَيْئًا يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيَنْتَهَى ، وَلِذَلِكَ يُوصَفُ
مَتَاعُ الدُّنْيَا فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ مَتَاعٌ الْغُرُورِ ، أَيْ : أَنَّهُ مَتَاعٌ مُوقُوتٌ
بِلَحْظَةٍ .

(١) خَفِضْهُ . فَبَطَّ بِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر] كَنَايَةً عَنِ
الرَّحْمَةِ وَالتَّوَضُّعِ لَهُمْ وَلِئِنْ الْجَانِبَ مَعَهُمْ [القاموس المفهرس ١/ ١٩٩] .

وقول الحق سبحانه :

﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ.. (٨٨)﴾

[الحجر]

هي جَمْعُ زَوْج ، وسبق أن أوضحنا أن كلمة « زوج » هي مفرد ، والذكر والأنثى حين يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا.. (٣٦)﴾

[يس]

والازواج كلها تعني الفرد ، ومع الفرد من كل صنف من الأصناف . والمراد بكلمة أزواج هنا أن المخالفين لرسول الله ﷺ كانوا شِللاً شِللاً ! ضال ومضل ! وضال آخر معه مُضِل .

ولحظة الحساب سيقول كل منهم :

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ^(١) (٥١)﴾

[الصافات]

وهكذا كانت كلمة « أزواج » تدل على أصناف متعددة من الذين يقفون معاندين لرسول الله ﷺ ومُنْكَرِينَ لِمَنْهَجِهِ .

وفي موقع آخر من القرآن يكشف سبحانه عَمَّنْ أَغْوَتْهُم الشياطين ، ويحشرهم الحق سبحانه مع الشياطين في نار جهنم :

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ^(٢) مِنْ

الْإِنْسِ.. (١٢٨)﴾

[الأنعام]

(١) قارئ الشبهة الشبهة : اقترب به وصاحبه . والقريين : المصاحب . والثقرين يكون في الخير والشر . [لسان العرب - مادة : قرون] .

(٢) استكثرتهم : أغويتهم كثيرين منهم وسيطرت عليهم ، [القاموس القويم ١٥٥/٢] .

أى : يا معشر الجنِّ قد استطعتم أن تُوحوا لكثير من الإنس بالغواية والمعصية ، ليكونوا أولياءكم ، وهكذا نجد أن كل جماعة تتفق على شيء تُسميهم أزواجاً .

وهنا يوضح الحق سبحانه : إياك أن تُمدَّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم ، لأننا أعطيناك أعلى عطاء ، وهو معجزة القرآن حارس القيم ، والذي يضمُّ النهج القويم .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ۖ ۝٨٨﴾ [الحجر]

ويقال : حَزَنْتَ منه ، وَحَزَنْتَ عليه ، وَحَزَنْتَ له : فَمَنْ نَالَ ما يُحْزَن ، ولم يَصْدُرْ عنك هذا السبب في حزنه : فأنت تقول له « حَزَنْتَ لك » .

وآخر ارتكب فعلاً يُسِيء إلى نفسه : فأنت تحزن عليه . ورسول الله ﷺ حَزَنَ عليهم : فقد كان يُحِبُّ أن يؤمنوا ، وأن يتمتعوا بالنعمة التي يتمتع هو بها .

ولذلك تجد الحق سبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ۖ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة]

فَمِنْ رَأْفَتِهِ ﷺ صَعِبَ على نفسه أن ينال قومه مشقةً ؛ فالرحمة

(١) العنت : دخول المشقة على الإنسان ولفاء الشدة . قال ابن الأثير : العنت : المشقة والفساد والهلاك والإثم والغلط والخطأ . [لسان العرب - مادة : عنت] .

والرافة مصدرها ما وهبه الله إياه من فهم لقيمة نعمة الإيمان .

وفى آية أخرى يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ لَكَ بِأَخِي^(١) نَفْسٌ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا^(٢) ﴾

[الكهف]

أى : أنه لن ينقص منك شيء فى حالة عدم إيمانهم ، ولن يزيدك إيمانهم أجراً : ذلك أن عليك البلاغ فقط : فلماذا تحزن على عدم إيمانهم ؟

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ..^(٣) ﴾

[الحجر]

دليل على أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على أن يؤمن قومه ، محبة فيهم ، وليتعرفوا على حلاوة الإيمان بالله . وكان ﷺ يتألم ، ويحزن فى نفسه عدم إيمانهم ، لدرجة أن الحق سبحانه قال له فى آية أخرى :

﴿ لَمَّا كَانَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ^(٤) إِنْ تَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً^(٥) فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ^(٦) ﴾

[الشعراء]

وهنا يوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن إيمانهم ليس أمراً

(١) باع نفسه : قتلها غيباً أو علناً . باع : أى هلك نفسك بمنزلة عليهم . أى : لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اعتدى فلنقمه . ومن عمل لئانما يضل عليها . [تفسير ابن كثير ٧٢/٢] .

(٢) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . [القاموس القويم ٤٧/١] .

صعباً عليه سبحانه ؛ ذلك أنه قادر أن ينزل آية من السماء تجعلهم خاضعين ؛ مؤمنين ؛ لكنه سبحانه يحب أن يأتيه خلقه محبة ، وأن يُحسنوا استخدام ما وهبهم من خاصية الاختيار .

فسبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به ؛ فالإيمان عمل قلوب ، وسبحانه لا يريد قوالب ، وإنما يريد قلوباً خاشعة ، ولو شاء سبحانه من خلقه أن يأتوه طواعية ؛ فالقهر من القاهر يُثبت له القدرة ، ولكن أن يأتى الخلق إلى خالقهم طواعية ؛ فهذا يُثبت له المحبوبة .

والحق سبحانه يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

ثم يُوجِّه له الأمر بأن يُوجِّه طاقة الحنان والمودة التى فى قلبه إلى مَنْ يستحقها ، وهم المؤمنون برسالته ﷺ ؛ وعليه أن يخفض جناحه للمؤمنين .

فكلُّ حركة من الإنسان هى نزوع يتحرك من بعد وُجْدَان ، والوُجْدَان يُولد طاقة داخلية تُهيئ للنزوع وتدفع إليه ، فإن حزن الرسول ﷺ لعدم إيمان صناديد قريش برسالته ؛ فهذا الحزن إنما يخضم ويأخذ من طاقته ؛ فبياتيه الأمر من الحق سبحانه أن يوفر طاقته ، وأن يُوجِّهها لمن آمن به ؛ وأن يخفض جناحه لهم .

وخفض الجناح هو التواضع ؛ ذلك أن الجناح هو الجانب ، فحين

يَأْتِيكَ إِنْسَانٌ تَرِيدُ أَنْ تَتَكَبَّرَ عَلَيْهِ ؛ فَهُوَ يَقُولُ « فَلَانُ لَوَى عَنِّي جَانِبُهُ » .

وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين ؛ وأن يتوجه إليهم لا باستقامة قلبه ، بل أن ينزل هذا القلب قليلاً .

وكلمة : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ ۖ ۞ (٨٨) ﴾ [المجر]

ماخوذة من خَفَضَ جَنَاحَ الطائر ، قالطائر يرفع جناحه عند الطيران ، ولكن ما أنْ يلمسَ هذا الطائر فَرْخَهُ الصغير حتى يَخْفِضَ جناحه له ليضمه إليه .

إذن : فالطاقة التي كُنْتَ تُوجِّهُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ؛ عَلَيْكَ أَنْ تُوجِّهَهَا لِمَنْ يَسْتَحِقُّهَا ، فَيُكَفِّكَ أَنْ تُبَلِّغَ النَّاسَ جَمِيعاً بِرِسَالَتِكَ ؛ وَمَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ هُوَ مَنْ يَسْتَحِقُّ طَاقَةَ حَنَانِكَ وَرَحْمَتِكَ .

وخفض الجناح لِمَنْ آمَنَ برسالتك لا يورثه كِبَرًا عَلَيْكَ ؛ بل يزيده أدبًا مَعَكَ .

وقد جاء في الأثر : « إِذَا عَزَّ أَحَدُكَ فَهَنَّهُ » أي : أنك إذا رَأَيْتَ أَحَدًا فِي وَضْعٍ يَعِزُّ عَلَيْكَ ، فَهَنْ لَهُ أَنْتَ .

ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربي^(١) :

(١) هو : النعمان الزماني ، واسمه سهل بن شيبان . شاعر جليل ، من أهل اليمامة . سعى الفتح لعظم خلقته ، تشبيهاً بفتح السجبل ، وهو القامة منه . توفي نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلي ١٧٩/٢] .

صَفَحْنَا عَنْ يَمِينِ ذُفُلٍ	وَقُلْنَا الْقَوْمُ إِخْوَانُ
عَسَى الْآيَامُ أَنْ يَرْجِعَ	مَنْ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فَلَمَّا صَرَخَ الشُّرُ	فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ
مَشِينًا مَشِيَّةَ اللَّيْلِ	غَدَا وَاللَّيْلُ غَضَبَانُ
بَضْرَبَ فِيهِ قَوْمِينَ	وَتَخْضِيعٌ ^(١) وَإِقْرَانُ
وَمَعْنٍ كَفَمِ الذَّقِّ	غَدَا وَالزَّقُّ ^(٢) مَلَأْنُ
وَفِي الْبَشْرِ نَجَاةٌ حَيَّةٌ	مَنْ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ
وَبَعْضُ الْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهِّ	لِ الْذِّلَّةِ إِذْعَانُ ^(٣)

ونجد القرآن حينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهج ؛ لا يطبعه بطابع واحد يتعامل به مع كل الناس ، بل يجعل طَبْعَهُ الْخُلُقِيَّ مطابقاً لموقف الناس منه ، فيقول :

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ (٥٤) ﴾ [المائدة]

ويقول أيضاً على وصف المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۝ (٢٩) ﴾ [الفتح]

وهكذا لم يطبع المؤمن على الشدة والعزّة ، بل جعله يتفاعل مع المواقف ؛ فالموقف الذى يحتاج إلى الشدة فهو يشتد فيه ؛

(١) التخضيع : تقطيع اللحم . والإقران : قوة الرجل على الرجل .
 (٢) الزق - السقاء ، وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وتزقيقه سلسفه من قبل راسه .
 [لسان العرب - مادة : زقق] ، والمسلخ : المكشط .
 (٣) أورد الآبيات أبو على القائل في أماليه (٣٠٩/١ ، ٣١٠) .

والموقف الذي يحتاج إلى لين فهو يلين فيه^(١)

والحكمة الشاعرة تقول :

وَوَضَعَ النُّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَى مَضْرُ

كَوَضَعَ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النُّدَى

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (٨٩)

ونعلم أن الرسل مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ؛ ولسائل أن يقول : ولماذا تأتي صيغة الإنذار دائماً ؟ وأقول : إن مَنْ يُؤْمِنُ هُوَ مَنْ يَتَقَى البشارة ؛ أما مَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَقَّعَ النَّذَارَةَ فهو الكافر المُنْكَرِ .

وفي الإنذار تخويفٌ بشيء ينالُ منك في المستقبل ؛ وعليك أن تُعَدَّ العُدَّةَ لِتَبْتَعدَ بِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ فِيهِ ، والتبشير يكون بأمر تتمناه النَّفْسُ . وبالإذار والتبشير يتضح الموقف بجلاء ، ويحاط الإنسان بكل قضايا الحياة ؛ ويتضح مسار كل أمر من الأمور .

بذلك يكون الحق سبحانه في الآيتين السابقتين قد امتنَّ على رسوله ﷺ بأنه قد أتاه السبع المثاني والقرآن العظيم ؛ ولذلك يوصيه ألا تطمح نفسه إلى ما أوتى بعض من الكفار من جاه ومال ، فالقرآن عز الدنيا والآخرة .

ويوصيه كذلك ألا يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته ، فليس عليه إلا البلاغ ، وأن يتواضع ﷺ للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به ،

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٧٠/٢) . هذه صفات المؤمنين الكامل ان يكون احدهم متواضعا لاخيه وولييه ، متعززا على خصمه وعدوه . .

فهم خير من كل الكافرين برسالته ﷺ .

ثم يُوصيه الحق سبحانه أن يُبلغ الجميع أنه نذير وبشير ،
يوضح ما جاء في القرآن من خير يُعمّ على المؤمنين ، وعقاب ينزل
على الكافرين .

وقد قال ﷺ : « إنما مثلي ومثلي ما يعثنى الله به كمثل رجل أتى
قوماً فقال : يا قوم ، إني رأيت الجيشَ بعيني ، وإني أنا النذير
العريان^(١) ، فالنجا النجا ، فاطاعه طائفة من قومه فادّلبوا^(٢)
فانطلقوا على مهلهم فَنَجَوْا ، وكذبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم
فصَبَّحهم الجيش ، فأملكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتَّبَعَ
ما جِئْتُ به ، ومثل من عصاني وكذَّب بما جِئْتُ به من الحق^(٣) »

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝١٠ ﴾

ونعلم أنه سبحانه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ ، واستقبله
الناس استقباليين : فمتهم من استمع إلى القرآن فتبصّر قول الحق
وآمن . وفي هؤلاء قال الحق سبحانه :

(١) خص العريان لأنه أبين للعين والغرب وأشنع عند التبصر ، وذلك أن ربيعة القوم وعينهم
يكون على مكان عال . فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينتثر قومه ويبتلى
عريانا ، [لسان العرب - مادة : عرا] .

(٢) ادلبوا : ساروا من آخر الليل - والدُّلجة : سير الليل . [لسان العرب - مادة : دلج] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٨٢ ، ٧٢٨٢) ، ومسلم في صحيحه (٢٢٨٣) من

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨٣) [المائدة]

والصنف الآخر استمع إلى القرآن ، فكانت قلوبهم كالحجارة ، وفيهم قال الحق سبحانه :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا﴾^(١) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ [محمد]

ذلك أن قلوبهم مُمتلئة بالكفر ؛ وقد دخلوا ومعهم حكم مُسبق ، فلم يقيموا ميزان العدل ليقيسوا به فائدة ما يسمعون .

ولذلك أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألا يحزن ، فالمسألة لها سوابق مع غيرك من الرسل ؛ فقد نزل كل رسول بكتاب يحمل المنهج ، ولكن الناس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لما نزل إليك بين كافر ومؤمن ، واختلفوا في أمور الكتب المنزلة إلى رسلهم . وكان انقسامهم كأنقسام قومك حول الكتاب المنزل إليك ، فلا تحزن إن اتهموك بأنك ساحر ، أو أن ما نزل إليك كتابٌ شعر ؛ أو أنك تمارس الكهانة ؛ أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتهموك بالجنون .

وهكذا قَسَّموا القرآن المنزل من الله سبحانه إلى أقسام هي : السُّحَر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، كما فعل من قبلهم أقوام أخرى :

(١) أي : سابقاً في الوقت القديم . [القاموس القويم ٢٨/١] .

فمنهم^(١) مَنْ قَالَ ، وَاثْبِتْهُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ :

﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) [الشعراء]

وهكذا تعلم يا رسول الله أنك لست بدُّعياً من الرسل^(٢) ، ذلك أن الرسل لا يأتون أقوامهم إلا وقد طُمّ الفساد والبلاء ، ولا يوجد فساد إلا بانتفاع واحد بالفساد بينما يضرُّ بالآخرين .

وإذا ما جاء رسول ليصلح هذا الفساد يهبُّ أهل الاستفادة من الفساد ليقاوموه ويضعوا أمامه العراقيل ؛ مثلما حدث معك يا رسول الله حين قال بعضهم :

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾ (٢٨) [فصلت]

ومثل هذا القول إنما يدلُّ على أنهم لو صفُّوا نفوسهم ، واستمعوا للقرآن لاهتدوا ؛ لذلك يقول لهم ساداتهم :

﴿وَالْغَوَا^(٣) فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَقْبَلُونَ﴾ (٢٩) [فصلت]

أى : شَوْشُوا^(٤) عليه .

(١) هم قوم فرعون ، والفول لفرعون عندما واجهه موسى عليه السلام بأنه ليس إلهاً ولا رباً ، وذلك لى محاورته ذكرهما القرآن في قوله ، ﴿فَقَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٤) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٥) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) [الشعراء] .

(٢) قال تعالى لرسوله ﷺ ، ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أُذِرُ مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكُمُ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٥٥) [الاحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنما مثل الرسل السابقين ، [القاموس القويم ٥٧/١] .

(٣) اللقر : النقط . أى : شَوْشُوا على قارئه بالغوا من القول ، لو : اطمئثوا فيه واختلقوا له العيوب لتصرفوا الناس عنه ، [القاموس القويم ١٩٦/٢] .

(٤) التمشوِش التخليط . وقد تشوش عليه الأمر . قاله الجوهري في مادة شيش . وقال أبو منصور : لا أصل له في العربية ، وإنه من كلام المواليدين ، وأصله التمشوِش وهو التخليط [لسان العرب - مادة : شوش] .

وهكذا فالإقتسام الذي استقبل به الكفار القرآن سبق وأن حدث مع الرسل الذين سبقوك^(١) .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾

وكلمة (عِضِينَ) تعنى القطع ؛ فيقال للجزار حين يذبح الشاة أو العجل أنه قد جعله عِضِينَ . أى : فصل كلُّ ذراع عن الآخر ، وكذلك قطع الفخذ ؛ أى : أنه جعل الذبيحة قطعاً قطعاً بعد أن كانت أعضاء متصلة .

وكذلك كان القرآن حينما نزل كيئاً واحداً ؛ فأراد بعض من الكفار أن يقطعوه إلى أجزاء . والمقصود هنا هم جماعة من اليهود

(١) اختلف في المقتسمين على سبعة أقوال :

الأول : هم ستة عشر رجلاً يعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم . فافتسموا الطرق المؤدية إلى مكة بقراون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الخارج لنا يدعى النبوة . فإنه مجنون . قاله مقاتل والفراء .

الثاني : قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله . فعملوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . قاله قتادة .

الثالث : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . قاله ابن عباس .

الرابع : أهل الكتاب - أيضاً - سموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . قاله عكرمة .

الخامس : أهل الكتاب - أيضاً - سموا كتابهم لغزوه ويدونه وحرفوه . قاله قتادة .

السادس : العراء يوم ضالاح ، تقاسعوا على قتله فسموا مقتسمين . قاله زيد بن أسلم .

السابع : هم قوم اقتسموا آيائنا تعالفاً عليه . قاله الأخطش .

[ذكر هذه الأقوال القرطبي في التفسير ٢٧٨٢/٥] .

سُورَةُ الْحَجَرِ



وجماعة من التصاري الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأرادوا أَنْ يَقْطَعُوا الْقُرْآنَ كما فعلوا مع الكتابين اللذين نزلًا على موسى ، وهما التوراة ؛ والإنجيل الذي جاء به عيسى .

وقد قال الحق سبحانه فيهما :

﴿ وَتَسْرَأُ حَقًّا^(١) مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. (١٢) ﴾ [المائدة]

أى : أن بعضاً من اليهود قد نَسُوا بعضاً من التوراة ، وكذلك نسى البعض من أتباع عيسى بعضاً من الإنجيل الذى نزل عليه .

وإن وجدنا لهم العذر فى النسيان ؛ فماذا عن الذى كتموه من تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى بذلوه وحرفوه من كلمات تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى أضافوه عليه ، ولم ينزل من عند الله ؟ وقد فضح سبحانه كل ذلك فى القرآن^(٢) .

أو : أن اليهود استقبلوا القرآن استقبالَ مَنْ يُصَدِّقُ بعضه مِمَّا

(١) الحظ : النصيب . والمقدار المخصص من الخير . [القاموس القديم ١/ ١٦١] .

(٢) تعامل أهل الكتاب مع القرآن بطرق مختلفة :

- ١ - الكتمان : يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٥) ﴾ [البقرة] .
- ٢ - التبديل والتحريف . يقول تعالى : ﴿ فَمُبَدِّلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَمْوَالًا غَيْرَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ - (٤٤) ﴾ [البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ لِيُكَفَرُوا (٧٢) ﴾ [البقرة] .
- ٣ - لى اللسان : يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ فَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ (٧٥) ﴾ [آل عمران] .
- ٤ - الإضافة : يقول تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَنُفِثُوا بِهِ لَعْنًا قَلِيلًا قَوْلًا لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] .

لا يتعبهم ، وكذبوه فى البعض الذى يتعيهم ، فقد كذبوا مثلاً أن كتابهم قد بشرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن عَصِين ، أى : قطعاً مفصولة عن بعضها البعض . وقد حاولوا ذلك بعد أن تبين لهم أن القرآن مؤثر وقاعل .

وشاء الحق سبحانه للقرآن أن يحمل النذارة والبشارة : فالرسول نذير بالقرآن المبين الواضح لِمَنْ اقتسموا الأمر بالنسبة لمحمد - عليه الصلاة والسلام - فقسّم منهم تفرّغ للاستهزاء بمحمد ومَنْ آمنوا معه : وجماعة أخرى قسّمت أعضائها ليجلسوا على أبواب مكة أثناء موسم الحج ، ويستقبلون القادمين للحج من البلاد المختلفة ليحذروهم من الاستماع لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ومن هؤلاء مَنْ وصف الرسول ﷺ بالجنون : ومنهم مَنْ وصف القرآن بأنه شعر ! ومنهم مَنْ وصف الرسول بأنه ساحر .

ثم يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢)

وهنا يُقسّم الحق سبحانه بصفة الربوبية التى تعهدتُ رسوله بالتربية والرعاية ليكون أهلاً للرسالة أنه لن يُسلمه لأحد ، وهو سبحانه مَنْ قال :

﴿وَلَتَمَّتْ عَلَى عَيْشِي﴾ (٢٩)

[طه]

أى : أن كل رسول هو مصنوع ومَحْمَى بإرادته سبحانه : وتلك

عناية الحماية للمنهجية الخاصة ، وعناية المصطفين الذين يحملون رسالته إلى الخلق ؛ فقد رزق سبحانه خلقه جميعاً ؛ والرسول إنما يأتون لمهمة تبليغ المنهج الذي يُدير حركة الحياة ؛ لذلك لا بد أن يُوفّر لهم الحق سبحانه عناية من نوع خاص .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ فَرَرْتُكَ لَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩٢)

[الحجر]

يُبين لنا أنه سيسألهم سبحانه عن أدق التفاصيل ؛ ومجرد توجيه السؤال إليهم فيه لَوْن من العذاب .

ويحاول البعض ممن يريدون أن يعثروا على تعارض في القرآن أن يقولوا : كيف يقول الله مرة :

﴿ قَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٣٩)

[الرحمن]

ويقول في أكثر من موقع بالقرآن أنه سيسأل هؤلاء المكذبين ؛ فكيف يُثبت السؤال مرة ، وينفيه مرة أخرى ؟

ونقول لهؤلاء : أنتم تستقبلون القرآن بسطحية شديدة ، فهذا الذي تقولون إنه تعارض إنما هو مجرد ظاهر من الأمر ، وليس تعارضاً في حقيقة الأمر .

ونحن نعلم أن السؤال - أي سؤال - له مُهمتان ، المهمة الأولى : أن تعلم ما تجهل . والمهمة الثانية : لتقرأ بما تعلم .

والحق سبحانه حين ينفي سؤالاً فهو ينفي أن أحداً سيُخبره بما لا يعلم سبحانه ؛ وحين يثبت السؤال ؛ فهذا يعني أنه سيسألهم سؤال الإقرار .

وهكذا نعلم أن القرآن إذا أثبت حدثاً مرة ونقاه مرة أخرى ،
لنعلم أن الجهة مُنفكة ، أى : أن جهة النقي غير جهة الإثبات ، وكلُّ
منهما لها معنى مختلف .

وقوله هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩٢)

[الحجر]

يعنى أن الضال والمضل ، والتابع والمتبوع سيُسألون عما
عملوا . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣)

والعمل كما نعلم هو اتجاه جارية إلى مُتعلقها : فجارحة العين
مُتعلقها أن ترى : وجارحة اللسان مُتعلقها أن تتكلم ، وجارحة اليد
إما أن تُربّت ، وإما أن تبطش .

وهكذا فكلُّ ما تصنعه ملكات الإدراك فى النفس البشرية تُسمّيه
عمالاً . وسبق أن علمنا أن العمل ينقسم إلى قول وفعل .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

[البقرة]

أى : تذكّروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ، وأن كل ما
تعملونه يعلمه ، وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤)

(١) صدع بالأمر جهر به فى قوة كانه يشق جدار الصمت والسكون . والصدع : انشق فى

الشيء الصلب لو فى غيره كالارض مثلاً . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

أى : افرغ لمهنتك : فالصدع تصنع شقاً فى متماسك ، كما نشق زجاجاً بالمشرط الخاص بذلك ، أو ونحن نصنع شقاً فى حائط .
والرسول ﷺ قد جاء لينشق الكفر ويهدم الفساد القوى المتماسك الذى يقوى بقوة صناديد قريش .

وقد شاع ذلك المصطلح « الصدع » فى الزجاج : لأن أى شق فى أى شىء من الممكن أن يلتئم إلا فى الزجاج : لأنه يصعب أن يجمع الإنسان الفتاقات والقطع الصغيرة التى تنتج من صدعه ، وقد جاء الإيمان ليصدع بتيان الكفر والفساد المتماسك .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٤)﴾ [الحجر]

أى : أعطهم عرض كتفيك ، ولا تسأل عنهم ؛ فهم لن يسلموا لك ، ذلك أنهم مستفيدون من الفساد الذى جئت أنت لتهدمه ، ولكنهم سيأتون لك تباعاً بعد أن تثبت دعوتك ، وتصل قلوبهم إلى تيقن أن ما جئت به هو الحق .

والمثل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ فقد قال : « لقد استقر الأمر لمحمد ، ولم تعد معارضتنا له تفيده أحداً »^(١) ، وبخلاً للإسلام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

(١) أورد الكاندهلوى معنى هذا فى كتابه « حياة الصحابة » (١٤٠/١) فى قصة إسلام خالد بن الوليد أنه قال : « إنما نحن كأضراس وقد ظهر محمد على العرب والمعجم ، فنزل قدماً على محمد واتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف » .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

فبعد أن قال له :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤)

[الحجر]

وبعد أن ثبت لكل مَنْ عاش تلك الفترة أن كل مُسْتَهْزِئٍ بمحمد ﷺ قد ناله عقاب من السماء ، فها هو ذا الوليد بن المغيرة الذي يتبختر في ثيابه ؛ فيسير على قطعة من الحديد ، فيأْتفُ أن يتحنى ليُخلص ثوبه الذي اشتبك بقطعة الحديد ؛ فتُجرح قدمه وتُصاب بالغرغرينا ويقطعونها له ، ثم تنتشر الغرغرينا في كُلِّ جسده إلى أن يموت .

وها هو الثاني الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض في عينيه ؛ ويُصاب بالعمى ، وكذلك الحارث بن الطلائة ، والعاص بن وائل^(١) .

وكل مُسْتَهْزِئٍ برسول الله ﷺ قد ناله عقابٌ ما ، وَمَنْ لم تُصِبْه عاهة أو آفة صرَعَتْه سيوف المسلمين في بدر ، لدرجة أن رسول الله ﷺ قد حدد المواقع التي سيلقى فيها كل واحد من صناديد قريش حتفه ؛ فقال : هنا مصرع فلان ، وهناك مصرع فلان^(٢) .

وقد أوضح ﷺ تلك المواقع من قبل أن تبدأ المعركة ، ونعلم أن الحرب تتطلب كراً وفراً ، ولكن ما تنبأ به رسول الله ﷺ قد حدث بالضبط .

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٢٧٨٥/٥) بعض هذه المواقع عن عاقبة هؤلاء المستهزئين برسول الله ﷺ .

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان بعد أن شاه الله » قال عمر : فر الذي بعث بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدَّ رسول الله ﷺ « أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٣) : وأحمد في مسنده (٢١٩/٣) .

وَيُحَدِّدُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ نَوْعِيَّةَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ يَقُولُ :

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

أى : أن هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَهْزِءُونَ بِكَ لَهُمْ عَذَابُهُمْ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَشْرَكُوا بِاللهِ سُبْحَانَهُ ، وَحِينَ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦)

[الحجر]

ففى هَذَا الْقَوْلِ اسْتِيعَابٌ لِكُلِّ الْأَزْمَنَةِ ، أى : سَيَعْلَمُونَ الْآنَ وَمِنْ بَعْدِ الْآنَ ، فَكَلِمَةُ « سَوْفَ » تَتَسَّعُ لِكُلِّ الْمَرَاهِلِ ، فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ لَمْ يَأْخُذْهُمْ جَمِيعًا فِى مَرَحَلَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ أَخَذَهُمْ عَلَى قُتْرَاتٍ .

فَحِينَ يَأْخُذُ الْمُتَطَرِّقُ فِى الْإِيذَاءِ ؛ قَدْ يَرْتَدِعُ مَنْ يُؤْذَى ، وَيَتَرَاوَعُ عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِى الْإِيذَاءِ ، وَقَدْ يَتَحَوَّلُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ؛ فَمَنْ كَانَتْ شِدَّتُهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَصْبِيحُ تِلْكَ الشَّدَةِ فِى جَانِبِ الرَّسُولِ ﷺ .

وَهَا هُوَ الْمَثَلُ وَاضِحٌ فِى عِكْرَةِ بَنِ أَبِي جَهْلٍ^(١) ؛ يُصَابُ فِى مَوْقِعَةِ الْيَرْمُوكِ ؛ فَيُضَعُ رَأْسُهُ عَلَى فُخْذِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَيُسَالَهُ : يَا خَالِدُ ، أَهَذِهِ مِيتَةٌ تُرَضَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَيُرِدُّ خَالِدٌ : « نَعَمْ » . فَيُسَلِّمُ الرُّوحَ مُطْمَئِنًّا .

(١) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِى الْإِسَابَةِ (٢٥٨/٤) : « كَانَ كَأَبِيهِ مِنْ أَشَدِّ انْتِاسٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَسْلَمَ عِكْرَةَ مِمَّا مَاتَ الْفَتْحَ وَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ ثُمَّ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ الْبُورَةِ وَوَجَّهَهُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ إِلَى جَيْشِ نَعْمَانَ فَظَهَرَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ رَجَعَ فَخَرَجَ إِلَى الْجِهَادِ عَامَ وَغَاتِهِ فَاسْتَشْهَدَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ » .

وهؤلاء المستهزون : قد أشركوا بالله : فلم تنفعهم الآلهة التي أشركوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكد لهم ذلك : فهم يتأكدون من صدق رسول الله ﷺ فيما أبلغ عن الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (١٧)

وفى هذا القول الكريم يتجلى تقدير الحق سبحانه لمشاعر النبوة ، فالحق يكلفه أن يفعل كذا وكذا ، وسبحانه يعلم أيضاً ما يعانيه ﷺ فى تنفيذ أوامر الحق سبحانه .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ وَلَسَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٢) [الأنعام]

فأنت يا رسول الله أكرم من أن تكذب ، فقد شهدوا لك بحسن الصدق عبر معاشتهم لك من قبل الرسالة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (١٧) [الحجر]

ومعنى ضيق الصدر أن يقلّ الهواء الداخل عبر عملية التنفس إلى الرئتين ؛ فمن هذا الهواء تستخلص الرئتان الأوكسجين ؛ وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ؛ ويعمل الأكسجين على أن يؤكسد الغذاء ليقتج الطاقة ؛ فإن ضاق الصدر صارت الطاقة قليلة .

والمثل يتضح لِمَنْ يصعدون السُّلَّم العالى لائِ منزل أو ائِ مكان ؛ ويجدون أنفسهم ينهجون^(١) ؛ والسبب فى هذا النهج هو أن الرثة تريد أن تُسرِعَ بالنقاط كمية من الهواء أكبر من تلك التى تصل إليها ، فيعمل القلب بشدة أكثر كى يُتيح للرثة أن تسحب كمية أكبر من الهواء .

أما مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الذى يُتيح للرثة أن تأخذَ الكمية التى تحتاجها من الهواء ، فلا ينهج صاحب الصدر الواسع .

فكأن رسول الله ﷺ حين كان يكذِّبه أحد ، أو يستهزئ به أحد كان يضيق صدره فتضيق كمية الهواء اللازمة للحركة ؛ ولذلك يُطمئنه الحق سبحانه أن مدَّه له لا ينتهى .

وأنت تلحظ عملية ضيق الصدر فى نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه ؛ فيقول لك : لماذا يضيق صدرك ؟ وسع صدرك قليلاً .

والحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ ۝ (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

أى : يُوسِّع صدره ، وتزداد قدرته على فَهْم المعانى التى جاء بها الدين الحنيف .

ويقول أيضاً :

(١) نهج الرجل نهجاً فى التمس . هو نواثر النفس من شدة الحركة . [لسان العرب - مادة : نهج] .

﴿وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا^(١) كَأَنَّمَا يَصْعَدُ^(٢) فِي السَّمَاءِ...﴾ (١٢٥)

[الأنعام]

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكان فيها مجاهدة ومكابدة ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدت إلى أعلى وجدت الهواء أكثر نقاءً .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى في الفضاء فلن يجد هواء . ويدل الحق سبحانه رسوله ﷺ على علاج لمسألة ضيق الصدر حين يحزنه أو يؤلمه مكذب ، أو مُستهزئ ؛ فيقول سبحانه :

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١٨)

وهكذا يمكن أن تذهب عنك أي ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاك البشر أو ضايقتك الخلق ؛ فاعلم أنك قادر على الأُسْرَ بالله عن طريق التسبيح ؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسَبِّحُ ربك فأنت تُنْزِهُهُ عن كُلِّ شَيْءٍ وتحمده ، لتعيش في كَنَفِ رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول في موقع آخر :

﴿قُلُوا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْثَرُونَ (١٤٤)

[الصافات]

ولذلك إذا ضاق صدرك في الأسباب فاذهب إلى المُسَبِّبِ .

(١) المخرج : الضيق . وحرج صدره : ضاق فلم ينشرح لخير . [لسان العرب - مادة - حرج] .
(٢) يصعد : أي يتصعد ويرتفع في السماء . والصَّعْدُ : المشقة . ويقال : تصعد الأمر إذا شق عليه وصعب . [لسان العرب - مادة - صعد] .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص
فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال ، وسبحانه كاملٌ فى ذاته
وصفاته وأفعاله ، فذاته لا تُشبه أى ذات ، وصفاته أزلية مُطلقة ، أما
صفات الخلق فهى موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكم لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جلّ
وعلا يقول فى مسألة التسبيح :

﴿ سَبِّحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا . ﴾ (٣٦) [يس]

وهو القائل :

﴿ فَسَبِّحَانَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧) [الروم]

وكلُّ من المساء والصباح آية منه سبحانه ؛ فحين تغيب
الشمس ، فهذا إذن بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذن
بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى
لا يشارك الله فيه أحدٌ من خلقه أبداً .

فكان سكرى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أن يفزع إلى
ربه من قسوة الخلق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يأوى إلى وكُنْ
شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشترحون هذه القضية
ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جفوة الخلق لهم ؛ فيقولون :
إذا أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يؤنسك به .

وأنت حين تسبح الله فانت تُقرّ بأن ذاته ليست كذاذك ، وصفاته

ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك ؛ وكل ذلك لصالحك أنت ؛
فقدرك وقدره غيرك من البشر هي قدرة عَجَزٌ وأغيار ؛ أما قدرته
سبحانه فهي ذاتية فيه ومُطلقة وأزلية ، وهو الذي ياتيك بكل النعم .

ولهذا فعليك أن تصحى التنزيه بالحمد ، فانت تحمد ربك لأنه
مُنَزَّه عن أن يكون مثلك ، والحمد لله واجب في كل وقت ؛ فسبحانه
الذي خلق المواهر كلها لتخدمك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه
عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه لك الموهبة ؛ فخيرٌ تلك
النعمة يصل إليك .

وحين تُسَبِّحُ بحمد الله ؛ فسبحانه لا يُخلف وعده لك بكل الخير ؛
فكلُّنا قد نُخلف الوعد رغمًا عَنَّا ، لأننا أغيار ؛ أما سبحانه فلا يُخلف
وعده أبداً ؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحت الله وحمدته .

وَرَدَّ خُضُوعاً لِلْمُنْعَمِ ، فَاسْجُدْ امْتِثَالاً لِأَمْرِ تَعَالَى :

﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٩٨)

[الحجر]

فالسجود هو المظهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان - كما
نعلم - هو ما تظهر به الوجاهة ؛ وبه تُلْقَى الناس ؛ وهو أول ما تدفع
عنه أي شيء يُلَوِّثُه أو ينال من رضاك عنه .

وَمَنْ يَسْجُدْ بَارَقَ مَا فِيهِ^(١) ؛ فهذا خضوع يُعْطَى عِزَّةٌ ، وَمَنْ
يَخْضَعُ لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل

(١) عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض » أخرجه
الدارقطني في سننه (٢٤٨/١) والحاكم في مستدركه (٢٧٠/١) وقال : « صحيح على
شرط البخاري ولم يخرجاه » . وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢٢/١١) من
طريق آخر بلفظ : « من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تجز صلاته » .

أَوْجُهُ السُّجُود ، وَكَلَّمْنَا نَذَكِرُ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

وَالسُّجُودَ الَّذِي تُجْتَوِيهِ^(١) فِيهِ مِنْ أَلْفِ السُّجُودِ نَجَاةٌ

والسجود هو قمة الخضوع للحق سبحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية ؛ لأن تاريخ البشرية حمل كثيراً من المظالم نتيجة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطى - كما نعلم - خَيْرَ العبد للسيد ؛ ولكن العبودية لله تعطى خَيْرَهُ سبحانه للعباد ، وفي ذلك قِمة التكريم للإنسان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ١١

ونعريف أن العبادة هي إطاعة العابد لأوامر المعبود إيجاباً أو سلباً ، وتطبيق « افعل » و « لا تفعل » ، وكثيراً من الناس يظنون أن العبادة هي الأمور الظاهرية في الأركان الخمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

ونقول : لا ، فهذه هي الأسس التي تقوم عليها العبادة . أى : أنها البنية التي تقوم عليها بقية العبادة ، وهكذا تصبح العبادة هي ، كل ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أى : أن حركة الحياة كلها - حتى كنس الشوارع ، وإمطاة^(٢) الأذى عن الطريق - هي عبادة .

(١) يُقَالُ : اجْتَوَيْتُ الْمَكَانَ : إِذَا كَرِهْتَ الْمَقَامَ فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ فِي ثَعْمَةٍ . [لسان العرب - مادة : جوا] .

(٢) إمطاة الأذى : إبعاده وتثنيته جانباً . [المعجم الوجيز - مادة : ميط] .

وكل ما يُقصد به نفع الناس عبادة ، كى لا يصبح المسلمون عالة على غيرهم .

وفى إقامة الأركان إظهار لقوة المسلمين ، حين يُظهرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فور أن يسمع النداء بـ « الله أكبر » فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .

وحين يصوم المسلم شهراً فى السنة ؛ فهو يُعلن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُباحة ؛ وأول ما يأتى موعد الإمساك من قبل صلاة الفجر بقليل ؛ فهو يمتنع فوراً .

وهذا الامتنال لأوامر الحق سبحانه يُذكرك بنعمه عليك ؛ فأنت فى يومك العادى لا تقرب المحرمات التى أخذت وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحد من المسلمين يُفكر فى شرب الخمر ؛ ولا أحد منهم يُفكر فى لعب الميسر ، وانطبعَت تلك الأمور ؛ وصارت عادة سلوكية فى ألف ورتابة عند غالبية المسلمين ممن يُنفذون شريعة الله ، ويُطبقون « أفعل » و « لا تفعل » .

وعندما يأتى الصوم فأنت تمتنع عن أشياء هى حلال لك طوال العام ، وتقضى أى نهار فى رمضان ونفسك تستشرف سماع أذان المغرب لتُفطر .

وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك ليعودك على الكثير من الطاعات التى تصير عند المؤمنين عادة ؛ وسبحانه يريد أن يُديم عليك لذة التكليف العبادى .

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (٨٩) [الحجر]

ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت »^(١) .

(۱) اورده القرطبي في تفسيره (۲۷۸۷/۵) وتمام الاثر « ثم لا يستغفرون له » .

وكلنا نتيقن أننا سوف نموت ؛ لكننا نرحل مسالة اليقين هذه بعيداً عنا رغم أنها واقعة لا محالة . فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هي اللحظة التي لا ينفع فيها شيء إلا عمل الإنسان إن كان مؤمناً مؤدياً لحقوق الله .

ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الامر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تبلغك به .

أما عَيْنُ اليقين ؛ فهي التي ترى الحدث فتتيقنه ، أو هو أمر حقيقي يدخل إلى قلبك فتصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدقه تصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، وله مصادر علم ممن تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذب أبداً ؛ وهذا هو « علم اليقين » ؛ فإن رأيت الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .

والمؤمن يُرتب تصديقه وتيقنه على ما بلغه من رسول الله ﷺ .

وها هو الإمام عليّ - كرم الله وجهه وأرضاه - يقول : « ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التي حدثنا بها رسول الله غيباً ما أزدتُ يقيناً » .

وها هو سيدنا حارثة - رضى الله عنه - يقول : « كأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذبون » فيقول له رسول الله ﷺ : « عرفت فالزم » ^(١) .

وذلك هو اليقين كما آمن به صحابة رسول الله ﷺ .

(١) أورده ابن حبان في المجروحين (١/١٥٠) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ، في ترجمة أحمد بن الحسن بن أبان المصري . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به .

سُورَةُ الْجَمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ
وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ١

هكذا تبدأ السورة^(١) الجليلة : مُوضَّحة أن قضاء الله وحُكمه بنصر
الرسول والمؤمنين لا شك فيه ولا محالة ؛ وأن هزيمة أهل الكفر
قادمة ، ولا مفرٍّ منها إن هم استعجلوا على الكفر .

(١) سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة . وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ سَأَلْتُمْ لَهُمْ جِزْيَةَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٦٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٧٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١٧٨) [النحل] قال القرطبي في تفسيره (٢٧٨٩/٥) : « وتسمى سورة النعم بسبب ما وعد الله فيها من نعمة على عباده » . جاء في تفسير أبي السعود يتصرف في قوله تعالى : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (١) [النحل] قال : إنها الساعة وما يعمها وخيرها من العذاب الموعود للكفرة ، فقد عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل ولا بد أن يحققه في نفسه وإثباته منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيائه عبارة تدل من شؤنه واقتربا بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (٢) [النحل] وفيه بلاغة ، كلمة ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ﴾ (١) [النحل] فعل ماضٍ يدل على زمن مضى ولكن قوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴾ (٢) [النحل] يشير إلى أن أمر الله سابق وواقع لا محالة وله وقته المحدد ، والتعبير بالملفئ عن المضارع والعكس ضرب من بلاغة القول في الاستعارة التبدية في الأفعال ، المنهاج الواضح في البلاغة » .

سُورَةُ الْجُحُلِّ

٧٧٩٦

وقد سبق أن أنذرهم الرسول ﷺ بما نزل عليه من آيات الكتاب :
أنذرهم في السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوي ، كنصر الإيمان
على الكفر ، وأنذرهم من قبل أيضاً ببعض العذاب في الآخرة . كقول
الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَسْرِفُنَّكَ^(١) فَنُؤْتِيَنَا
بِرُجْمُونَ (٧٧) ﴾
[غانر]

وكذلك قوله الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾
[القمر]

ومكنا وعد الحق سبحانه رسوله ﷺ أن يهزم معسكر الكفر ،
وأن ينصر معسكر الإيمان ؛ وإما أن يرى ذلك بعينه أو إن قبض
الحق أجله فسيراها في الآخرة .

وعن حال الرسول ﷺ قال سبحانه :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾
[الحجر]

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم في جهنم في اليوم
الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. (١) ﴾
[النحل]

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذرون به ، كما قال

مرة :

(١) توفي الله فلاناً : أمله وقبض روحه . ويسند التوفي لله عز وجل ، أو يسند للملك : ﴿ قُلْ
يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] وقد يسند التوفي إلى الموت نفسه ،
قال تعالى : ﴿ سَتَىٰ يَتُوفَّاكُمُ الْمَوْتُ .. (١٥٠) ﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢٤٧/٢] .

[القمر]

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ ﴾

أى : اقتربت ساعة القيامة التى يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لمن كفر ، والجنة لمن آمن وعمل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غير مُخيف فى ذاته ، بل مُخيف لما فيه من الحساب والعقاب .
وقيل : إن أهل الكفر لحظة أن سمِعوا قول الحق سبحانه :

[القمر]

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ۝١ ﴾

قالوا : « فلننتظر قليلاً : فقد يكون ما يُبلِّغ به محمد صحيحاً »
وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تأت الساعة كما بشر
الرسول الكريم ﷺ قالوا : انتظرنا ولم تأت الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه :

[الأنبياء]

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١ ﴾

وهذا حديث عن الأمر الذى سيحدث فورَ قيام الساعة ، فهادئوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أين الحساب إذن ؟ فنزل قوله تعالى :

[النحل]

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ .. ۝١ ﴾

وساعة سمع الكل ذلك قرعوا : بمن فيهم من المسلمين ؛ وجاء الإسعاف فى قوله من بعد ذلك :

[النحل]

﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١ ﴾

(١) من أنش بن مالك رضى الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فإراهم القمر شقيين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٢) كتاب المناقبين .

أى : أن الأمر الذى يُعلنه محمد ﷺ لا يعلم مبعاده إلا الله سبحانه ؛ وأطمأن المسلمون^(١) .

وكُلُّ حدث من الأحداث - كما نعلم - يحتاج كُلُّ منها لظرفين : ظرف زمان ؛ وظرف مكان . والأفعال التى تدلُّ على هذه الظروف إما فعل ماضٍ : فظرفه كان قبل أن نتكلم ، وفعل مضارع . أى : أنه حَلٌّ ، إلا إن كان مقروناً بـ « س » أو بـ « سوف » .

أى : أن الفعل سيقع فى مستقبل قريب إن كان مقروناً بـ « س » أو فى المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبوقة بـ « سوف » ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يُخبرك به - وهو الله سبحانه - إنما يُخبرك بشيء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبر به ، والبشر قد يتكلمون عن أشياء وقعت ؛ ويُخبرون بها بعضهم البعض .

ولكن المتكلم هنا هو الحق سبحانه ؛ وهو حين يتكلم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص علمه أبداً ، وهو علم أزلى ، وهو قادر على أن يأتى المستقبل وفق ما قال ، وقد أعد توقيت ومكان كل شيء من قبل أن يخلق ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أى شيء ؛ فالخلق صفة ذاتية فيه ؛ وهو مؤثره فى كل شيء ؛ ولذلك قال :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ ۖ ۝ (١) ﴾ [النحل]

أى : أنه العليمُ بزمان وقوع كلُّ حدث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قبل أن يوجد الخلق ؛ فهو القائل :

(١) أورده الواحدي فى أسباب النزول (ص ١٥٩) ، والقرطبي فى تفسيره (٢٧٩٠ / ٥) وعزواه لابن عباس رضى الله عنهما .

[الأنبياء]

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠)

ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .

أى : أنه مُسَبِّح به من قَبْلُ خَلَقَ السماوات والأرض ، وهو القائل : سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١) [الحشر]

ولكن هل انتهى التسبيح ؟ لا ، بل التسبيح مُسْتَمِرٌّ أبداً ، فهو القائل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١) [الجمعة]

إذن : فقد ثبتت له « السُّبْحَانِيَّة » فى ذاته ، ثم وجد الملائكة يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَلَا يَفْتُرُونَ ، ثم خلق السماء والأرض ، فسَبِّحَ ما فيهما وما بينهما : وجاء خَلْقُهُ يُسَبِّحُونَ أيضاً - فَيَا مَنْ آمَنَتْ بالله إليها سَبِّحْ كما سَبِّحَ كُلُّ الْكَوْنِ .

واقائل أَنْ يسأل : وما علاقة « سبحانه وتعالى » بما يُشركون ؟ ونعلم أنهم أشركوا بالله أَلِهَةً لَا تُكَلِّفُهُمْ بِتَكْلِيفٍ تَعْبُدِي ، وَلَمْ تُنْزَلِ مِنْهُمْ مِنْهُمْ : بل تُحَلِّلْ لَهُمْ كُلُّ مُحَرَّمٍ ، وتنهاهم عن بعض من الحلال ، وتخلوا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسُلُ مُبْلِغِينَ عَنْ اللَّهِ مِنْ تَكْلِيفٍ يحمل مشقة الإيمان .

وهؤلاء هم مَنْ سَيَلِقُونَ اللَّهَ ، وتَسْأَلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ : أَيْنَ هم الشركاء الذين عبدتموهم مع الله ؟ ولن يدفع عنهم أحدٌ مَوْلَ ما يلاقونه من العذاب .

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفترا الشيء : سكن بعد جدة ولان بعد شدة . [لسان العرب - مادة : فتر] .

وهكذا تعرّفنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتا وصفاتا وأفعالا هو أمر ثابت له قبل أن يوجد شيء ، وأمر قد ثبت له بعد الملائكة ، وثبت له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخَيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قسم آمن وسبح ، وقسم لم يسبح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشركون . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنْزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ ^(١) مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۚ ۝٤﴾

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنْزِلُ ﴾ فالكلمة تُوحى وتوضّح أن هناك علواً يمكن أن ينزل منه شيء على أسفل . والمثل الذي أحب أن أضربه هنا لأوضح هذا الأمر هو قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي .. ۝١٥١﴾ [الأنعام]

أى : أقبلوا لتسمعوا منى التكليف الذى نزل لكم ممن هو أعلى منكم ، ولا تظّلوا فى حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تساموا وخذّوا الأمر ممن لا هوئى له فى أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خلق غيبى آمنّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكلّ ما غاب عن الدّهْن

(١) بالروح . أى : بالوحى وهو النبوة . وقيل : بأرواح الخلق . قاله مجاهد ، لا ينزل ملك ولا معه روح . وقيل : بالرحمة . قاله الحسن وقتادة وقيل : بالهداية ، لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح والأبدان . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . [تفسير القرطبي ٢٧٩١/٥] .

ودليله السماع ممن تثق بصدقه ، وقد أبلغنا ﷺ ما نزل به القرآن
وأنبأنا بوجود الملائكة ، وأن الحق سبحانه قد خلقهم ؛ ورغم أننا
لا نراهم إلا أننا نُصدِّق ما جاء به البلاغ عن الحق من الصادق
الصدوق محمد ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. (٢٠)﴾

[التحل]

فنحن نعلم أنه لا يمكن أن ينزل شيء من أعلى إلى الأدنى إلا
بواسطة المقربات .

وقد اختار الحق سبحانه ملكاً^(١) من الملائكة ليبلغ رُسُلَهُ بالوحي
من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه :

﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾

[الأنبياء]

ويقول في آية أخرى :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾

[التحریم]

وهم من نور ، ولا تصيبهم الأغيار ، ولا شهوة لهم فلا
يتناكبون ولا يتناسلون ؛ وهم أقرب إلى الصفاء . وهم من يمكنهم
التلقي من الأعلى ويبلغون الأدنى .

(١) المقصود هنا جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ (١٥٦)﴾ [الشعراء] قال
ابن كثير في تفسيره (٢٤٧/٢) : « هو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف ،
وهذا مما لا نزاع فيه » .

ولذلك تجد الحق سبحانه يقول عن القرآن :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١١٣) ﴾

[الشعراء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ .. (٢) ﴾

[النحل]

والآية الإجمالية التي تشرح ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي^(١) مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ (٧٥) ﴾

[الحج]

أي : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقى منه ليعطوا المصطفين من الناس ؛ ليبلغ هؤلاء المصطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العلويات العالية لا يملك الكائن الأدنى طاقة ليتحمل ما تنزل به الأمور العلوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أن شبهت ذلك بالمحول الذي نستخدمه في الكهرباء لنقل من الطاقة العالية إلى الأدنى من المصاييح ، وكلنا يعلم ما حدث للرسول ﷺ حين تلقى الوحي عبر جبريل عليه السلام « قَضَمْنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ » وتقصد^(٢) جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول « زَمَلُونِي زَمَلُونِي » و « دَثَرُونِي دَثَرُونِي »^(٣) .

(١) اصطفاه . اختاره وأثره وفضله . قال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (١١) ﴾ [آل عمران] ، [القاموس القويم ٢٨٠/١] .

(٢) تقصد عرقاً : سال عرقاً . [لسان العرب - مادة : فصد] .

(٣) زمله بالشوب . لفه به فتزمل به وتشف به . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَذَّابُنَا الشَّوْكَ (١٦) ﴾ [الزمل] بدء يذكر الرسول بقوله « زملوني » عند بدء الوحي ، ذكره الله تعالى للإيقاظ والعلاطفة ، وفيه توجيه إلى ترك النوم وترك الراحة والقيام بواجبات الرسالة . [القاموس القويم ٢٩٠/١] . وحديث بدء الوحي أخرجه البخاري في كتاب « بدء الوحي » من صحيحه ، حديث رقم ٤ ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

ذلك أن طاقة علوية نزلت على طاقة بشرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هي طاقة مُصْطَفَاة . ثم يَأْلَفُ الرسول الوحي وتَخَفُّ عنه مثل تلك الاعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۖ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ (٦) ﴾ [الشرح]

ثم يفتر^(١) الوحي لبعض من الوقت لدرجة أن النبي ﷺ يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحي وهو مَنْ قال « دُتُّونِي دُتُّونِي » ؟
لقد كان فتور الوحي بسبب أن يتعوذ محمد ﷺ على متاعب نُزُولِ الملك : فتزولُ متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .
وقال بعض من الأغبياء : « إن ربَّ محمد قد قللاه^(٢) » .
فليتزل قوله سبحانه :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَآ آخِرَ خَيْرٍ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

(١) انفرد : ههنا الذي أتىك . وهو مَمَّ البحث من الدين الحق . أو : يكون التور هو الذنب الذي كنت تراه نفياً لشدة حبك لله . [القاموس القويم ٢/٢٢٢] .
(٢) الفترة : الانكسار والضعف . فتر الشيء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . والفتر : الضعف . والفتره : ما بين كل فيتين ، وفي الصبح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب - مادة : فتر] .
(٣) قلى فلاناً يقلبه : أبغضه وجفاه . قال تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]
ما أبغضك ولا جفاهك . [القاموس القويم ٢/٢٢٢] . وعن جندب بن عبد الله البجلي أنه قال : أبطأ جبيل على رسول الله ﷺ فقال للمشركون : ودع محمداً ربه . أورد ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) .

وكلمة الروح وردت في القرآن بمعان متعددة ، فهي مرة الروح
التي بها الحياة في المادة ليحدث بها الحس والحركة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٢٩) [الحجر]

وهذا النفخ في المادة يحدث للمؤمن والكافر ، وهناك روح أخرى
تعطى حياة أعلى من الحياة الموقوتة :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٩) [العنكبوت]

إذن : فالملائكة تنزل بالبلاغ عن الله بما فيه حياة أرقى من
الحياة التي نعيش بها ونتحرك على الأرض . وهكذا تكون هناك
روحان لا روح واحدة : روح للحس والحركة : وروح تُعطي القيم
التي تقودنا إلى حياة أخرى أرقى من الحياة التي نحياها : حياة
لا فناء فيها .

ولذلك يُسمى الحق سبحانه القرآن روحاً : فيقول :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا
الْإِيمَانُ .. ﴾ (٥٢) [الشورى]

ويُسمى الحق سبحانه الملك الذي نزل بالقرآن روحاً ، فيقول :

﴿ تَزَلَّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (١٩٤)

[الشعراء]

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياة أرقى ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا
يُغْنِيكُمْ .. ﴾ (٢٤) [الأنفال]

سُورَةُ النَّحْلِ

○ ٧٨٠ هـ ○

أى : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موتَ فيها ولا خَوْفَ
أنْ تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمة .

وهنا يُبَلِّغنا سبحانه أن القرآن نزل مع الملائكة :

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ .. (٢)﴾ [النحل]

أى : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه . ويقول الحق سبحانه فى
موقع آخر :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ^(١) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾

[الرعد]

والسُّطْحِيُّونَ لا يلتفتون إلى أن معنى :

﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد]

هنا تعنى أنهم يحفظونه بأمر من الله .

والأمر هنا فى الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - هو ما
جاء فى الآية الأولى منها :

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (٦)﴾ [النحل]

وهذا الأمر هو نتيجة لما يشاؤه الله من حياة للناس على
الأرض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر مُتَعَدِّدة يجمعها إبراز
المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١٠)﴾ [النحل]

(١) أى - ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويصون أعمالهم . أو : المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس الفريسي ٢٩/٢] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون . وإذا أراد منهجاً : فهو يُنْزِلُه ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعة : فهو القائل ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ .

وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ هو ﴿ كُنْ فيكون ﴾ أى : إخراج المَعْدُوم إلى حَيِّزِ الوجود ؛ سواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكل ذلك اسمه أمر ، ولحظة أن يأمر الله : فنحن نَتَّقُ أن مأمور الله يبرز ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ ۝ (١) ﴾ [الانشقاق]

أى : أنها لم تسمع الأمر فقط ؛ بل نقذته فور صدوره ؛ دون أدنى ذرة من تخلف ، فأمر الله يُنْقِذُ فور صدوره من الحق سبحانه ، أما أمر البشر فهو عُرْضَةٌ لَأَنْ يُطَاعَ ، وَعُرْضَةٌ لَأَنْ يُعْصَى .

وسبحانه يُنْزِلُ الملائكة بالروح على مَنْ يشاء ليُنْذِرُوا ؛ ولم يأت الحق سبحانه بالبشارة هنا ؛ لأن الحديث مُوجَّهٌ للكفار فى قوله :

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝ (١) ﴾ [النحل]

ونزله ذاته قائلاً :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ (١) ﴾ [النحل]

أو : أن الحق يُنَبِّهُ رسوله ، إن دخلت عليهم ففسر لهم مَبْهَمَ ما لا يعرفون . وهم لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم بمن يصطفى .

(١) حق له : ثبت له . حَقَّتْ : أى كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس للتوحيـم

ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتم بمواصفات الحق سبحانه : فهو القائل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴾ (١٢٤)

[الأنعام]

وعلم أن الكافرين قد قالوا :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣١) [الزخرف]

وقال الحق سبحانه في رده عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. ﴾ (٣٢) [الزخرف]

فإذا كان الحق سبحانه قد قَسَمَ بين الخلق أرزاقهم في معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بعض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوعَ مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتى هؤلاء في الأمور القِيَمِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالرُّوحِ وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً » ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضح لرسوله : بعد أن شرحت لهؤلاء أمر الوحي ، فعليك أن تُبَلِّغهم كلمة الله :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٢) [التحل]

وما دام لا يوجد إله آخر فعلى الرسول أن يُسَدِّيَ لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حيرة البحث عن إله ، ويوضح لهم أن لا إله إلا هو ؛ وعليهم أن يتقوه .

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١٢٦/٤) : « يعنون مكة والطائف » . قاله ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد . (واختلفوا في المقصود بـ « يولدين الرجلين ») . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان . »

وفى هذا حنان من الحق على الخَلْق ، وهو الحق الذى منع الكائنات التى تعجبت ورفضت كُفْرَ بَعْض من البشر بالله ؛ وطلبت أن تنتقم من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتهم لرحمتهم ، دَعَوْنِي وَخَلَقِي ! إِنَّ تَابُوا إِلَى فَاْنَا حَبِيبُهُمْ ؛ وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَاْنَا طَبِيبُهُمْ » .

وَقَوْلُ الحق سبحانه :

﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۖ ﴾ [النحل]

هو جماعُ عقائد السماء للأرض ؛ وجماعُ التَّعْبُدَات التى طلبها الله من خَلْقِهِ لِيُنْظَمَ لَهُمْ حركة الحياة مُتَسَانِدَةً لَا مُتَعَانِدَةً .
فَكَانَ :

﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۖ ﴾ [النحل]

هى تفسيرٌ لِمَا أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنَ الرُّوحِ التى قُلْنَا مِنْ قَبْلُ : إنها الروحُ الثَّانِيَةُ التى يَجِئُ بِهَا الرُّوحُ ؛ وَتَحْمِلُ مِنْهُجَ اللهِ لِيُضْمِنَ لِلْمُعْتَنِقِ حَيَاةً لَا يَزُولُ نَعِيمُهَا وَلَا الْمُنْتَقِمِ بِهَا ؛ وَهِيَ غَيْرُ الرُّوحِ الْأُولَى التى إِذَا تَفَخَّخَهَا الْحَقُّ فِى الْإِنْسَانِ ، فَالْحَيَاةُ تَدْبُ فِيهِ حَرَكَةً وَحِسًّا وَلَكِنَهَا إِلَى الْفَنَاءِ .

وَكَانَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ أَنْ أَنْزَلَ لَهُمُ الْمَنْهَجَ الَّذِى يَهْدِيهِمُ الْحَيَاةَ الْبَاقِيَةَ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَظْلُوا أُسْرَى الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ وَحْدَهَا .

وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَيْضًا أَنْ حَذَّرَهُمُ مِنَ الْمَصِيرِ السَّيِّئِ الَّذِى يَنْتَظِرُ مَنْ يَكْفُرُ بِهِ ؛ وَمِثْلُ هَذَا التَّحْذِيرِ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ مُحِبٍّ ؛ فَسَبْحَانَهُ يُحِبُّ خَلْقَهُ ، وَيُحِبُّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْهِ مُخْلِصِينَ مُؤْمِنِينَ ، وَيُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَنْعَمُوا فِى آخِرَةِ لَا أَسْبَابَ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُمْ سَيَعِيشُونَ فِيهَا بِكَلِمَةِ « كُنْ » .
مِنَ الْمُسَبِّبِ .

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

﴿٧٨﴾ ٩

فَإِذَا قَالَ لَهُمْ ﴿أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ..﴾ (٢) [النحل] فهو يُوضِّحُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، فَلَا تَشْرِكُوا بِي شَيْئًا ، وَلَا تَكْذِبُوا الرِّسْلَ وَعَلَيْكُمْ بِتَطْبِيقِ مَنْهَجِي الَّذِي يُنْظِمُ حَيَاتَكُمْ وَأَجَارِي عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ .

وإياكم أَنْ تَغْتَرُّوا بِأَنِّي خَلَقْتُ الْأَسْبَابَ مُسْخَرَةً لَكُمْ ؛ فَإِنَّا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْبِضَ هَذِهِ الْأَسْبَابَ ؛ فَقَدْ أَرَدْتُ الدُّنْيَا بِلَاءً وَاخْتِبَارًا ؛ وَفِي الْآخِرَةِ لَا سُلْطَانَ لِلْأَسْبَابِ أَبَدًا ؛

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) [غافر]

وظاهر الأمر أَنَّ الْمَلِكَ اللَّهَ فِي الْآخِرَةِ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْمَلِكَ اللَّهَ دَائِمًا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ؛ وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يُجْعَلَ الْأَسْبَابُ - الْمَخْلُوقَةُ بِمَشِيئَتِهِ - تَسْتَجِيبُ لِلْإِنْسَانِ ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّكَ أَصْبَحْتَ قَادِرًا ؛ فَانْتَ فِي الْحَيَاةِ تَمْلِكُ أَشْيَاءَ ، وَبِمَلِكِكَ مَلِكٌ أَوْ حَاكِمٌ مِثْلُكَ ؛ فَسُنَّةُ الْكَوْنِ أَنْ يُوْجِدَ نِظَامٌ يَحْكُمُ الْجَمِيعَ .

وَلَكِنْ الْآخِرَةُ يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ فِيهَا ؛ فَلَا مَلِكًا لِأَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ ، بَلْ إِنَّ الْأَعْضَاءَ نَفْسَهَا لَا تَسِيرُ بِإِرَادَةِ أَصْحَابِهَا بَلْ بِإِرَادَةِ الْحَقِّ ، تَلِكِ الْأَعْضَاءُ الَّتِي كَانَتْ تَخْضَعُ لِمَشِيئَتِكَ فِي الدُّنْيَا ؛ لَا حُكْمَ لَكَ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ ، بَلْ سَتَكُونُ شَاهِدَةً عَلَيْكَ .

فَإِنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ أَعْطَاكَ الْقُدْرَةَ عَلَى تَحْرِيكِ الْأَعْضَاءِ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنْ رَجَّهَتْهَا إِلَى مَأْمُورِ اللَّهِ ؛ فَانْتَ مِنْ عِبَادِهِ^(١) ، وَإِنْ لَمْ تُوجِّهْهَا إِلَى مَطْلُوبِ اللَّهِ ، فَانْتَ مِنْ عِبِيدِهِ .

وَبَعْدَ ذَلِكَ يُقَدِّمُ لَكَ سُبْحَانَهُ الْحَيْثِيَّةَ الَّتِي تُعَزِّزُ أَمْرَهُ بِعِبَادَتِهِ

(١) العباد : هم عباد الرحمن ، والعبيد كل الناس ، فكل عابد عبْدٌ وليس كل عبيد عابِدًا ، وَقَدْ يَرْتَفِعُ الْعَبِيدُ إِلَى مَقَامَاتِ الْعِبَادِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

وحده ، وأن لا إله غيره ؛ فإنه لم يطلب أن نعبد إلا بعد أن خلق لنا
السموات والأرض ؛ وكل الكون المُعَدَّ لاستقبال الإنسان بالحق ؛ أي
بالشيء الثابت ؛ والقانون الذى ليس فى اختيار أحد سواه سبحانه ،
ويقول سبحانه :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ^(١)
تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ^(٢) ﴾

أى : تنزه سبحانه عما يشركون معه من آلهة ، فلا أحد قد ساعده
فى خلق الكون وإعداده ؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره ؟ وسبحانه
منزه عن أن يكون معه آلهة أخرى ، وسبحانه قد خلق لنا من قبل أن
يخلقنا ؛ خلق السموات والأرض وقدر الأرزاق ، ولو نظرت إلى خلقك
أنت لوجدت العالم الكبير قد انطوى فيك ؛ وهو القائل :

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ^(٣) ﴾ [الذاريات]

وأنت مخلوق من ماذا ؟

ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ^(٤)
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ^(٥) ﴾

(١) بالحق : أى للدلالة على قدرته سبحانه ، وإن له أن يشعبد العباد بالطاعة ، وإن يحى الخلق

بعد الموت [تفسير القرطبي ٥/ ٣٧٩٢]

(٢) الخصيم : أى شديد الخصام ، أى : مخاصم لله ورسوله مبالغ فى إظهار خصومته

وعداوته [القاموس القويم ١/ ١٩٦] .

والنطفة التي تجيء منها ، وهي الحيوان المنوي الذي يتزاوج مع البويضة الموجودة في رحم المرأة فتنتج العلقة ، وسبحانه القائل :

﴿ اَيَحْسَبُ الْاِنْسَانُ اَنْ يَتْرَكَ سُدًى ^(٢٦) اَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنًى ^(٢٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوًى ^(٢٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْاُنثَى ^(٢٩) ﴾ [القيامة]

بل إن القذفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الانسال ما يكفي خلق الملايين ؛ ولا يمكن للعين المجردة أن ترى الحيوان المنوي الواحد نظراً لدقته المتناهية .

وهذه الدقة المتناهية لا يمكن أن تُرى إلا بالمجاهر المكبرة ، ومطمور في هذا الحيوان المنوي كل الخصائص التي تتحد مع الخصائص المطمورة في بويضة المرأة ليتكون الإنسان .

وقد صدق العقاد - يرحمه الله - حين قال : « إن نصف كسيتان الخياطة لو ملئ بالحيوانات المنوية لُولد منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم » .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينقذ إلى البويضة إلا الحيوان المنوي القوي ؛ ليؤكد لنا أن لا بقاء إلا للأصلح ، فإن كان الحيوان المنوي يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ؛ وإن كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذكر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مثل ذلك في الثيات ؛ فأول حبة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التي نعرفها ؛ وفي تلك الحبة الأولى أوجد

(١) أى . ايحسب الإنسان أن يترك مهملًا غير مأمور وغير متهم . [لسان العرب - مادة .

الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أن تقوم الساعة ، وتلك عظمة الحق سبحانه في الخلق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه في أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خلق الإنسان : فهو :

﴿ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ﴾

[السجدة]

وهو من نطفة ، ومن علقه ، ثم مضغة مُخْلَقَةٌ وغير مُخْلَقَةٌ^(١) .

والحيوان المنويّ المُسَمَّى « نُطْفَةٌ » هو الذي يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شأن بهذا التحديد ، وكان في ذلك إشارة إلى مهمة المرأة كسكن : لأن الميؤضة تتلقى الحيوان المنوي وتحتضنه ؛ ليكتمل النمو إلى أن يصير كائناً بشرياً :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾

[المؤمنون]

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَلَيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً .. (٣٨) ﴾

[القيامة]

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرحم كما أثبت العلم المعاصر ، ويقول سبحانه :

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. (١٤) ﴾

[المؤمنون]

(١) يقول تعالى : ﴿ يَتْلُوهَا النَّاسُ إِذَا كُنْتُمْ فِي رُحْبٍ مِنَ اللَّيْلِ فَمِنْ أَعْيُنِكُمْ مَوْتٌ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ .. (٤) ﴾ [الحج] .

والمُضَغَّةُ هِى الشَّيْءُ الْمَمْضُوعُ ؛ ثُمَّ يَصِفُ سُبْحَانَهُ الْمَضْغَةَ بِأَنَّهَا :

﴿ مُخْلَقَةٌ ^(١) وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المَضْغَةَ الْمُخْلَقَةَ فِيهَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِيرَ عَيْنًا أَوْ ذِرَاعًا ؛ وَلَكِنْ مَاذَا عَنْ غَيْرِ الْمُخْلَقَةِ ؟

ونقول : إِنَّهَا رَصِيدٌ احْتِيَاطِيٌّ لَصِيَانَةِ الْجِسْمِ ، فَإِذَا كُنْتَ أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ حِينَ تَقُومُ بِنِجَاءِ بَيْتٍ فَأَنْتَ تَشْتَرِي بَعْضًا مِنَ الْأَشْيَاءِ الزَّائِدَةِ مِنَ الْأَدَوَاتِ الصَّحِيَّةِ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - تَحْسِبًا لِمَا قَدْ يَطْرَأُ مِنْ أَحْدَاثٍ تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى قِطْعٍ غَيْرِارٍ ؛ فَمَا بِالنَّاسِ بِالْحَقِّ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ ؟

لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تِلْكَ الْمَضْغَةَ غَيْرَ الْمُخْلَقَةِ ^(٢) رَصِيدًا لَصِيَانَةِ ، أَوْ تَجْدِيدِهَا لِمَا قَدْ يَطْرَأُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ ظُرُوفٍ ؛ وَتَكُونُ زَائِدَةً فِي الْجِسْمِ وَكَأَنَّهَا مَخْزُونٌ لِقِطْعِ الْغِيَارِ .

والمثل هو الجروح التي تصيب الإنسان ، ثُمَّ يَتْرَكُهَا لِيَعَالِجَهَا الْجِسْمُ بِنَفْسِهِ ، نَجِدُهَا تَلْتَنِمُ دُونَ أَنْ تَتْرَكَ تَدْبَةً ^(٣) أَوْ عَلَامَةً ، ذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ تَمَّ عِلَاجُهَا مِنَ الصِّدَالِيَّةِ الْدَاخِلِيَّةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي الْجِسْمِ نَفْسَهُ .

(١) مُخْلَقَةٌ : أَيْ مُشَكَّلَةٌ وَمُصَوَّرَةٌ عَلَى هَيْئَةِ طِفْلِ ، وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ أَيْ : غَيْرُ مُشَكَّلَةٍ ، أَيْ غَيْرُ تَامَةٍ التَّصْوِيرِ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ٢٠٧/١] .

(٢) قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٠٦/٢) : « إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ مَكْنَثٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا كَذَلِكَ ، يُضَافُ إِلَيْهِ مَا يَجْتَمِعُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ تَنْقَلِبُ عِلْفَةً حَمْرَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ فَتَمُكِّنُ كَذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ تَسْتَحِيلُ فَتَصِيرُ مَضْغَةً قِطْعَةً مِنْ لَحْمٍ لَا شَكْلَ فِيهَا وَلَا تَخْطِيطَ ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي التَّشْكِيلِ وَالتَّخْطِيطِ ، وَتَارَةً تَلْفِيهَا وَقَدْ صَارَتْ ذَاتَ شَكْلِ وَتَخْطِيطٍ » .

(٣) التَّدْبَةُ : أَثَرُ الْجَرْحِ إِذَا لَمْ يَرْتَقِعْ عَنِ الْجِلْدِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَائَةٌ : نَدَبٌ] .

والمفاجأة هي أن هذا الإنسان المخلوق لله :

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٤ ﴾

[النحل]

ويتمسرد على خالقه ، بل وينكر بعض من الخلق أن هناك إلهاً ؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يجادلونه . والخصيم هو الذي يُجادل ويُنكر الحقائق ؛ فإذا حدثت بشيء غيبي ، يحاول أن يدحض معقوليته .

ويقول سبحانه في سورة يس :

﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ٧٧ ﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أن تكون خصماً لمساويك ؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لمن خلقك فسواك فعدوك ، وفي أي صورة ما شاء ربك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ
وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥ ﴾

والدِّفْءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطي المحرور برودة ، وهذا ما يفعله تكييف الهواء في المنازل الحديثة . ونجد الحق سبحانه هنا قد تكلم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو في آية أخرى يقول :

﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ^(١) تَقِيْكُمْ الْحَرَّ .. ٨١ ﴾

[النحل]

(١) السراويل : جمع سربال ، وهو ما يلبس من قميص أو درج - [القاموس القويم ٢٠٨/١] .

وهذا ما يحدث عندما نسير فى الشمس الحارة ؛ فنضع مظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن فى الشتاء نلبس قطنسوة أى : ثلثاً شيناً حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشيء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسان اللباس المناسب للجو المناسب .

وفى الأنعام منافع كثيرة : فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجبن والسمن ؛ ونجزر الصوف لنغزل ونسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من ذريتها ؛ وكذلك نأكل لحومها .

و نحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها فى موقع آخر حين قال الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ .. ﴾ (١١٧)

[الأنعام]

وهى الضأن والمعز والإبل والبقر .

ونعلم أن الدفء يأتى من الصوف والوبر والشعر ، ومن يلاحظ شعر المعز يجد كل شعرة بمقردها ؛ لكن الوبر الذى نجزه من الجمل يكون مكبداً ؛ وهذا دليل على دقة فنتته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قلبها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ^(١) حِينَ تُرْمَىٰ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ^(٢) ﴾

(١) الجمال : الحسن . وما يتجمل به ويتزين . قال القرطبي فى تفسيره (٢٧٩٥/٥) :

« جمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرش بالابصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها . »

ومنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالذِّفَاءُ والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجمال فهو من تَرَفِّ الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ، فيستحق السرور في النفس . والذِّفَاءُ والمنافع والأكل هي أمور خاصة لمن يملك الأنعام ؛ أما الجمال فمشاع عام للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ؛ أو البقرة المزهوة بالصحة ؛ فأنت ترى نعمة الله التي خلقها لتسر الناظر إليها .

ونلاحظ هذا الجمال في لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول في الريف « سرحت البهائم » أي : خرجت من الحظائر لترعى وتأكل . ونلاحظ أن الحق سبحانه قد قدّم الرّواح أي العودة إلى الحظائر عن السُّروح ؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أن ترعى تكون بطونها ممتلئة وضروعها رابية^(١) حافلة باللبن ؛ فيسعد من يراها حتى قبل أن يطعم من البائتها .

ومن يخرج ببهائم في الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائعها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومن لا يملك يمكن أن يشاهد جمال تلك الأنعام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ^(٢) إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَاغِيهِ
إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٧ ﴾

(١) ربا الشيء يربيو : زاد ربحاً . وأربيته : نعيته . [لسان العرب - مادة : ربا] .

(٢) الثقل : العمل الثقيل . والجمع أثقال مثل حمل وأعمال . [لسان العرب - مادة : ثقل] .
فالأثقال : الأحمال الثقيلة .

ونعلم أن الإنسان في حياته بين أمرين : إما ظاعن أي : مسافر .
وإما مقيم . وفي حالة المقيم ، فالأنعام تُحَقَّقُ له الدُّفْعُ والطعام
والمكسب . وعادة ما يكتفى متوسط الحال بأن يستقر في مكان إقامته
وكذلك الفقير .

أما المقتدر الغني : فأنت تجده يوماً في القاهرة ، وآخر في
الإسكندرية ، أو طنطا ، وقد يسافر إلى الخارج ، وكل ذلك ميسور
في زمن المواصلات الحديثة . وقديماً كانت وسائل المواصلات
شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول
قوية ، أما مَنْ لم يكن يملك إلا حملاً أعرج^(١) فهو لا يفكر إلا في
المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبا يقول :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ^(٢) .. ﴾ (١٩) [سبا]

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خيل ووسائل سفر من
دواب سليمة وقوية . تهييء السفر المريح الذي ينم عن العز والقوة
والثراء .

وقوله الحق :

﴿ وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ .. ﴾ (٧) [النحل]

يعني وضع ما يتحمل على ما يُثقل . ولذلك فتحن لا نجد إنساناً

(١) الأعرج : الهزيل من سوء التغذية . والعرج : غلط العظام ومراؤها من اللحم ، [لسان

العرب - مادة عرج]

(٢) وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ أَنْفُسِهِم بَارَكَةً لِّبِهَا فَرَى ظَاهِرَةً وَفَعَلْنَا لِبِهَا الشَّرَّ

سَبَرُوا فِيهَا لِيَالِي رَأْيَا أَمِينِ ﴾ (١٥) [سبا] .

يحمل دابته ؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقاله على الدابة لِيُخَفِّفَ عن نفسه حمل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتبع الكثافة ؛ كما أن الحجم يتبع المساحة ؛ فحين ننظر إلى كيلوجرام من الحديد وكيلوجرام من القطن ، فانت تجد أن حجم كيلوجرام القطن أكبر من حجم كيلوجرام الحديد ؛ لأن كثافة الحديد مضمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهي التي تجعله يحتاج حيزاً أكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله في الآية الكريمة :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۚ ۝ (٧) ﴾

[النحل]

وَمَنْ يَفْتَش فِي آسَالِيِب الْقِرَآنِ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ قَدْ يَقُولُ : « إِنْ عَجَزَ الْآيَةُ غَيْرَ مُتَقِّقٍ مَعَ صَدْرُهَا » .

ونقول لمثل صاحب هذا القول : أنت لم تطفن إلى المنّة التي يمتن بها الله على خلقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقال إلا بمشقة ؛ فما بالنا بثقل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع ؟ إنها نعمة كبيرة أن يجدوا ما يحملون عليه أثقالهم وأنفسهم ليصلوا إلى حيث يريدون .

وكلمة ﴿ بِشِقِّ ﴾ [النحل] مصدرها شق وهو الصَّدْع بين شيتين ؛ ويعنى عَزَل متصلين ؛ وسبحانه هو القائل :

﴿ فَاصْدَعْ^(١) بِمَا تُؤْمَرُ ۚ ۝ (٩٤) ﴾

[الحجر]

(١) صدع بالامر : جهر به في قوة كأنه يشق جدار الصمت والسكون . [القاموس الغريب

وهناك « شَقٌّ » وهو الجهد ، و« شَقَّةٌ » ، والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إما فائس : لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته : وأيضاً وهو مُتَيْقِظٌ فأجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة : بل تحتاج إلى طاقة مُتَوَسِّطَةٌ لتعمل : أما إن كان يحمل أشياء ثقيلة فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا ^(١) قَرِيًّا وَسَفَرًا فَاِصِدًا ^(٢) لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢)﴾ [التوبة]

والمعنى هنا بالشُّقَّةُ هي المسافة التي يشقُّ قطعها ، ويُنْهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنْ رِجْكُمْ لِرِءُوفٍ رَّحِيمٍ (٧)﴾ [النحل]

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لما جاء بالآية : فالربُّ هو المُتَوَلَّى التربية والمَدَد ، وأىُّ رحلة لها مَقْصِدٌ ، وأىُّ رحلة هي للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للالتئيم معاً .

فإن كانت رحلة استثمار فذابتك يجب أن تكون قوية لتحمل ما معك من أُنْقَال ، وتحمل عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإن كانت الرحلة للاعتبار فأنت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة

(١) عرض الدنيا - ما كان من مال ، قل أو كثير ، والمعرض : متاع الدنيا وحطامها . [لسان العرب - مادة : عرض] .

(٢) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه ، قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيًّا وَسَفَرًا فَاِصِدًا لَاتَّبَعُوكُمْ﴾ [التوبة] لكن السفر إلى تبوك كان عسيراً في وقت العسرة ، وكان شائعاً وغير معروف الهدف ، ولهذا تخلف المتأفقون . [القاموس القويم ١١٨/٢] .

والرغبة في الوصول إلى المكان الذي قصدته .

وهكذا تجد الرافعة مناسبة لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقف بعض من العلماء عند مقصد الرحلة ؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكون مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار ؛ وهناك سفرٌ اضطراري ؛ كالسفر الضروري إلى الحج مرة في العمر . والحق سبحانه يزيل ألم الحُمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رافته ؛ وهو رحيم لأنه حقق لكم أمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ^(١) وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التي نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا في هذه الآية الأنعام التي نستخدمها للتنقل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها ^(٢) وهي الخيل والبغال والحمير ؛ ويذكرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن الناس تقزُّن بما تركب ؛

(١) البغال : جمع بغل ، وهو ابن الفرس من الخمار وهو لا يلد ، فالشأن في البغل العقم . وذكرنا القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولدهما منهما . [القاموس القويم ٧٦/١] .

(٢) قال الفرطبي في تفسيره (٢٨٠٠/٥) : « سئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرها . وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب . وقرأ الآية التي قبلها : ﴿ وَالْأَنْعَامَ حَلْقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ .. ﴾ [التحل] ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هي سباحة . قلت : الصحيح الذي يدل عليه النظر والتجرب جواز أكل لحوم الخيل . »

تماماً كما يفخر أبناءُ عصرنا بالتزَيُّن بالسيارات الفارهة .

وتَسْقُ الآيَةُ يدلُّ على تفاوت الناس في المراتب ؛ فكلُّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركيبه ؛ فالخَيْلُ للسَّادة والفرَسان والأغنياء ؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفي لشراء الحصان أو البغل ؛ فيمكنه أَنْ يشتري لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانُ الثلاثة ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها ؛ وقد يملك ثالثٌ ركوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكنه أَنْ يستأجر ولو ركوبة من أي نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قلة أو كثرة ، وإلا لو تساوى الناس في الرزق ، فَمَنْ الذي يقوم بالأعمال التي نُسَمِّيها نحن - بالخطأ - أعمالاً دُونية ، مَنْ يكفئ الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكلُّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبة الناس في الرزق لَمَا حَلَّتْ مثل تلك الأعمال ، وراقت في عُيون مَنْ يُمارسونها ، ذلك أنها تَقِيهم شرَّ السُّؤال .

ولولا أن مَنْ يعمل في تلك الأعمال له بطنٌ تريد أن تمتلئ بالطعام ، وأولاد يريدون أن يأكلوا ؛ لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرت إلى أفقر إنسان في الكون لوجدت في حياته فترة حَقَّق فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يكُدُّ عَشْرَ سنين ؛ ويحتاج بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يكُدُّ عشرين عاماً فيُفْرِج نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُفْرِج أولاده وأحفاده من بعده ، والمهم هو قيمة

مَا يُتَّقَنَهُ ، وَأَنْ يَرْضَى بِقَدْرِ اللَّهِ فِيهِ ، فَيُعْطِيَهُ اللَّهُ مَا دَامَ قَدْ قَبِلَ قَدْرَهُ فِيهِ .

وَأَنْتَ إِنْ نَظَرْتَ إِلَى مَنْ فَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِم بِالْغَنَى وَالشَّرَفِ سَتَجِدُهُمْ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِمْ قَدْ كَدُّوا وَتَعَبُوا وَرَضُوا بِقَدْرِ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَلَمْ يَحْقِدُوا عَلَى أَحَدٍ ، نَجَدَهُ سُبْحَانَهُ يَهْدِيهِمْ طَمَئِنَّةً وَرَاحَةً بِالِ .

وَشَاءَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَتَوَرَّعَ فِي مُسْتَوِيَّاتِ حَيَاةِ الْبَشَرِ كَيْلًا يَسْتَنكِفَ أَحَدٌ مِنْ خِدْمَةِ أَحَدٍ مَا دَامَ يَحْتَاجُ خِدْمَتَهُ .

وَنَجِدُ النَّصْرَ التَّعْبِيرِيَّ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ خَوَاطِرُنَا عَنْهَا هُوَ خَيْلٌ وَبِقَالٍ وَحَمِيرٌ ؛ وَقَدْ جَعَلَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْبِقَالِ فِي الْوَسْطِ ؛ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ جِنْسًا بَلْ تَأْتِي مِنْ جِنْسَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ .

وَيُنَبِّهُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ إِلَى أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ نَهَايَةِ الْمَطَافِ ؛ بَلْ هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْثَرُ ، فَقَالَ :

﴿ وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (A)

[النحل]

وَجَعَلَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ الْبُرَاقَ خَادِمًا لِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَجَعَلَ بِسَاطَ الرِّيحِ خَادِمًا لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِذَا كَانَتْ مِثْلُ تِلْكَ الْمُعْجَزَاتِ قَدْ حَدَّثَتْ لَأَنْبِيَاءَ ؛ فَقَدْ هَدَى الْبَشَرَ إِلَى أَنْ يَبْتَكَرُوا مِنْ وَسَائِلِ الْمَوَاصِلَاتِ الْكَثِيرِ مِنْ عَرِيَّاتِ تَجَرُّهَا الْجِيَادُ إِلَى سِيَارَاتِ وَقَطَارَاتِ وَطَلَّاتِ .

وَمَا زَالَ الْعِلْمُ يُطَوَّرُ مِنْ تِلْكَ الْوَسَائِلِ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَهُنَاكَ مَنْ يَقْتَنِي الْخَيْلَ وَيُرَبِّيَهَا وَيُرَوِّضُهَا وَيَجْرِئُهَا لِجَمَالِ مَنْظَرِهَا .

وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْوَسَائِلُ مِنَ الْمَوَاصِلَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ عَنَا

الاثقال ؛ وتلك المُخترعات التى هدانا الله إياها ؛ فما بَالُنَا بالمواصلات فى الآخرة ؟ لابد أن هناك وسائل تتناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاعٍ غير موجود فى الدنيا ؛ ولذلك يقول فى الآية التالية :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ
لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١ ﴾

والسبيل هو الطريق ؛ والقصد هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول (طريق قاصد) أى : طريق لا دوران فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أن نصل إلى الغاية بأقل مجهود .

ونحن فى لغتنا العامية نسال جندي المروء « هل هذا الطريق ماشى ؟ » رغم أن الطريق لا يمشى ، بل أنت الذى تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصلاً إلى الغاية ، وأنت حين تُعجزك الأسباب تقول « خُليها على الله » أى : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسبَّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْدِهِ ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهى الجنة ، جزاءً على الإيمان وحُسن العمل فى الدنيا . وأنت حين تقارن مَجْرَى نهر النيل تجد فيه التفافات وتعرُّجات ؛ لأن الماء هو الذى حفر طريقه ؛ بينما تنظر إلى الرياح التوفيقى مثلاً فتجده مستقيماً ؛ ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مقصد معين .

(١) الجائر : انماثل من الحق المنحرف عنه . فلا يصل سالكه إلى ما يريد . [القاموس القويم

وحسين يكون قَصْدُ السَّبِيلِ عَلَى اللَّهِ : فَإِنَّهُ لَا هَوَىٰ لَهُ وَلَا صَاحِبَ ، وَلَا وَلَدَ لَهُ ، وَلَا يَحَابِي أَحَدًا ، وَكُلُّ الْخَلْقِ بِالنِّسْبَةِ لَهُ سِوَاهُ : وَلِذَلِكَ فَهُوَ حِينَ يَضَعُ طَرِيقًا فَهُوَ يَضَعُهُ مُسْتَقِيمًا لَا عِوَجَ فِيهِ : وَهُوَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ الْقَائِلُ :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦)

أى : الطَّرِيقَ الَّذِي لَا انْتَوَاءَ فِيهِ لِأَيِّ غَرَضٍ ، بَلِ الْغَرَضُ مِنْهُ هُوَ الْغَايَةُ بِأَيْسَرِ طَرِيقٍ .

وَقَوْلُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ هُنَا :

﴿ وَاعْلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ . . ﴾ (٩)

يَجْعَلُنَا نَعُودَ بِالذَّاكِرَةِ إِلَى مَا قَالَهُ الشَّيْطَانُ فِي حِوَارِهِ مَعَ اللَّهِ قَالَ :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا غُرَيْبَهُمْ^(١) أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وَرَدَّ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ :

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٤١)

وَالْحَقُّ أَيْضًا هُوَ الْقَائِلُ :

﴿ إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ (١٢)

أى : أَنَّهُ حِينَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ أَوْضَحَ لَهُ طَرِيقَ الْهُدَايَةِ ، وَكَذَلِكَ يَقُولُ سَبْحَانَهُ :

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ^(٢) ﴾ (١٠)

(١) الْغُرَبَاءُ - أَضْلَاهُ وَأَوْقَعَهُ فِي الْغَى وَالضَّلَالِ ، وَغُرَى : بِمَعْنَى خَابَ وَضَلَّ لِأَنَّهُ انْهَكَتْ فِي الْبُهْل ، [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ٦٤ / ٢] .

(٢) الْتَجْدَانِ : طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ ، وَالتَّجْدُ : الْمَرْتَفَعُ مِنَ الْأَرْضِ ، فَالْمَعْنَى : أَلَمْ تَعْرِفْ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بَيْنَيْنِ كَيِّدَانِ الطَّرِيقَيْنِ الْعَالِيَيْنِ ، وَقِيلَ : التَّجْدَانِ : التَّشْدِيدَانِ [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : تَجْد] .

أى : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طرق الحق من الباطل ،
وهكذا يكون قوله هنا :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. (٩)﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايته موضوعه من الله سبحانه ،
والطريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الحق الذى لا هوى له ، والخلق
كلهم سواء أمامه .

وهكذا .. فعلى المُفَكِّرِينَ ألا يُرهِقُوا أنفسهم بمحاولة وَضْعِ تقنين
من عندهم لحركة الحياة ، لأن وُجْدَ الحياة قد وضع لها قوانين
صيانتها ، وليس أدلُّ على عَجْزِ المفكرين عن وضع قوانين تنظم حياة
البشر إلا أنهم يُغَيِّرُونَ من القوانين كل قِثْرَةٍ ؛ أما قانون الله فخالد
باقى أبداً ، ولا استدراكَ عليه .

ولذلك فَمِنَ المُرِيحِ للبشر أن يسيروا على منهج الله والذى قال
فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أن يُطِيقُوهُ ؛ وما تركه الله لنا نجتهد
فيه نحن .

وقوله الحق :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. (٩)﴾ [النحل]

أى : أنه هو الذى جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التى وضعها
سبحانه ، ذلك أن من السَّبِيلِ ما هو جائز ؛ ولذلك قال :

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ .. (٩)﴾ [النحل]

والذى يمنع الجور جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل :

﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ..﴾ [المؤمنون] (٧١)

بينما السبيل العادلة المستقيمة هي السبيل المتكفل بها سبحانه ،
وهي سبيل الإيمان ، ذلك أن من السبيل ما هو جائز أى : يطيل
المسافة عليك ، أو يعرضك للمخاطر ، أو توجد بها منحنيات تضل
الإنسان ، فلا يسير إلى الطريق المستقيم .

ونعلم أن السبيل تُوصل بين طرفين (من وإلى) وكل نقطة
تصل إليها لها أيضاً (من وإلى) وقد شاء الحق سبحانه ألا يقهر
الإنسان على سبيل واحد ، بل أراد له أن يختار ، ذلك أن التسخير
قد أراده الله لغير الإنسان مما يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم من يأتيه طائعا
ومن يعصى أوامره ، وكل البشر مجموعون إلى حساب ، ومن اختار
طريق الطاعة فهو من يذهب إلى الله محباً ، ويثبت له المحبوبة
التي هي مراد الحق من خلق الاختيار ، لكن لو شاء أن يثبت لنفسه
طلاقة القهر لخلق البشر مقهورين على الطاعة كما سخر الكائنات
الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب ؛ ولذلك يقول فى آخر الآية :

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل] (٩)

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..﴾

[الإسراء]

﴿(١١)﴾

وفى آية أخرى يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ ^(١)
كُلٌّ لِّدَعْوَىٰ صِلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أى : الإنس والجن ،
كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قلوباً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِمَّنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ^(٢) ﴿١٠﴾ ﴾
وقوله :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (١٠) ﴾ [النحل]

يبدو قولاً بسيطاً ؛ ولكن إن نظرنا إلى المعامل التى تُقَطَّرُ المياه
وتُخَلَّصُها من الشوائب لَعَلَّمْنَا قَدْرَ العمل المبذول لنزول الماء الصافى
من المطر .

والسمااء - كما نعلم - هى كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب
الذى يجىء نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار ،
فيتكوّن البخار الذى يتصاعد ، ثم يتكثف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك ؛
وينزل المطر على الأرض .

(١) الطير صافات . أى باسطات أجنحتها . وهفأت الطير فى السماء نصف : أى صفت
أجنتها ولم تحركها . [لسان العرب : مادة - صَفَف] .

(٢) تسيمون ، ترعون إليكم . أسام الدواب : أرسلها للرعى . [انقاموس النجوم ١ / ٢٢٧] .

ونعلم أن الكرة الأرضية مكوّنة من محيطات وبحار تُغطّي ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبْع الكرة الأرضية ؛ فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط فى مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التى تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمى لتكوّن نهر النيل لنستفيد نحن منه .

وتجد الحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ ^(١) سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ ^(٢) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ^(٣) فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ .. (٤٢) ﴾ [النور]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) ﴾ [النحل]

ولولا عملية البخر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً ؛ لما استطاع الإنسان أن يشرب الماء المالح الموجود فى البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أن جعل مياه البحار والمحيطات مالحة ؛ فالمالح يحفظ المياه من الفساد .

(١) أرزق الشيء - ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رُزِقَكُمْ الَّذِي يَرْزُقُكُمْ أَفَلَا تَتْلَوْنَ آيَةَ ﴾ (١١) .

[الإسراء] . أى - يدفعها ويُسيرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

(٢) الودق : المطر شديده رهيته . ودقت السماء : امطرت . [القاموس القويم ٢٢٧/٢] .

(٣) البرد : جبال صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً .

سُورَةُ الْفَجَلِ

﴿٧٨٢٩﴾

وبعد أن تُبَخَّرَ الشمسُ المياهَ لتصيرَ سحاباً ، ويسقط المطر
يشرب الإنسانُ هذا الماء الذي يُغْذِي الأنهارَ والآبارَ ، وكذلك ينبت
الماءُ الزرع الذي نأكل منه .

وكلمة ﴿ شَجَر ﴾ تدلُّ على السَّيِّئَاتِ الذي يلتفُّ مع بعضه .
ومنها كلمة « مشاجرة » والتي تعنى القِداخل من الذين يتشاجرون
معاً .

والشجر أنواع ؛ فيه مغروس بمالك وهو ملك لمن يغرسه
ويُشرف على إنباته . وفيه ما يخرج من الأرض دون أن يزرعه أحد
وهو ملكية مشاعة . وعادة ما تترك فيه الدواب لترعى ، فتأكل منه
دون أن يردّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فِيهِ تُسَمَّنُونَ (١٠) ﴾

[الفجل]

من سَام الدابة التي تُرعى في الملك العام ، وساعة ترعى الدابة
في الملك العام فهي تترك آثارها من مَسَارِبٍ^(١) وعلامات . وَيُسَمَّنُونَ^(٢)
الأرض التي يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان بأنها « روضة أنف »^(٣)
بمعنى أن أحداً لم يَأْتِ إليها أو يقربها ؛ كأنها أنفت أن يقطف منها
شيء .

(١) المسارب - مواضع الآثار . ومنها مسارب الحيات . مواضع آثارها إذا اتسابت في الأرض
على بملونها . [لسان العرب - مادة : سرب] .

(٢) يقال : روضة أنف وكلس أنف . لم يُشرب بها قبل ذلك . كأنه استأنف شربها مثل
روضة أنف . والأنف - الكلا الذي لم يُرْع ولم تطأه الماشية . [لسان العرب - مادة
أنف] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ
وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١)

وهكذا يعلمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنَبِّتُهُ ، وهنا يخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التي لها أثر في الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعنب وغيرها من كل الشجرات .

والزيتون - كما نعلم - يحتوى على مواد دهنية ؛ والعنب يحتوى على مواد سكرية ، وكذلك النخيل الذى يعطى البلح وهو يحتوى على مواد سكرية ، وغذاء الإنسان يأتى من النشويات والبروتينات .

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يوضح أنه قد أعطى الإنسان مكونات الغذاء ؛ فهو القائل :

﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [النين]

أى : أنه جعل للإنسان فى قوته البروتينات والدهنيات والنشويات والفيتامينات التى تصون حياته .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٢٦) : « قال بعض الأئمة هذه محال ثلاث ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً رسلاً من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار فالأول : محلة النين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام . والثانى طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة وهو البلد الأمين وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ . »

وحيث يرغب الأطباء في تغذية إنسان أثناء المرض ! فهم يذيبون العناصر التي يحتاجها للغذاء في السوائل التي يقطرونها في أورده بالحقن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة ؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .

ومن يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكوّن من نوعين : غذاء يملأ البطن ؛ وغذاء يمدّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلاً يملأ البطن ، ويمدّها بالألياف التي تساعد على حركة الأمعاء ، ولكن الكسب يُغذى ويضمن السمنة والوفرة في اللحم .

وحيث يقول الحق سبحانه :

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ..﴾ (١٦)

[النحل]

فعليك أن تستقبل هذا القول في ضوء قول الحق سبحانه :

﴿أَأَنْتُمْ تَرْزُقُونَهُ^(١) أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (١٤)

[الواقعة]

ذلك أنك تحرث الأرض فقط ، أما الذي يزرع فهو الحق سبحانه ؛ وأنت قد حرثت بالحديد الذي أودعه الله في الأرض فاستخرجته أنت ؛ وبالخشب الذي أنبتته الله ؛ وصنعت أنت منهما المحراث الذي تحرث به في الأرض المخلوقة لله ، والطاقة التي حرثت بها ممنوحة لك من الله .

(١) الزرع - الإنبات - يقال - زرع الله - أي - أنبتته ونمّاه حتى يبلغ غايته .. [لسان العرب -

مائة : زرع] .

ثم يُذَكِّرُك اللهُ بِأَنَّ كُلَّ الثَّمَرَاتِ هِيَ مِنْ عَطَائِهِ ، فيعطف العام على الخاص ؛ ويقول :

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (١١) ﴿﴾ [النحل]

أى : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات ؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهى أكثر من أن تُعد .

ويُذِيلُ الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١) ﴿﴾ [النحل]

أى : على الإنسان أن يُعْمَلَ فكره فى مُعْطِيَاتِ الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطِيَاتِ ، ويحدد وضعه ليجد نفسه غير فاعل ؛ وهو قابل لأن يفعل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذَكِّرَنَا أن التفكر ليس مهمة إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكان الحق سبحانه يريد لنا أن تتساند أفكارنا ؛ فمن عنده لقطة فكرية تؤدي إلى الله لأبد أن يقولها لغيره .

ونجد فى القرآن آيات تنتهى بالتذكُّر^(١) والتفكر^(٢) وبالتدبر^(٣) وبالتفقه^(٤) ، وكلٌ منها تؤدي إلى العلم اليقيني ؛ فحين يقول « يتذكرون » فالمعنى أنه سبق الإلزام بها ؛ ولكن النسيان محالها ؛ فكان من مهمتك أن تتذكر .

(١) ذكر الشيء ذكراً ، وذكراً ، وذكرى ، وتذكيراً ، حفظه ، وتذكره ، استعصره ، وتذكره ، وتذكر - جرى على لسانه بعد نسيانه ، [المعجم الوجيز ص ٢٤٥] .

(٢) تفكر فى الأمر - افكر ، التفكير - [صار العقل فى مشكلة للتوصل إلى حلها ..] [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

(٣) تدبر الأمر : شغل فيه وفكر ، [المعجم الوجيز ص ٢٢٠] .

(٤) تفقه : صار فقيهاً ، وتفقه الأمر : تفهمه وتفطنه ، [المعجم الوجيز ص ١٧٨] .

سُورَةُ الْجِنِّ

٧٨٢٢

أما كلمة « يتفكرون » فهي أَمْ كُلِّ تِلْكَ الْمَعَانِي ؛ لأنك حين تشغل
فكرك تحتاج إلى أمرين ، أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مُعْطَيَاتِ ظَوَاهِرِهَا وَمُعْطَيَاتِ
أَدْبَارِهَا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٦) ﴾ [النساء]

وهذا يعنى ألا تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أَنْ تَنْظُرَ إِلَى
المعطيات الخلفية كي تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفت ، فالمهمة
مَكُونَةٌ مِنْ أَرْبَعِ مَرَاهِلَ : تَفَكُّرٌ ، فَتَدَبُّرٌ ، فَتَفَقُّهُ ، فَتَمَرُّقَةٌ وَعِلْمٌ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّكَ فِي ذَلِكَ
لَا يَنْبَغُ لِلْقَوْمِ يَعْقِلُونَ (٨٧) ﴾

ونعلم أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَانِ وَاضِحَتَانِ ؛ وَاللَّيْلَ يَنْسَبُ الْقَمَرُ ،
وَالنَّهَارَ يَنْسَبُ الشَّمْسُ ، وَهُمَ جَمِيعًا مُتَعَلِّقُونَ بِفِعْلِ وَاحِدٍ ، وَهُم
نَسَقٌ وَاحِدٌ ، وَالتَّسْخِيرُ يَعْنِي قَهْرٌ مَخْلُوقٍ لِمَخْلُوقٍ ؛ لِيُؤَدِّيَ كُلُّ
مِهْمَتِهِ . وَتَسْخِيرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ؛ كُلُّ لَهُ مِهْمَةٌ ، فَاللَّيْلِ
مُهْمَتُهُ الرَّاحَةُ .

(١) سَخَّرَهُ : أَخْضَعَهُ وَهَرَفَهُ لِيَنْفِذَ مَا يَرِيدُ مِنْهُ بِدُونِ إِرَادَةٍ وَلَا اخْتِيَارٍ مِنَ الْمُسَخَّرِ . وَقَوْلُهُ
(مُسَخَّرَاتٌ) أَيُ : مُسَخَّرَاتٌ خَاضِعَاتٌ مَقهورَاتٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَبِإِرَادَتِهِ هُوَ لَا بِإِرَادَتِهَا وَلَا
بِاخْتِيَارِهَا . [الْقَامُوسُ الْمَوْجُودُ ٢٠٦/١] .

قال الحق سبحانه :

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [النقص]

والنهار له مهمة أن تكدح في الأرض لتبتغي رزقاً من الله
وقضلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدَّفء ، وهي تعطيك دون
أن تسأل ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنع عن عطاء قدره الله .

وهي ليست ملكاً لأحد غير الله ! بل هي من نظام الكون الذي لم
يجعل الحق سبحانه لأحد قدرة عليه ، حتى لا ينحكم أحد في أحد ،
وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وياك أن تتوهم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هي
مهام متكاملة ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤)﴾ [الليل]

أي : أن الليل والنهار وإن تقابلا فليس متعارضين ؛ كما أن
الذكر والأنثى يتقابلان لا لتعارض مهمة كل منهما بل لتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل ليوضح لنا هذا التكامل فيقول :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا (١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ
غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [النقص]

(١) الغشاء ، الخطاء . غَشِيَتِ الشَّيْءَ تَغْشِيَةً إِذَا غَطِيَتْه . [لسان العرب - مادة : غشى] .

فالليل يغشى الناس بظلمته ويقطع على ضوء النهار .

(٢) السرمدة : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمدة : طويل ، والسرمد : النائم الذي لا

ينقطع . [لسان العرب - مادة : سمرود] .

سُورَةُ النُّجُومِ

○ ٧٨٢ ○

وَأَيُّ إِنْسَانٍ إِنْ سَهَرَ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقَاوِمَ النُّوْمَ ؛
وَأَنْ أَدَّى مَهْمَةً فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ ؛ فَقَدْ يَسْتَحْتَاجُ لِرَاحَةٍ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
تَمْتَدُّ أَسْبُوعًا ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ^(١) (١) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٢) ﴾ [النبا]

وَالْإِنْسَانُ إِذَا مَا صَلَّى الْعِشَاءَ وَذَهَبَ إِلَى فِرَاشِهِ سَيَسْتَقِيقُ حَتَّى
مِنْ قَبْلِ الْفَجْرِ وَهُوَ فِي قِمَّةِ النَّشَاطِ ؛ بَعْدَ أَنْ قَضَى لَيْلًا مَرِيحًا فِي
سَبَّاتٍ عَمِيقٍ ؛ لَا قَلْقَ فِيهِ .

وَلَكِنْ الْإِنْسَانُ فِي بِلَادِنَا اسْتَوْرَدَ مِنَ الْغَرْبِ حَثَالَةَ الْحَضَارَةِ مِنْ
أَجْهَزةٍ تَجْعَلُهُ يَقْضِي اللَّيْلَ سَاهِرًا ، لِيَتَابَعَ التِّلْفِيزِيُونُ أَوْ أَفْلَامُ الْفِيدِيُو
أَوْ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ ، فَيَقُومُ فِي الصَّبَاحِ مُنْهَكًا ، رَغْمَ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ
الْبِلَادِ الَّتِي قَدِّمَتْ تِلْكَ الْمَخْتَرَعَاتِ ؛ نَجِدُهُمْ وَهُمْ يَسْتَخْدِمُونَ تِلْكَ
الْمَخْتَرَعَاتِ يَضَعُونَهَا فِي مَوَاضِعِهَا الصَّحِيحِ ، وَفِي وَقْتِهَا الْمُنَاسِبِ ؛
لِذَلِكَ نَجِدُهُمْ يَنَامُونَ مُبَكِّرِينَ ، لِيَسْتَقِيقُوا فِي الْفَجْرِ بِمَهْمَةٍ وَنَشَاطٍ .

وَيَبْدَأُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ جُمْلَةً جَدِيدَةً تَقُولُ :

﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. (١٢) ﴾ [النحل]

نَلْحِظُ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِالنُّجُومِ مَعْطُوفَةً عَلَى مَا قَبْلُهَا ، بَلْ خَصَّهَا الْحَقُّ
سُبْحَانَهُ بِجُمْلَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا أَقَلُّ الْأَجْرَامِ . وَقَدْ لَا نَتَبَيَّنُهَا
لِكَثْرَتِهَا وَتَعَدُّدِ مَوَاقِعِهَا وَلَكِنَّا نَجِدُ الْحَقَّ يُقَسِّمُ بِهَا فَهَرِ الْقَائِلِ :

(١) يُشَبِّهُ اللَّيْلَ بِاللِّبَاسِ لِأَنَّهُ سَاتِرٌ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١٨٨/٢] . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ
(٤/٤٦٢) : « أَيُّ يَغْشِي النَّاسَ ظِلَامُهُ وَسَوَادُهُ . وَفِيهَا قِتَابَةٌ : (لِبَاسًا) أَيُّ : سَكَنًا .
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (٢) ﴾ [النبا] أَيُّ . جَعَلْنَاهُ مَشْرُوقًا نِيرًا مُضِيئًا لِيَسْتَطِيعَ
النَّاسُ مِنَ التَّحَرُّفِ فِيهِ وَالذَّهَابِ وَالْمَحْيَةِ الْمَعْلَشِ وَالتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَاتِ . »

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾

[الواقعة]

فكلُّ نجمٍ من تلك النجوم البعيدة له مهمة ، وإذا كنت أنت في حياتك اليومية حين ينطفئ النور تذهب لتري : ماذا حدث في صندوق الأكيباس الذى فى منزلك ؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدّم العلم ليصنّع لك المصباح الكهربائى . وكيف مدّت الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك . وإذا كنت تجهل ما خلف الأثر الواحد الذى يصلك فى منزلك ، فعا بالك بقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) ﴾

[الواقعة]

وهو القائل :

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنُّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾

[النحل]

وقد خصّها الحق سبحانه هنا بجعله جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن لكل منها منازل ، وهى كثيرة على العدّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوءه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبين أن لله سرا فى كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفت إلى أن تركيبات الأشياء التى تنفعنا مواجهة وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيل الآية الكريمة بقوله :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢) [النحل]

ونعلم أن الآيات هي الأمور العجيبة التي يجب ألا يمر عليها الإنسان مراً معرضاً ؛ بل عليه أن يتأملها ، ففي هذا التأمل فائدة له ؛ ويمكنه أن يستنبط منها المجاهيل التي تُنعم البشر وتُسعدهم .

وكلمة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ تعني إعمال العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبة خاصة ؛ وهو يستنبط من المُحسّنات الأمور المعنوية ، وبهذا يأخذ من المعلوم نتيجة كانت مجهولة بالنسبة له ؛ فيُسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمةً يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أن يستنبط ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَمَا ذَرَأَا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِلَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣)

وكلمة ﴿ذَرَأَ﴾ تعني أنه خلق خلقاً يتكاثر بذاته ؛ إما بالحمل للأنثى من الذكور ؛ في الإنسان أو الحيوان والنبات ؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما في الطيور .

وهكذا نفهم الذُرَّةَ بمعنى أنه ليس مطلق خلق ؛ بل خلق بذاته في

(١) ذرأ الله الخلق يذرؤهم : خلقهم وبثهم وكرهم . [القاموس القويم ٢٤٢/١] .

التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسل بذاته حين يجتمع زوجان وتنتجاً مثيلاً لهما ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قَتَبَارَكَ^(١) اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يعطيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخلق الله ؛ فهو قد خلق آدم ثم أوجدهم من نسله ، والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخلق الله ؛ فهم لا يخلقون من معدوم ؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم من لا وجود له ؛ وهو بذلك أحسن الخالقين .

والمثل الذي أضربه دائماً هو الحبة التي تثبت سبع سنابل وفي كل سنبل مائة حبة ؛ وقد أوردنا الحق سبحانه ليشوق للإنسان عملية الإتفاق في سبيل الله^(٢) ، وهذا هو الخلق المادي الملموس ؛ فمن حبة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ .. (١٢) ﴾ [النحل]

أي : ما خلق لنا من خلق متكاثر بذاته تختلف ألوانه ، واختلاف الألوان وتعددتها دليل على طلاقة قدرة الله في أن الكائنات لا تخلق على نمط واحد .

(١) تبارك الله ، تقدس وتنزه عن كل نقص ، أو كثر خيرُه على عباده ، [انعاموس القويم ٦٥/١] :

(٢) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَبَاقِلَ فِي كُلِّ سَبَاقِلَةٍ مِائَةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١٦٧) ﴾ [البقرة] .

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر في قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا
وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ^(١) بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ^(٢) سُودٌ^(٣) ﴾ (٢٧) وَمِنَ
النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ (٢٨) ﴾ [فاطر]

وأنت تمشي بين الجبال ؛ فتجدها من ألوان مختلفة ؛ وعلى الجبل
الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقات متعددة ، وهكذا تختلف الألوان
بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر
أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴾ (٢٨) [فاطر]

فلنا أن نعرف أن العلماء هنا مقصود بهم كل عالم يقف على
قضية كونية مركوزة في الكون أو نزلت من المكون مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود
هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلى
أسرار الله في خلقه . وقد أراد ﷺ أن يفرق فرقاً واضحاً في هذا
الأمر ، كي لا يتدخل علماء الدين في البحث العلمي التجريبي الذي

(١) الجُدَدُ : الطرائق تكون في الجبال جمع جدة . وهي الطريقة في السماء والجبل . وقوله عز
وجل : ﴿ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ ... ﴾ (٢٧) [فاطر] أي طرائق تختلف لون الجبل [لسان العرب -
ملحة . جدد] .

(٢) غرابيب . شديد السواد وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٥٠/٢] .

يُفِيدُ النَّاسَ . وَوَجَدَ ﷺ النَّاسَ تُؤَبِّرُ^(١) النَّخِيلَ : بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَأْتُونَ
بِطَلْعِ الذُّكُورَةِ : وَيُلْقِحُونَ النَّخِيلَ الَّتِي تَتَصَفَّ بِالْأُنُوثَةِ . وَقَالَ : لَوْ لَمْ
تَفْعَلُوا لَأَثْمَرْتُ . وَلَمَّا لَمْ تَثْمُرِ النَّخِيلَ ، قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَمْرَ :
وَأَمَرَ بِإِصْلَاحِهِ وَقَالَ الْقَوْلُ الْفَصْلُ « أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ »^(٢) .

أى : أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ التَّجْرِبِيَّةِ الْمُعْمَلِيَةِ ، وَنَلْحِظُ أَنَّ الَّذِي حَجَزَ
الْحَضَارَةَ وَالتَّحْطُّورَ عَنْ أَوْرِبَا لِقُرُونٍ طَوِيلَةٍ : هُوَ مُحَاوَلَةُ رِجَالِ الدِّينِ
أَنْ يَحْجُرُوا عَلَى الْيَحْثِ الْعِلْمِيِّ : وَيَتَهَمُوا كُلَّ عَالَمٍ تَجْرِبِيٍّ بِالْكَفْرِ .

وَيَتَمَيَّزُ الْإِسْلَامُ بِأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي لَمْ يَحُلْ دُونَ يَحْثِ أَى آيَةٍ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ . وَمِنْ حَنَانِ اللَّهِ أَنْ يُوضَّحَ لَخَلْقِهِ أَهْمِيَّةُ الْبَحْثِ فِي
أَسْرَارِ الْكَوْنِ ، فَهُوَ الْقَائِلُ :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴾ (١٠٥)

[يوسف]

أى : عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ أَلَّا تُعْرِضَ عَنْ أَى آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي
فِي الْكَوْنِ : بَلْ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُعْمَلَ عَقْلُهُ وَفِكْرُهُ بِالتَّأَمُّلِ لِيَسْتَفِيدَ
مِنْهَا فِي اعْتِقَادِهِ وَحَيَاتِهِ . يَقُولُ الْحَقُّ :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ ۖ ﴾ (٥٦)

[فصلت]

(١) أَبْرَ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ يَأْبِرُهُ : إِصْلَحَهُ . وَتَأْبِيرُ النَّخْلِ : تَلْقِيحُهُ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ
أَبْر] .

(٢) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٦٢) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ
يُلْقِحُونَ ، فَقَالَ : لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ . قَالَ : فَخَرَجَ شَيْصًا (التَّعْرُودِيَّةُ) فَسَمَرُ بِهِمْ
فَقَالَ : مَا لَنُخْلِكُمْ ؟ قَالُوا : قُلْتَ كَذَا وَكُنَّا . قَالَ : أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ » .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ^(١) مِنْهَا ۖ ﴾ (٧٢)

[الاحزاب]

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خير خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التي هي ما دون الإنسان أخذت اختيارها مرة واحدة ؛ لذلك لا يجب أن يُقال : إن الحق سبحانه هو الذي قهرها . بل هي التي اختارت من أول الأمر ؛ لأنها قدرت وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكسانها قالت لنفسها : فلأخرج من باب الجمال ؛ قبل أن يفتح أمامي باب ظلم النفس .

وتجد الحق سبحانه يصف الإنسان :

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٤)

[الاحزاب]

فقد ظلم الإنسان نفسه حين اختار أن يحمل الأمانة ؛ لأنه قدر وقت التحمل ولم يقدر وقت الأداء ، وهو جهول لأنه لم يعرف كيف يُفرق بين الأداء والتحمل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .

وهكذا تصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أن يتخلف عنها ؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لمهمة له أن يؤديها أو يتخلف عنها .

وأوضحنا أن المسخرات كان لها أن تختار من البداية ، فاختارت أن تُسخر والأَّتحمّل الأمانة ، بينما أخذ الإنسان المهمة . واعتمد على عقله وفكره ، وقبل أن يُرتب أمور حياته على ضوء ذلك .

(١) الشفق : الخوف . والشفقة : رقة من نصح أو حب يؤدي إلى خوف . [لسان العرب - مادة : شفق] .

سُورَةُ النُّحْلِ

٧٨٤٣

ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كي يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار ؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجري على الإنسان ولا اختيار له فيها ؛ كأن يمرض أو تقع له حادثة أو يُفلس .

ولذلك أقول ؛ إن الكافر مُغفل لاختياره ؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفي الآية التي نحن بصددنا الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَخَّرَ الْبَحْرَ .. ﴾ (١٤)

فهذا يعنى أنه هو الذى خلق البحر ، لأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض ؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أى ؛ أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذ منها بعضاً من الطعام فيقول :

﴿ لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴾ (١٥)

[النحل]

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتى المدُّ أحياناً ثم يعقبه الجَزَرُ ؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطئ ، أو قد تحمل موجة عفية بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطئ .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجود بعض من الأسماك على الشاطئ هو الذى نبيّه الإنسان إلى أهمية أن يحتال

وَيَصْنَعُ السَّنَارَةَ ؛ وَيَغْزِلُ الشَّبَكَةَ ؛ ثُمَّ يَنْتَقِلُ مِنْ تِلْكَ الْوَسَائِلِ الْبِدَائِيَّةِ إِلَى التَّقْنِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ فِي صَيْدِ الْأَسْمَاكِ .

لَكِنِ الْحَلِيَّةُ الَّتِي يَتِمُّ اسْتِخْرَاجُهَا مِنَ الْبَحْرِ فَهِيَ اللَّوْلُؤُ ، وَهِيَ تَقْتَضِي أَنْ يَغْوَصَ الْإِنْسَانُ فِي الْقَاعِ لِيَلْتَقِطَهَا . وَيَلْفِتُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ إِلَى أَسْرَارِ كَنْوَزِهِ فَيَقُولُ :

﴿ثُمَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ^(١) (٦) [طه]

وَكُلُّ كَنْوَزِ الْأَمَمِ تَوْجِدُ تَحْتَ الثَّرَى . وَنَحْنُ إِنَّا قَسَمْنَا الْكَرَّةَ الْأَرْضِيَّةَ كَمَا نَقْسِمُ الْبَطِيخَةَ إِلَى قِطْعٍ كَالَّتِي نُسَمِّيهَا « شَقَّةَ الْبَطِيخِ » سَنَجِدُ أَنَّ كَنْوَزَ كُلِّ قِطْعَةٍ تَتَسَاوَى مَعَ كَنْوَزِ الْقِطْعَةِ الْآخَرَى فِي الْقِيَمَةِ النَّفْعِيَّةِ ؛ وَلَكِنْ كُلُّ عَطَاءٍ يَوْجَدُ بِجِزَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ لَهُ مِيعَادُ مِيلَادٍ يَحْدِدُهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ .

فَهَنَّاكَ مَكَانَ فِي الْأَرْضِ جَعَلَ اللَّهُ الْعَطَاءَ فِيهِ مِنَ الزَّرَاعَةِ ؛ وَهَنَّاكَ مَكَانَ آخَرَ صَحْرَاوِيَّ يَخَالُهُ النَّاسُ بَلَاءً أَيْ نَفْعًا ؛ ثُمَّ تَتَفَجَّرُ فِيهِ أَبَارُ الْيَتْرُولِ ، وَهَكَذَا .

وَتَسْخِرُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِلْبَحْرِ لَيْسَ بِإِيجَادِهِ فَقَطْ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا ؛ بَلْ قَدْ تَجَدَّدَ لَهُ أَشْيَاءٌ وَمِهَامٌ أُخْرَى مِثْلَ انْتِشَاقِ الْبَحْرِ بِعَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَصَارَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ ^(٢) الْعَظِيمِ .

(١) الثَّرَى : التُّرَابُ النَّدَى أَوْ التُّرَابُ مُطْلَقًا . قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) [طه] . أَيْ مَا تَحْتَ جَمِيعِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ . [الْقَامُوسُ الْقَوِيمُ ١٠٧/١] .
(٢) يَقُولُ تَعَالَى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ امْحُرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٦) [الشعراء] . وَالطُّودُ الْعَظِيمُ : الْجَبَلُ الْكَبِيرُ . قَالَ عَطَاءُ الْخِرَاسَانِيُّ : هُوَ الْفَجَّ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ . [تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٣/٢٢٦] .

سُورَةُ الْفَجْرِ

﴿٧٨﴾

ومن قبل ذلك حين حمل اليم^(١) موسى عليه السلام بعد أن ألقته أمه فيه بإلهام من الله :

﴿فَلْيَنْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٢٩)﴾ [ملء]

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحمل موسى إلى الشاطئ فور أن تُلقيه أمه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر في مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحلى . ونعلم أن ماء البحر مالح ؛ عكس ماء النهر وماء المطر ؛ فالمائية تنقسم إلى قسمين ؛ مائية عذبة ، ومائية ملحية .

وقوله الحق عن ذلك :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ^(٢) سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ^(٣) وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١١)﴾

[فاطر]

ويسمّونهم الاثنين على التغليب في قوله الحق :

﴿مَرَجٌ^(٤) الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)﴾ [الرحمن]

والمقصود هنا الماء العذب والماء المالح ، وكيف يختلطان ، ولكن

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (٢٩)﴾ [الأنعام] وهو خليج السويس ومساؤه ملح وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿فَلْيَنْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٢٩)﴾ [ملء] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم ٢٧٢/٢] .

(٢) الفرات : أشد الماء عذوبة . وقد فُرَّت السماء : هُذِبَ . [لسان العرب - مادة : فرت] . وشراب سائغ : عذب يسهل مدخله في الحلق . [لسان العرب - مادة : سوغ] .

(٣) الملح الأجاج : الشديد الملوحة والمرارة . [لسان العرب - مادة : أجاج] .

(٤) مرج الشيء : خلطه . أى خلطهما حالة كونهما يلتقيان . [القاموس القويم ٢٢٩/٢] .

الماء العَذْبُ يتسَرَّبُ إلى بطن الأرض ، وأنت لو حَفَرْتَ في قاع البحر لوجدتَ ماءً عَذْبًا ، فالحق سبحانه هو الذي شاء ذلك وبَيَّنَّه في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٢١)

[الزمر]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. ﴾ (١٤) [النحل]

واللحم إذا أطلق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام ، أما إذا قُيِّدَ بـ « لحم طري » فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآني ؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طرياً دائماً .

ونجد مَنْ يشتري السمك وهو يَتَنَبَّهُ السمكة ، فإن كانت طرية فتلك علامة على أنها صالحة للأكل ، وإن كانت لا تتنفس فهذا يعني أنها فاسدة ، وأنت إن أخرجت سمكة من البحر تجد لحمها طرياً ؛ فإن ألقيتها في الماء فهي تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء ؛ أما إن كانت ميتة فهي تنتفخ وتطفو .

لذلك نهى النبي ﷺ عن أكل السمك الطافي لأنه الميتة ، وتقيد اللحم هنا بأنه طري كي يخرج عن اللحم العادي وهو لحم الأنعام ؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلفَ ألا يأكل لحمًا ؛ ثم أكل سمكاً فهو لا يحنث ؛ لأن العرف جرى على أن اللحم هو لحم الأنعام .

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية عن تسخير البحر :

﴿ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُ حَلِيبَةً تَلْهَبُونَهَا .. ﴾ (١٢) [النحل]

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً : لأنها رقابية : أما السمك فقال عنه مباشرة :

﴿لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤)﴾ [النحل]

والأكل أمر ضروري لذلك تكفله الله وأعطى التسهيلات في صَيِّدِهِ ، أما الزينة فلكَ أَنْ تتعبَ لتستخرجه ، فهو ثَرَفٌ . وضروريات الحياة مَجْرُولة : أما ثَرَفُ الحياة فيقتضى منك أَنْ تنفُسَ في الماء وتتعبَ من أجله .

وفي هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أَنْ يرتقى في معيشتِهِ : فليكثر من دخله ببذل عرقه : لا أَنْ يُتَرَفَ معيشتِهِ من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

﴿تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٥)﴾ [النحل]

والحليّة كما تعلم تلبسها المرأة . والملاحظ الأدنى هنا أن زينة المرأة هي من أجل الرجل : فكان الرجل هو الذي يستمتع بتلك الزينة ، وكأنه هو الذي يتزين . أو : أن هذه المُستخرجات من البحر ليست مُحَرَّمة على الرجال مثل الذهب والحديد : فالذهب والحديد نقدٌ : أما اللؤلؤ فليس نقداً .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصحّ أَنْ تُصنَعَ من تلك الحليّة عصاً أو أى شيء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه في نفس الآية .:

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ .. (١٦)﴾ [النحل]

ولم تكن هناك بواخر كبيرة كالتى فى عصرنا هذا بل تلك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول من صنع الفُلَّك ، وسَفَر منه قومه ؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لما سَفَرُوا منه . وبطبيعة الحال لم يكن هناك مسامير لذلك ربطها بالخيال ؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ^(١) ﴾ [القمر]

وكان جَرَى مركب نوح بإرادة الله . ولم يكن العلم قد تقدّم ليصنع البشر المراكب الضخمة التى تنبأ بها القرآن فى قوله الحق ؛ ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ^(٢) ﴾ [الرحمن]

ونحن حين نقرأها الآن نتعجب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر ؛ فالقرآن عالم بما يجدر ؛ لا بقهريات الاقتدار فقط ؛ بل باختيارات البشر أيضاً .
وقوله الحق :

﴿ وَتَرَىٰ الْفُلَّكَ مَوَازِيرَ فِيهِ ^(٣) .. ﴾ [النحل]

والمَآخِر هو الذى يشق حلزومه الماء ، والحَلَزُوم هو الصدر . وتجد من يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادة لتكون رأس الحربة التى تشق المياه بخير .

(١) النسار . المسمار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة . وجمعه دسر . [القاموس القويم ٢٢٧/١] .

(٢) الأعلام جمع علم وهو الجبل . فهو يصف السفن بالجيال فى كبرها . قال ابن كثير فى تفسيره (٢٧٢/٤) : . أى . كالجيال فى كبرها وما فيها من المتاجر وانكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم مما فيه هلال للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع . .

سُورَةُ النُّحْلِ

٧٨٤٩

وفى هذه الآية امتنُّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُلى ، وسَيْرُ الفلك فى البحر ؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدُّ ؛ فيقول :

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ... (١٣)﴾ [النحل]

وكان البواخر وهى تشقُّ الماء ويرى الإنسان الماء اللين ، وهو يجمل الجسم الصلِّب للباخرة فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسان من مكان إلى مكان .

ويُذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)﴾ [النحل]

ولا يُقال ذلك إلا فى سرِّد نعمة آثارها واضحة ملحوظة تستحقُّ الشكر من العقل العادى والقطرة العادية ، وشاء سبحانه أن يترك الشكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ
وَأَنْهَضَا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥)﴾

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خلقت على مراحل ،

ويشرح ذلك قوله سبحانه :

(١) عاد يمشي : تحرك وامتنز . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ... (١٥)﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس المفيد ٢/ ٢٤٦] .

﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ^(١) ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ^(٢) فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

وهكذا علمنا أن جرم الأرض العام قد خُلِقَ أولاً ؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة ؛ ولأن الحركة هي التي تاتى بالعديدان - التارجح يميناً وشمالاً - وعدم استقرار الجرم على وضع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق في الأرض الرواسي لتجعلها تبتدئ ثابتة غير مُقلقة ، والرأسي هو الذي يُثبت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال ، ولكنه خلق الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أن تמיד بخلق الجبال ليجعل الجبال رواسي للأرض .

وفي آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨) ﴾ [النمل]

وكلمة ﴿ أَلْقَى ﴾ تدلُّ على أن الجبال شيء متماسك وضع ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

﴿ وَأَنهَارًا وَبُلًّا .. (١٥) ﴾

[التعل]

(١) الأنداد - جمع ند ، وهو الضد والشبيه . ويريد بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله . [لسان العرب - مادة : ند] .

(٢) الأقوات جمع قوت ، وهو الرزق . قال ابن كثير في تفسيره (٩٢/١) : « هو ما يحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس » .

أى : أن ما تقدم من خلق الله هو علامات تدلُّ على ضرورة أن
تروا المنافع التى أودعها الله فيما خلق لكم : وتهتدوا إلى الإيمان بآله
موجد لهذه الأشياء لصالحكم .

وما سبق من علامات مقررهُ الأرض ، سواء الجبال أو الأنهار أو
السُّبُل ؛ وأضاف الحق سبحانه لها فى هذه الآية علامة توجد فى
السماء ، وهى النجوم .

ونعلم أن كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم . وتكلم عنها
الحق سبحانه هنا كتسخير مُختص ؛ ولم يدخلها فى التسخيرات
المتعددة ؛ ولأن نجماً يقود لنجم آخر ، وهناك نجوم لم يصلنا
ضوؤها بعد ، وتنتفع بآثارها من خلال غيرها^(١) .

ونعلم أن قريشاً كانت لها رحلتان فى العمام : رحلة الشتاء ،
ورحلة الصيف . وكانت تسلك سبلاً متعددة ، فتهتدى بالنجوم فى
طريقها ، ولذلك لا بد أن يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَبِالنُّجُومِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾

[النحل]

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٨١٦/٥) : قال ابن العربي : أما جميع النجوم فلا يهتدى
بها إلا العارف بمطالعها ومقاربها ، والفرق بين الجنوبي والشمالي منها ، وذلك قليل فى
الآخرين . وأما الشريا فلا يهتدى بها إلا من يهتدى بجميع النجوم . وإنما انهدى لكل أحد
بالجدي والفرقدين ، لأنهما من النجوم المنحصرة المطالع الطاهرة السمعت النائية فى
المكان . فإنها تدور على القطب الثابت دوراناً مسملاً . فهى أبداً مَدَى الخلق فى البر إذا
عميت الطرق ، وفى البحر عند مجرى السفن ، وفى القبلة إذا جهل السمّت ، وذلك على
الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكب الأيسر لما استقبلت فهو سمت الجهة .

سُورَةُ الْجَنَّةِ

﴿ ٧٨٥٢ ﴾

قد فضّل الحق هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أن تؤدي المعنى ؛ هي : « يهتدون بالنجم » و « بالنجم يهتدون » والثالث : هو الذي استخدمه الحق فقال :

﴿وَالنَّجْمُ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم ؛ لأنها تسافر كل عام رحلتين ، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة .

والضمير « هم » جاء ليعطى خصوصيتين ؛ الأولى : أنهم يهتدون بالنجم لا بغيره ؛ والثانية : أن قريشاً تهتدى بالنجم ، بينما غيرها من القبائل لا تستطيع أن تهتدى به .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧)﴾

ونعلم أن الكلام الذي يلقيه المتكلم للسامع يأخذ صوراً متعددة ؛ فمرة يأخذ صورة الخير ، كأن يقول : مَنْ لَا يَخْلُقُ لَيْسَ كَمَنْ يَخْلُقُ . وهذا كلام خبري ، يصح أن تُصدّقه ، ويصح ألا تُصدّقه .

أما إذا أراد المتكلم أن يأتي منك أنت التصديق ، ويجعلك تنطق به ؛ فهو يأتي لك بصيغة سؤال ، لا تستطيع إلا أن تجيبَ عليه بالتأكيد لما يرغبه المتكلم .

ونعلم أن قريشاً كانت تعبد الأصنام ؛ وجعلوها آلهة ؛ وهي لم تكلمهم ، ولم تُنزلَ منهمجاً ، وقالوا ما أوردته الحق سبحانه على السنتهم :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ^(١) ۖ ۞ (٢) ﴾ [الزمر]

فلماذا إذن لا يعبدون الله مباشرة دون وساطة ؟ ولماذا لا يرفعون عن أنفسهم مشقة العبادة ، ويتجهون إلى الله مباشرة ؟
ثم لنسأل : ما هي العبادة ؟

نعلم أن العبادة تعنى الطاعة في « افعل » و « لا تفعل » التي تصدر من المعبود . وبطبيعة الحال لا توجد أوامر أو تكاليف من الأصنام لمن يعبدونها ، فهي معبودات بلا منهج ، وبلا جزاء لمن خالف ، وبلا ثواب لمن أطاع ، وبالتالي لا تصلح تلك الأصنام للعبادة .

ولنتناقش المسألة من زاوية أخرى ، لقد أوضح الحق سبحانه أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر كل الكائنات لخدمة الإنسان الذي أوكل إليه مهمة خلافة في الأرض ^(٢) .

وكل تلك الأمور لا يدعيها أحد غير الله ، بل إنك إن سألت الكفار والمشركين عن خلقهم ليقولن الله .

قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ ۞ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

(١) الزلفى : التقرب والمقولة والدرجة . زلفى إليه : قرب ودنا . [القاموس التوحيدي ٢٨٨/١] .
والمعنى كما قاله قتادة والسدي : أي ليسبقوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في توبيخهم إذا حجوا في جاهليتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .
نقله ابن كثير في تفسيره (٤٥/٤) ..

(٢) قال تعالى في قرآنه : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ۞ (٢) ﴾ [البقرة] .

ذلك أن عملية الإيجاد والخلق لا يجزئ أحد أن يدعيها إن لم يكن هو الذي أبدعها ، وحين تسألهم : مَنْ خلق السماوات والأرض لقالوا : إنه الله^(١) .

وقد أبلغهم محمد ﷺ أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض ، وأن منهجه لإدارة الكون يبدأ من عبادته سبحانه .

وما دام قد ادعى الحق سبحانه ذلك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه : فالدعوة تثبت له إلى أن يوجد معارض ، ولم يوجد هذا المعارض أبداً .

وهنا هي الآية التي نحن بصدد خواتمنا عنها : لم يقل الحق سبحانه « أتجعلون مَنْ لا يخلق مثل من يخلق » . بل قال :

﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٧)

[النحل]

وراء ذلك حكمة : فهؤلاء الذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله : وتوهموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام ؛ ولذلك جاء القول الذي يناسب هذا التصور .

والحق سبحانه يريد أن يبطل هذا التصور من الأساس ؛ ف أوضح أن مَنْ تعبدونهم هم أصنام من الحجارة وهي مادة ولها صورة ، وأنتم صنعتُموها على حسب تصوركم وقدراتكم .

وفي هذه الحالة يكون المعبود أقل درجة من العابد وأدنى منه ؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لمن يعبدها ضراً ولا نفعاً .

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَقَالُوا اللَّهُ .. ﴾ (٢١)

[الأنبياء]

ثم : لماذا تدعون الله إن مسكم ضرر ؟

إن الإنسان يدعو الله في موقف الضرر ؛ لأنه لحظتها لا يجرو
على خداع نفسه ، أما الآلهة التي صنعوها وعبدوها فهي لا تسمع
الدعاء :

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يَنْبَغُ مِثْلُ خَيْرِ (١١)﴾ [فاطر]

فكيف إذن تساوون بين من لا يخلق ، ومن يخلق ؟ إن عليكم أن
تذكروا ، وأن تتفكروا ، وأن تعملوا عقولكم فيما ينفعكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا (١)
إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾

وهذه الآية سبقت في سورة إبراهيم ؛ فقال الحق سبحانه هناك :
﴿وَأَنَّا كُنتُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

وكان الحديث في مجال من لم يعطوا الألوهية الخالقة ، والربوبية
الموجدة ، والمُمدّة حقّها ، وجحدوا كل ذلك . ونفس الموقف هنا
حديث عن نفس القوم ، ليوضح الحق سبحانه :

(١) لا تحصوها : لا تطيقوا عدّها . ولا تقوموا بحصرها لكثرتها . كناسع والبصر وتقويم
الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق . [فانه القرطبي في تفسيره ٥/ ٢٧٠٥] .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٨٥٧

أنتم لو استعرضتم نعم الله قلن تحصرها ، ذلك أن المعدود دائماً يكون مكرر الأفراد ؛ ولكن النعمة الواحدة في نظرك تشتمل على نعم لا تُحصى ولا تُعد ؛ فما بالك بالنعم مجتمعة ؟

أو : أن الحق سبحانه لا يمتن إلا بشيء واحد ، هو أنه قد جاء لكم بنعمة ، وتلك النعمة أفرادها كثير جداً .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)﴾

[النحل]

أى : أنكم رغم كفركم سيزيدكم من النعم ، ويعطيكم من منافع الرحمة ، فمنكم الظلم ، ومن الله الغفران ، ومنكم الكفر ومن الله الرحمة .

وكان تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية التي في سورة إبراهيم حيث قال هناك :

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٢١)﴾

[إبراهيم]

فهو سبحانه غفور لجحدكم وتكرانكم لجميل الله ، وهو رحيم ، فيوالى عليكم النعم رغم أنكم ظالمون وكافرون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)﴾

والسر - كما نعلم - هو ما حبسته في نفسك ، أو ما أسررت به لغيرك ، وطلبت منه ألا يعلمه لأحد ، والحق سبحانه يعلم السر ، بل يعلم ما هو أخفى فهو القائل :

[طه]

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾

أى : أنه يعلم ما تُسرّه فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سرّاً قبل أن تُسرّه فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السرّ فقط : بل يعلم العلن أيضاً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

أى : أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا شيئاً : بل هم يُخلقون ، والأصنام كما قلنا من قبل هى أدنى ممّن يخلقونها ، فكيف يستوى أن يكون المعبود أدنى من العابد ؟ وذلك تسفيه لعبادتهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لحظة أن حطّم الأصنام ، وسأله أهله : مَنْ فعل ذلك بالهتّنا ؟ وأجاب :

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا . . . (٦٢)﴾

[الأنبياء]

فقالوا له : إن الكبير مجرد صتم ، وأنت تعلم أنه لا يقدر على شيء .

ونجد القرآن يقول لامثال هؤلاء :

[المصافات]

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ^(١)﴾ (٩٥)

فهذه الآلهة - إذن - لا تخلق بل تُخلق ، لكن الله هو خالق كل شيء ، وسبحاته القائل :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣)

[الحج]

ويذكر الحق سبحانه من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام :

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يَعْشَوْنَ﴾ (٢١)

وهم بالفعل أموات ؛ لانهم بلا حس ولا حركة ، وقوله :

[الفعل]

﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ ..﴾ (٢١)

تفيد أنه لم تكن لهم حياة من قبل ، ولم تثبت لهم الحياة في دورة من دورات الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام ، فهم لا يخلقون شيئاً ، بل هم مخلوقون بواسطة مَنْ نَحَتُوهم ، وتلك الأصنام والاولئان لن تكون لها حياة في الآخرة ، بل ستكون وقُرداً للنار .

(١) نحته : براه واقطع منه أجزاء ، ويكون ذلك في الأشياء الصلبة كالحجر والخشب .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ^(١) وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) [الصافات]

وبطبيعة الحال لن تشعر تلك الحجارة ببعض مَنْ عبدها .

ويُصَفَّى الحق سبحانه من بعد ذلك المسألة العقديّة ، فيقول :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ
مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٢٢)

وقوله الحق :

﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. ﴾ (٢١) [النحل]

تمنع أَنْ يكونَ هناك أفراد غيره مثله ، وقد يتصور البعض أنها تُساوي كلمة « أحد » . وأقول : إن كلمة « أحد » هي منع أَنْ يكونَ له أجزاء ؛ فهو مُنْزَهٌ عَنِ التَّكْرَارِ أو التجزئ .

وفي هذا القول طمأنة للمؤمنين بأنهم قد وصلوا إلى قِمة الفهم والاعتقاد بأن الله واحد .

أو : هو يُوَضِّحُ للكافرين أَنَّ الله واحدٌ رغم أنوفكم ، وستعودون

(١) أزواجهم : نظرائهم وأضرابهم وقربانهم . [لسان العرب - مادة : زوج] . « قال عمر ابن الخطاب : أزواجهم : أشباههم يجرى أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر » . نقله ابن كثير في تفسيره (٤/٤) .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٢٨١٩/٥) : « أي : لا تقبل الوعد » . ولا ينجع فيها الذكر » .

إليه غَصْبًا ، وبهذا القول يكشف الحق سبحانه عن الفطرة الموجودة في النفس البشرية التي شهدت في عالم الدُّرُّ أن الله واحد لا شريك له ، وأن القيامة والبعث حق .

ولكن الذين لا يؤمنون بالله وبالآخرة هم مَنْ سَتَرُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فِطْرَتَهُمْ ، فكلمة الكفر كما سبق أن قلنا هي ستر يقتضى مستورا ، والكفر يستر إيمانَ الفطرة الأولى .

والذين يُنْكِرُونَ الآخرة إنما يَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ مَنْ تَصَوَّرَ مَا سَوْفَ يَحْدُثُ حَقًّا ؛ وهو الحساب الذي سيجازى بالثواب والحسنات على الأفعال الطيبة ، ولعل سيئاتهم تكون قليلة ؛ فيجبرها الحق سبحانه لهم وينالون الجنة .

والمُسْرِفُونَ على أنفسهم ؛ يأملون أن تكون قضية الدين كاذبة ، لأنهم يريدون أن يبتعدوا عن تصور الحساب ، ويتمنَّون ألا يوجد حساب .

وَيَصِفُهُمُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ :

﴿ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٧٢) [النحل]

أى : أنهم لا يكتفون بإنكار الآخرة فقط ؛ بل يتعاضمون بدون وجه للعظمة .

و « استكبر » أى : نصب من نفسه كبيرا دون أن يملك مقومات الكبير ، ذلك أن « الكبير » يجب أن يستند لمقومات الكبير ؛ ويضمن لنفسه أن تظل تلك المقومات ذاتية له .

ولكننا نحن البشر أبناء أغيار ؛ لذلك لا يصح لنا أن نتكبر ؛

فألواحد منا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الشروة أو الجاه ،
فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية في أي منا ؛ وقد تُسلب ممن فاء
الله عليه بها ؛ ولذلك يصبح من اللائق أن يتواضع كلُّ منا ، وأن
يستحضر ربه ، وأن يتضائل أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق في التكبر ؛ وهو سبحانه
الذي تبلغ صفاته ومُقوماته منتهى الكمال ، وهي لا تزول عنه أبداً .
ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ (٢٣)

وساعة نرى ﴿ لا جرم ﴾^(١) ﴿ فمعناها أن ما يأتي بعدها هو حقٌ
ثابت ، فـ « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهي
كسر شيء مؤمن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم »
أي : أن ما بعدها حقٌ ثابت .

وما بعد ﴿ لا جرم ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسرون وما
يُعلنون .

وكلُّ آيات القرآن التي ورد فيها قوله الحق ﴿ لا جرم ﴾ تؤدي
هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ (٦٢)

[النحل]

(١) لا جرم : قال الفراء : هي في الأصل بمعنى لا بُد ولا محالة ، ثم كثرت لحوالت إلى معنى
القسم وصارت بمعنى حقا [المصباح المنير ص ٥٤] .

(٢) مُفْرَطُونَ : متروكون منسيون في النار قاله مجاهد . وقال مجاهد : مبعدون . وقال قتادة
والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . [تفسير القرطبي ٢٨٤٦/٥] .

وكذلك قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٠٩)

[النحل]

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ يحمل معنى « لا بُدَّ » ، وهذا يعنى أن قوله الحق :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. ﴾ (٢٣)

[النحل]

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنُونَ ، ولا متاحٍ من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حُلِّلَ العلماء اللفظ ليصلوا إلى أدق أسرارهِ .

وعلم الله لا ينطبق على الجَهْر فقط ، بل على السِّرِّ أيضاً ؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأعمال . ويُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْكِرِينَ ﴾ (٢٣)

[النحل]

وإذا سألنا : وما علاقة علم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا في أنفسهم :

﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴾ (٨)

[المجادلة]

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه ليُخبرهم بما قالوه في أنفسهم ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبْلِغهم صادق في البلاغ عن الله ، ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتَأَبَّرُوا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

وقوله الحق :

﴿ مَّاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ .. (٢٤) ﴾

[التحل]

يُوضَح الاستدراك الذي أجراه الله على لسان الْمُتَكَلِّم ؛ ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين بِرَبٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً . وهذا دليل على إيمانهم بِرَبٍّ خالق ؛ ولكنهم يعترضون على محمد ﷺ وما أنزل إليه من الله .

و :

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

[التحل]

والاساطير : هي الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لما أقرُّوا بالالوهية ، ورفضوا أيضاً القول المُنزَّل إليهم .

ومنهم من قال :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْ فِيهِ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٥)

[الفرقان]

(١) الاساطير : جمع أسطورة وهي الأحاديث التي لا أصل لها . أو هي جمع أسطار أو جمع سطر . أي كتابات وُغِيت على الباطل منها . [القاموس القويم ٣١٣/١] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سيأتى تبياناه
من بعد ذلك ، وهم الجانب المُضَادُّ لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق
سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾ (٣٠)

[النحل]

ووراء ذلك قصة توضح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ،
وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد
الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب مُعْجَز ، بدأت أخبار رسول الله ﷺ
تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلُّ قبيلة وفداً منها
لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفَّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله ؛ فقسَّموا
أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل
« ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولا ؟ » .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ،
يُحَرِّفُ وَيُجَدِّفُ ^(١) » . والهدف طبعاً أن يصدُّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين
على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا
أنزل ربكم ؟ يردُّون « إنه يُرَدُّ أساطير الأولين » .

(١) التجديف : هو الكفر بالنعم . جدَّف الرجل بنعمة الله . كفرها ولم يفتح بها . قال أبو عبيد

يعنى كفر النعمة واستقلال ما أنعم الله عليك . [لسان العرب - مادة : جدف] .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدل على أنها إجابة مُتَّفَق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أن يصرفوا وهود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ فشبهوا الذكر المنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم - على سبيل المثال - النضر ابن الحارث من قصص القدماء التي تتشابه مع قصص عنتره ، وأبي زيد الهلالي التي تُروى في قرأنا . وهذه هي الموقعة الأولى في الأخذ والرد .

وَيُعَقِّبُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَلَى قَوْلِهِمْ هَذَا :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥)

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ..﴾ (٢٥)

[النحل]

لنرى كيف يوضح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة ؛ وإذا أسرفت على نفسها في تلك الجوانب ؛ فهي قد تُسرف في الجانب الأخلاقي ؛ والجانب الاجتماعي ؛ وغير ذلك ، فتأخذ بزُر كُلِّ ما تفعل .

ويُوضِّحُ هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضِلُّ نفسها غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلتها إلا ما نتج عن الإضلال ؛ فيقول :

[النحل]

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾

ذلك أن النفس التي تمّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار في مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أن يُحمّل حتى المضلّ أوزاراً لم يكن هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

[النحل]

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥)﴾

أى : أن المضلّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلّهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفي هذا مطلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تمّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات ؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يحملها معهم من أضلوهم .

أما الأوزار والسيئات التي ارتكبوها بأنفسهم دون أن يدفعهم لذلك من أضلوهم ؛ فهم يتحملون تبعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كلّ إنسان أحمال الذنوب التي ارتكبوها .

وقد حسم رسول الله ﷺ ذلك حين قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر^(١) » .

وقسّ على ذلك من سرق في الطوب والاسمنت والحديد وخدع الناس .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٣٢) ، والبخاري في صحيحه (٢٥٩٧) من حديث أبي حميد السعدي . ومعنى تيعر أى : تصيح ، والخوار صوت البقرة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ..﴾ (٧٥) [النحل]

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألا تلهينا الدنيا عن أهم قضية تشغل بال الخليقة ، وهي البحث عن الخالق الذي أكرم الخلق ، وأعد الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه ؛ فهم أميون لم يسبق أن جاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخُنُّونَ﴾ (٧٨)

[البقرة]

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أن يبحثوا ، وأن يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبة الشديدة ستكون لمن كان عندهم علم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القاتل :

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ..﴾ (٧٩) [البقرة]

ويصف الحق سبحانه من يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار من أضلّوهم :

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ (٢٥) [النحل]

أي : ساء ما يحملون من آثام ؛ فهم لم يكتفوا بأوزارهم ، بل

صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْعُوا الْغَيْرَ أَنْ يَسْتَمَعَ إِلَى قَضِيَةِ الْإِيمَانِ ،
وَمِنْ نَتِيجَةِ ذَلِكَ أَنْ يُبَيِّحَ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ لِنَفْسِهِ بَعْضَ مِمَّا حَرَّمَ
اللَّهُ ؛ فَيَتَحَمَّلُ مَنْ صَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَزُرَّ هَذَا الْإِضْلالُ .
ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« شَرُّكُمْ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا ، وَشَرُّ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا
غَيْرِهِ » ^(١) .

فَمَنْ بَاعَ الدِّينَ لِيَتَمَتَّعَ قَلِيلاً ؛ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ ؛ أَمَا مَنْ بَاعَ دِينَهُ
لِيَتَمَتَّعَ غَيْرَهُ فَهُوَ الَّذِي سَيَجِدُ الْعِقَابَ الْأَشَدَّ مِنَ اللَّهِ .
ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَيْنَهُمْ
مِنَ الْفَوَاحِشِ عَلَيْهِمْ ^(٢) السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ ^(٣)
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٦)

ويأتي الحق سبحانه هنا بسيرة الأولين والسُنَنِ التي أجراها
سبحانه عليهم ، ليسلي رسوله ﷺ ؛ وَيُوضِّحَ لَهُ أَنْ مَا حَدَّثَ مَعَهُ
لَيْسَ بِدَعَا ؛ بَلْ سَبَقَ أَنْ حَدَّثَ مَعَهُ مَنْ سَبَقَ مِنَ الرُّسُلِ . وَيُيْلِفُهُ أَنَّهُ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ
قال : « يَأْتُوا بِالْأَعْمَالِ فَتَنَّا كَقَطْعِ الثَّلَاجِ الْعَظِيمِ ، يَصْبِيحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ كَافِرًا ، أَوْ
يَمُوتُ مُؤْمِنًا وَيَصْبِيحُ كَافِرًا ، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرْضٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَقَدْ أَخْرَجَ إِبْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي
« ذِمِّ الدُّنْيَا » أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بَنَ أَسْلَمَ قَالَ : « الْخَاسِرُ مَنْ عَمَرَ دُنْيَاً بِخَرَابِ آخِرَةٍ ،
وَالْخَاسِرُ مَنْ اسْتَصْلَحَ مَعَاشَهُ بِفُسَادِ دِينِهِ ، وَالْمَقْبُولُ حَقًّا مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ » .
(٢) حَرٌّ ، سَقَطَ مِنْ غُلُوٍّ إِلَى سَفَلٍ بِصَوْتِ « وَخَرُّ الْبَنَاءِ » : سَقَطَ ، [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ :
خَرَر] .

(٣) مَنْ فَوْقَهُمْ : أَيْ عَلَيْهِمْ وَقَعَ وَكَانُوا تَحْتَهُ لِهَلُوكِهَا وَمَا أَفْلَتُوا . [تَفْسِيرُ الْغُرَطِيِّ ٢/ ٢٨٢٢] .

لم يبعث أى رسول إلا بعد نَعَمَ الْبُلُوى وَيَطْمُ الفساد ، ويفقد البشر
المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يُؤْمِنُونَ ويعملون الصالحات ،
ويتقاصون بالحق وبالصبر .

والمثل الواضح على ذلك ما حدث لبني إسرائيل ؛ الذين قال فيهم
الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ .. ﴾ (٧٨)

[المائدة]

فانصب عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلِّ أمة لا تتناهى عن
المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ (٢٦)

[النحل]

والمكر تبين خفى بيئته الماكر بما يستتر عن الممكور به . ولكن
حين يمكر أحد بالرسول ؛ فهو يمكر بمن يؤيده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم الله رسوله بالمكر ؛ فهو يلغى كل أثر لهذا التبييت ؛
فقد علمه مَنْ يقدر على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٢١)

[المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧١)

[الصفات]

الْمَنْصُورُونَ (١٧٢)

وطبق الحق سبحانه ذلك على رسوله ﷺ ؛ حين مكر به كفار
قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه ؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا

خروجه للهجرة^(١) ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بأى وسيلة :
لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسول لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

أى : أنهم إن جعلوا مكرهم كالبنية العالية : فالحق سبحانه يتركهم
لإحساس الأمن المزيف ، ويحفر لهم من تحتها ، فيشر عليهم السقف
الذى من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثل المعنوى بأمر محسن .

وقوله الحق :

﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

يوضح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا
للسقف ، وهى فوقية شاءها الله لياتيهم :

﴿ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾ [النحل]

وهكذا يأتى عذاب الله بفتنة : ذلك أنهم قد يئثروا ، وظنوا أن هذا
التبصير بخفاء يحق عن الحى القيوم .

وليت الأمر يقتصر على ذلك : لا بل يُعذبهم الله فى الآخرة
أيضاً :

(١) اجتمعت قريش على قتل رسول الله ﷺ فأخذوا من كل قبيلة شاباً فتياً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو هاشم الأخذ بشاره ، فأثناء جبريل ثائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك . ولزم المشركون بابه ينتظرون نومه ليقتلوه . ولكنه ﷺ خرج عليهم وقى يده خفة من الثراب فنشرها على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ هَمَّزَ (٢) وَالْقُرْآنَ الْمَكِيمَ (٣) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٤) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥) ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٦) ﴾ [يس] . فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٢/٢] بتصرف .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ ^(١) قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ
الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢٧)

وهكذا يكون العذاب في الدنيا وفي الآخرة ، ويلقون الخزي يوم
القيامة . والخزي هو الهوان والمذلة ، وهو اقرب من الضرب
والإيذاء ؛ ولا يتجلد أمامه أحد ؛ فالخزي فتعريرة تَفْشَى البدن ؛ فلا
يُغَلَّت منها مَنْ تصيبه .

وإن كان الإنسان قادراً على أن يكتُم الإيلام ؛ فالخزي معنى
نفسى ، والمعانى النفسية تنضح على البشرية ؛ ولا يقدر أحد أن يكتُم
أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التى عاش بها ذلك الذى بيئت ومكر .

ويُوضَّح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله عن القرية التى كان
يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ^(١) كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ^(٢) مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴾ ^(١١٢)

[التحل]

(١) لَحْزَاهُ : أمانته وقضيه . [القاموس القويم ١/١٩٢] . ويخزيهم ، أى يقضهم بالعذاب
ويذلهم به ويهينهم ، قاله القرطبي فى تفسيره (٢٨٢٢/٥) .

(٢) تَشَاقُّونَ : تَخَالَّفُونَ وتعادون وتجاربون . [لسان العرب - مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التى نقلها ابن كثير فى تفسيره (٥٨٩/٢)
والقرطبي (٢٩٢١/٥) وساق القرطبي قولاً عاماً أنها أى قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغَدَ العيش : اتسع وطلب ، وقال تعالى : ﴿ وَكَلَّا بِهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴾ ^(٣٥) [البقرة]
أى : اكلاً طيباً مَوْسَعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

سُورَةُ النِّحْلِ

7872

أى : كان الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكان الجوع قد أصبح لباساً : يعانى منه صاحبه : فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزي فكلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبُّره وغروره باقٍ ، وله ما يستنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ .. ﴾ (٢٧) [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم : فجعلتم من أنفسكم شقَّةً ، وجعلتم من المؤمنين شقَّةً أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شقَّ الجدار أو شقَّ الخشب » والمقصود هنا أن جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شقَّة تُعادونها ، وأخذتم جانب الباطل ، وتركتم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ اتَّاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧) [النحل]

وكان هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين اتَّاهم الله العلم .

والعلم - كما نعلم - يأتى من الله مباشرة : ثم يُنقل إلى الملائكة : ثم يُنقل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسل إلى الأمم التى كلفَ الحق سبحانه رسله أن يُبلِّغوهم منهجه .

وَكَمَا شَهِدَتْ الدُّنْيَا سَقُوطَ الْمَنَاجِحِ الَّتِي اتَّبَعُوهَا مِنْ أَهْوَائِهِمْ ،
وَسَقُوطَ مَنْ عِبَادِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ سَيُشْهَدُ الْيَوْمَ الْآخِرُ الْخِزْيَ وَالسُّوءَ
وَهُوَ يَحِيطُ بِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُ الْخِزْيُ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ . وَيَحْمِي
اللَّهُ مَنْ آمَنُوا بِهِ بِالْأَطْمَئِنَّانِ .

وَتَعْلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ قَال : « أَلَا هَلْ بَلَغَتْ ، اللَّهُمَّ
فَاشْهَد » ^(١) .

وَكَمَا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ أُمَّتَهُ وَاسْتَجَابَتْ لَهُ : فَقَدْ طَلَبَ مِنْهُمْ أَيْضًا أَنْ
يَكُونُوا أَمْتَدَانًا لِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْ يُبَلِّغُوهَا لِلنَّاسِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْحَقَّ سَبْحَانَهُ
قَدْ مَنَعَ الرِّسَالَاتِ مِنْ بَعْدِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَصَارَ
مِنْ مَسْئُولِيَةِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَنْ تُبَلِّغَ كُلُّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ رِسَالَةُ
الرَّسُولِ ﷺ .

وَقَدْ قَالَ ﷺ : « تَضَرَّعُ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاها ، وَأَدَّاهَا إِلَى
مَنْ لَمْ يَسْمَعْها ، قَرِيبٌ مُبَلِّغٌ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ » ^(٢)
وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ هُوَ الْقَائِلُ ^(٣) :

(١) وَرَدَ هَذَا الْقَوْلُ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْهَا حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي
صَحِيحِهِ (٢٧٨) قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَدَّ ظَهْرَهُ إِلَى قَبَةِ آدَمَ ، فَقَالَ : أَلَا
لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ . اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغَتْ ؟ اللَّهُمَّ اشْهَد .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٤٣٧/١) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وَابْنُ مَاجَةَ
فِي سُنَنِهِ (٢٣٢) وَالصَّيْدِيُّ (١٧/١) مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ .

(٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اقْرَأْ عَلَىَّ » فَقُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اقْرَأْ عَلَيْكَ وَطَلَبَكَ لَنْزُلِ . قَالَ : نَعَمْ ، إِنِّي أَحْبَبُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْ غَيْرِي ، فَقَرَأْتُ
سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النِّسَاءُ] فَقَالَ : « حَسْبُكَ الْآنَ » . فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرَفَانِ . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ
فِي صَحِيحِهِ (٥٠٥٠) ، وَكَذَا مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٨٠٠) كِتَابُ صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ وَافْتَتَحَهُ
« رَفَعَتْ رَأْسِي أَوْ غَمَزَتْنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعَتْ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ ﷺ تَسِيلُ » .

﴿ نَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ .. (٤٢) ﴿

[النساء]

أى : يتمنون أن يصيروا تراباً ، كما قال تعالى فى موقع آخر :
﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَى كُنْتُ تُرَابًا ﴾ (٤٠) ﴿

[التبا]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ^(١) مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤٨) ﴿

يقول تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٤٨) ﴿

[النحل]

أى : تتوفاهم فى حالة كونهم ظالمين لأنفسهم ، وفى آية أخرى
قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٨) ﴿

[النحل]

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لحظاً نفسه ولصالحها .. فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأجمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيك .. ولكن كيف ذلك ؟

(١) أى : الاستسلام . أى : أقروا لله بالدوبية وانقادوا عند الموت . [تفسير القرطبي

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهل التصدي له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التي بين جنبيك ، فهذا عدو خطير صعب التصدي له ، والتخلص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أن تمتع صاحب حق حقه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حقها ؟

نقول : حين تجوع ، ألا تأكل ؟ وحين تعطش ألا تشرب ؟ وحين ترهب من العمل ألا تنام ؟

إذن : أنت تعطى نفسك مطلوباتها التي تريحتها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نمت وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفي النهاية كانت النتيجة فشلاً في العمل أو خسارة في التجارة الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسان نفسه بما فاتها من منافع في الدنيا ، وقس على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جزئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هي نهاية كل شيء ، أم ينهايتها يبتدئ شيء ؟ بنهايتها يبتدئ شيء ، ونسأل : الشيء الذي سوف يبدأ ، هل هو صورة مكرورة لما انتهى في الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهى في الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حظي منه على قدر قدراتي ، وقدراتي لها إمكانات محدودة .. أما الذي سيبدأ - أي في الآخرة - ليس بمُنته بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من

نعميم يأتى على قَدَرِ إمكانات المنعم ربك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطى نفسك متعة فى الدنيا الزائلة المنقطعة ،
تُفَوِّت عليها المتعة الباقية فى الآخرة .. وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

نعود إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

أثبتت هذه الآية التوفى للملائكة .. والتوفى حقيقة لله تعالى ، كما
جاء فى قوله :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. ﴾ (٤١)

[الزمر]

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكان الله تعالى هو الذى يتوفى
الأنفس رغم أنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ .. ﴾ (٤٢)

[الزمر]

وقال :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
تُرْجَعُونَ .. ﴾ (٤٦)

[السجدة]

وقال :

﴿ تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا .. ﴾ (٦١)

[الأنعام]

إذن : جاء الحُذُثُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة
عزرائيل مرة ، ومن مُسَاعِدِيهِ من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر
إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الأمر .

وقوله تعالى :

﴿ تَتَرَفَّاهُمْ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

معنى التوفى من وقاه حقه أى : وقاه أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل ونيتك دينك .. أى : أخذت ما لك عندي .

﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِي ﴾ يعنى ظالمين و ﴿ أَنْفُسِهِمْ ﴾ جمع ، وحين يُقَابَلُ الجمع بالجمع تقتضى القسمة أحاداً أى : أن كلاً منهم يظلم نفسه :

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْقُوا السَّلَامَ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

أى : خضعوا واستسلموا ولم يعد ينفعهم تكبرهم وعجفقتهم فى الدنيا .. ذهب عنهم كل هذا بذهاب الدنيا التى راحت من بين أيديهم .

وما داموا ألقوا السلم الآن ، إذن : فقد كانوا فى حرب قبل ذلك كانوا فى حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشقاق فى قوله تعالى :

﴿ تَشَاقُّونَ .. ﴾ (٢٧)

[النحل]

أى : تجعلون هذا فى شق ، وهذا فى شق ، وكان الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جلد^(١) لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ شَوْءٍ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

هذا كقوله تعالى فى آية أخرى :

(١) الجلد - القوة والشدة . والجلد - الصلابة والجلادة . [لسان العرب - مادة جلد] .

سُورَةُ الْحَجَلِ

٧٨٧٩

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ^(١) إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

[الأنعام]

والواقع أنهم يعدد أن ألقوا السلم ورددوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاع عن أنفسهم :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

وتعجب من كذب هؤلاء على الله في مثل هذا الموقف ، على من تكذبون الآن ؟!

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿بَلَىٰ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

وهي أداة نفى للنفي السابق عليها ، ومعلوم أن نفي النفي إثبات ، ف ﴿بلى﴾ تنفى :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

إذن : معناها .. لا .. بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتفِ بالعلم فقط ، بل دون ذلك عليهم وسجله في كتاب سيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى :

(١) قال ابن عباس صعبين في تأويل كلمة (فتنتهم) : الأول : معذبهم . الثاني : حجتهم . نقلهما السيوطي في الدر المنثور (٢٥٨/٢) .

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾

[الأنبياء]

وقال :

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرُهُ﴾^(١) فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٢) أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴿ [الإسراء]

ويحلل للبعض أن ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها .. ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشري الآن من تسجيل الصور والاصوات والبصمات وغيرها .. وهذا كله يُسهّل علينا هذه المسألة عندما نرقى إمكانات العقل البشري إلى الإمكانيات الإلهية التي لا حدود لها .

فلا وجه - إذن - لأن نشكر قدرة الملائكة « رقيب وعتيد »^(٢) في تسجيل الأعمال في كتاب يحفظ أعماله ويحصى عليه كل كبيرة وصغيرة .

ثم يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ
مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢١)﴾

سبق أن قلنا في شرح قوله تعالى في وصف جهنم :

(١) طائره - عمله وما قُدر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال الحسن : أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أي صار له عند القسمة في الأزل [تفسير القرطبي ٢٩٥٧/٥] .

(٢) يقول تعالى في سورة ق ﴿إِذْ يَقُولُ الْمَتَكِبِّرِينَ عَنِ الْهَيْمَنِ وَعَنِ الشُّبَّالِ قَمِيدٌ (٢٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَبِيدٌ (٢٨)﴾ [ق] .

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (١٤) [الحجر]

أى : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً .. قَبَابٌ لأهل الربا .. وبَابٌ لأهل الرُّشوة .. وبَابٌ لأهل النِّفاق وهكذا .. ولك أن تتصور ما يُلَاقِيهِ مَنْ يَجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَاصِي !! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر .. حقاً ما أتعس هؤلاء !

ومنا يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ..﴾ (٢٩) [التحل]

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذى خُصَّصَ له .

ثم يقول سبحانه :

﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٩) [النحل]

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى فى موضع آخر :

﴿لَا جِزْمَ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَقَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٢٢) [النحل]

فتكبر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعل) يدل على أن كبرهم هذا غير ذاتى : لأن الذى يتكبر حَقّاً يتكبر بما فيه ذاتياً لا يسلبه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشيء لا يملكه فتكبره غير حقيقى ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبروا به فى الدنيا . وبذلك لا يكون لأحد أن يتكبر لأن الكبرياء الحقيقى لله عز وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ
دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٠)

وقد سبق أن تحدثنا من قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢١) [النحل]

فهذه مشاهد ولقطات تُبَيِّن الموقف الذي انتهى بأن أقروا على
أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآيات نزلت في جماعة كانوا داخلين مكة .. وعلى أبوابها
التي يأتي منها أهل البوادي . وقد قسم الكافرون أنفسهم على مداخل
مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبى الجديد .

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحينون الفرصة ويخرجون على
مشارف مكة بحجة رعى الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء الساطئين ليخبروهم
خبر النبى ﷺ وخبر دعوه^(١) .

مما يدل على أن الذى يسأل عن شىء لا يكتفى بأول عابر
يسأله ، بل يُجَدِّد السؤال ليقف على المتناقضات .. فحين سألوا
الكافرين قالوا :

(١) الأساطير : جمع أسطر أو أسطورة ، فهي الأحاديث لا نظام لها أو لا أصل لها ، أو هي
حكايات عن الأولين كتبوها ولا أساس لها فهي أكاذيب لا تصدق بزعمهم . [القاموس
الغوي ٢١٣/١] .

(٢) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٢٤/٥) ، والسيوطي في الدر المنثور (١٢٥/٥) .

[النحل]

﴿قَالُوا أَطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (٢٤)

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

[النحل]

﴿قَالُوا خَيْرًا .. ۖ﴾ (٣٠)

هذا لنفهم أن الإنسان إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفى بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر .

[النحل]

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (٢٤)

وحينما سألوا أهل الإيمان والتقوى :

[النحل]

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. ۖ﴾ (٣٠)

[النحل]

ونلاحظ هنا في ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ۖ﴾ (٣٠)

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يبين هُويَتهم ، وهذا يدلنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضعافاً لا يقدرّون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف - موقف السؤال إلى أن تُصل إلى الوجهة الصواب - حينما عتب الحق تبارك وتعالى على نبي من أنبيائه هو سيدنا داود - عليه السلام - في قوله تعالى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَرُّرُوا^(١) الْمَخْرَابَ ۖ﴾ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهَيِّئْ لَنَا بِعِزِّكَ قَافِلًا فَقَالَ دَاوُدُ مَا يَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَكْتُمُ إِلَيْكُمْ سِرَّكُمْ وَيُنْفِثُ فِيكُمْ كِبَاسًا فَاذْكُرُوا يَوْمَ أَنْصَبُوا حَبْلَهُمْ فَمِنْ تَحْتِهِمْ يَصْطَبِحُونَ وَلَمْ يَكُن لَكُمْ مِنْهُمْ قُوَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامِ فَأَنصِبُوا حَبْلَهُمْ فَأَمْلَكَهُمُ اللَّهُ فَأَقْبَلَ الْفُلُوكَ فَجَنَبَ لَهَا الْيَمِينَ فَأَغْرَقَهَا إِلَى وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامِ فَذُكِّرُوا

(١) تسور السور - تسلفه وعلاه - [القاموس القويم ٢٢٥/١] .

بِالْحَقِّ وَلَا تَسْطِطُ^(١) وَأَهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٧٦) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي^(٢) فِي الْخِطَابِ (٧٧) ﴿

[ص]

فماذا قال داود عليه السلام ؟

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ .. (٧٦) ﴾ [ص]

وواضح في حكم داود عليه السلام تأثره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكن عنده شيء ، ألم يظلم أخاه يأخذه نعجته ؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وأدخل فيه حيثية أخرى ، وهذا خطأ إجرائي في عرض القضية : لأن (تسع وتسعون) هذه لا تدخل لها في القضية .. بل هي لاستمالة القاضي وللتأثير على عواطفه ومنافعه ، وليبين أن الخصم غني ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود - عليه السلام - خطأه في هذه الحكومة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَانَهُ .. (٧٨) ﴾ [ص]

أي : اختبرناه كي نعلمه الدرس تطبيقاً .. أيحكم بالحق ويراعى جميع نواحي القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرفه داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربه وخبر له راكمًا مُنيباً .

(١) السطط : الجور وتجاوز الحد في كل شيء .. وأشط في حكمه : جار وظالم . [القاموس القويم ٣٤٩/١] .

(٢) أكفلنيها : معناه أجهنني أنا أكفلها وأنزل أنت عنها . قاله الزجاج . [لسان العرب - مادة : كفل] . وعزني في الخطاب : أي قلبني في الاحتجاج . [لسان العرب - مادة : عزز] .

قال تعالى :

﴿ فَاسْتَغْفِرْ رَبِّهِ وَخَرُّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤ ﴾ [ص]

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود - عليه السلام - أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثاني في الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ۝٢٥ ﴾ [النحل]

ما هو الخير ؟ الخير كُلُّ ما تستطيعه النفس بكل ملكاتها .. لكن الاستجابة قد تكون موقوتة بزمان ، ثم تُورث حَسْرَةً وندامة .. إذن : هذا ليس خيراً ؛ لأنه لا خير في خير بعده النار ، وكذلك لا شر في شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خيراً دائماً في الدنيا ، وكذلك في الآخرة ، فلرأخذنا مثلاً متعاطي المخدرات تجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائفة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما يتقلب هذا الخير في نظره إلى شر عاجل في الدنيا وآجل في الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير في نفسك وكيفيته وعاقبته .. وهذا هو الخير في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا خَيْرًا ۝٢٥ ﴾ [النحل]

إذن : هو خير تستطيعه النفس ، ويظل خيراً في الدنيا ، ويترتب عليه خير في الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة .. ثم فسره الحق تبارك وتعالى في قوله سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ۞ (٢٠)﴾

[النحل]

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألا يترك الدنيا وأسبابها ،
فربما أخذها منك الكافر وتغلب عليك بها ، أو يفتنك في دينك
بسيبها ، فمَنْ يعبد الله أولى بسرّه في الوجود ، وأسرار الله في
الوجود هي للمؤمنين ، ولا ينبغي لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا
للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن في أسباب الدنيا حتى تأمن الفتنة من
الكافرين في دنياك .. ولا يَنْسَ ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ،
مما أعطاهم الفرصة ليسيظروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ ۞ (٢٠)﴾

[النحل]

أي : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليد العليا بما اجتهدوا ،
وبما عملوا في دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسان نفسه وينفع غيره ،
وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هي العليا ، وكان
ثوابك وخيرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبي ﷺ :

« ما من مسلم يفرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير
أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »^(١) .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٢٠) ومسلم في صحيحه (١٥٥٢) كتاب
المساقاة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

سُورَةُ الْجِنِّ

٧٨٨٧

الإحسان في الدنيا وهي الأمن .. فَمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا مُسْتَقِيمًا
لم يقترب ما يُعَاقِبُ عَلَيْهِ تَجَدُّهُ آمِنًا مطمئنًا ، حتى إذا داهمه شر
أو مكروه تجده آمِنًا لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئًا يدعو للخوف .

حُذِّ مَثَلُ اللَّصِ تَرَاهُ دَائِمًا مُتَوَجِّسًا^(١) خائفًا ، تدور عَيْنُهُ يمينًا
وشمالًا ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقَّب وراح يقول في نفسه : لعله
يقصدني .. أما المستقيم فهو آمِن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة في الدنيا أن يعيش
الإنسان على قَدَرِ إمكانياته ولا يُرهِق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً
قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أَرْخِصْوه ، قالوا : وكيف لنا
ذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإِذَا غَمَلًا شَيْءٌ عَلَى تَرْكَّتِهِ فَيَكُونُ أَرْخَصَ مَا يَكُونُ إِذَا غَلَاً
وَلَا تَقُلْ : النَّفْسُ تَوَاقَةٌ إِلَيْهِ رَاغِبَةٌ فِيهِ ، فَهِيَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا ثُرِدَتْ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وفي حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولمَّا ينضج
الطعام ، ولم تُعَدِ المائدة وهو جائع ، فيأكل أيَّ شيء موجود وتنتهي
المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنع النفس بما نالته .

ولكى يعيش الإنسان على قَدَرِ إمكانياته لا بُدَّ له أَنْ يوازن بين

(١) أوجس : وقع في نفسه الخوف . والتوجَّس : الفزع يقع في القلب أو في السمع من صوت
أو غير ذلك . والتوجَّس : التسمع إلى الصوت الخفى . [لسان العرب - مادة : وجس] .

دَخَلَهُ وَنَفَقَاتِهِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ عُسْرٌ فِي دَخْلِهِ ، أَوْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَنَاقِدُ
الرِّزْقِ لَا يَدُّ لَهُ مِنْ عُسْرٍ فِي مَصْرُوفِهِ ، وَلَا يَدُّ لَهُ أَنْ يُضَيِّقَ عَلَى
النَّفْسِ شَهَوَاتِهَا ، وَبِذَلِكَ يَعِيشُ مَسْتَوْرًا مَيَسُورًا ، رَاضِيًا النَّفْسِ ،
قَرِيرٍ الْعَيْنِ .

والبعض في مثل هذه المواقف يلجأ إلى الاستقراض للإنفاق على
شهوات نفسه ، وربما اقترض ما يتمتع به شهراً ، ويعيش في ذلة
دَهِرًا ؛ لذا من الحكمة إذن قبل أن تسأل الناس القرض سَلْ نَفْسَكَ
أولاً ، واطلب منها أن تصبر عليك ، وَأَنْ تُنْظِرَكَ^(١) إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ ،
وَلَا تُلْجِئَكَ إِلَى مِثْلَةِ السَّوَالِ .. وَقَبْلَ أَنْ تَلُومَ مَنْ مَنَعَكَ لَمْ تَفْسِدْ النَّفْسَ الَّتِي
تَابَتْ عَلَيْكَ أَوَّلًا .

وما أبدع شاعرنا الذي صاغ هذه القيم في قوله :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَسْتَقْرِضَ الْمَالَ مُنْفِقًا عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ الْعُسْرِ
فَسَلْ نَفْسَكَ الْإِنْفَاقَ مِنْ كَثَرِ صَبْرِهَا عَلَيْكَ وَإِنْظَارًا إِلَى سَاعَةِ الْيُسْرِ
فَلَنْ فَعَلْتَ كَثْتَ الْغِنَى ، وَإِنْ أَبَيْتَ فَكُلْ مَتَوَعٍ بَعْدَهَا وَأَسِغِ الْعُذْرَ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٢٠)﴾

[التحل]

والخير في الآخرة من الله ، والنعيم فيها على قَدْرِ الْمَنْعَمِ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى ، دُونَ تَعَبٍ وَلَا كَدٍّ وَلَا عَمَلٍ .

(١) الْإِنْظَارُ : الإمهال والتأخير . واستنظره : طلب منه النظرة واستمع له . [لسان العرب -

مادة : نظر] .

سُورَةُ النحل

﴿٧٨٨٩﴾

ومعلوم أن كلمة : ﴿قَالُوا خَيْرًا ..﴾ (٢٠) ﴿النحل﴾

التي فسرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ..﴾ (٢٠) ﴿النحل﴾

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء في قول الكافرين :

﴿مَآذًا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَطَافِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢١) ﴿النحل﴾

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير في الاثنين ،

إلا أن أحدهما زاد في الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله ﷺ :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي

كل خير »^(١) .

لذلك لما قال :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ..﴾ (٢٠) ﴿النحل﴾

قال : ﴿وَلَذَٰئِكَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ ..﴾ (٢١) ﴿النحل﴾

أي : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها

حسنة الآخرة .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٠) ﴿النحل﴾

أي : دار الآخرة .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦١) كتاب القدر . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار
المتقين كأنها برقية ، فقال سبحانه :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا
مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣١)

والجنات : تعنى البساتين التى بها الأشجار والأزهار والثمار
والخضرة ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب
بشر .. ليس هذا فقط .. هذه الجنة العمومية التى يراها كل من
يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَبَدَّخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٢)

[الصف]

إذن : هنا قدر مشترك للجميع :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣١)

[النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ .. ﴾ (٣١)

[النحل]

أى : جنات إقامة دائمة ؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا
حاجة له إلى غيرها .. هَبْ أَنْتَ دَخَلْتَ أعظم حداث وبتاتن العالم -
هايد بارك مثلاً - فقصارى الأمر أن تتنزه به بعض الوقت ، ثم
يعتريك التعب ويصيبك المكل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه
التزهة .. أما الجنة فهي جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

[النحل]

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣١)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

[التوبة]

﴿ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (١٠٠)

ومعنى « تَجْرِي تَحْتِهَا » أى : أنها تَجْرِي تَحْتِهَا ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

[النحل]

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. ﴾ (٣١)

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

[النحل]

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ﴾ (٣١)

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلت على إنسان رقيق الحال فلك مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلت على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لك مشيئة أعلى .. وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشاء منه ، فإذا كان المشاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شيء تكون مشيئتك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليست كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حسب مراتبهم ومراكزهم .

ويروى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها ابنة الملك ، ولو كنت طلبت منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمت أن وراء الألف عدداً لطلبت به .. فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبي ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآني :

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١)﴾ [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿وَلِيَهَا مَا تَشْتَهُيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١)﴾ [الزخرف]

قال : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١) .

إنن : تحديد الإطار للآية يقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [النحل]

أي : هكذا الجزاء الذي يستحقونه بما قدموا في الدنيا ، وبما حَرَمُوا منه أنفسهم من مُتَعٍ حرام .. وقد جاء الآن وقتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأدوم ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى في آية أخرى :

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ^(٢) فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد في مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم في الحلية

(٢٦٢/٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل .

أعدت لعباده الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »

(٢) اسلف . قدّم أو فعل من قبل . قال تعالى . ﴿مَنْ لَكَ لَنْتُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا سَلَفَتْ .. (٤٠)﴾ [يونس]

أي . ما قدمت وما عملت في الزمن الماضي في الدنيا . [القاموس القويم ٢٢٣/١] .

﴿ الَّذِينَ نُوَفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣٢)

أى : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

﴿ تَوَفَّاهُمْ .. ﴾ (٣٢)

[النحل]

أى : تاتى لقبض ارواحهم ، وهنا تنسب التوفى إلى جملة الملائكة ، كأنهم جنود ملك الموت الأصيل عزرائيل ، وقد سبق أن قلنا : إن الحق تبارك وتعالى مرة ينسب التوفى إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى ملك الموت :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مِّنْكَ الْمَوْتُ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴾ (٦١)

[السجدة]

ومرة ينسبه إلى نفسه سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى .. ﴾ (٤٢)

[الزمر]

ذلك لأن الله سبحانه هو الأمر الأعلى ، وعزرائيل ملك الموت الأصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنْفَذُونَ أوامره .

وقوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. ﴾ (٣٢)

[النحل]

تقابل الآية السابقة :

(١) ذكر المفسرون فى معنى قوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. ﴾ [النحل] ستة أقوال : الأول : طاهرين من الشرك . الثاني : صالحين . الثالث : زكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع : طيبى الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السادس : أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط . [تفسير القرطبي ٢٨٢٦/٥] .

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ . . (٢٨) ﴿[النحل]

والطيب هو الشيء الذي يوجد له خير دائم لا ينقطع ولا ينقلب
خيره هذا شراً ، وهو الشيء الذي تستريح له النفس راحة تنسجم
منها كل مكائدها ، بشرط أن يكون مستمراً إلى خير منه ، ولا يستمر
إلى خير منه وأحسن إلا طيب القيم وطيب الدين ، أما غير ذلك فهو
طيب موقوت سرعان ما يهجر .

ولذلك حينما يدعى اثنان المحبة في الله نقول : هذه كلمة تُقال ،
ومصدقها أن ينمو الرود بينكما كل يوم عن اليوم الذي قبله : لأن
الحب للدنيا تشوبه الأطماع والأهواء ، فتتري الحب ينقص يوماً بعد
يوم ، حَسَبَ ما يأخذ أحدهما من الآخر ، أما المتحابان في الله
فياخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإن رأيت
اثنين يزداد وُدُّهما فاعلم أنه وُدُّ الله وفي الله ، على خلاف الرود
لأغراض الدنيا فهو وُدُّ سرعان ما ينقطع .

هل هناك أطيّب من أنهم طهّروا أنفسهم من دَنَسِ الشرك ؟ وهل
هناك أطيّب من أنهم أخلصوا عملهم لله ، وهل هناك أطيّب من أنهم
لم يُسْرِقُوا على أنفسهم في شيء ؟

وحَسَبَ هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتى ملك الموت يمرُّ عليهم
شريط أعمالهم ، ومَلَخَص ما قدّموه في الدنيا ، فيرون خيراً ، فتراهم
مُسْتَبْشِرِينَ فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه
أبيضَ الوجه مُشْرِقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة :

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿٧٨٩﴾

ذلك لما عاينه من طيب عمله ، ولما يستبشر به من الجزاء عند الله
تبارك وتعالى .

وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشقاوة ، وما هم عليه
ساعة الغرغرة من سواد الوجه ، وسوء الخاتمة ، والعيان بالله .

﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ..﴾ (٧٢) [النحل]

أى : حينما تتوفاهم الملائكة يقولون لهم سلام : لأنكم خرجتم
من الدنيا بسلام ، وستقبلون على الآخرة بسلام ، إذن : سلام
الطيبين سلام موصول من الدنيا إلى الآخرة ، سلام مترتب على
سلامة دينكم في الدنيا ، وسلامة إقبالكم على الله ، دون خوف في
الآخرة .

وهناك سلام آخر جاء في قول الحق تبارك وتعالى :
﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا^(١) حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٣) [الزمر]
ثم يأتي السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى : لأن كل هذه
السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى :

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّهِ رَحِيمٌ﴾ (٥٨) [يس]

وهل هناك أفضل وأطيب من هذا السلام الذي جاء من الحق
تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هنا من سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطيبين وهم

(١) الزمر : جمع زمرة ، وهي القوچ والجماعة . [القاموس للتقويم ٢٨٩/١] .

فى الجنة . ونحن نعرف أن أهل الأعراف هم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فحُجِزُوا على الأعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضى أن للميزان كفتين ذكرهما الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ^(١) هَاوِيَةٌ ۖ (٨) ﴾

[القارعة]

هاتان حالتان للميزان ، فأين حالة التساوى بين الكفتين ؟ جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ .. (٤٦) ﴾

[الأعراف]

أى : يعرفون أهل الجنة وأهل النار :

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾

[الأعراف]

ووجه العجب هنا أن أهل الأعراف فى مأزق وشدة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم .

(١) معناه . فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه فى نار جهنم ، وغير عتة يأمه يعنى دماغه . وقيل :

معناه . فأمه التى يرجع إليها وبصير فى المعاد إليها هاوية . وهى اسم من أسماء النار .

[تفسير ابن كثير ٥٤٢/٤] .

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢١)﴾ [النحل]

أى : لأنكم دفعتم الثمن ؛ والثمن هو عملكم الصالح فى الدنيا ،
واتباعكم لمنهج الحق تبارك وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف :
« لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول
الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته^(١) .
والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف نوفق بين الآية
والحديث ؟

الله تعالى يوحى لرسوله ﷺ الحديث كما يوحى له الآية ،
فكلاهما يصدر عن مشكاة واحدة ومصدر واحد^(٢) .. على حدّ قوله
تعالى :

﴿وَمَا تَقْصُرُوا^(٣) إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فالحديث هنا واحد ، فلم يُغْنِهِمُ اللهُ بما يناسبه والرسول بما
يناسبه ، بل هو غناء واحد وحديث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ
بين الآية والحديث .. كيف ؟

الحق تبارك وتعالى كلف الإنسان بعد سنّ الرشد والعقل ، وأخذ
يُوالى عليه النعم منذ صِغَرِه ، وحينما كلفه بشيء يعود على

(١) حديث مستق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤١٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه
(٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٤٩١١) من حديث العقدة بن معديكر عن رسول الله ﷺ أنه
قال : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم

بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فاحرموه » .

(٣) نعم منه : عاقبه ، ونقم الشيء : أنكره وعابه وكرهه . [القاموس القويم : مادة نقم] .

الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد ذلك يُجَازِيهِ على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد في الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله في الآخرة هو مَحْضُ الْفَضْلِ من الله ، ولو أطاع العبدُ رَبَّهُ الطاعة المطلوبة منه في الأفعال الاختيارية التكليفية لما وَقَى نِعَمَ الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء في الجنة فَضْلاً من الله ومِنَّةً .

أو : أنهم حينما قالوا :

﴿يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٦)﴾

[النحل]

يريدون أن عملهم سبب عادي لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله .. فتجتمع الآية بين العمل والفضل معاً ؛ لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يُقَوِّى هذا بقوله تعالى :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾

[يونس]

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يقي بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وقى الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل » .

وأخيراً .. هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم ؟ لا .. بل بمنهج وضعه لهم ربهم تبارك وتعالى .. إذن : بالفضل لا بمجرد العمل .. ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا .. فإذا تفوق الولد كان كل شيء لصالحه : النجاح والهدية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٣٢

بعد أن عرضت الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادت لهؤلاء الذين قالوا ﴿ أساطير الأولين ﴾ الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْد والترَبُّص والإيذاء .

ومذا استفسهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون ؟ بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صدّدتم الناس عنها ، ماذا تنتظرون ؟ أنتظرون أن تُروا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيحُلُّان بكم لا محالة :

إما أن تأتاكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتى أمرُ ربك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أن تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيراً ؟ فلن يأتىكم خير أبداً .. كما قال تعالى فى آيات أخرى :

﴿ أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ ﴾ (١) [النحل]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ۖ ﴾ (١) [القمر]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ۖ ﴾ (١) [الأنبياء]

إِذْ : إنما ينتظرون أحداثاً تأتي لهم بشرّاً : تأتيهم الملائكة لقيض أرواحهم في حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يلقون السَّلام رَغْماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة^(١) الكبرى وهي القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. (٢٢)﴾ [النحل]

أى : ممَّن كَذَّبَ الرسل قبلهم .. يعنى هذه مسألة معروفة عنهم من قبل :

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ... (٢٣)﴾ [النحل]

أى : وما ظلمهم الله حين قدَّر أن يُجازيهم بكذا وكذا ، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب ؛ لأن العذاب لم يحلَّ بهم بعد .

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٢٤)﴾ [النحل]

وهذا ما تُسمّيه بالظلم الأحمق ؛ لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظلم النفس فلا يعود عليها بشيء ؛ وذلك لأنهم أسرفوا على أنفسهم في الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك فَوُتُوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) طم الأمر : اشتد . وسمى يوم القيامة بالطامة لشدة وعظم هولها ؛ [القاموس القويم

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٣٤)

أى : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وُسِّمَى ما يُفعل بهم سيئة : لأن الحق تبارك وتعالى يُسَمَّى جزاء السيئة سيئة في قوله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴾ (٤١) [الشورى]

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴾ (١٢٦) [النحل]

وهذه تُسَمَّى المشاكلة^(١) ، أى : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَمَلُوا ﴾ العمل هو مُزَاوِلَةٌ أى جارية من الإنسان لمهمتها ، فكلُّ جارية لها مهمة . الرجل واليد والعَيْن والأذن .. الخ . فاللسان مهمته أن يقول ، وبقية الجوارح مهمتها أن تفعل . إذن : فاللسان وحده أخذ النصف ، وباقي الجوارح أخذت النصف الآخر ؛ ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعول الأساسى .

فكلمة الشهادة : لا إله إلا الله لا بُدَّ من النطق بها لنعرف أنه

(١) حَاقَ بِهِ الشَّرُّ : نزل به واحاط به . قال الزجاج فى معنى الآية : أى احاط بهم العذاب الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون به . [لسان العرب - مادة : حقيق]

(٢) المشاكلة : مصطلح فى بديع القرآن ومعناه : ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته

تحقيقاً أو تقديرًا ، والاول كقوله تعالى : ﴿ نَعْلَمُ مَا فى نَفْسٍ وَلَا نَعْلَمُ مَا فى نَفْسِكَ .. ﴾ (١٠٧)

[العنكبوت] . لسان إطلاق النفس والمكر فى جانب اليسارى تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه .

[الإتيان فى علوم القرآن ٢ / ٢٨٩] .

مؤمن ، ثم يأتى دور الفعل ليساند هذا القول : لذا قال تعالى :

﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبِيرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾

[الصف]

وبالقول تبليغ المناهج للأذان .. فكيف تعمل الجوارح دون منهج ؟
ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وضعا خاصا بين باقى الحواس ، فهى أول جارحة فى الإنسان تؤدى عملها ، وهى الجارحة التى لا تنتضى مهمتها أبدا .. كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن ، وبها يتم الاستدعاء والاستيقاظ من النوم .

وإذا استقرأت آيات القرآن الكريم ، ونظرت فى آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾

[النحل]

ثم هى آلة الشهادة يوم القيامة :

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ .. (٢٠)﴾

[فصلت]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمُ فِي الْكَهْفِ مِثِينَ عَدَدًا (١١)﴾

[الكهف]

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أى : عطلنا الأذن التى لا تعطل حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار فى كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى فى تكوينهم الجارحة شيئاً معيلاً لما استقر لهم نوم طوال ٣٠٩ أعوام .

ويقول الحق تعالى :

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤٤)﴾ [النحل]

بماذا استهزأ الكافرون ؟ استهزأوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)﴾ [الحافات]

وقالوا :

﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا^(١) فِي الْأَرْضِ أَأَنْتَا لَبِىْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجلوا العذاب فقالوا :

﴿فَأَنْتَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

وقالوا :

﴿أَرَأَيْتُمْ السَّمَاءَ كَمَا زُغَمَتْ عَلَيْنَا لَبَسًا^(٢) .. (١٢)﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحد من عدوه أن يُنزل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً ؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدرُوا على هذا العذاب الذى تستهزئون به . فقال :

(١) معناه : أننا ميتنا وصيرنا تراباً وعظاماً فضللنا فى الأرض فلم يتبين شىء من خلقنا .

[لسان العرب - مادة : ضلل] .

(٢) الكسفة : القطعة من الشىء . يقال : أعطنى كسفة من ثوبك . [تفسير القرطبي

﴿وَحَاقَ بِهِمْ .. (٢٤)﴾ [النحل]

أى : أحاط ونزل بهم ، فلا يستطيعون منه فراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما فى قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾

نلاحظ أنه ساعة أن يأتى الفعل تصاً فى مطلوبه لا يذكر المتعلق به .. فلم يقل : أشركوا بالله .. لأن ذلك مطوم ، والإشراك معناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥)﴾ [النحل]

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [النحل]

إنهم هنا يدافعون عن أنفسهم ، وهذه هى الشماعة التى يعلق عليها الكفار خطاياهم - شماعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا ، فيقول المسرف على نفسه : ربنا هو الذى أراد لى كذا ، وهو

الذى يهْدِي ، وهو الذى يُضِل ، وهو الذى جعلنى ارتكب الذنوب ،
إلى آخر هذه المقولات الفارغة من الحق .. والنهاية : فلماذا يعذبنى
إذن ؟

وتعالوا تناقش صاحب هذه المقولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ،
والقضية غير واضحة أمامه .. ولكى نزيل عنه هذا الغموض نقول
له : ولماذا لم تقل : إذا كان الله قد أراد لى الطاعة وكتبها على ،
فلماذا يثيبنى عليها .. هكذا المقابل .. فلماذا قلت بالأولى ولم تقل
بالثانية ؟

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشر والعذاب ، فوقفتُ فى عقلك ..
أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذكرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك .. هل كلها خير ؟ أم هل
كلها شر ؟ أما منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ؟

والإجابة هنا واضحة . إذن : لا أنت مطبوع على الخير دائماً ،
ولا أنت مطبوع على الشر دائماً ، لذلك فأنت صالح للخير ، كما أنت
صالح للشر .

إذن : هناك فرق بين أن يخلقك صالحاً للفعل وضده ، وبين أن
يخلقك مقصوراً على الفعل لا ضده ، ولما خلقك صالحاً للخير
وصالحاً للشر أوضحت لك منهجه وبين لك الجزاء ، فقال : اعمل
الخير .. والجزاء كذا ، واعمِل الشر .. والجزاء كذا .. وهذا هو
المنهج .

ويحلو للمسرف على نفسه أن يقول : إن الله كتبني على .. وهذا عجيب ، وكأني به قد أطلع على اللوح المحفوظ^(١) ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً فراح فشربها ؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمر هكذا لكنت طائعاً بشربك هذا ، لكن الأمر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كتبت عليك إلا بعد أن فعلت ، والفعل منك مسبوق بالعزم على أن تفعل ، فهل أطلعت على اللوح المحفوظ كي تعرف ما كتب الله عليك ؟

وانتبه هنا واعلم أن الله تعالى كتب أزلًا ؛ لأنه علم أنك تفعل أجلًا ، وعلم الله مطلق لا حدود له .

ونضرب مثلاً - والله المثل الأعلى - الوالد الذي يلاحظ ولده في دراسته ، فيجده مُهملاً غير مُجدٍّ فيتوقع فشله في الامتحان .. هل دخل الوالد مع ولده وجعله يكتب خطأ ؟ لا .. بل توقع له الفشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُسبقاً وأزلًا ؛ لأنه يعلم ما يفعله العبد أصلاً .. وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخرى لهذا المنهج حينما وجه المؤمنين إلى الكعبة بعد أن كانت وجهتهم إلى بيت المقدس ، فقال تعالى :

(١) اللوح المحفوظ : شيء لا يعلمه إلا الله ، فيه ما قدره الله وقضاه على الخلائق .

سُورَةُ النِّجَالِ

﴿٧٩﴾ ٧٩٠٧

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. ﴾ (١٤٤)

[البقرة]

ثم أخبر نبيه ﷺ بقوله :

﴿ سَمِعُوا السُّفَهَاءَ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ﴾ (١٤٢)

[البقرة]

جاء الفعل هكذا في المستقبل : سيقول .. إنهم لم يقولوا بعد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلى على مسامع الجميع غير خاف على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسَكَنُوا ولم يُبَادِرُوا بهذه المقولة ، ويُفَوِّتُوا الفرصة بذلك على محمد ﷺ وعلى صديق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا ويُوجِّهوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تَمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة في القرآن الكريم .

(١) أخرج ابن ماجه في سننه (١٠١٠) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء . وعلم الله من قلب نبيه ﷺ أنه يهوى الكعبة ، لمصد جبريل ، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ، ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ فَرَّكَ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ .. ﴾ [البقرة] (١٤٢) ، فأتانا آت فقال : إن اقبلة قد صرفت إلى الكعبة . وقد صلينا ركعتين إلى بيت المقدس ونحن ركوع فتحولنا ، فبينما على ما مضى من صلاتنا ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ .. ﴾ [البقرة] (١٤٢) .

وهذه الآية ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. ﴾ (٣٥) [النحل]

تشرح وتفسر قول الله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (١٤٨) [الأنعام]

فهنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ قَالَ ﴾ : لنعلم أنه لا يستطيع أحد معارضة قول الله تعالى ، أو تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

﴿ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا .. ﴾ (٣٥) [النحل]

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن أنفسهم فقط ؟ ما الحكمة في دفاعهم عن آبائهم هنا ؟ الحكمة أنهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد ، وسوف يجعلونها حجة حينما يقولون :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ ﴾ (٢٧) [الزخرف]

إذن : لا حجة لهؤلاء الذين يعلقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر ، وأن الله تعالى كتب عليهم المعصية ؛ لأننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الأباطيل ، ومنهم مَنْ تأخذه الجرأة على الله عز وجل فيشبه هذه القضية بقول الشاعر :

اللقاء في النِّمِّ مكتوماً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

(١) أي : وراهم سائر من اتخذوا أيام قنوة ، ومهتين يهذبهم .

مِنْ وَفَاءِ الْحَمَلَةِ

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۖ﴾ .. (٢٩) ﴿[الكهف]

غير مُرادِهِ سبحانه وتعالى ؟ حاشا لله ومعنى ذلك أن كُفِّرَ الكافر مُراد كونه ، وليس مُراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كفر المؤمن ، المؤمن حقيقة لم يكفر . إذن : هو مُراد شرعى وكذلك مُراد كونه ، وهكذا ، فلا بُدَّ أن تُفَرَّقَ بين المُراد كونياً والمُراد شرعياً .

ولذلك لما حدثت ضجة فى الحرم المكى منذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للأمنيين ، قال بعضهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (٩٧) [آل عمران]

وها هو الحال قتل وإزعاج للأمنيين فيه ١٩

والحقيقة أن هؤلاء خلطوا بين مُراد كونه ومُراد شرعى ، فالمقصود بالآية : فَمَنْ دَخَلَهُ فَأَمَّنُوهُ . أى : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلب من الله تبارك وتعالى ، وهو مُراد شرعى قد يحدث وقد لا يحدث .. أما المُراد الكونى فهو الذى يحدث فعلاً . وبذلك يكون ما حدث فى الحرم مُراداً كونياً ، وليس مُراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

﴿ وَلَا حَرَمًا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٢٥) [النحل]

وقد ورد توضيح هذه الآية فى قوله تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾^(١) وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ [المائدة]

ثم يقول تعالى مقررًا :

﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .. ﴾ ﴿٢٥﴾ [النحل]

أى : هذه سُنَّةُ السَّابِقِينَ المعاندين .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿٣٥﴾ [النحل]

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج « افعل أو لا تفعل » . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفعل وقادر على التوك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المكروه فلا يتعلق به حكم ؛ لأنه فى حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبّه ، وكذلك المجنون والصغير الذى لم يبلغ التعقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكم .. لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لألة الترجيع فى الاختيار .. وهى العقل .

وحيثما يكون الإنسان محلّ تكليف عليه أن يجعل الفيصل فى :

(١) البَحِيرَةُ - الناقة إنا ولدت خمسة أبطن بحريرا أنتها أى . شقوها وأعفرها أن ينتفع بها . ولم يمنعوها من ماء ولا مرقى .

السائبة : الناقة التى تُسَيَّب فتترك مهملة لنذر ونحوه .

الوصيلة : الناقة تترك بانثنى ثم تنثنى بأش فتعبد بمباركة لا تُذبح . [القاموس القويم ٢/٢١٠] .

الحامى : من الإبل الذى طال مُكِنّه عند أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فحموا ظهره وتركوه . [المعجم - مادة : حما] .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٥)

[النحل]

بلاغ المنهج بأفعل ولا تفعل ؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا يقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلِّغ ﷺ ، فقال تعالى في حق هؤلاء :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ... (٢٠)

[الزخرف]

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْكُونَ ﴾ (٢١)

[الزخرف]

وخاطبهم سبحانه في آية أخرى :

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴾ (٢٧)

[القلم]

وكلمة ﴿ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : لا بُدَّ أَنْ يُبَلِّغَ الْمَكْلَفُ ، فإن حصل تقصير فى ألا يُبَلِّغَ الْمَكْلَفُ يُنْسَبُ التَّقْصِيرُ إِلَى أَهْلِ الدِّينِ الْحَقِّ ، الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَيْهِ ، وَالْمُنَاطَ بِهِمْ تَبْلِيغُ هَذَا الْمَنْهَجِ لَعَنَ لَمْ يَصْلِهِ . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى الْحَثِّ عَلَى تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ لِمَنْ لَمْ يَصْلِهِ الدِّينُ .

كما قال ﷺ : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً »^(١) وقوله ﷺ : « تَخَصَّرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاَهَا ثُمَّ آذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ »^(٢) .

(١) أخرجه البزارى فى صحيحه (٢٤٦١) ، وأحمد فى مسنده (١٥٩/٢ ، ٢٠٢) ،

والدارمى (١٤٦/١) والترمذى فى سننه (٢٦٦٩) وقال - حديث حسن صحيح

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٧/١) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجه

فى سننه (٢٢٢) والحميدى (١٧/١) من حديث عبدالله بن مسعود .

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾

فالحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا .. (٣٦)﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤)﴾ [النحل]

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى .. فقلوه :

﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤)﴾ [النحل]

أى : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربى ودرج ، يعرفون
خصاله وصدقته ومكانته فى قومه .

أما قوله تعالى :

﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ .. (٣٦)﴾ [النحل]

فـ « فى » هنا تفيد الظرفية . أى : فى الأمة كلها ، وهذه تفيد
التغلغل فى جميع الأمة .. فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون
أخرى ، بل لا بُدَّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة :

﴿ أَرْسَلْنَا .. (٢٦) ﴾

[الحديد]

ومرة أخرى يقول :

﴿ بَعَثْنَا .. (٣٦) ﴾

[النحل]

وهناك فرق بين المفعليين فـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، وفريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم - عليه السلام - حيث علّمه الله الأسماء كلها ، ثم أميطه من الجنة إلى الأرض . وقال :

﴿ فَإِذَا يَأْتِيَكُم مِّنْ هُدًى لِّمَنِ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٨) ﴾

[البقرة]

وقال في آية أخرى :

﴿ فَإِذَا يَأْتِيَكُم مِّنْ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (٢٢٣) ﴾

[طه]

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم - عليه السلام - والمفروض أن يُبلّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض في أبنائه أن يُبلّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلّغ للمنهج فتتطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتي هكذا فجأة لجماعة من الجماعات ، بل هي موجودة منذ أول الخلق .

فالرسالات إذن بَعَثَ لمتنهِجِ إلهي ، كان يجب أن يظلَّ على ذكرِ
من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلِّغ
فلا يُبلِّغ ، وقد تصيب المبلِّغ فلا يلتزم بالبلاغ ؛ لذلك يجدد الله
الرسَل .

وقد وردت آياتٌ كثيرة في هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا^(١) فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر]
وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مَهْلِكُ الْقُرُونِ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام]
وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء]

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضَعُونَ لأنفسهم القوانين
التي تُنظِّم حياتهم ، ليس لديهم قانون يُحدِّد الجرائم ويُعاقب عليها ؟
فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصٍّ إلا بإبلاغ ،

ومن هنا تأتي أهمية وَضْعِ القوانين ونشرها في الصحف
والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أن نعاقب إنساناً على
جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن
هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسُولان ، ألم يكن إبراهيم
ولوط متعاصرين ؟ ألم يكن شعيب وموسى متعاصرين ؟ فما علة
ذلك ؟

(١) خلا : مضى وذهب وسبق ، [القاموس القويم ٢٠٨/١] .

نقول : لأن العالم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكل جماعة منعزلة في مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة في أرض لا تدرى بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكل جماعة بيئتها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُتَكَررات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطْفِقُونَ^(١) الكيل والميزان ، وهؤلاء ياتون الذُكْران دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كل في بلد على حدة .

لكن رسالة محمد ﷺ كانت على موعد مع التقاءات الامكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً في أمريكا فنعلم بها في نفس اليوم .. إذن : أصبحت الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أن يُرْسَلَ ﷺ للناس كافة ، وللأزمة كافة .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ..﴾ (٢٨) [سبا]

أي : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كسفت القماش أي : جمعت بعضه على بعض ، حتى لا يذهب منه شيء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ..﴾ (٢٦) [النحل]

(١) طفف المكيال : بفضه ونقصه ، [المعجم الوجيز - مادة : طفف] .

هذه هي مهمة الرسل :

[النحل]

﴿ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦) ﴾

والعبادة معناها التزامٌ بأمرٍ فيُفعل ، ويُنتهى عن أمرٍ فلا يُفعل ؛
لذلك إذا جاء مَنْ يدعى الألوهية وليس معه منهجٌ فنقول له : كيف
تعبدك ؟ وما المنهج الذى جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ وعن أى شىء
تنهاانا ؟

فهنا أمرٌ بالعبادة ونهى عن الطاغوت ، وهذا يُسمونه تَحْلِيَةً
وَتَحْلِيَةً : التحلية فى أن تعبدَ الله ، والتخلية فى أن تبتعدَ عن
الشيطان .

وعلى هذين العنصرين تُبنى قضية الإيمان حيث نقى فى :
« أشهد أن لا إلهَ » .. وإثبات فى « إلا الله » ، وكأن الناطق بالشهادة
يتنقى التعدد ، ويُثبت الوجدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد حُلِّيتَ
نفسك عن الشرك ، وحُلِّيتَ نفسك بالوجدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها فى الآخرة من جنس هذه التحلية
والتخلية ؛ ولذلك نجد فى قول الحق تبارك وتعالى :

[آل عمران]

﴿ فَمَنْ رُحِّزَ عَنِ النَّارِ .. (١٨٥) ﴾

أى : حُلِّى عن العذاب .

[آل عمران]

﴿ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ .. (١٨٥) ﴾

أى : حُلِّى بالنعيم .

وقوله سبحانه :

﴿وَأَجْتَبِوا الطَّاغُوتَ .. (٤٦)﴾

[النحل]

أى : ابتعدوا عن الطاغوت .. فيكون المقابل لها : تقربوا إلى الله و ﴿ الطَّاغُوت ﴾ فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذرّوة في الطغيان وزاد فيه .. وقرّق بين الحدث المجرد مثل طغى ، وبين المبالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذى يزيده الخضوع لباطله طُغياناً إلى باطل أعلى :

ومثال ذلك : شاب تمرد على مجتمعه ، وأخذ يسرق الشيء الثافه القليل ، فوجد الناس يتقربون إليه ويداهنونه اتقاء شره ، فإذا به يترقى فى باطله فيشتري لنفسه سلاحاً يعتدى به على الأرواح ، ويسرق الغالى من الأموال ، ويصل إلى الذرّوة فى الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديات تتحملها العاقلة^(١) وتقوم بها عن الجانى الجانى ، ذلك لما وقع عليها من مسئولية ترك هذا الجانى ، وعدم الأخذ على يده وكفّه عن الأذى .

ونلاحظ فى هذا اللفظ (الطاغوت) أنه لما جمع كل مبالغة فى الفعل نجده يتأبى على المطاوعة ، وكأنه طاغوت فى لفظه ومعناه ، فنراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان

(١) العاقلة : هم المصيبة ، وهم للقرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . [لسان

العرب - مادة : عقل] .

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

﴿٧٩١٩﴾

طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصيغ .

إذن : الطاغوت هو الذى إذا ما خضع الناس لظلمه ازداد ظلماً .

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَخَفَّ^(١) قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف]

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي .. (٣٨) ﴾ [القصر]

ويُحكى فى قصص المتنبيين أن أحد الخلفاء جاءه خبير مُدَّعٍ للنبوة ، فأمرهم ألا يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لأمره بالآ لعله ينتهى ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدعى النبوة ، فجاءوا بالاول ليرى رأيه فى النبى الجديد : ما رأيك فى هذا الذى يدعى النبوة ؟ أيكم النبى ؟ فقال : إنه كذاب قرائى لم أرسل أحداً !! ظن أنهم صدقوه فى ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ فى القرآن ثمانى مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتثانيث ، ومرة وردت للمؤنث فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَبَوْا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا .. (١٧) ﴾ [الزمر]

ومرة وردت للمذكر فى قوله تعالى :

(١) استخففه : استضعف عقله وسخّره وسبّره على هواه وحمله على الطيش والحمق .

[القاموس القويم ٢٠٠/١] . والمقصود به فى الآية فرعون .

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُنْحَاكُمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا

[النساء]

به .. ﴿٦٠﴾﴾

وفى اللغة كلمات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، مثل قول الحق

تبارك وتعالى :

﴿وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

[الاعراف]

سَبِيلًا .. ﴿١٤٦﴾﴾

وقوله :

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي .. ﴿١٠٨﴾﴾

[يوسف]

فكلمة « سبيل » جاءت مرّة للمذكر ، ومرّة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

[النحل]

الضَّلَالَةُ .. ﴿٣٦﴾﴾

وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنها حجة يقول من خلالها : إن

الهداية بيد الله ، وليس لنا دخل في أننا غير مهتدين .. إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن .. يقول تعالى :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .. ﴿١٧﴾﴾ [فصلت]

لو كانت الهداية بالمعنى الذى تقصدون لما استحبُّوا العَمَى

وفضلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دللناهم وأرشدناهم فقط ،

ولهم حَقُّ الاختِيَار ، وهم صالِحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتي للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذى أقبل على الله بإيمان به زاده هُدى وآتاه تقواه ، كما قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧)

[محمد]

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ..﴾ (٥٦)

[القصاص]

وقوله :

﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢)

[الشورى]

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية فى الاولى ، واثبتها له فى الثانية ، نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدث عنه واحد هو الرسول ﷺ ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحَدِّثٍ واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟!

لا بد أن تكون الجهة مُتَّفَكة .. فى :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي ..﴾ (٥٦)

[القصاص]

أى : لا تستطيع أن تُدْخِلَ الإيمان فى قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدى إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، وَيَصْرِفُ عنها مَنْ أَعْرَضَ عنه ورفضه .

وكان الله تعالى فى خدمة عبّيده ، مَنْ أَحَبَّ شيئاً أعطاه إياه ويسره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على الكافر بالكفر .

إذن : تأتي الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما في الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشرح الصدر للإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. ﴾ (٥٦) [القصص]

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. ﴾ (١٧) [محمد]

فقوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ .. ﴾ (٣٦) [النحل]

أى : هداية إيمان ومعونة بأن مكّن المنهج فى نفسه ، ويسّره له ، وشرح به صدره .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .. ﴾ (٣٦) [النحل]

حَقَّتْ : أى أصبحت حقا له ، ووجبت له بما قدّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حَقَّتْ عليهم ، وما وجبت لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٤) [الأنعام]

أيهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أن حُرّموا الهداية .

ونذكر هنا مثالا كثيراً ما كررناه ليرسخَ فى الأذهان - وشه المش

الأعلى - هَبْ أَنْكَ سَائِرَ فِى طَرِيقِ تَقْصِدِ بِلْدًا مَا ، فَصَادَفَكَ مُفْتَرِقَ
لَطَرِقِ مُتَعَدِّدَةٍ ، وَعِلَامَاتِ لَاتَجَاهَاتِ مُخْتَلِفَةٍ ، عِنْدَهَا لَجَأَتْ لِرَجُلِ
الْمُرُورِ : مَنْ فَضْلِكَ أَرِيدُ بِلَدَةٍ كَذَا ، فَقَالَ لَكَ : مَنْ هُنَا . فَقُلْتَ : الْحَمْدُ
لِلَّهِ ، لَقَدْ كِدْتُ أَضِلُّ الطَّرِيقَ ، وَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا .

فَلَمَّا وَجَدَكَ اسْتَقْبَلْتَ كَلَامَهُ بِالرُّضَا وَالْحُبِّ ، وَشَكَرْتَ لَهُ صَنْيَعَهُ
أَرَادَ أَنْ يُزِيدَ لَكَ الْعَطَاءَ . فَقَالَ لَكَ : لَكِنْ فِى هَذَا الطَّرِيقِ عَقَبَةٌ صَعْبَةٌ ،
وَسَوْفَ أَصْحَبُكَ حَتَّى تَمُرَّ مِنْهَا بِسَلَامٍ .

هَكَذَا كَانَتْ الْأَوَّلَى مِنْهُ مُجَرَّدَ دَلَالَةٍ ، أَمَّا الثَّانِيَةُ فَهِيَ الْمَعُونَةُ .
فَلَمَّا صَدَّقَتْهُ فِى الدَّلَالَةِ أَعَانَكَ عَلَى الْمَدْلُولِ .. هَكَذَا أَمَرَ الرُّسُلَ فِى
الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَقِّ ، وَكَيْفِيَّةِ قَبُولِ النَّاسِ لَهَا .

وَلَكِنْ أَنْ تَتَصَوَّرَ الْحَالِ لَوْ قُلْتَ لِرَجُلِ الْمُرُورِ هَذَا : يَبْدُو أَنَّكَ
لَا تَعْرِفُ الطَّرِيقَ .. فَسَيَقُولُ لَكَ : إِنْ أَنْتَ كَمَا تُحِبُّ وَسِرٌّ كَمَا تَرِيدُ ،
وَكَلِمَةٌ « الضَّلَالَةُ » مِبَالِغَةٌ مِنَ الضَّلَالِ وَكَأَنَّهَا ضَلَالٌ كَبِيرٌ ، فَفِيهَا
تَضَخِيمٌ لِلْفِعْلِ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضُّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ (٧٥)
مَدًّا .. (٧٥) ﴿ (مريم)

ثُمَّ يُقِيمُ لَنَا الْحَقَّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - الدَّلِيلَ عَلَى بَعْثَةِ الرُّسُلِ فِى
الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِنَتَأَكَّدَ مِنْ إِخْبَارِهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا أَقْسَامًا
بَيْنَ مُكَذِّبٍ وَمُصَدِّقٍ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٣٦) [النحل]

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَأَنْتُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴾ (١٢٧) [الصافات]

فأمر الله تعالى بالسياحة في الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ .. ﴾ (٣٦) [النحل]

وهل نحن نسير في الأرض ، أم على الأرض ؟

نحن نسير على الأرض .. وكذلك كان فهمنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويثبت العلم صدق القرآن وإعجازه .

فصنذ أعوام كنا نظن أن الأرض هي هذه اليابسة التي نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوى) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدونه لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوى جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير في الأرض ، كما نطق بذلك الحق - تبارك وتعالى - في كتابه العزيز .

ونقف أمام ملاحظ آخر في هذه الآية :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا .. (١٢٧) ﴾ [إعراب]

وفي آية أخرى يقول :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام]

ليس هذا مجرد تفنن في العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أي : يأتي النظر بعد السير مباشرة .. أما في العطف بثم فإنها تعيد الترتيب مع التراخي . أي : مرور وقت بين الحدثين ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس]

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَانظُرُوا .. (٣٦) ﴾ [النحل]

فكان الغرض من السير الاعتبار والاعتاظ ، ولا بد - إذن - من وجود بقايا وأطلال تدل على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التي أصبحت أثراً بعد عين .

وما نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفد إليها السياح من شتى دول العالم المتقدم ؛ ليرَوْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطور وتقدم يعجزهم ويحيرهم ، ولم يستطيعوا فكّ طلاسمه حتى الآن .

(١) أنشروه : أحياء وأوجده . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) ﴾ [عبس] بعثه من قبره .

[القاموس الثقوي ٢/ ٢٦٦] .

ومع ذلك لم يترك القراعة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ،
أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى : مما يدل على أن هؤلاء القوم
أخذوا لُحْدَةً قوية اندثرت معها هذه المراجع وهذه المعلومات . كما
قال تعالى :

﴿ هَلْ تُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ^(١) ﴾ [مريم]

وقد ذكر لنا القرآن من قَصَصِ هؤلاء السابقين الكثير كما في
قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ^(٢) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ^(٣) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ^(٤) ﴾ [الفجر]

وقال :

﴿ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ^(٥) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ^(٦)
الَّذِينَ ظَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ^(٧) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ^(٨) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ
سَوْطًا ^(٩) عَذَابٍ ^(١٠) ﴾ [الفجر]

هذا ما حدث للمكذِّبين في الماضي ، وإياكم أن تظنوا أن الذي
يأتي بعد ذلك بمنجى عن هذا المصير .. كلا :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ^(١١) ﴾

[الفجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) الرِّكْزُ : الحرس والصوت الخفى تسمعه من بعيد . [لسان العرب - مادة : ركز] .

(٢) يعنى : يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس : يتحشونها ويخزقونها . [تفسير ابن كثير ٥/٨٠٨] .

(٣) قال الفراء . هذه الكلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط حصى به الكلام والمثل . وهو عندهم غاية العذاب . [لسان العرب - مادة : سوط] .

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٧)

يُسَلِّي الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ ، ويثبت له حرصه على
أمته ، وأنه يُحْمَل نفسه في سبيل هدايتهم فوق ما حَمَلَهُ الله ، كما
قال له في آية أخرى :

﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ^(١) نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

[الشعراء]

ويقول تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٨)

[التوبة]

ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذِبين المعاندين ،
فيقول تعالى :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ..﴾ (٣٧)

[النحل]

أى : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدْعُهُ إلى كفره ، بل
ويطمس على قلبه غير مأسوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله
إلى ما يريد .

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (٣٧)

[النحل]

(١) باحع : مهلك ، ينج نفساً : قتلها مما وثيقاً وحزناً .

إذن : المسألة ليست مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلصهم منها ، كما قال تعالى :

﴿فَمَا نَأْمَنُ مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء]

إذن : لا يهدي الله مَنْ اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعَذِّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصره فيه .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ .. ﴿٢٨﴾﴾ [النحل]

سبحان الله !! كيف تُقسمون بالله وأنتم لا تؤمنون به ؟ وما مدلول كلمة الله عندكم ؟.. هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن موضوع الإيمان غير واضح في عقولهم ؛ لأن كلمة الله نفسها دليل على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة في اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً .. فالتفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .

(١) ذكر الواحدى في سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه ، فكان فيما تكلم به المسلم : والذي أرجوه بعد الموت أنه لكذا ، فاقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت . فنزلت الآية [أسباب النزول للواحدى ص ١٦٠] ، [تفسير انقراطى ٢٨٢٩/٥] .

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿ ٧٩٢٩ ﴾

إذن : توجد المعاني أولاً ، ثم توضع للمعاني أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده ؟ يكون قبله .. فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتُم ! لأن كلمة الله لفظ موجود في اللغة ، ولا بد أن لها معنى سبق وجودها .

إذن : فالإيمان مسبق الكفر .. وجاء الكفر منطقياً : لأن معنى الكفر : السُّتْر .. والسؤال إذن : ماذا ستر ؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. ﴾ (٣٨) [النحل]

أى : مبالغين في اليمين مُؤكِّدينه . وما أقرب غيابة هم هنا بما قالوه في آية أخرى :

﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٢) [الأنفال]

فليس هذا بكلام العقلاء ، وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :

﴿ لَا يَمُتُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. ﴾ (٣٨) [النحل]

وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأن قالوا :

﴿ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢) [المؤمنون]

فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ بَلَى ﴾ .

وهي أداة لتنقي النفي السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفي النفي إثبات ، إذا « بلى » تنفى النفي قبلها وهو قولهم :

﴿ لَا يَعْثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. ﴾ (٢٨)

[النحل]

والوعد هو الإخبار بشيء لم يأت زمنه بعد ، فإذا جاء وعدٌ بحدث يأتي بعد فننظر فيمن وعد : أقدر على إيجاد ما وعد به ؟ أم غير قادر ؟

فلان كان غير قادر على إنفاذ ما وعد به لانه لا يضمن جميع الأسباب التي تعينه على إنفاذ وعده ، قلنا له قل : إن شاء الله .. حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تف بوعدك التمسنا لك عذراً ، وحتى لا توصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبت الأمر إلى مشيئة الله .

والحق - تبارك وتعالى - لا يمنعنا أن نخطئ للمستقبل ونعمل كذا ونبنى كذا .. نخطئ كما تحب ، واعدد للمستقبل عدته ، لكن أردف هذا بقولك : إن شاء الله ؛ لأنك لا تملك جميع الأسباب التي تمكن من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ .. ﴾ (٢٤)

[الكهف]

وتضرب لذلك مثلاً : هب أنك أردت أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه في أمر ما .. هل ضمنت لنفسك أن تعيش لغد ؟ وهل ضمنت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً ؟ وهل ضمنت ألا يتغير الداعي الذي تريده ؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب ألم بك

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

٧٩٣١

عائق منكم من الذهاب . إذن : يجب أن تُردف العمل في المستقبل
بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ
ما يعد به : لأنه لا قوة تستطيع أن تقف أمام مُرادِه ، ولا شيء
يُعجزُه في الأرض ولا في السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً)
أن يُوفِّيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَنَكْبِتُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨)﴾ [النحل]

أى : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى :

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة]

وقال : ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا^(١) إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا

(١١)﴾ [الإسراء]

فقد استبعد الكفار أمر البعث : لأنهم لا يتصورون كيف يبعث
الله الخلق من لدن آدم - عليه السلام - حتى تقوم الساعة .. ولكن
لم يستبعدوا ذلك ؟ وقد قال تعالى :

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً (٢٨)﴾ [لقمان]

فالامر ليس مزاوله يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على
حدة .. لا .. ليس في الامر مزاوله أو معالجة تستغرق وقتاً .

(١) رفت النشء . جعه رفاقاً : أى دقه وكسره وجعه قطعاً صغيرة . [القاموس التقریم

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) [يس]

ونضرب لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - فنحن نرى مثل هذه الأوامر في عالم البشر عندما يأتي المعلم أو المدرب الذي يُدرب الجنود نراه يعلم ويُدرب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً بكلمة واحدة يقولها يمثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندي وأوقفه كما يريد ؟! لا .. بل بكلمة واحدة ثم له ما يريد .

وكان انضباط المأمور وطاعته للأمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات في الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى .. هي كلمة واحدة بها يتم كل شيء .. فليس في الأمر معالجة ، لأن المعالجة أن يُباشِر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا .. بل بالأمر الانضباطي : كن .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٨) [النحل]

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَيْسَ لَهِمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ (٣٩)

فمعنى قوله تعالى :

﴿لَيَبْلُغَنَّ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. (٣٩)﴾ [النحل]

أى : من أمر البعث : لأن القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء ؛ ولذلك كنت فى جدالى للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفتريين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا .. فماذا فعلتم بهم ؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة ١٩١٧ ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء ؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتى فصل الخطاب فى قوله تعالى :

﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾ [النحل]

أى : كاذبين فى قولهم :

﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .. (٣٨)﴾ [النحل]

وذلك علم يقين ومعينة ، ولكن بعد فوات الاوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يجدى التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين فى قسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يَمُوت وبالغوا فى الأيمان وأكثروها ؛ ولذلك يقول تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِثِّ^(١) الْعَظِيمِ﴾ (٤٦)

[الواقعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ

لَهُ رَكْنٌ فَيَكُونُ﴾ (٤٧)

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضم أجزاءه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهي (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومزاولة يكون الجميع مائلاً طائفاً ، كل واحد منتظراً دوره ، منتظراً الإشارة ؛ ولذلك جاء في الخبر : « أمور بيديها ولا يبتديها » .

فالأمر يتوقف على الإذن ؛ أظهر يظهر .

ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين .. تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذي وُضِعَ فيها ، ثم تنفجر دون تدخل من صانعها .. مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها في الإذن .. وإن كان الأمر في حقه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

(١) الحِثُّ - الحَلْفُ في اليمين . وهو أيضاً الذنب العظيم والإثم . وقيل : هو الشرك . [لسان العرب - مادة : حث] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ أَجْرَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحملون الأذى والظلم والاضطهاد في سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يضحى الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لامر يقينى .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذى أنكره الكافرون والحرأ فى إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ..﴾ (٤٨) [النحل]

وهم يعلمون أن من الخلق مَنْ يُسِئ ، ومنهم مَنْ يُحْسِن ، فهل يعتقدون - فى عُرْف العقل - أن يترك الله مَنْ أَسَاء ليعرِد فى خلق الله دون أن يُجَازِيَهُ ؟

ذلك يعنى أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمَتُّوا البعث ، أما وقد أسرقوا على أنفسهم إسرافاً يُشْفِقُونَ معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعى أن يُنْكِرُوا البعث ،

(١) بواه : أسكنه . وبواه فى الأرض : مكّن له فيها . والمعنى : أى نزلهم منزلة حسنة بالنصر وإغداق النعم عليهم فى الدنيا . [القاموس القويم ٨٨/٢] .

ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأمان الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكراماتهم وأمنهم أمرٌ لا يحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعهم مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذي يدفعهم إلى التضحية في سبيل هذا الإيمان .. إذن : لا يدُّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينتشر الإسلام في بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظناً أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا .. هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة .. إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبار الصناديد العتاة .

وكان من الممكن أن يتصرَّ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلَى كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحة الإيمانية في مكة أولاً ؛ لأن مكة مركز السيادة في جزيرة العرب ، وقرش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أى قبيلة في الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه^(١) .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لقَالُوا : إن الإسلام استضعف جماعة من الناس ، وأغراهم بالقول حتى آمنوا به . لا .

(١) يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ أَجْعَلْنَاهُمْ سَبِيلَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ (١٣) [التوبة] .

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

○ ٧٩٢٧ ○

فالصيحة الإسلامية جاءت في أذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين آمنهم الله في رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه في بلد السادة ؟
نقول : لا .. الصيحة في أذن الباطل تكون في بلد السادة في مكة ، لكن نصرة الدين لا تأتي على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتي في المدينة .

وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد في مكة فرضت الإيمان بمحمد .. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد ﷺ هو الذي خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانت لها قريش نفسها .

وما دامت هناك معركة ، فمن المطحون فيها ؟ المطحون فيها هو الضعيف الذي لا يستطيع أن يحصى نفسه .. وهؤلاء هم الذين ظلموا .. ظلموا في المكان الذي يعيشون فيه ؛ ولذلك كان ولا بد أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .

وقد جاء رفع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل .. فكانت المرحلة الأولى أن ينتقل المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نشر دينهم ، بل إلى دار أمن فقط يأمنون فيها على دينهم .. مجرد أمن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .

ولذلك استعرض رسول الله ﷺ البلاد كلها لينظر أي الأماكن تصلح دار أمن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم

يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلادها حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » (١) .

وتكفي هذه الصفة في ملك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففي هذه المرحلة من نُصْرَةِ الدين لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقوا برسول الله ﷺ وبايعوه على النُصْرَةِ والتأييد ، ذلكم هم الانصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومهدوا للهجرة الثانية إلى المدينة . وهي هجرة - هذه المرة - إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره في ربوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. (٤١) ﴾

[النحل]

ومادة هذا الفعل : هجر .. وهناك فَرْقٌ بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ في مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى أنه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يُكرمه على الهجرة .. أى المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهى تدل على المفارقة من الجانبين ، فالفاعل هنا

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢٠١/٢) ، وأورثه ابن هشام في السيرة النبوية بنحوه (٢٢١/١) .

ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التي حدثت من القوم هي التي اضطرته للهجرة .. وهذا ما حدث في هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلا بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظلم ، فكانهم بذلك شاركوا في الفعل ، فلو لم يتعرضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا ..

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ..﴾ (٤١)

[النحل]

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبي^(١) :

إذا ترحلت عن قومٍ وقد قدرُوا
ألا تُفارقهم فالراحلون همُوا

يعنى : إذا كنت في جماعة وأردت الرحيل عنهم ، وفي إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما ييسر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركوك ترحل مع مقدرتهم ، فالراحلون في الحقيقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة ؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذي يتمنى كل مسلم الإقامة في جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا

(١) هو : أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبي ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) . قال الشعر صبياً . ادعى النبوة في بادية السماوة وسجنه أمير حمص حتى تاب ورجع عن دعواه . ولقد على المكام والولاء فمدحهم شعراً وحظى عندهم ، زار حلب ومصر ويقبض وفارس وقتل بالنعمانية على يد قاتك بن أبي جهل عام (٣٥٤ هـ) عن ٥٦ عاماً . (الإعلام ١/ ١١٥) .

عليه ، وطبيعي إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ،
ثم يعودون للإقامة ثانية في مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿ هَاجِرُوا إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾

[التحل]

ونلاحظ في الحديث الشريف الذي يوضح معنى هذه الآية :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ،
ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها^(١) فهجرته إلى ما
هاجر إليه »^(٢) .

فما الفرق هنا بين : هاجر في الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذي هاجر إليه أفضل من
الذي تركه ، وكان الذي هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر في الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً في
الله .. إقامتهم نفسها في مكة وتحملهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت
أيضاً في الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدل ذلك على أن إقامتهم
الأولى لم تكن لله .. إذن : معنى الآية :

(١) أخرج سعيد بن منصور من قول ابن مسعود أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها
أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . [أورده ابن حجر في فتح الباري ١ / ١٠] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١) ، وكذا مسلم في صحيحه (١١٠٧)
من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

﴿ هَاجِرُوا فِي اللَّهِ .. ﴾ (٤١) [النحل]

أى : أن إقامتهم كانت لله ، ومجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ .. ﴾ (١٣٣) [آل عمران]

أى : إذا لم تكونوا فى مغفرة فسارعوا إلى المغفرة . وفى الآية الأخرى :

﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴾ (٦١) [المؤمنون]

ذلك لانهم كانوا فى خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر .. أى : أنتم فى خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملحق آخر فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. ﴾ (٤١) [النحل]

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع .. لكن هل هى خاصة بمن نزلت فيهم الآية ؟ أم هى عامة فى كل مَنْ ظَلِمَ فى أى مكان - فى الله - ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى عامة فى كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت^(١) فى نفر من الصحابة منهم : صُهَيْب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِنْ اضْطُرُّوا إلى الهجرة فراراً بدينهم .

(١) ذكره الواحدى فى السبيل للنزول (ص ١٦٠) ، والقرطبى فى تفسيره (٢٨٢١/٥) ..

ونعلم قصة صهيب رضى الله عنه - وكان رجلاً حداداً - لما أراد أن يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السن ، إن كنت معكم فلن أنفعكم ، وإن كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندى مال .. خذوه واتركوني أهاجر ، فرضوا بذلك ، وأخذوا مال صهيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له ﷺ : « ربح البيع يا صهيب » ^(١) أى : بيعة رابحة ، ويقول له عمر - رضى الله عنه : « نعم العبدُ صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » .

وكان عدم عصيائه ليس خوفاً من العقاب ، بل حباً فى الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أن يعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَنَبْوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .. ﴾ (٤١)

[النحل]

تَبَوُّىء ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. ﴾ (٢٦)

[الحج]

أى : بيئنا له مكانه ، ونقول : جاء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعى فى مناكب الأرض فى زراعة أو تجارة ، ثم يارِى وييسر إلى بيته ، إذن : جاء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدّه الله له .

(١) أخرجه ابن نعيم فى حلية الأولياء (١٥١/١ ، ١٥٢) من حديث صهيب رضى الله عنه ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٢٩٨/٢) .

فَإِنْ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ سَيُخْرَجُونَ الْآنَ مِنْ مَكَّةَ مَغْلُوبِينَ مُضْطَهَدِينَ
فَسَوْفَ نَعْطِيهِمْ وَنُحْلِيهِمْ وَنُنْزِلُهُمْ مَنْزِلَةً أَحْسَنَ مِنَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا ،
فَقَدْ كَانُوا مُضْطَهَدِينَ فِي مَكَّةَ ، فَأَصْبَحُوا آمِنِينَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَإِنْ
كَانُوا تَرَكَوْا بِلَدَهُمْ فَسَوْفَ نُعْهِدَ لَهُمُ الدُّنْيَا كُلَّهَا يَنْتَشِرُونَ فِيهَا بِمَنْهَجِ
اللَّهِ ، وَيَجْتَنُونَ خَيْرَ الدُّنْيَا كُلَّهَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نُرْجِعُهُمْ إِلَى بِلَدِهِمْ سَادَةً
أَعَزَّةَ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ مَكَّةَ بِلَدًا لِلَّهِ خَالِصَةً مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ..
هَذِهِ هِيَ الْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا .

ثم يقول تعالى :

﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١)﴾

[النحل]

مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حَسَنَةِ الدُّنْيَا وَخَيْرِهَا لِلْمُؤْمِنِينَ هَذَا مِنَ الْمُبْعَجَلَاتِ
لِلْعَمَلِ ، وَلَكِنْ حَسَنَاتُ الدُّنْيَا مَهْمَا كَانَتْ سَتُؤَوَّلُ إِلَى زَوَالٍ ، إِمَّا أَنْ
تُفَارِقَهَا ، وَإِمَّا أَنْ تُفَارِقَكَ ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا ،
فَعَادُوا مُنْتَصِرِينَ إِلَى مَكَّةَ ، بَلْ دَانَتْ لَهُمُ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا بَلِ
الْعَالَمُ كُلُّهُ ، وَانْسَاحُوا فِي الشَّرْقِ فِي فَارَسَ ، وَفِي الْغَرْبِ فِي
الرُّومَانِ ، وَفِي نِصْفِ قَرْنٍ كَانُوا سَادَةً الْعَالَمِ أَجْمَعَ .

وَأَنَّ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ حَسَنَةُ الدُّنْيَا الْمُبْعَجَلَةُ ، فَهَنَّاكَ حَسَنَةُ الْآخِرَةِ
الْمُؤَجَّلَةُ :

﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ .. (٤١)﴾

[النحل]

أَيُّ : أَنْ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ نَعِيمِ الْآخِرَةِ أَعْظَمَ مِمَّا وَجَدُوهُ فِي الدُّنْيَا .
وَلِذَلِكَ كَانَ سَيِّدُنَا عَمْرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذَا أَعْطَى أَحَدَ الصِّبْيَانِ

نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « يارك الله لك فيه .. هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أكبر من هذا »^(١)
فهذه حسنة الدنيا .

﴿وَلَا جُرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ..﴾ (٤٦) [النحل]

وساعة أن تسمع كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التي بواهم الله إياها هي (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم في الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغة أفعال التفضيل أقل في المدح من غير أفعال التفضيل .. فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) في حين أن الأكبر صفة من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفي شعار تداثنا لله نقول : الله أكبر ولا نقول : الله كبير .. ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً .. إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول في الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا في حق المؤمن كبيرة من حيث هي وسيلة للآخرة .

فإياك أن تظن أن حركة الدنيا التي تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هي كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فيها تأكل وتشرب وتتقوى ، وبها تجمع المال لتسدد به حاجتك ، وتؤدي الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدي الله أكبر .

(١) أورد هذا الأثر القرطبي في تفسيره (٢٨٣٢/٥) . وابن كثير في تفسيره (٥٧٠/٢) .
والسيوطي في الدر المنثور (١٢٢/٥) وعزاه لابن جرير الطبري ولاين المنذر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ﴾ (٩)

[الجمعة]

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ .. ﴾ (١٠)

[الجمعة]

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة : لأنها الوسيلة للدار الآخرة ، والمزرعة التي تُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .. إذن : الدنيا أهم من أن تُنسَى من حيث هي معونة للآخرة ، ولكنها آتفة من أن تكون غاية في حد ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١)

[النحل]

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أن يُراد به الكافرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أن يُراد به المهاجرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا في عمل الخير .

وأخيراً قد يُراد به المؤمن الذي لم يهاجر .. ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .

وهذه الأوجه التي يحتملها التعبير القرآني دليل على ثراء الأداء
وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تريبب الفوائد .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤٤)

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحا لحال المهاجرين ،
فقد ظلموا واضطهدوا وأودوا في سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن
دينهم ، بل صبروا وتحملوا ، بل خرجوا من أموالهم وأرلادهم ،
وتركوا بلدهم وأرضهم في سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم
اتكالا على أن الله تعالى لن يضيعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآني هكذا ﴿ صَبَرُوا ﴾ بصيغة الماضي ،
فقد حدث منهم الصبر فعلا ، كأن الإيذاء الذي صبروا عليه فترة
مضت وانتهت ، والباقي لهم عزة ومنعة وقوة لا يستطيع أحد أن
يضطهدهم بعد ذلك ، وهذه من البشارات في الأداء القرآني .

أما في التوكل ، فقال تعالى في حقهم :

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤٥)

[النحل]

بصيغة المضارع : لأن التوكل على الله حدث منهم في الماضي ،
ومستمرون فيه في الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن .

وبعد ذلك تكلم القرآن الكريم عن قضية وقف منها الكافرون أيضا
موقف العناد والمكابرة والتكذيب ، وهي مسألة إرسال الرسل ، فقال
تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَا لَأُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴾ (٤٣)

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً .
وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغي أن يكون ملكاً فقالوا :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ۚ ﴾ (٢٤) [المؤمنون]

وكانهم استقلوا الرسالة عن طريق بشر : وهذا أيضاً من غباء الكفر وحمافة الكافرين : لأن الرسول حين يبلغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك .. فيأمر بالصلاة ويصلي ، وبالزكاة ويؤتي ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول فقط ، لا بل بالسلوك العملي النموذجي .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول عن رسول الله ﷺ : « كَانَ خُلِقَ الْقُرْآنُ »^(١)

وكان قرآناً يمشى على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذي جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى في حقه ﷺ :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (٢١) [الأحزاب]

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩/٦ ، ١٦٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (١/٢١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

فكيف نتصور أن يكون الرسول ملكاً ؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشر ؟ قد يؤدي العلك مهمة البلاغ ، ولكن كيف يؤدي مهمة القدوة والتطبيق العملي النموذجي ؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خلق جُبلوا على طاعة الله :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم]

ومن أين تأتيه منافذ الشهوة وهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ؟

فلو جاء ملك برسالة السماء ، وأراد أن ينهي قومه عن إحدى المعاصي ، ماذا نتوقع ؟ نتوقع أن يقول قائلهم : لا .. لا أستطيع ذلك ، فانت ملك ذو طبيعة علوية تستطيع ترك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعة الأسوة تقتضي أن يكون الرسول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين . ومن هنا كان من امتنان الله على العرب ، ومن فضله عليهم أن يبعث فيهم رسولا من أنفسهم :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴾ [التوبة]

فهو أولاً من أنفسكم ، وهذه تعطيه المباشرة ، ثم هو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية .. بل من بينكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قريش ؛ ذلك لتكونوا على علم كامل بتاريخه وأخلاقه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناته ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٧٩﴾

والأمانة ، وتاتمنونه على كل غَال ونفيس لديكم لعلمكم بأمانته ،
فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكذب ١٩

لذلك رَدُّ عليهم الحق تبارك وتعالى في آية أخرى فقال :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا
رُّسُولًا ۖ﴾ (٩٤)

[الإسراء]

فالذى صدّكم عن الإيمان به كَوْنُهُ بشراً !!

ثم نأخذ على هؤلاء مأخذاً آخرًا : لأنهم تنازلوا عن دعوهم هذه
بأن يأتي الرسول من الملائكة وقالوا :

﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ ۖ عَظِيمٍ ۚ﴾ (٩٦) [الزخرف]

فهذا تردّد عجيب من الكفار ، وعدم ثبات على رأى .. مجرد
لجاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إِنْ كُنْتَ كَذُوبًا فَكُنْ ذَكُورًا .

ويرد عليهم القرآن :

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ
السَّمَاءِ مَلَكًا رُّسُولًا ۖ﴾ (٩٥)

[الإسراء]

فلو كان في الارض ملائكة لنزلنا لهم ملكاً حتى تتحقق الأسوة .

إذن : لا بُدُّ في القدوة من اتحاد الجنس .. ولنضرب لذلك مثلاً :
هَبْ أَنْكَ رَأَيْتَ أَسَدًا يَتَوَرَّعُ وَيَجُولُ فِي الْغَابَةِ مَثَلًا يَفْتَرِسُ كُلُّ مَا أَمَامَهُ ،

(١) يقصدون مكة والطائف ، وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك التأييد من المغيرة وعروة بن
مسعود الثقفي . قال ابن كثير في تفسيره (١٢٧/٤) : ، والظاهر أن مرادهم رجل كبير
من أي البلدتين كان .

ولا يستطيع أحد أن يتعرض له .. هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً ؟
لا .. إنما لو رأيت فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء ..
ألا تحب أن تكون فارساً ؟ يلي أحب .

فهذه هي القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا
تصلح القدوة .

وهنا يرد الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٤٢) [النحل]

آى : أنك يا محمد لست بدعاً^(١) فى الرسل ، فمَنْ سبقوك كانوا
رجالاً طيلة القرون الماضية ، وفى موكب الرسالات جميعاً .

وجاءت هنا كلمة ﴿ رِجَالًا ﴾ لتنفيذ البشرية أولاً كجنس ، ثم
لتنفيذ النوع المذكّر ثانياً ؛ ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة
والمعاشرة لقومه .. يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع .. أما المرأة
فمبنيّة على التستر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأسوة للناس ،
ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا فى طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب
دور النبوة ، ولا تتماشى مع مهمة النبى ، مثل انقطاعها عن الصلاة
والتعبد لأنها حائض أو نفّساء .

كذلك جاءت كلمة ﴿ رِجَالًا ﴾ مقبّدة بقوله :

﴿ نُوْحِي إِلَيْهِمْ .. ﴾ (٤٢)

[النحل]

(١) بدع : بديع أو عجيب . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ .. ﴾ [الاحقاف] آى :
ما كنت غريباً ولا عجيباً ، ولا كنت على غير مثال سابق ، فإنا مثل الرسل السابقين .
[القاموس المفهرس ٥٧/١] .

فالسُّوْلُ رَجُلٌ ، وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ : هُوَ رَجُلٌ مُتَّلًى وَبَشَرٌ مُتَّلًى .. لَا هُنَاكَ مَيِّزَةٌ أُخْرَى أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ عَالِيَةٌ يَجِبُ أَنْ نَحْفَظَهَا لِلْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣) [النحل]

أَيُّ : إِذَا غَابَتْ عَنْكُمْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ ، قَضِيَّةُ إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ - وَلَا أَظُنُّهَا تَغِيبُ - لِأَنَّهَا عَامَةٌ فِي الرِّسَالَاتِ كُلِّهَا . وَمَا كَانَتْ لَتُخْفَى عَلَيْكُمْ خُصُوصًا وَعِنْدَكُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ ، مِثْلَ وَرَقَةِ بْنِ نَوْفَلٍ وَغَيْرِهِ ، وَعِنْدَكُمْ أَهْلُ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ ، وَعِنْدَكُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى .. فَاسْأَلُوا هَؤُلَاءِ جَمِيعًا عَنْ بَشَرِيَّةِ الرُّسُلِ .

فَهَذِهِ قَضِيَّةٌ وَاضِحَةٌ لَا تُنْكَرُ ، وَلَا يُمْكِنُ الْمَخَالَفَةُ فِيهَا .. وَمَاذَا سَيَقُولُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ .. مُوسَى وَعِيسَى .. إِنْ بَشَرٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤٣) [النحل]

يُوحَى بِأَنَّهُمْ يَظْمُنُونَ ، وَلَيْسَ لَدَيْهِمْ شَكٌّ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ .. مِثْلَ لَوْ قُلْتُ لِمَخَاطَبِكَ : أَسْأَلُ عَنْ كَذَا إِنْ كُنْتُ لَا تَعْرِفُ .. هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ يَعْرِفُ ، أَمَّا إِذَا كَانَ فِي الْقَضِيَّةِ شَكٌّ فَنَقُولُ : أَسْأَلُ عَنْ كَذَا دُونَ أَدَاةِ الشَّرْطِ .. إِنْ : هُمْ يَعْرِفُونَ ، وَلَكِنَّ الْجِدَالَ وَالْعِنَادَ وَالْإِسْتِكْبَارَ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ .

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٤٤)

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ .. ﴾ (٤٤) [النحل]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق ..
فماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أن يتعلق بالفعل
(نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي
إليهم بالبينات والزُّبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى :
فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزُّبر ، فهذان وجهان لعودة الجار
والمجرور .

والبينات : هي الأمر البين الواضح الذي لا يشك فيه أحد .. وهو
إما أن يكون أمانة ثبوت صدق الرسالة كالمعجزة التي تتحدى
المكذِّبين أن يأتوا بمثله .. أو : هي الآيات الكونية التي تلتفت الخلق
إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس
والقمر والنجوم .

(١) الزُّبُر : الكتب . والزُّبُر : الكتابة . وقد غلب الزُّبور على صحف داود عليه السلام . قال
تعالى : ﴿ رَأَيْتُ كُتُبًا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴾ [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزُّبور
ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يكتب عادة إلا الشيء
النفيس مخافة أن يضيع ، وليس هنا أنفسُ مما يأتينا من منهج الله
لِنُنظِّمَ لَنَا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب - قديماً - كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما
كان حقيراً ، فكان عندهم علمٌ بالسهم ومن أول صانع لها ، وعن
القوس والرحل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألا يسألون عن آيات
الله في الكون وما فيها من أسرار وعجائب في خلقها تدلُّ على الخالق
سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ..﴾ [النحل]

كلمة الذكر وردت كثيراً في القرآن الكريم بمعنى متعددة ، وأصل
الذكر أن يظلَّ الشيء على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضدّه
النسيان .. إذن : عندنا ذكْر ونسيان .. فكلمة « ذكر » هنا معناها
وجود شيء لا ينبغي لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم - عليه السلام - أخذ العهد
على كُلِّ ذرّة فيه ، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ
هَذَا غَافِلِينَ﴾ [١٧٢]

وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَى آدَمَ هُوَ عَهْدٌ عَلَى جَمِيعِ ذُرِّيَّتِهِ ، ذَلِكَ لِأَن فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ ذُرَّةٌ مِنْ أَبِيهِ آدَمَ .. وَجِزْءٌ حَيًّا مِنْهُ نَتِيجَةُ التَّوَالُدِ وَالتَّنَاسُلِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ ، وَمَا دُمْنَا كَذَلِكَ فَقَدْ شَهِدْنَا أَخَذَ الْعَهْدَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

وَكَانَ كَلِمَةً (ذَكَرَ) جَاءَتْ لِتُذَكِّرُنَا بِالْعَهْدِ الْمَطْمُورِ فِي تَكْوِينِنَا ، وَالَّذِي مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَنْسَاهُ ، فَلَمَّا حَدَثَ النِّسْيَانُ اقْتَضَى الْأَمْرُ إِرْسَالَ الرِّسْلِ وَإِنْزَالَ الْكِتَابِ لِتُذَكِّرُنَا بِعَهْدِ اللَّهِ لَنَا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. ﴾ (١٧٢) [الأعراف]

وَمِنْ هُنَا سَمَّيْنَا الْكِتَابَ الْمَنْزِلَةَ ذِكْرًا ، لَكِنِ الذِّكْرُ يَأْتِي تَدْرِيجِيًّا وَعَلَى مَرَاحِلٍ .. كُلُّ رَسُولٍ يَأْتِي لِيُذَكِّرَ قَوْمَهُ عَلَى حُسْبٍ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ غَفْلَةٍ .. أَمَّا الرَّسُولُ الْخَاتَمُ ﷺ الَّذِي جَاءَ لِلنَّاسِ كَافَّةً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، فَقَدْ جَاءَ بِالذِّكْرِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي لَا ذِكْرَ بَعْدَهُ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ .

وَقَدْ تَأْتَى كَلِمَةُ (الذِّكْرُ) بِمَعْنَى الشُّبْرَفِ وَالرَّفْعَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لِلْعَرَبِ :

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. ﴾ (١٠) [الأنبياء]

وَقَدْ أَصْبَحَ لِلْعَرَبِ مَكَانَةٌ بِالْقُرْآنِ ، وَعَاشَتْ لِفَتْهُمْ بِالْقُرْآنِ ، وَتَبَوَّعُوا مَكَانَ الصَّدَارَةِ بَيْنَ الْأُمَمِ بِالْقُرْآنِ .

وَقَدْ يَأْتِي الذِّكْرُ مِنْ اللَّهِ لِلْعَبْدِ ، وَقَدْ يَأْتِي مِنَ الْعَبْدِ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ :

﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ .. ﴾ (١٥٢) [البقرة]

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿٧٩﴾

والمعنى : فاذكروني بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابي .

وإذا أطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ :
لأنه الكتاب الجامع لكل ما نزل على الرسل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أن تقوم الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أي كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما تسميه (علم بالغبية) .

والذكر هو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ، وهو معجزته الخالدة في الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنتجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص^(١) وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد ﷺ فمعجزته هي نفس كتاب منهجه ، لا يتفصل أحدهما عن الآخر لتظل المعجزة مُساندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السر في أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٩)

[الحجر]

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحفظ كتابه ، كما قال تعالى :

(١) الأكمه : المولود أعمى . وقد يكون حاسيًا بعد بصر . والأبرص : من أصابه مرض البرص ، وهو مرض جلدي يُحدث بقعا بيضاء في الجلد تشوّهه ، [القاموس القويم مابنا : كمه . برص] .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا
لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾

[المائدة]

ومعنى اسْتُحْفِظُوا : أى طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا
أمرٌ تكليف قد يُطاع وقد يُعصى ، والذي حدث أن اليهود عَصَوْا
وبَدَّلُوا وحَرَّفُوا فى التوراة .. أما القرآن فقد تعهد الله تعالى بحفظه
ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتم الذى سيصاحب البشرية إلى
قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو
الحديث الشريف ، فـلـرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلامى
وحديثه الشريف الذى جاء من مشكاة القرآن مبيناً له وموضحاً له ..
كما قال ﷺ :

« أَلَا وَإِنِّى قَدْ أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ، يُرْسِكُ رَجُلٌ شَبْعَانَ
يَتَكْرَهُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ عَنِّى فَيَقُولُ : بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ
اللَّهِ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ حَلَّلْنَاهُ ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ
حَرَّمْنَاهُ ، أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ »^(١) .

ويقول الحق سبحانه :

﴿لَتَجِيبَنَّ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤)﴾

[النحل]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣١/٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٥٩١) ، وابن حبان (٩٧ -

موارد الظمان) من حديث العقدة بن مديكرب .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، ولأَطالَت المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُدَ عن مُركَّده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أن يُبينَ للناس ، ويشرحه ويوضح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءت به السُّنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سُنَّةٌ يُناب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لايدُّ أن تُفرَّق هنا بين سُنَّةِ الدليل وسُنَّةِ الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنَّةِ الدليل تعنى وجود قَرَض ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهي قَرَض .

أما سُنَّةِ الحكم : فهي أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُناب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبين لنا الرسول ﷺ سلوكه وأُسُوته حُكْمًا ننظر : هل هي سُنَّةِ الدليل فيكون قَرَضًا ، أم سُنَّةِ الحكم فيكون سُنَّةً ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول ﷺ على هذا الأمر ، فإنَّ واطب عليه والتزمه فهو قَرَض ، وإنَّ لم يواظب عليه فهو سُنَّة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُناولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهي ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيان .. ولابد أن نفرّق بين العطائين : العطاء القرآنى ، والعطاء النبوى .

ويجب أن نعلم هنا أن من المميّزات التى ميّز بها النبى ﷺ عن سائر إخوانه من الرُّسل ، أنه الرسول الوحيد الذى أمّنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلّغون أوامر السماء فقط وانتهت المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى فى حقّه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧) [الحشر]

إذن : أخذ ميّزة التشريع ، فأصبحت سنّته هى التشريع الثانى بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١١)

[النحل]

يتفكرون .. فى أى شىء ؟ يتفكرون فى حال الرسول ﷺ قبل البعثة ، حيث لم يُؤكّر عنه أنه كان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤكّر عنه أنه كان كاتباً متعلماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكير والتدبر فى هذا الأمر ،

فليس ما جاء به محمد عبقرية تفجّرت هكذا مرّة واحدة فى الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيعى للعبقرىات يأتى فى أواخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث من العمر .

ولا يحفل أن تُوجّل العبقرية عند رسول الله إلى هذا السن وهو يرى القوم يُصنّعون حوله .. فيموت أبوه وهو فى بطن أمه ، ثم

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩٥٩

تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جدّه ، فمَنْ يضمن له الحياة إلى سنّ الأربعين ، حيث تتفجّر عنده هذه العبقرية ؟!

إذن : تفكّروا ، فليست هذه عبقرية من محمد ، بل هي أمر من السماء ؛ ولذلك أمره ربّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦)

فكان عليكم أن تفكّروا في هذه المسألة .. ولو فكرتم فيها كان يجب عليكم أن تتهافتموا على الإسلام ، لأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرّبتم عليه لا كذباً ولا خيانة ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان ليصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بدّ أن تُفرّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التي تستقبل المحسّات وتُميّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التي ستكون هي المبادئ التي يعيش الإنسان عليها ، والتي ستكون عبارة عن معلومات مُختزّنة ، أما الفكر فهو أن تفكر في هذه الأشياء لكي تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حرية التفكير وحرية العقل في أمور دنيانا ، لكنه ضبطننا بأمور قسريّة يفسد العالم بدونها ، فالذي يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا .. والباقي الذي لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفضل فيه لا يضر .

فما أراد الله حكماً قسرياً فرضه بنص صريح لا خلاف فيه ، وما أراد على وجوه متعدّدة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه

أوجهاً متعددة ، ولا يؤدي الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكري يتحكم في المحسّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتكاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أن يعبد الله به ، ولكن آفة الناس في الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رمى مخالفهم بالكفر والعياد بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فله أجران ، وَمَنْ أخطأ فله أجر^(١) .. ولذلك تجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعاشي الجميع وتُحترم الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يأمروهم بالتفكير والتدبر والنظر : ذلك لأنهم خلّقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أن يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخلق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكانه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَجِ الخصومة ، وإن كنتم لا تؤمنون بالبعث في الآخرة ، وبما أعد للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عَجَّلَ لهم من عذاب في الدنيا .

(١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم في صحيحه (١٧١٦) ، والبخاري في صحيحه (٧٢٥٢) .

انظروا للذين سبقوكم من الأمم المكذبة وما آل إليهم مصيرهم ،
أم أنتم آمنون من العذاب ، بعيدون عنه ؟

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٥)

قوله تعالى :

[النحل]

﴿ أَفَأَمِنَ .. (١٥) ﴾

عبارة عن همزة الاستفهام التي تستفهم عن مضمون الجملة
بعدها .. أما الفاء بعدها فهي حَرْفٌ عَطْفٌ يعطف جملة على جملة ..
إذن : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفى الأنبياء
السابقين من العذاب ، فامثّلوا مكر الله ؟

أى : أن آمنهم لمكر الله ناشيء عن جهلهم بما وقع للمكذّبين من
الأمم السابقة .

ثم يقول تعالى :

[النحل]

﴿ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ .. (١٥) ﴾

المكر : هو التبييت الخفى للنيل ممن لا تستطيع مجابته بالحق
ومجاهرته به ، فانت لا تُبَيِّتُ لأحد إلا إذا كانت قدرتك عاجزة عن
مُصَارَحَتِهِ مباشرة ، فكونك تُبَيِّتُ له وتمكر به دليل على عَجْزِكَ ؛
ولذلك جعلوا المكر أول مراتب الجبن : لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه

عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكر عظيمًا يكون الضعف كذلك .

وهذا ما تلحظه من قوله تعالى في حق النساء :

﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ (٧٨)

[يوسف]

وقال في حق الشيطان :

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (٧٦)

[النساء]

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْدُهُنَّ عظيمًا إذن : ضَعْفُهُنَّ أيضاً عظيم . وكذلك في كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أن يملكك الضعيف : ذلك لأنه إذا تمكّن منك ورائته الفرصة فلن يدعك تُفَلّت منه ! لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن أن تُتّاح له الفرصة مرة أخرى : لذلك لا يضيعها على عكس القويّ ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أُتيحت له الفرصة وربما فوّتها لِقوّته وقُدّرتة على خُصْمه ، وتمكّنه منه في أيّ وقت يريد ، وفي نفس المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً قَتَلَتْ كَذَلِكَ قُدْرَةُ الضُّعَفَاءِ

إذن : قدرة الضعفاء قد تقتل ، أما قدرة القويّ فليست كذلك .

ثم لنا وقفة أخرى مع المكر ، من حيث إن المكر قد ينصرف على مُساويك وعلى مثلك من بنى الإنسان ، فإذا ما تعرضتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حيطة ، وأحكم منك مكرًا ، فربما لا يُجدي مكرُك به ، بل ربما غلبك هو بمكره واحتياطه ، فكيف الحال إذا كان الماكر بك هو ربّ العالمين تبارك وتعالى ؟

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿رَبِّمَكْرُونٌ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٢٠)﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿وَلَا يَحِيقُ^(١) الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. (٤٣)﴾ [فاطر]

فمكر العباد مكشوف عند الله ، أما مكرهم سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحاط منه أحد ؛ لذلك كان الحق سبحانه خير الماكرين .

والمكر السيئ هو المكر البطل الذي لا يكون إلا في الشر ، كما حدث من مكر المكذبين للرسول على مرّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيداً يُبطل حقاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرض الرسول ﷺ لمراحل متعددة من الكيد والمكر والخديعة ؛ وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهي أن يؤثس الكفار من الانتصار عليه ﷺ ، فقد بيئوا له ودبروا لقتله ، وحاكوا في سبيل ذلك الخطط ، وقد باءت خطتهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفي مكيدة أخرى حاولوا أن يسحروه^(٢) ﷺ ، ولكن كشف الله أمرهم وخيب سعيهم .. إذن : فأي وسيلة من وسائل دحض هذه الدعوة لم تتجحوا فيها ، ونصره الله عليكم ، كما قال تعالى :

(١) حاق به الشيء . نزل به وأصابه وأحاط به . [القاموس القويم ١/ ١٨١] .

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت « سحر النبي ﷺ حتى كان يخل إليه أنه يفعل الشيء وما يعلفه » سحروه لبيد من الأعصم في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر في بئر دروان .

أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٦٨) وأحمد في مسنده (٥٠/ ٦) . (٩٦) .

[المجادلة]

﴿ كَبَّ اللَّهُ لِأَغْلِبَ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴾ (٢٦)

وقوله تعالى :

[النحل]

﴿ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ .. ﴾ (٤٥)

الخَسْفُ : هو تغيب الأرض ما على ظهرها .. فأنخسف الشيء أى : غاب فى باطن الأرض ، ومنه خسوف القمر أى : غياب ضوئه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

[القصص]

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ .. ﴾ (٨١)

وهذا نوع من العذاب الذى جاء على صور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم :

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴾ (٤٠) [العنكبوت]

هذه ألوان من العذاب الذى حاق بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقهم عبرة وعظة ، وأن يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

[النحل]

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٤٥)

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكر الله وللعذاب الواقع بهم ، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطر لهم على بال ، وطالما لم تخطر لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أخذهم يسيراً ، كما قال تعالى :

[الحشر]

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. ﴾ (٧)

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ أَوْيَاخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ (٨)

التقلب : الانتقال من حال إلى حال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخر دليل القوة والمقدرة ، حيث ينتقل الإنسان من مكانه حاملاً متاعه وعَتَاذِهِ وجميع ما يملك ؛ لينشئ له حركة حياة جديدة في مكانه الجديد .

إذن : التقلب في الحياة مظهر من مظاهر القوة ، بحيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله في رحلة تقلبه .. ولا شك أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوى ..

ولذلك نرى في قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبا :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا^(١) فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (٩) فَقَالُوا رَبَّنَا بِأَعْدُ بَيْنَ أَمْقَارِنَا .. ﴾ (١٠)

[سبا]

فهؤلاء قوم جمع الله لهم ألواناً شتى من النعيم ، وأمن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم وللعجب طلبوا من الله أن يُباعد بين أسفارهم ، كأنهم أرادوا أن يتميزوا عن

(١) أى : ليسوا ببعيدين عن الله وإن يفلتوا من عقاب سبحانه .

(٢) قدر كل شيء ومقداره : مقياسه . وقدر الشيء قدره : قاسه . [لسان العرب - مادة : قدر] .

قال ابن كثير في تفسيره (٥٢٢/٢) : . أى : جعلناها بحسب ما يحتاج

للمسافرون إليه . .

الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. (٤٧)﴾

[سبا]

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خوض هذه المسافات .

إذن : الذي يتقلب في الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظعن^(١) وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به في مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : الحال في الغربة وطن .. ومن كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿لَا يَغْرِنُكَ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (٤٨)﴾

[آل عمران]

فلا يخيفك انتقالهم بين رحلتى الشتاء والصيف ، فإله تعالى قادر أن يأخذهم في ثقلهم .

وقد يُراد ثقلهم في الأفكار والمكر السيئ بالرسول ﷺ وصحابته كما في قوله تعالى :

﴿لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ .. (٤٨)﴾

[التوبة]

فقد قعدوا يخططون ويمكرون ويدبرون للقضاء على الدعوة في مهدها .

ويقول تعالى :

﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٩)﴾

[النحل]

المعجز : هو الذي لا يمكنك من أن تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجزوا الله

(١) الظعن : للسير والترحال .

سُورَةُ الْجِنِّ

٧٩٦٧

تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلات من عذابه ؛ لأنهم مهما بيّتوا فتبييتهم
وكيدهم عند الله .. أما كيدهُ الله إذا أراد أن يكيده لهم فلن يشعروا به :

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ .. (٣٠)﴾

[الأنفال]

وقال :

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ
رُؤْيَا (١٧)﴾

[الطارق]

فمن لا يستطيع أن يفلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر
عليه الملهج الذي جئت به .

وقد يكون العجز أمام القوى دليل قوة ، كما عجز العرب أمام
تحدي القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليل قوتهم في
المجال الذي تحداهم القرآن فيه ؛ لأن الله تعالى حين يتحدى وحين
ينازل لا ينازل الضعيف ، لا بل ينازل القوى في مجال هذا التحدي .

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٧)﴾

التخوف : هو الفرع من شيء لم يحدث بعد ، فيذهب فيه الخيال
مذاهباً شتى ، ويتوقع الإنسان ألواناً متعددة من الشر ، في حين أن
الواقع يحدث على وجه واحد .

هَبْ أنك في انتظار حبيب تأخر عن موعد وصوله ، فيذهب بك الخيال
والاحتمال إلى أمور كثيرة .. يا ترى حدث كذا أو حدث كذا ، وكل خيال
من هذه الخيالات له أثر ولذعة في النفس ، وبذلك تكثر المخاوف ، أما
إن انتظرت لتعرف الواقع فإن كان هناك فرع كان مرة واحدة .

ولذلك يقولون في الأمثال : (نزول البلاء ولا انتظاره) ذلك لأنه إن نزل سينزل بطون واحد ، أما انتظاره فيُشيع في النفس ألواناً متعددة من الفرع والخوف .. إذن : التخوف أشد وأعظم من وقوع الحدث نفسه .

وكان هذا الفرع يعترى الكفار إذا ما علموا أن رسول الله ﷺ بعث سرية من السرايا ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشيع الله الفرع في نفوسهم جميعاً ، في حين أنها خرجت لناحية معينة^(١) .

وبعض المفسرين قال : التخوف يعنى التنقص بأن ينقص الله من رُقعة الكفر بدخول القبائل في الإسلام قبيلة بعد أخرى ، فكل واحدة منها تنقص من رُقعة الكفر .. كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٥٦) ﴾ [النحل]

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد ؟
فالعقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أن نعلم أن هذا هو عطاء الربوبية الذي يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم . فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ،

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٢٣٥ ، ٤٣٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٥٢١) كتاب المساجد من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي » وفيه « ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر » .

أما في قوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ [الرحمن]

فما النعمة في ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ؟ هل الموت نعمة ؟

نعم ، يكون الموت نعمة من نعم الله على عباده ؛ لأنه يقول للمحسن : سيأتي الموت لتلقى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر .. الموت قادم ، كأنه سيحانه يُوقِظ الكفار وَيَعْظُمهم لينتهوا عما هم فيه .. أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سيحانه يعباده ؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ^(١) مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأي نعمة في :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنَحَاسٌ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن]

أي نعمة في هذا العذاب ؟

نعم المتدبر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة ؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استنصروا على ما هم فيه من الكفر .. ففي طياتها تحذير وحرص على نجاتهم كما تنوعد ولدك ؛ إذا أهملت دروسك

(١) الشواظ : اللهب الذي لا يدخان فيه ، [لسان العرب - مادة : شواظ] .

ستُفشل وأُفعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذيل الآية بقوله :

﴿ فَإِنْ رَكُمُ لَرُءُفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤٧)

[النحل]

تذيل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التي يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يُنْفِثُوا ظِلَّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٤٨)

عنه معاني :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. ﴾ (٤٨)

[النحل]

المعنى : أَعْمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨)

[النحل]

كلمة شيء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يُقال له شيء ، أى : أتفه شيء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨)

[النحل]

أى : كل شيء ..

(١) تَفِيًّا غِيَةً : تظلل ، وتفيق الظلال : وجوعها بعد انتصاف النهار وابتعاد الأشياء ظلالها .

[لسان العرب .. مادة : فَي] ..

فانظر إلى أى شيء فى الوجود مهما كان هذا الشيء نافعاً ستجد له ظلاً :

﴿ يَغِيَا ظِلَّاهُ .. (٤٨) ﴾ [النحل]

يتقياً : من فاء أى : رجع . والحراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل متغيّر ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كفراع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظلّ ثابت لا تاتيّه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذى يُسمّى الفء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمّى الظل فيئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكوّن الظل ؟ يتكوّن الظل إذا ما استعرض الشمس جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أن يبلغ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوت الشمس فى السماء يصبح ظلّ الشيء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظلّ الأول من ناحية المقرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية في قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ مَبَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا (١٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (١٦) ﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرت إلى الظل وكيف يمتد ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدت شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل في الحالتين يسير سيرا انسيابيا .

ما معنى : (انسيابي) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سکونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها في حركة عقارب الساعة ، وهي أوضح في عقرب الثواني منها في عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها في عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثواني لوجدته يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة في حال سکونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمر عليه لحظة لم يكن متحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رصدُها في عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رصدها وملاحظتها ، هذه هي الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعني أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. أي : حركة مستمرة وموزعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازماتها لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو في الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طفرة واحدة ؟

لو كان نموه هكذا للاحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزع المُلَى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا تكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكنْ الدائمة .

وكان الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفتَ خَلْقَهُ إلى ظاهرة كونية في الوجود مُحسنة ، يدركها كلُّ مَنْ في ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظلّ التي يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفي آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَعَلَّاهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥)﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة الشبيهية في الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَتَفَقَّهُونَ نَسِيحَهُمْ .. (١٦)﴾ [الإسراء]

سُورَةُ النُّحْلِ

○ ٧٩٧ ○

فكل ما يُطْلَق عليه شيء فهو يُسَبَّح مهما كان صغيراً .
وقوله تعالى :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَّاهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآني ، حيث أتى باليمين مُفْرَداً ، في حين أتى بالشمائِل على صورة الجمع ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

أتى بأقل ما يُتَصَوَّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :

﴿ ظِلَّاهُ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

بصفة الجمع . أي : مجموع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفأ ظل شيء واحد . لا .. بل ظل أشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا أفادت العموم :

﴿ مِنْ شَيْءٍ .. ﴾ (٤٨) [النحل]

أي : كل شيء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائِل .

ثم يقول تعالى :

﴿ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (٤٨) [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظل وبين السجود ؟

معنى : سَجْدًا أي : خضوعاً لله ، وكان حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليل على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقبائل

الاعلى لـ « كُنْ » ، والنظر آية من آياته سبحانه مُسَخَّرَةٌ له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كونيّاً ، والشيء تُعده إعداداً قدرياً .. فصانع القنبلة الزمنية يُعدها لأنْ تنفجرَ في الزمن الذي يريده ، وليس الأمر كذلك في إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفي انتظار لهذا الأمر الإلهي باستمرار (كن فيكون) . وهكذا .. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهي ضوؤها ، ويُرثب على هذا الحكم أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القدرى منضبطة به ومنتظرة لـ « كُنْ » التي يُصغى لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ لِي شَأْنٌ ﴾ (٢٩)

[الرحمن]

هكذا بينت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شيء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شيء » جاءت مُفردة دالة على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كُلّفنا الله به من ركن في الصلاة ، وهو مُنتهى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنّ نسجد لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجد لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفي هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبر الحق ثبارك وتعالى عن فتاء الوجود يقول :

[القصر]

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴾ (٨٨)

وكذلك في قوله :

﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى .. ﴾ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿ (٢١) [الليل]

فَيُطْلَقُ الوجه ويُراد به الذات ، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دل ذلك على خضوع الذات كلها ؛ لأن أشرف ما في الإنسان وجهه ، فإذا ما الصق بالارض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دلت الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالقه سبحانه ، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً ، أو بناية أو جبل ، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظلها أيضاً ثابتاً لا يتحرك ، أما ظل الإنسان أو الحيوان فهو ظل متحرك ، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً في الخضوع التام بالظلال ؛ لأن ظل كل شيء لا يفارق الأرض أبداً ، وهذا مثال للخضوع الكامل .

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات في الظلال في قوله :

﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (١٥) [الرد]

يعنى الذوات تسجد ، وكذلك الظلال تسجد ؛ ولذلك يتعجب بعض الباعرفين من الكافر .. يقول : أيها الكافر ظلُّك ساجد وأنت جاحد .. جاء هذا الترقى في قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٤١)

فأجناس الكون التي يعرفها الإنسان أربعة : إما جماد ، فإذا وجدت خاصية النمو كان النبات ، وإذا وجدت خاصية الحركة والحس كان الحيوان ، فإذا وجدت خاصية الفكر كان الإنسان ، وإذا وجدت خاصية العلم الذاتي الثوراني كان الملك .. هذه هي الأجناس التي نعرفها .

الحق تبارك وتعالى ينقلنا هنا نقلة من الظلال الساجدة ، للجمادات الثابتة ، إلى الشيء الذي يتحرك ، وهو وإن كان متحركاً إلا أن ظله أيضاً على الأرض ، فإذا كان الحق سبحانه قد قال :

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٤٩) [النحل]

فقد فصل هذا الإجمال بقوله :

﴿مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ ..﴾ (٥٠) [النحل]

أي : من أقل الأشياء المتحركة وهي الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهي الملائكة ..

وقد يقول قائل : وهل ما في السموات وما في الأرض يسجد لله ؟

نقول له : نعم .. لأنك فسرت السجود فيك أنت بوضع جبهتك على الأرض ، ليدل على أن الذات بعلمها ودنوها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلت الجبهة مع القدم .

والحق تبارك وتعالى يريد منا أن نعرف استمطار العبودية في الوجود كله ! لأن الكافر وإن كان مُتَمَرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختياراً ، في أن يذم أو يكر ، في أن يطيع أو يعصى ، ولكن الله أعطاه الاختيار .

وما دُمْتَ لَا تُقَدِّرُ وَسَوْفَ تَخْضَعُ رَاغِمًا فَلتَخْضَعْ رَاضِيًا وَتَكْسِبِ
الْأَمْرَ ، وَتَنْتَهِيَ مُشْكِلَةُ حَيَاتِكَ ، وَتَسْتَقْبِلُ حَيَاةَ أُخْرَى أَنْظَفَ مِنْ هَذِهِ
الْحَيَاةِ .

وقوله تعالى :

﴿ مِنْ دَابَّةٍ .. (٤٩) ﴾

[النحل]

هو كل ما يدبّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معناه الحركة
والمشي .. وقوله :

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ .. (٥١) ﴾

[النحل]

أى : أن الملائكة لَا يُقَالُ لَهَا دَابَّةٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ سَعْيَهَا فِي
الْأُمُورِ بِأَجَلَةٍ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ أُولَى أَجْحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ .. (١) ﴾

[فاطر]

وقال في آية أخرى :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ
أَمْثَلُكُمْ .. (٢٨) ﴾

[الأنعام]

فخلق الله الطائر يطير بجناحيه مقابلاً للدابة التي تدب على
الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و ﴿ مَا ﴾ في الآية تُطْلَقُ على غير العالمين وغير العاقلين ؛ ذَلِكَ
لِأَنَّ أَغْلَبَ الْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْكَوْنِ لَيْسَ لَهَا عِلْمٌ أَوْ مَعْرِفَةٌ ؛ وَلِذَلِكَ
قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى :

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

٧٩٨١

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا .. ﴾ (٧٢)

[الاحزاب]

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (١٩)

[النحل]

أى : أن الملائكة الذين هم أعلى شىء فى خلق الله لا يستكبرون؛ لأن علوهم فى الخلق من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً^(١) على خالقهم سبحانه : لأن الذى أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى . وما دام الله هو الذى أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به : لأن الذى يُدَلُّ إنما يُدَلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشىء الموهوب من الغير فلا يجوز أن تُدَلَّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ^(٢) الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ .. ﴾ (١٧٧)

[النساء]

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

ما هو الخوف ؟ الخوف هو الفزع والوجل ، والخوف والفزع

(١) دَلٌّ : اقتضطر . والنلة : المنة . وفلان يُدَلُّ عليك بعصبته [دلال] : أى يجترىء عليك . [لسان العرب - مادة : دلك] .

(٢) لَنْ يَسْتَنْكِفَ : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قاضياً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٧] .

والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رَقْعِهِ ، ولو أمكنك رَقْعُهُ لما كان هناك داع للخوف منه ؛ لذلك فالأمور التي تدخل في مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إن حصل كذا أفعل كذا .. الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) [التحريم]

فما داعى الخوف إذن ؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربي يقول في تبرير هذا الخوف :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ عَلَى وَلَكِنْ مِلَّةٌ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
إِذَنْ : مرّة يأتى الخوف لتوقع أذى لتقصير منك ، ومرّة يأتى لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .

وقوله تعالى :

﴿مَنْ فَوْقَهُمْ ..﴾ (٥٠) [النحل]

ما المراد بالفوقية هنا ؟ نحن نعرف أن الجهات ست : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف .. بقيت جهة الفوقية لتكون هي المسيطرة ؛ ولذلك حتى في بناء الحصون يُشِيدُونَهَا عَلَى الْأَمَاكِنِ الْعَالِيَةِ لِيَتَحَكَّمَ بِعُلُومِهَا فِي مَتَابَعَةِ جَمِيعِ الْجِهَاتِ .

إذن : فالفوقية هي محلّ العُلُو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿٧٩٨٢﴾

فالذى يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله فى السماء ، بدليل
أن الجارية التى سُلِّطت : أين الله ؟ أشارت إلى السماء ، وقالت : فى
السماء^(١) .

فأشارت إلى جهة العلو ! لأنه لا يصح أن نقول : إن الله تحت ،
قَالَ سُبْحَانَهُ مَنْزُهُ عَنِ الْمَكَانِ ، وَمَا مَنَزَّهُ عَنِ الْمَكَانِ نَزَّهُ عَنِ الزَّمَانِ ،
فَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْزُهُ عَنِ أَنْ تُحَيِّزَهُ ، لَا بِمَكَانٍ وَلَا بِزَمَانٍ ؛ لِأَنَّ الْمَكَانَ
وَالزَّمَانَ بِهِ خُلِقَا .. فَمَنْ الَّذِي خَلَقَ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ ؟

إِذَنْ : مَا دَامَا بِهِ خُلِقَا فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَنْزُهُ عَنِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ .

وهم قالوا بآنِ الفوقية منا فوقية حقيقية .. فوقية مكان ، أى :
أنه تعالى أعلى مِنَّا .. ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أعلى مِنَّا ..
من أى ناحية ؟ من هذه أم من هذه ؟

إِذَنْ : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين
يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من
المحروس .. فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة ؟
بالتطبع لا .

وقوله تعالى :

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾

[النحل]

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤٤٨/٥) وابن داود الطيالسى فى مسنده (١١٠٥) وابن
أبى عاصم فى كتاب فى السنة (٢١٥/١) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص ٤٦٢) من
حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : قلت يا رسول الله إنه كانت لى جارية ترمى قبل
أحد والجوانية ، وإنى أطلعها يوماً لإطلاعة ، فرجذت النذوب قد ذهب منها بشاة وأنا من بني
آدم أسف لما يأسفون فصككتها صكاً ، فعظم ذلك على النبي ﷺ قال : قلت يا رسول الله
اعتقها ؟ قال : ادعها إلى . فقالي لها : أين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : ومن لنا ؟
قالت : رسول الله . قال : اعتقها فإنها مؤمنة .

وهذه هي الطاعة ، وهي أن تفعل ما أمرت به ، وأن تجتنب ما نهيت عنه ، ولكن الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطاعة ، وهو :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٥٥ ﴾ [النحل]

ولم تقل الآية مثلاً : ويجتنبون ما ينهون عنه ، لماذا ؟.. نقول : لأن في الآية ما يسمونه بالتلازم المنطقي ، والمراد بالتلازم المنطقي أن كل نهى عن شيء فيه أمر بما يقابله ، فكل نهى يؤول إلى أمر بمقابله .

فقوله سبحانه :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٥٥ ﴾ [النحل]

تستلزم منطقياً « ويجتنبون ما ينهون عنه » وكان الآية جمعت الجانبين .

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم [لا أنهم هميما^(١) في ذات الله ، ومنهم ملائكة موكبون بالخلق ، وهم :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ٥٦ ﴾ [النازعات]

ويقول تعالى :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ^(٢) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ٥٧ ﴾ [الرعد]

(١) الهيام . شدة الحب والوله المؤدى إلى الخضوع بدون إرادة .

(٢) أى . ملائكة حافلة بتتبعونه يحفظونه ويحفظونه أعماله ، [القاموس القويم ٢٩/٢] .

ومنهم :

﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانقطار]

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بنا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لآدم حينما خلقه الله ، وصوره بيده ، وثق في من روحه .. وكان الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذي ستكثرون في خدمته ، فالتسجد له بأمر الله إعلان بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويدبرون له الأمور .. الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعنويون في قوله سبحانه لإبليس :

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

أى : استكبرت أن تسجد ؟ أم كنت من الصنف الملكي العالى ؟ .. هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكل مهمتهم التسبيح والذكر ، وهم المعنويون بقوله تعالى :

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾ [الأنبياء]

كل شيء - إذن - في الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فالله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذى يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها .. وكأنها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسَخَّرِينَ ، ولا نخل لنا في موضوع الأمانة والتكليف !!

لماذا - إذن - يأبى الكون بسمائه وأرضه تحمُّل هذه المسؤولية ؟

نقول : لأن هناك فَرْقاً بين تقبُّل الشيء وقت تحمُّله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه .. هناك فَرْق .. عندنا تحمُّل وعندنا أداء .. وقد سبق أن ضربنا مثلاً لتحمُّل الأمانة وقُلْنَا : هَبْ أن إنساناً أراد أن يُودع عنده مبلغاً من المال مخافة تبديده لتتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت في هذا الوقت قادر على التحمُّل وتتوى أداء أمانته إليه عند طلبها وذهمتك قوية ، ولبيك صادقة .

هذا وقت تحمُّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إتفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارضٌ يمنعك من الأداء أو تتغير ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذى يريد أن يُبرىء ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمُّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسي وقت التحمل فلا أضمن نفسي وقت الأداء .

هذا مثال لما حدث من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمُّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدِّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقها ، لذلك رفضت تحمُّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمُّل الامانات ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢)

[الأحزاب]

ما الذى جهله الإنسان ؟ جهل تقدير حاله وقت أداء الأمانة ، فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجعال كما يقولون لَقَالَ : يا رب اجعلنى مثل السماء والأرض والجيال ، وما تُجْريه على ، فأنا طَوَّع أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبْلَ الاختيار وتحمل التكليف ، ولكنه خرج عن اختياره ومراده لمراد ربه وخالفه ، فقال : يا رب أنت خلقتنا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكننا تنازلنا عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوَّع أمرك .. هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْقٌ بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألا يفعل ، وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير .. فالأول مع أنه قادر ألا يفعل ، فقد غلب مُراد ربه فى التكليف على مراد نفسه فى الاختيار .

ثم ينتقل الحق - تبارك وتعالى - إلى قمة القضايا العقدية بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّى فَارْهَبُونَ ﴾ (٥١)

وقد جاء النهى فى الآية نتيجة خروج الإنسان عن مُراد ربه سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً - يعنى الثقليين - هم المختارون فى الكون كله ، اختيار فى أشياء وقهر فى أشياء أخرى .. ومع ذلك لم يشذ من خلق الله غيرهما .

فالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ كَانَ لَهَا اخْتِيَارٌ ، وَقَدْ اخْتَارَتْ
التَّسْخِيرَ ، وَانْتَهَتْ الْمَسْأَلَةُ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ مُسَخَّرَةٌ
وَتُؤَدِّي مَهْمَتَهَا لَخْدْمَةِ الْإِنْسَانِ ، فَالشَّمْسُ لَمْ تَعْتَرِضْ يَوْمًا وَلَمْ
تَرْتَفِضْ .. فَهِيَ تَشْرِقُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَمَا تَشْرِقُ عَلَى الْكَافِرِ .. وَكَذَلِكَ
الْهَوَاءُ وَالْأَرْضُ وَالذَّابَّةُ الْحُلُوبُ ، وَكُلُّ مَا فِي كَوْنِ اللَّهِ مُسَخَّرٌ لِلْجَمِيعِ ..
إِذَنْ : كُلُّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَهَا مَهْمَةٌ ، وَتُؤَدِّي مَهْمَتَهَا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ .

وَلِذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى فِي حَقِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ .. ﴾ (١٨) [الحج]

هَكَذَا بِالْإِجْمَاعِ ، لَا يَتَخَلَفُ مِنْهَا شَيْءٌ عَنْ مُرَادِ رَبِّهِ .

فَمَا الْحَالُ فِي الْإِنْسَانِ ؟ يَقُولُ تَعَالَى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ .. ﴾ (١٨) [الحج]

وَلَمْ يَقُلْ : وَالنَّاسُ . ثُمَّ قَالَ :

﴿ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج]

هَذَا هُوَ الْحَالُ فِي الْإِنْسَانِ الْمَكْرَمِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ وَتَرَكَ لَهُ
الْإِخْتِيَارَ .. إِنَّمَا كُلُّ الْأَجْنَاسِ مُؤَدِيَةٌ وَاجِبِيَّةٌ ؛ لِأَنَّهَا أَخَذَتْ حَقَّهَا مِنَ
الْإِخْتِيَارِ الْأَوَّلِ ، فَاخْتَارَتْ أَنْ تَكُونَ مُسَخَّرَةٌ - وَأَنْ تَكُونَ مَقْهُورَةٌ .

فَالْإِنْسَانُ .. وَاحِدٌ يَقُولُ : لَا إِلَهَ فِي الْوُجُودِ .. الْعَالَمُ خَلَقَ هَكَذَا
بِطَبِيعَتِهِ ، وَآخِرُ يَقُولُ : بَلْ هُنَاكَ آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ ؛ لِأَنَّ الْعَالَمَ بِهِ مَصَالِحُ
كَثِيرَةٌ وَأَشْيَاءٌ لَا يَنْهَضُ بِهَا إِلَهٌ وَاحِدٌ .. يَعْنِي : إِلَهٌ لِلسَّمَاءِ ، وَإِلَهٌ
لِلْأَرْضِ ، وَإِلَهٌ لِلشَّمْسِ .. الخ .

سُورَةُ الْجَحَلِّ

٧٩٨٩

إذن : هذا رأى فى العالم أشياء كثيرة بحيث لا ينهض بها فى نظره إله واحد ، ونقول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قدرة الفردية فيك .. لا .. خُذها من قدرة من :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ .. (١١)

[الشورى]

لأن القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت ، وتحتاج إلى مجهود وعمل .. بل فى حقّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ .. كُنْ كذا وانتهت المسألة .

ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقول : الكون خُلِقَ هكذا لحاله دون إله . والآخر يقول : بل له آلهة متعددة .. نقول لهم : أنتم متناقضون ، فتعالوا إلى دين الله ، وإلى الوسطية التى تقول بإله واحد ، لا تنفى الألوهية ولا تثبت التعددية .

فإن كنتَ تظنُّ أن دولا بَ الكون يقتضى أجهزة كثيرة لإدارته ، فاعلم أن الله تعالى لا يباشر تدبير أمر الكون بعلاج .. يفعل هذه ويفعل هذه ، كما يُزاول البشر أعمالهم ، بل يفعلها بـ « كُنْ » ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رقعها إليه ، ذلك بأننى جواد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما

أمرى بشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون»^(١) .

فيا مَنْ تُشْفِقُ عَلَى الْإِلَهِ الْوَاحِدِ أَنْ يَتَعَبَ مِنْ إِدَارَتِهِ لِلْكَوْنِ بِشَيْءٍ نَوَاحِيهِ ، اِرْتَفَعَ بِمَسْتَوَى الْأَلُوْهِيَّةِ عَنْ أَسْئَالِ الْبَشَرِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَبَاشِرُ سُلْطَانَهُ عِلَاجًا فِي الْكَوْنِ ، وَإِنَّمَا يَبَاشِرُهُ بِكَلِمَةٍ « كُنْ » .

إِذَنْ : إِلَهٌ وَاحِدٌ يَكْفِي ، وَمَا دُمْنَا سَلَمْنَا بِإِلَهِ وَاحِدٍ ، فَمَا يَكُنْ أَنْ تَقُولَ بِتَعَدُّدِ الْأَلْهَةِ .. وَإِذَا كَانَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَفَى إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ، فَهَنْفَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ أَوْلَى .. وَاثْنَانِ أَقَلُّ صُورِ التَّعَدُّدِ .

وَمَعْنَى ﴿ إِلَهَيْنِ ﴾ أَيِ : مَعْبُودَيْنِ ، فَيَكُونُ لِهَمَا أَوَامِرُ وَنَوَاهٍ ، وَالْأَوَامِرُ وَالنَّوََاهِي تَحْتَاجُ إِلَى طَاعَةٍ ، وَالْكَوْنُ يَحْتَاجُ إِلَى تَدْبِيرٍ ، فَأَيُّ الْإِلَهَيْنِ يَقُومُ بِتَدْبِيرِ أُمُورِ الْكَوْنِ ؟ أَمْ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدٍ ؟ إِنْ كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعَدٍ فَهَذَا نَقْصٌ فِيهِ ، وَلَا يَصْلَحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا .

وَكَذَلِكَ إِنْ تَخَصَّصَ كُلُّ مِنْهُمَا فِي عَمَلٍ مَا ، هَذَا لِكَذَا وَهَذَا لِكَذَا ، فَقَدْ أَصْبَحَ أَحَدُهُمَا عَاجِزًا فِيمَا يَقُومُ بِهِ الْآخَرُ .. وَأَيُّ نَاحِيَةِ إِذَنْ مِنْ نَوَاحِي الْحَيَاةِ تَكُونُ هِيَ الْمَسْطَرَّةُ ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ نَوَاحِي الْحَيَاةِ مَشْتَرِكَةٌ وَمُتَشَابِكَةٌ .

وَلِئَلَّا يَقُولَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .. ﴾ (٩١)

[الْمُؤْمِنُونَ]

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ (٢٤٩٥) ، وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٧٧/٥ ، ١٥٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . فِي إِسْنَادِهِ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ - ضَعُفَهُ بَعْضُهُمْ وَقَدْ حَسَّنَ الْبُخَارِيُّ حَدِيثَهُ وَقَوَّى لَبْرَهُ .

وقال :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء]

فكيف الحال إذا أراد الأول شيئاً ، وأراد الآخر ألا يكون هذا الشيء ؟ فإن كان الشيء كان عجزاً في الثاني ، وإن لم يكن كان عجزاً في الأول .. إذن : فبقوة أحدهما عجز في الآخر .

ونلاحظ في قوله تعالى :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١)﴾ [النحل]

عظة بليغة ، كأنه سبحانه حينما دعانا إلى ترحيده يقول لنا : أريحوا أنفسكم بالتوحيد ، وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الراحة في قوله :

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رُجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى رجل خلص لسيد واحد ، ورجل أسياهه كثيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإن أرضى هذا أغضب ذاك ، وإن احتاج أحدهما تنازعه الآخر . فهو دائماً متعبٌ مُثْقَلٌ ، أما المملوك لسيد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة .

ففى أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم جهة واحدة تكفيكم كل الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البقض واحد ..

إذن : فطلبه سبحانه راحة لنا ! لذلك قبل أن يطلبها منا شهد بها لذاته تعالى ، فقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه : لأنه لا أحد غيره .. لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي .. وكأنه سبحانه يقول : لا أحدٌ غيري ، وإن كان هناك إلهٌ غيري فليُترني نفسه ، وليُفصح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلتُ كذا وكذا ، فلماذا أن أكون صادقاً فيما قلت وتنتهي المسألة ، وإما أن أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذي خلق .. فإين هو ؟ لماذا لا يعارضني ؟

وهذا لم يحدث ولم يَنزَع الله في خلقه أحد ، وحين تأتي الدعوى بلا معاند ولا معارض تسلم لصاحبها .

فإن قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تدرك بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإن كان الأمر كذلك فهم لا يصلحون للالوهية لعدم درايتهم ، وإن دروا ولم يعارضوا فهم جبناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خلق الخلق ؛ لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال : « كن » فهو واثق أنه سيكون .

ولذلك ساعة يحكم الله حكماً غيبياً يقول : أنا حكمت هذا الحكم

مع أنكم مختارون في أن تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكني حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْتُ حكمتُ بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا ، ولكن ما فعلتم ، فهذا دليل على أنه لا إله غيري يُعينكم على أن تفعلوا .

ثم شهدت الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، كما قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾

[آل عمران]

لنا هنا وثقة مع قوله تعالى :

﴿ الْهَيْنَ الْهَيْنَ .. (٥١) ﴾

[النحل]

فَعَدَدُنا العدد ، وَعَدَدُنا المعدود ، فإذا قلنا مثلاً : قابِلُ ثلاثة رجال ، فكلمة « ثلاثة » دَلَّتْ على العدد ، وكلمة « رجال » دَلَّتْ على جنس المعدود ، وهكذا في جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، فنلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دَلَّتْ على الوحدة ، ودَلَّتْ على الجنس ، وكذلك « الهين » دَلَّتْ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفي في الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا الهين ؛ لأنها دَلَّتْ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقدي لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد .

فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حسن يسر^(١) ، وفلان شيطان
ليطان ، يريدون تأكيد الصفة .. وكذلك في قوله : ﴿إِلَهِينَ﴾ فقط
تثيت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقدية لأنها أهم القضايا بالنسبة
للإنسان ، وهي قضية القمة ، فقال تعالى :

﴿إِلَهِينَ اثْنَيْنِ .. (٥١)﴾

[النحل]

وكذلك أيضاً في قوله :

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. (٥١)﴾

[النحل]

فجاء بقوله تعالى ﴿وَاحِدٌ﴾ لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفي الآية ملاحظ آخر يجب تأمله ، وهو أن الكلام هنا في حالة
الغيبة :

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. (٥١)﴾

[النحل]

فكان القياس في اللغة هنا أن يقول : «فأياهم فارهبون» .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى الضميمة للمتكلم قال :

﴿فَأَيُّهُمْ فَارْهَبُونَ (٥١)﴾

[النحل]

وهذا وراءه حكمة ، وملاحظ بلاغي ، فبعد أن أكد الألوهية بقوله
تعالى :

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ .. (٥١)﴾

[النحل]

(١) قال ابن منظور في [اللسان - مادة : يسر] : « حسن يسر إتباع » قال ابن الأعرابي :
أيسن الرجل إذا حسنت مسعته .

صَحَّ أَنْ يُجَابِيَهُمْ بِذَاتِهِ : لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ مَا دَامَتْ مَسْأَلَةً رَهْبَةً ،
فَالرَّهْبَةُ مِنَ الْمَتَكَلِّمِ خَيْرٌ مِنَ الرَّهْبَةِ مِنَ الْغَائِبِ .. وَكَانَ السِّيَاقُ يَقُولُ :
هَـا هُوَ سَبِّحَانَهُ أَمَامَكَ ، وَهَذَا أَدْعَى لِلرَّهْبَةِ .

وَكَذَلِكَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ نَقَرْنَا :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٣) مَا لِكَ يَوْمَ
الَّذِينَ (٤) ﴾ [الفاتحة]

وَلَمْ يَقُلْ : أَيَّاهُ نَعْبُدُ . مُتَابِعَةً لِلْغَيْبَةِ ، بَلْ تَحَوَّلَ إِلَى ضَمِيرِ
الْخُطَابِ فَقَالَ :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَبْدَ بَعْدَ أَنْ اسْتَحْضَرَ صِفَةَ الْجَلَالِ وَالْعِظَمَةِ أَصْبَحَ أَهْلًا
لِلْمُوَاجَهَةِ وَالْخُطَابِ الْمُبَاشِرِ مَعَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ .

فَقَوْلُهُ :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل]

بَعْدَ مَا اسْتَحْضَرَ الْعَبْدُ عِظَمَةَ رَبِّهِ ، وَاقْرَأَ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ
وَعَلِمَ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَ إِلَهَيْنِ . وَاحِدٌ يَقُولُ : تُعَذِّبُهُ . وَالْآخَرُ
يَقُولُ : لَا .

لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلْ إِلَهُ وَاحِدٌ بِيَدِهِ أَنْ يُعَذِّبَ ، وَبِيَدِهِ أَنْ يَغْفِرَ ،
فَنَاسِبُ السِّيَاقِ هُنَا أَنْ يُوَاجِهَهُمْ فَيَقُولُ :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى :

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا^(١)
أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ۚ﴾

عندنا هنا اللام .. وقد تكون (اللام) للملك كما فى الآية . وكما
فى : المال لزيد ، وقد تكون للتخصيص إذا دخلت اللام على ما لا
يملك ، كما تقول : اللجام للفرس ، والمفتاح للباب ، فالفرس لا يملك
اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (٥٢) [النحل]

وفى موضع آخر يقول :

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (٦٨) [يونس]

وكذلك فى :

﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ..﴾ (٢٤) [الحشر]

ومرة يقول :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ..﴾ (١) [الجمعة]

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففى قوله :

(١) وصب الشيء يصب وصبوا : دام ولزم فسهو واحصب : نائم لازم . أى : لا يتغير
ولا يتبدل . [القاموس القويم ٣٢٩/٢] .

[النحل]

﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٥٢)﴾

يعنى : القدر المشترك الموجود فيهما . أى : الأشياء الموجودة
فى السماء وفى الأرض .

أما فى قوله :

[يونس]

﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٦٨)﴾

أى : الأشياء الموجودة فى السماء وليست فى الأرض ، والأشياء
الموجودة فى الأرض وليست فى السماء ، أى : المخصص للسماء
والمخصص للأرض . وهذا ما يُسمونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، فليس لأحد
غيره ملكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن :
فليس له ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوب له ، وما به قيام
وجوده موهوب له .. ولذلك يقولون : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْبُدَ فى الألوهية
يجب أن تكون له ذاتية وجود .. وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذى يعاند أباه ، وهو ما يزال
عالة عليه . فيقول له : انتظر إلى أن تكبر وتستقل بأمرك .. فإذا
ما شبَّ الولد وبلغ وبدأ فى الكسب أمكن له الاعتماد على نفسه ،
والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند فى الألوهية : أنت لا تقدر ؛ لأن وجودك
هبة ، وقيام وجودك هبة ، كل شيء يمكن أن يُنزع منك .

ولذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى
قوله تعالى :

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ۖ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾ [العلق]

فهذا الذي رأى نفسه استفتى عن غيره - من وجهة نظره - إنما هل استفتى حقاً؟ لا . لم يستفت ، بدليل أنه لا يستطيع أن يحتفظ بما يملك .

قوله تعالى :

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ ۞ ﴿٥١﴾﴾ [النحل]

الذي له ما في السموات والارض ، وبه قيام وجوده بقيوميته^(١) ، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك : أنا قيوم - يعنى : قائم على أمرك .. ليس قائماً فقط .. بل قيوم بالمبالغة فى الفعل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاباً من عدم ، وإمداداً من عدم ، إذن : يجب أن تكون طاعتك له سبحانه لا لغيره .

وفى الأمثال يقولون « اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى » فإذا كنت أنت عالة فى الوجود .. وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مقومات حياتك من الله ؛ لذلك قال تعالى :

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ ۞ ﴿٥٢﴾﴾ [النحل]

أى : هذه نتيجة ؛ لأن الله ما فى السموات والارض ، فله الدين واسباب ، أى : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، وملك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم ملكه لأحد ، ولا تزال يد الله فى ملكه .. وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

(١) القيوم : صيغة مبالغة من أسماء الله الصنى لا يُوصف بها سواه . أى : دائماً شديد القيام والحفاظ على مخلوقاته . [القاموس القويم ١٤٢/٢] .

سُورَةُ النُّحْلِ

٧٩٩٩

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾

[النحل]

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أن تتقى غير الله ، لأنه حُقق لا يليق بك . وقد علمت أن الله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عدم والإمداد من عدم .

إذن : فمن الحُقق أن تتقى غيره : وهو أولى بالتقوى ، فإن اتقيتم غيره فذلك حُقق قى التصرف يؤدى إلى العطب والهلاك ، إن اغتررتم بأن الله تعالى أعطاكم نعماً لا تعد ولا تحصى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكات وما حولها ، فلو سلك العقل مثلاً سكمت وصححت الأمور التى تتعلق به ، فيصح النظام ، وتصح التصرفات ، ويصح الاقتصاد .. وهذه نعمة .

فالنعمة تكون للقلب وتكون للقلب ، فللقلب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية .. وأهم المتع المعنوية التى تريح القلب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجِّهه .. أن يكون له ربٌ قادر ، لا يُعجزه شيء ، فإن ضاقت به الدنيا ، وضافت به الأسباب فإن له رباً يلجأ إليه فيُسعفه ويكفيه ، وهذه هى الراحة الحقيقية .

وقد ضمن لنا الحق - سبحانه وتعالى - سلامة الغالب بما أودع فى الكون من مقومات الحياة فى قوله :

﴿وَقَدَّرَ لَهَا أَقْوَاتَهَا^(١) .. (٥٥)﴾

[فصلت]

أى : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، قاله سبحانه لا يريد منكم إلا أن

(١) أقواتها : هو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس . قاله ابن كثير فى تفسيره (١٣/٤) .

تَعْمَلُوا عَقُولَكُمْ الْمَخْلُوقَةَ لِّتُفَكِّرُوا فِي الْمَادَّةِ الْمَخْلُوقَةِ ۚ وَتَتَفَعَّلُوا
لَهَا بِالطَّاقَةِ الْمَخْلُوقَةِ ۚ فِي جَوَارِحِكُمْ ، وَسَوْفَ تُجِدُونَ كُلَّ شَيْءٍ
مُيسِّرًا لَكُمْ .. فَاللهُ تَعَالَى مَا أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ تُوجِدُوا رِزْقًا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ
أَنْ تَعْمَلُوا الْعَقْلَ ، وَتَتَفَاعَلُوا مَعَ مُعْطِيَاتِ الْكَوْنِ .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان في الحياة ؟

هناك أشياء في الوجود خلقها الله سبحانه برحمته وفضله ، فهي
تفعل لك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، فأنت لا تطلب من الشمس أن
تطلع عليك ، ولا من الهواء أن يهب عليك .. الخ .

وهناك أشياء أخرى تفعل لك إن طلبت منها ، وتفاعلت معها ،
كالأرض إن فعلت بيدك فحرثت وزرعت ورويت تعطيك ما تريد .

وفي هذا المجال من التفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلون فيما
يُفعل لهم دون انفعال منهم .. لا بل ارتقاء الناس وتفاضلهم يكون
بالأشياء التي تتفاعل لهم إن فعلوا .. أما الأخرى فتفعل لكل الناس ،
فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن والكافر في أي مكان .

إذن : يترقى الإنسان بالأشياء التي خلقها الله له ، فإذا انفاعل
معه انفعلت له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعطه شيئًا ، ولا يستفيد
منها بشيء .. ولذلك قد يقول قائل : الكافر عنده كذا وكذا ، ويملك
كذا وكذا ، وهو كافر .. ويتعجب من القدر الذي أعطى هذا ، وحرّم
المؤمن الموحّد منه .

نقول له : نعم أخذ ما أخذ ؛ لأنه يشترك معك فيما يُفعل لك
وإن لم تطلب ، ويزيد عليك أنه يعمل ويكدر ويتفعل مع الكون

وما أعطاه الله من مُقُومَاتِ طاقة ، فتتفعل معه وتعطيه ، في حين أنك قاعد لا همّة لك .

وكذلك قد يتسامى الارتقاء في الإنسان ، فيجعل الشيء الذي يُفعل له دون أن يطلب منه - أي : الشيء المسخّر له - يجعله ينقل له ، كما ترى فيما توصّل إليه العلم من استخدام الطاقة الشمسية مثلاً في تسخين المياه .. هذه الطاقة مُسَخَّرَةٌ لنا دون جُهدٍ منا ، ولكن ترقى الإنسان وطموحه أرسله إلى هذا الارتقاء .. وكلّ هذه نِعَمٌ من الله : ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا يَكُفُّمْ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِذْ أَنْذَرَهُمْ بَأْسَ الَّذِي كَانُوا يُعْصُونَ ﴾
فَالْيَهُودُ يَحْزَنُونَ ﴿٥٢﴾

أمدنا الله سبحانه بهذه النعم رحمة منه وفضلاً .. نِعَمٌ تترى لا تُعد ولا تُحصى ، ولكن لرتابة^(١) النعمة وحولها في وقتها يتعوّدها الإنسان ، ثم يذهل عن المنعم سبحانه .

ونستطيع أن نخرب لذلك مثلاً بالولد الذي تعطيه مصروفه مثلاً كل أول شهر ، تجده لا يحرص على أن يلقاك بعد ذلك إلا كل أول شهر ، إنما إذا عودته أن يأخذ مصروفه كل يوم . تراه في الصباح يحوم حولك ، ويظهر لك نفسه ليذكرك بالمعلوم .

إذن : رتابة النعمة قد تُذهلك عن المنعم ، فلا تتذكره إلا حين

(١) جار إلى الله عز وجل : تضرع بالدعاء . فيرفع صوته بالدعاء متضرعاً جزعاً . [لسان العرب - مادة : جار] .

(٢) الأمر الراجح : الثابت الدائم . [لسان العرب - مادة : وثب] .

الحاجة إليه ؛ لذا يُنبِّهنا الحق تبارك وتعالى : إذا أعطيتُ لكم نعمة فإياكم أن تغتروا بها .. إياكم أن تُذهلكم النعمة عن النعم ؛ لأنكم سوف تحكمون على أنفسكم أنه لا مُنعمَ غيري ، بدليل أنني إذا سلَّيتُ النعمة منكم فلن تجدوا غيري تلجأون إليه فستقولون : ياربَّ ياربَّ .

فأنت ستكون شاهداً على نفسك ، لن تكذب عليها ، فلمن تتوجَّه إذا أصابك فقر ؟ ولمن تتوجَّه إذا أصابك مرض ؟ لن تتوجَّه إلا إلى الله تقول : يارب .

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ﴾ (٥٣)

[التحل]

فترة الضُّر التي تمرُّ بالإنسان هي التي تلفقه إلى الله ، والحاجة هي التي تُلجئه إلى المصدر الحقيقي للإمداد ، فإذا كانت النعمة قد تُذهله وتُنسيه ، فالضرُّ يُذكره بربه الذي يملك وحده كُشف الضر عنه .

ولذلك ، فالناس أصحاب اليقين في الله تعالى ساعة أن يصيبهم ضرٌّ ، يقول : ذكَّرتني بك ياربَّ ، ياخذها على أنها نعمة .. كأنها نجدة نجتته مما هو فيه من غفلة .. يا ربَّ أنت ذكَّرتني بك .. أنا كنتُ ناسياً ذاهلاً .. كنت في غفلة .

وساعة أن يعودَ ويشعر بالتقصير يرفع الله عنه البلاء ؛ ولذلك يُرفع القضاء عن العبد إن رضى به وعلم أن فيه خيراً له .

ولذلك ، فالرسول ﷺ يُنبِّهنا لهذه الأحداث التي تصيبنا ، فإياكم أن تستقبلوها بالجزع والفرع .. ولكن استقبلوها بالإيمان والرضا . واعلموا أن ربكم يفرار عليكم ، وهو بهذه الأحداث يلفتكم إليه قهراً عنكم ؛ لكي تعودوا إليه وتلجأوا إليه .. لكي تقولوا يارب .

اللحظات : سوف تلجئنا الأحداث إلى ربنا .. بل بالعكس حينما تكشف
عنكم الضر سوف تعودون إلى ما كنتم عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾

فمن الناس من إذا أصابه الله بضر أو نزل به بأس تضرع
وصرخ ولجا إلى الله ودعاه ، وربما سألت دموعه ، وأخذ يُصلي
ويقول : يا فلان أدع لي الله وكذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه
ضربه عاود الكرة من جديد : لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ ١٢ ﴾ [يونس]

ومن لطف الأداء القرآني هنا أن يقول :

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾ [النحل]

أي : جماعة منكم وليس كلكم ، أما الباقي فيمكن أن يثبتوا على
الحق ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون .. فالناس - إذن -
مختلفون في هذه القضية : فواحد يتضرع ويلتفت إلى الله من ضر
واحد أصابه ، وآخر يلتفت إلى الله من ضرين ، وهكذا .

وقد وجدنا في الأحداث التي مرّت ببلادنا على أكابر القوم أحداثاً
عظماً تلفستهم إلى الله ، فرأينا من لا يعرف طريق المسجد يُصلي ،
ومن لا يفكر في حج بيت الله ، يسرع إليه ويطوف به ويبكي هناك

عند الملتزم^(١) ، وما ألجأهم إلى الله ولفتهم إليه سبحانه إلا ما مرت بهم من أحداث .

أليست هذه الأحداث ، وهذه الأزمات والمصائب خيراً في حقهم ؟.. بلى إنها خير .

وأيضاً قد يُصاب الإنسان بمرض يُلمّ به ، وربما يطول عليه ، فيذهب إلى الأطباء ، ويدعو الله ويلجأ إليه ، ويطلب من الناس الدعاء له بالشفاء ، ويعمل كذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه المرض وأذن له بالشفاء قال : أنا اخترت الطبيب الحاذق ، الطبيب النافع ، وعملت وعملت .. سبحانه الله !

لماذا لا تترك الأمر لله ، وتُغنى نفسك من هذه العملية ؟

وفي قوله تعالى :

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾

[النحل]

صعاب أُمْن اجتماعي في الكون ، يقول للناس : إياكم أن تأخذوا على غيركم حين تقدمون إليهم جميلاً فيُنكرونه .. إياكم أن تكفؤا عن عمل الجميل على غيركم ؛ لأن هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع أعلى منكم ، فعلوه مع الله سبحانه ، فلا يُزهدك إنكارهم للجميل في فعله ، بل تمسك به لتكون من أهله .

(١) يستحب الدعاء عند الملتزم بعد الشرب من ماء زمزم . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : « رأيت رسول الله ﷺ يلزق وجهه وصدره بالملتزم » . أخرجه ابن عدي في الكامل

والحق تبارك وتعالى يضرب لنا مثلاً لإنكار الجميل في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا^(١) مُوسَىٰ قَبْرَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩)﴾
[الأحزاب]

فقد اتهمه قومه وقعدوا يقولون فيه كذباً وبُهتاناً ، فقال موسى : يا ربَّ أسألك ألا يُقال فيَّ ما ليس فيَّ .. فقال تعالى لموسى : أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعلها لك ؟

ولماذا لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ؟.. لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ليعطينا نحن أسوة في تحمل هذا الإنكار ، فقد خلق الله الخلق ورزقهم ووسعهم ، ومع ذلك كفرُوا به ، ومع ذلك ما يزال الحق سبحانه خالقاً رازقاً واسعاً لهم .

إذن : في الآية تقنين وأمان للمجتمع أن يتفشى فيه مرض الزُّهْد في عمل الخير .

وقول الحق سبحانه :

﴿يُرِيهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾

[النحل]

تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين ، ومن الكافرين .

ولكن لماذا يشركون ؟

(١) وذلك أن موسى عليه السلام كان رجلاً حياً ، فأذاه قوم من بني إسرائيل وقالوا : ما يستقر هذا البشري إلا من عيب بجلده ببرص أو غيره ، فأراد الحق أن يبرئه مما قالوا ، فبعد اغتساله أراد أن يرتدى ثيابه ، فذهب بها للحجر بعيداً حتى جاء على ملا من بني إسرائيل فراوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، أخرجه البخاري في صحيحه والترمذي في سننه من حديث أبي هريرة . فذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٦٥/٦) .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

أى : مُسْتَعْظَمِينَ كَقَارُونَ الذى قال :

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ..﴾ (٧٨) [التقصص]

أَخَذْتُ هَذَا بِجَهْدِي وَعَمَلِي .. وَمِثْلُهُ مَنْ يَقُولُ لَهُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَكَ فِي الْإِمْتِحَانِ ، فَيَقُولُ : أَنَا كُنْتُ مُجِدًّا .. ذَاكِرْتُ وَسَهَرْتُ .. نَعَمْ أَنْتَ ذَاكِرْتُ ، وَأَيْضًا غَيْرَكَ ذَاكِرٌ وَجَدُّ وَأَجْتَهَدُ ، وَلَكِنْ أَصَابَهُ مَرَضٌ لَيْلَةُ الْإِمْتِحَانِ فَنَاقَعَدَهُ ، وَرَبِّمَا كُنْتُ مِثْلَهُ .

فهذه نعمة مَنْ أَنْكَرَ الْفَضْلَ ، وَتَكَبَّرَ عَلَى صَاحِبِ النِّعْمَةِ سَبْحَانَهُ .

وقوله :

﴿لِيَكْفُرُوا ..﴾ (٥٥) [النمل]

هَلْ فَعَلُوا ذَلِكَ لِيَكْفُرُوا ، فَتَكُونُ اللَّامُ لِلتَّعْلِيلِ ؟ لَا بَلْ قَالُوا : اللَّامُ هُنَا لَامُ الْعَاقِبَةِ .. وَمَعْنَاهَا أَنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ شَيْئًا لَا لَشَيْءٍ ، وَلَكِنْ الشَّيْءُ يَحْدُثُ هَكَذَا ، وَلَيْسَ فِي بَالِكَ أَنْتَ .. إِنَّمَا حَصَلَ هَكَذَا .

ومثال هذه اللام في قوله تعالى في قصة موسى وفرعون :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ..﴾ (٨) [القصاص]

فَفِرْعَوْنُ حِينَئِذَا أَخَذَ مُوسَى مِنَ الْبَحْرِ وَتَبَّأَهُ وَرَبَّاهُ ، هَلْ كَانَ يَتَبَّأَهُ لِيَكُونَ لَهُ عَدُوًّا ؟ لَا .. إِنَّمَا هَكَذَا كَانَتْ النِّهَايَةُ ، لِكَيْ يَثْبُتَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُكْفَرَيْنِ ، وَأَنَّ اللَّهَ حَالٌ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَبَيْنَ

ما يريدون .. إذن : المسألة ليست مرادة .. فقد أخذته وربيتة في الوقت الذي تقتل فيه الأطفال .. ألم يخطر ببالك أن أحداً خاف عليه ، فالقاء في البحر ؟

لذا يقول تعالى :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ^(١) بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾

[الأنفال]

وكذلك أم موسى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾

[القصص]

كيف يقبل هذا الكلام ؟ وأنى للام أن ترمى ولدها في البحر إن خافت عليه ؟ كيف يتأتى ذلك ؟ ولكن حال الله بين أم موسى وبين قلبها ، فذهب الخوف عليه ، وذهب الحنان ، وذهبت الرأفة ، ولم تكذب الأمر الموجّه إليها ، واعتقدت أن نجاة وإيدها في هذا فالفقه .

وقوله : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾

[النحل]

أى : اكفروا بما آتيناكم من النعم ، وبما كشفنا عنكم من الضر . وتمتعوا في الدنيا ؛ لأننى لم أجعل الدنيا دار جزاء ، إنما الجزاء في الآخرة .

(١) حال بينهما يحول . حيز وفصل . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] أى : أن الله يملك أن يعرّف قلب الإنسان ويغيّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه ، وإنما الله هو الذى يملكه . [الفاموس القويم ١/ ١٧٩] .

وكلمة ﴿ تَمَتُّعُوا ﴾ هنا تدل على أن الله تعالى قد يُوالى نعمه حتى على مَنْ يكفر بنعمته ، وإلاَ فلو حَجَب عنهم نِعْمه فلن يكون هناك تمتع .

ويقول تعالى :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٥)

[النحل]

أى : سوف ترونَ نتيجة أعمالكم ، ففيها تهديد ووعد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ
قَالَ اللَّهُ لَسْتُ لَكُمْ عَمَّا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ ﴾ (٥٦)

أى : الذين يكفرون بالله ويتخذون الأصنام والشركاء ، يجعلون لها نصيباً

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَا يَعْلَمُونَ .. ﴾ (٥٦)

[النحل]

ما العلم ؟

العلم أن تعرف قضية ، هذه القضية صدق أى : مطابقة للواقع وتستطيع أن تدل عليها ، فإذا اُخْتُلَ واحد منها لم تكن علماً .. وهؤلاء حينما جعلوا للأصنام نصيباً ، فقد أتوا بأشياء لا وجود لها فى الواقع ولا فى العلم ، وليست حقائق .. وهل للأصنام وجود ؟ وهل عليها دليل ؟

قال تعالى :

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .. (٢٣)﴾

[النجم]

هذه الأصنام ليست لها وجود في الحقيقة ، وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا لَمَّا كَانُ لَشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾

[الأنعام]

حتى لما جعلوا للأصنام نصيباً جعلوه مما رزقهم الله ، ألا جعلتم نصيب الأصنام مما تعطيتكم الأصنام ؟ ونصيب الله مما رزقكم الله ؟ فهذا اعتراف منكم بعجز أصنامكم . وأنكم أخذتم رزق الله وجعلتموه لأصنامكم ..

وهذا دليل على أن الأصنام لا تعطيتكم شيئاً ، وشهادة منكم عليهم .. وهل درت الأصنام بهذا ؟

إذن :

﴿لَمَّا لَا يَعْلَمُونَ .. (٥٦)﴾

[التحل]

أى : للأصنام ؛ لأنها لا وجود لها في الحقيقة ، وهم يأخذون ما رزقناهم ، ويجعلونه لأصنامهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

سُورَةُ الْجَنَّةِ

٨٠١١

﴿ تَاللّٰهِ لَتَسَّالُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ (٥٦) [التحل]

التاء هنا في ﴿ تَاللّٰهِ ﴾ للقسم : أى : والله لَتَسَّالُنَّ عما افتريتم
من أمر الأصنام . والافتراء : هو الكذب المتعمد .

﴿ وَجَعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٥٧)

ساعة أن تسمع كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ فاعلم أنها تنزيه لله تعالى
عما لا يليق ، فهي هنا تنزيه لله سبحانه وتعالى عما سبق من نسبة
البنات له .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .. أى : تنزيهاً لله عن أن
يكون له بنات .

فهل يمكن أن يكون له أولاد ذكور ؟

إنهم جعلوا لله البنات ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهذه قسمة قال
عنها القرآن الكريم :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثٰى ﴾ (٥٦) ﴿ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزٰى ﴾ (٥٧) [النجم]

أى : جائزة .

لم تجعلوها عادلة ، يعنى لى ولد ولكم ولد ، ولى بنت ولكم بنت ،
إنما تجعلون لله ما تكرمون وهى البنات لله ، وتجعلون لكم ما
تحبون .. لذلك كان في جعلهم لله البنات عيبان :

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٨٤١/٥) : « نزلت في خزانة وكثانة ، فإنهم زعموا أن
الملائكة بنات الله » .

الأول : أنهم تَسَبَّرُوا لله الولد - ولو كان ذكراً فهو افتراء باطل
يتنزه الله عنه .

الثاني : أنهم اختاروا أخص الأنواع في نظرهم .. ولا يستطيع أحد
أن يقول : إن البنات أخص الأنواع .. لماذا ؟

لأن البنات يكون بقاء النوع ؛ ولذلك قال العباس : لو سمع الله
ما قال الناس في الناس لما كان الناس .. أى : لو استجاب الله لرغبة
الناس في أنهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم .. ماذا
سيحدث ؟ سينقطع النسل ، فهذا مطلب غيبى ، فالبنات هي التي تُد
الولد ، وبها بقاء النوع واستمرار النسل .

وقوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَهُ .. (٥٧) ﴾

[النحل]

أى : تنزيهاً له أن يكون له ولد ، وتنزيهاً له سبحانه أن يكون له أخص
النوعين في نظرهم وعرفهم ، وقد قال عنهم القرآن في الآية التالية :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ
مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. (٥٩) ﴾

[النحل]

ولذلك فالحق - تبارك وتعالى - حينما يُحَدِّثُنَا عن الإنجاب يقول :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٥٩) أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ
عَقِيمًا .. (٦٠) ﴾

[الشورى]

أول ما بدأ الحق سبحانه بدأً بالإناث .. ثم أعطانا هذه الصور من
الخلق : إناث ، ذكور ، ذكور وإناث ، عقيم .. إذن : هبات الله تعالى

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

نعرف أن البشارة تكون بخير ، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها
استقبال البشارة ، ولكنهم استقبلوها استقبال الناقمين الكارهين لما
بُشِّرُوا به ، فتجد وجه الواحد منهم .

﴿مُسْوَدًّا .. (٥٨)﴾ [النحل]

ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ : لذلك يقول تعالى :

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ .. (٥٨)﴾ [النحل]

الكظم هو كُتْم الشيء .

ولذلك يقول تعالى في آية أخرى :

﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٢٤)﴾ [آل عمران]

وهو مأخوذ من كَظَم القُرْبَةَ حين تمتلئ بالماء ، ثم يكظمها أي :
يربطها ، فتراها ممثلة كأنها ستنفجر .. هكذا الغضببان تنتفخ عروقه ،
ويتوارد الدم في وجهه ، ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أن
ينفجر .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً حاله :

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ^(١)
أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩)

قوله تعالى :

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

أى : يتخفى منهم مخافة أن يُقال : أنجب بنتاً .

﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

نلاحظ إعادة البشارة فى هذه الآية أيضاً ، وكأنه سبحانه وتعالى يُحنِّن قلبه عليها ، ويدعوه إلى الرِّفْقِ بها .

فهو متردد لا يدرى ماذا يفعل ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. (٥٩)﴾ [النحل]

أى : ماذا يفعل فيما وُلِدَ له . يحتفظ به على هُونٍ - أى : هوان ومذلة - أم يدسه فى التراب - أى : يدفنها فيه حية ؟

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحكمون فى الحاليتين . حالة الإمساك على هُونٍ ومذلة ، أو حالة دَسُّها فى التراب ، فكلاهما إساءة . وكان بعض هؤلاء إذا وُلِدَتْ له بنت كرهها ، فإن أمسكها أمسكها على حال كونها ذليلة عنده ، مُحْتَقَرَةٌ مُهَانَةٌ . وهى مسكينة لا ذنبَ لها .

(١) الهُونُ والهوان : الذل الشديد والخزي . [لسان العرب - مادة : هون] .

ولذلك ، فإن المرأة العربية التي عاصرت هذه الأحداث قطعت إلى ما لم نعرفه نحن إلا قريباً ، حيث اكتشف العلم الحديث أن أمر إنجاب الولد أو البنت راجع إلى الرجل وليس إلى المرأة .. وكان أبو حمزة كثيراً ما يشرك زوجته ويغضب منها ، لأنها لا تلد إلا البنات .. فمادام قالت هذه المرأة العربية التي هجرها زوجها ؟ قالت :

مَا لِأَبِي حِمْرَةَ لَا يَأْتِينَا غَضُيبَانِ إِلَّا فُلِدَ الْبَنِينَا
ثَالِثُ مَا ذَلِكَ فِي أَيْدِينَا فَتَحْنُ كَالْأَرْضِ لِلْمَارِسِينَا
نُعْطِي لَهُمْ مِثْلَ الَّذِي أُعْطِينَا

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد توازناً في الكون يصنع هذا التوازن من خلال مقتضيات النفس البشرية ، ومن مقتضياتها أن يكون للإنسان جاه ، وأن يكون له عز ، لكن الإنسان يخطيء في تكوين هذا الجاه والعز ، فيظن أنه قادر على صنع ما يريد بأسبابه وحدها .

إنما لو علم أن تكوين الجاه والعز بشيء فوق أسبابه هو ، بشيء مخلوق لله تعالى ، بقدر مخلوق لله تعالى ، لو علم هذه الحقيقة لجاه المسألة من بابها .

ذلك لأن العزة ليست بما تُنجب .. العزة هنا لله وللرسول وللمؤمنين ، اعتز هنا بعصبة الإيمان ، اعتز بأنك في بيئة مؤمنة متكافلة ، إذا أصابك فيها ضيم^(١) فزح إليك الجميع .

(١) الضيم : الظلم أو الإللال وتوهمها . ضامه - ظلمه وأذله . [المعجم للوجيز - مادة ، ضام] .

ولا تَعْتَزْ بِالْأَنْسَالِ وَالْأَنْجَالِ ، فقد يأتى الولد عاقاً لا يُسَعِفُ أبويه
فى شدة ، ولا يعينهما فى حاجة ؛ ذلك لأنك لجأت إلى عَصَبِيَّةِ الدَّمِ
وعَصَبِيَّةِ الدَّمِ قد تتخلف ، أما عَصَبِيَّةُ الْعَقِيدَةِ وَعَصَبِيَّةُ الْإِيمَانِ والدين
فلا .

ولناخذ على ذلك مثلاً .. ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من
تكافل وتعاون فاق كُلَّ ما يتصوره البشر ، ولم يَكُنْ بينهم سوى
رابطة العقيدة وعصبية الإيمان .. ماذا حدث بين هؤلاء الأفذاذ ؟

وجدنا أن العصبية الإيمانية جعلت الرجل يُضَحِّى بِنَفْسِ شَيْءٍ
يُضِنُّ به على الغير .. نتصور فى هذا الموقف أن يعود الأنصار
بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين ، فَمَنْ كَانَتْ عنده
ركوبة أو منزل مثلاً يقول لأخيه المهاجر : تفضل اركب هذه
الركوبة ، أو اجلس فى هذا المنزل .. هذا كله أمر طبيعى .

أما نعيم المرأة ، فقد طُبِعَ فى النفس البشرية أن الإنسان لا يحب
أن تتعدى نعمته فيها إلى غيره .. لكن انظر إلى الإيمان ، ماذا صنع
بالنفوس ؟.. فقد كان الأنصارى^(١) يقول للمهاجر : انتظر لزوجاتى ،
أيهن أعجبتك أطلقها لتتزوجها أنت ، وما حمله على ذلك ليس عصبية
الدَّمِ أو عَصَبِيَّةُ الْجِنْسِ ، بل عَصَبِيَّةُ الْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ .

(١) أخرج الإمام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فأخى رسول الله ﷺ
بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أئى أخى . أنا أكثر أهل المدينة مالاً ،
فانظر شطر مالى فخذ ، ورتضى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها . فقال
عبد الرحمن : بارك الله لك فى أمك ووالك ، بلونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى
وباع قريح . أورده ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٢٢٨/٢) والكاتبه لوى فى « حياة
النسابة » (٢٦٢/١) .

ولذلك تنتفى جميع العصبيات فى قصة نوح - عليه السلام -
 وولده الكافر ، حينما ناداه نوح - عليه السلام - :

﴿ يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٢) قَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ
 يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. ﴿ (٤٣) [هود]

ويتعسك نوح بولده ، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول :

﴿ رَبِّ إِنِّي أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِي وَإِنِّي رَعْدَكَ الْعَقُّ .. ﴾ (٤٥) [هود]

فيأتى فُصْلُ الخطاب فى هذه القضية :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤٦) [هود]

إن : هذا الولد ليس من أهلك ؛ لأن البُتُوَّة هنا بُتُوَّة العمل ،
 لا بُتُوَّة الدم والنسب .

صحيح أن الإنسان يحب العزة ويطلبها لنفسه ، ولكن يجب أن
 تنتظر كيف تكون العزة الحقيقية ؟ وما أسبابها ؟

خُذْ العزة بالله وبالرسول وبالبيئة الإيمانية ، يصبح كل الأولاد
 أولادك ؛ لأنهم معك فى يقينك بالله وإيمانك به سبحانه .. أما أن تعتز
 بطريقتك أنت ، فتطلب العزة فى الولد الذكر ، فمَنْ يُدْرِيك أن تجد فيه
 العزة والعزوة والمكاثرة ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ

الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦٠)

قوله تعالى :

﴿مَثَلُ السُّوءِ .. (٦٠)﴾

[النحل]

صفة السوء أى : الصفات السيئة الخسيسة من الكفر والجحود
والنكران ، ومن عمى البصيرة ، وغيرها من صفات السوء .

لماذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة مثلُ السوء ؟ لأن المعادلة
التي أجروها معادلة خاطئة : لأن الذى لا يؤمن بالآخرة قصر عمره ..
فعمر الدنيا بالنسبة له قصير ، وقد قلنا : إياك أن تقيس الدنيا
بعمرها .. ولكن قس الدنيا بعمرك أنت ، فعمر الدنيا مدة بقائك أنت
فيها .. إنما هي باقية من بعدك لغيرك ، وليس لك أنت فيها نصيب
بعد انقضاء عمرك .

إذن : عمر الدنيا عمرك أنت فيها .. عمرك : شهر ، سنة ، عشر
سنوات ، مائة .. هذا هو عمر الدنيا الحقيقى بالنسبة لك أنت .

ومع ذلك ، فعمر الدنيا مهما طال مُنقته إلى زوال ، فمن لا يؤمن
بالله ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخسارة ؛ لأنه لا يضمن أن يعيش
فى الدنيا حتى متوسط الأعمار .. وهب أنك عشت فى الدنيا إلى
متوسط الأعمار ، بل إلى أرذل العمر .. وهب أنك استمتعت فى دنياك
بكل أنواع المعاصى ، ماذا ستكون النهاية ؟ أن تقوت هذا كله إلى
الموت .

قارن - إذن - حال هذا بمن آمن بالله وآمن بالآخرة .. نقول لمن
لا يؤمن بالآخرة : دنياك مظلونة ، يمكن أن تعيش فيها ، أو يعاجلك
الموت .. حتى من عاش إلى متوسط الأعمار ، فالنهاية إلى زوال .

وما نلتَ من مُتْعٍ فى دنياك أخذتها على قَدْرِ إمكاناتك أنت .
 إذن : أنت أخذت صفقة محدودة غير مُتَيْقَنَةٍ ، وتركتَ صفقة غير
 محدودة ومُتَيْقَنَةٍ .. أليستَ هذه الصفقة خاسرة ؟
 أما مَنْ آمَنَ بالآخرة فقد ربحتَ صفقته ، حيث اختار حياة ممتدة
 يجد المتعة فيها على قَدْرِ إمكانات المنعم سبحانه وتعالى .
 إذن :

﴿مَثَلُ السَّوِّءِ .. (٦٠)﴾ [النحل]

أى : الصفة شديدة السوء ، ذلك لأنهم خاسرون لا صالحة .
 وقوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى .. (٦١)﴾ [النحل]

لله الصفة العليا . وكان الآية تقول لك : اترك صفة السوء ، وخُذْ
 الصفة الأعلى التى تجد المتعة فيها على قَدْرِ إمكانات الحق سبحانه
 وتعالى .

ويُنتهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)﴾ [النحل]

العزیز أى : الذى لا يُغْلَبُ على أمره ، فلماذا قيل : قد يوجد مَنْ
 لا يُغْلَبُ على أمره .. نعم ، لكنه سبحانه عزيز حكيم يستعمل القهر
 والغلبة بحكمة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٦١)

قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. ﴾ (٦١) [النحل]

عندنا هنا : الأخذ والمؤاخضة .. الأخذ : هو تحصيل الشيء واحتواؤه ، ويدل هذا على أن الأخذ له قدرة على المستمسك بنفسه أو بغيره ، فمثلاً تستطيع حمل حصة ، لكن لا تستطيع حمل حجر كبير ، وقد يكون شيئاً بسيطاً إلا أنه مربوط بغيره ومستمسك به فيؤخذ منه قوة .

فمعنى الأخذ : أن تحتوى الشيء ، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه في ذاته ، أو استمساك غيره به ، وقد يكون الأخذ بلا ذنب .

أما المؤاخضة فتعني : هو أخذ منك فانت تأخذ منه .. ومنه قول أحدنا لأخيه « لا مؤاخضة » في موقف من المواقف .. والمعنى : أننى فعلت شيئاً استحق عليه الجزاء والمؤاخضة ، فأقول : لا تؤاخضنى .. لم أقصد .

لذلك : فالحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ وَلَوْ يَأْخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. ﴾ (٦١) [النحل]

ولم يَقُلْ : ياخذ الناس .

وفى آية أخرى قال تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢)

[هود]

لماذا أخذها الله ؟ أخذها لأنها أخذت منه حقوقه فى أن يكون إلهاً واحداً فأنكرتها ، وحقوقه فى تشريع الصالح فأنكرتها .

ويُبين الحق سبحانه أن هذه المُواخِذَةَ لو حدثت ستكون بسبب من الناس أنفسهم ، فيقول سبحانه :

﴿بِظُلْمِهِمْ ..﴾ (٦١)

[النحل]

أول الظلم أنهم أنكروا الوحداية ، يقول تعالى :

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢)

[لقمان]

فكانهم أخذوا من الله تعالى حقّه فى الوحداية ، وأخذوا من الرسول ﷺ ، فقالوا كذاب ، وأخذوا من الكتاب فقالوا « سحر مبین » .

كل هذا ظلم ..

فالحق تبارك وتعالى لو أخذهم بما أخذوا ، أخذوا شيئاً فأخذ الله شيئاً ، لو عاملهم هذه المعاملة ما ترك على ظهرها من دابة .

لذلك نجد فى آيات الدعاء :

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِيْنَا أَوْ أَخْطَاْنَا ..﴾ (٢٨٦)

[البقرة]

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿ ٨٠٢٢ ﴾

أَيُّ : أَتَنَا أَخَذْنَا مِنْكَ يَا رَبُّ الْكَثِيرَ بِمَا حَدَّثَ مِنَّا مِنْ إِسْرَافٍ وَتَقْصِيرٍ وَعَمَلٍ عَلَى غَيْرِ مَقْتَضَى أَمْرِكَ ، فَلَا تَوَاخِذْنَا بِمَا بَدَرَ مِنَّا .

فَلَوْ أَخَذَ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا اقْتَرَفُوا مِنْ ظُلْمٍ ..

﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ .. ﴾ (٦١)

[النحل]

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ : اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَيُؤَاخِذُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ، فَمَا ذُنُوبُ الدَّابَّةِ ؟ مَاذَا فَعَلَتْ ؟ نَقُولُ : لِأَنَّ الدَّابَّةَ خُلِقَتْ مِنْ أَجَلِهِمْ ، وَسُخِّرَتْ لَهُمْ ، وَهِيَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَلَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ إِذَنْ نَكَايَةً فِي الدَّابَّةِ ، بَلْ فَيَمَنْ يَنْتَقِعُ بِهَا ، وَقَدْ يُرَادُّ الْعَمُومُ لِكُلِّ الْخَلْقِ .

فَإِذَا لَمْ يُؤَاخِذِ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَهَلْ يَتْرَكُهُمْ هَكَذَا ؟

لَا بَلْ :

﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴾ (٦١)

[النحل]

هَذَا الْأَجَلُ انْقِضَاءُ دُنْيَا ، وَقِيَامُ آخِرَةٍ ، حَتَّى لَوْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْآخِرَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُمَهِّلُهُمْ فِي الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. ﴾ (٦٧)

[الطور]

وَقَدْ يَكُونُ فِي هَذَا الْأَجَلِ الْمُسَمًّى خَيْرٌ لِلْحَقِّ ، فَكَثِيرٌ مِنَ الصَّاحِبَةِ كَانُوا يَدْخُلُونَ الْمَعَارِكَ ، وَيُحِبُّونَ أَنْ يَقْتُلُوا أَهْلَ الْكُفْرِ فَلَانًا وَقَلَانًا ، ثُمَّ لَا يَتِمَكِّنُونَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا يَصْصِرُونَهُمْ ، فَيَحْزَنُونَ لِذَلِكَ .

وَلَكِنْ أَجَلٌ هَؤُلَاءِ لَمْ يَأْتِ بَعْدَ . وَفِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ سَيُؤْمِنُونَ ، وَأَنَّ إِيْمَانَهُمْ سَيَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَأَنَّ الْقَدَرَ يَدْخُرُهُمْ : إِمَّا أَنْ يُؤْمِنُوا ، وَإِمَّا أَنْ تَوْمَنَ ذُرِّيَّاتُهُمْ .

وقد آمن عمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم . ومن هؤلاء الذين نَجَوْا كان خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٦١) [النحل]

أى : إذا جاءت النهاية فلا تُؤَخَّر ، وهذا شيء معقول ، ولكن كيف : ولا يستقدمون ؟ إذا جاء الأجل كيف لا يستقدمون ؟ المسألة - إذن - ممتنعة مستحيلة .. كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك ؟ .. هذا لا يستقيم ، لكن يستقيم المعنى تماماً على أن :

﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٦١) [النحل]

ليست من جواب إذا ، بل تم الجواب عند (ساعة) ، فيكون المعنى : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وإذا لم يجرى لا يستقدمون . والله أعلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ
الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ (١) أَنَّ لَهُمُ النَّارَ
وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾ (٦٢)

قوله تعالى :

﴿ وَتَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. ﴾ (٦٢) [النحل]

(١) لا جرم : لا محالة ولا بُد وتحوّلت إلى معنى القسم . فصارت بمنزلة قولنا : حقا . .
[القلموس للزويم ١/١٦١] .

الأليق أن الذي يُخرج لله يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله ،
فإذا أردت أن تتصدق تصدق بأحسن ما عندك ، أو على الأقل من
أوسط ما عندك .. لكن أن تتصدق بأخس الأشياء وأرذلها .. أن
تتصدق مما تكرهه ، كالذي يتصدق بخبز غير جيد أو لحم تغير ،
أو ملابس مهلهلة ، فهذا يجعل الله ما يكره ^(١) .

والحقيقة أن الناس إذا وثقوا بجزاء الله على ما يعطيه العبد
لأعطوا ربهم أفضل ما يحبون .. لماذا ؟ لأن ذلك دليل على حبك
للآخرة ، وأنك من أهلها ، فانت تعمدها بما تحب ، أما صاحب الدنيا
المحب لها فيعطى أقل ما عنده ؛ لأن الدنيا في نظره أهم من الآخرة .

وبهذا يستطيع الإنسان أن يقيس نفسه : أهو من أهل الآخرة ، أم
من أهل الدنيا بما يعطى الله عز وجل ؟

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. ﴾ (٦١)

[النحل]

أي : مما ذكر في الآيات السابقة من قولهم :

﴿ لِلَّهِ الْبَنَاتُ .. ﴾ (٥٢)

[النحل]

وأن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، إلى غير
ذلك من أقوالهم ، وجعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات ؛ لذلك :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ سُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (٥٨)

[النحل]

والمسألة هنا ليست مسألة جعل البنات لله ، بل مطلق الجعل

(١) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ مَّا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخَرْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا
الْغَنِيَّاتَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْنُوا لَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٩٦) [البقرة] .

منهم مردود عليهم ، فلو جعلوا لله ما يحبون من الذَّكْرَانِ مَا تُقْبَلُ
منهم أيضاً ؛ لأنهم جعلوا لله ما لم يجعل لنفسه .

فَالَّذِينَ قَالُوا : عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ . وَالَّذِينَ قَالُوا : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .
لَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ لِنَفْسِهِ ، فَهَذَا
مَرْفُوضٌ ، وَذَلِكَ مَرْفُوضٌ ؛ لِأَنَّا لَا نَجْعَلُ لِلَّهِ إِلَّا مَا جَعَلَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ
سَبْحَانَهُ .

فَنَحْنُ نَجْعَلُ لِلَّهِ مَا نَحِبُ مِمَّا أَبَاحَ اللَّهُ ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿لَنْ تَأْكُلُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

وقوله :

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ .. (٨)﴾ [الإنسان]

ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ [الزخرف]

فلو كان له ولد لأمثت بذلك ، لكن الحقيقة أنه ليس له ولد ..
إِذَنْ : لَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ فِي جَعْلٍ مَا يَكْرَهُونَ لِلَّهِ بَلْ فِي مُطْلَقِ الْجَعْلِ ،
ذَلِكَ لِأَنَّا عَبِيدٌ نَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ ، وَالْعَابِدُ يَتَقَرَّبُ إِلَى الْمَعْبُودِ
بِمَا يَحِبُّ الْمَعْبُودُ أَنْ يَتَقَرَّبَ بِهِ إِلَيْهِ ، فَلَوْ جَعَلَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ شَيْئاً فَهُوَ
عَلَى الْعَيْنِ وَالرَّاسِ ، كَمَا فِي أَمْرِهِ أَنْ تُنْفَقَ مِمَّا تُحِبُّ ، وَمَنْ أَجُودُ مَا
نَمْلِكُ .

ولذلك قوله تعالى :

﴿لَنْ تَأْكُلُوا الْبَرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

﴿ ٨٠٢٧ ﴾

رَاحِ حَقَّ الْفَقِيرِ وَضَرُورَةَ أَنْ تَجْعَلَهُ كَنَفْسِكَ ، لَا يَكُنْ هَيْنًا عَلَيْكَ
فَتَعْطِيهِ أَرْدًا مَا عِنْدَكَ .. وَالْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهَا أَرَادَ أَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ
بِالنَّسْكِ وَذَبْحِ الْهَدْيِ وَالْأَضَاحِيِّ قَالَ :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (٢٨)

[الحج]

لأنك إذا علمت أنك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. ﴾ (٢٧)

[النحل]

الكذب : قضية ينطق بها اللسان ليس لها واقع في الوجود ، أي
مخالفة للواقع المشهود به من القلب .. ولماذا يشهد عليه القلب ؟

قالوا : لأنه قد يطابق الكلام الواقع ، ونحكم عليه مع ذلك
بالكذب ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١)

[المنافقون]

ياش ، أهذه القضية صدق أم لا ؟ إنها قضية صادقة .. أنت
رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله .. فلماذا شهد عليهم الحق
تبارك وتعالى أنهم (كاذبون) ؟

وفي أي شيء هم كاذبون ؟

قالوا : الحقيقة أنهم صادقون في قولهم : إنك لرسول الله ،
ولكنهم كذبوا في شهادتهم :

﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ..﴾ (٦١) [المنافقون]

لأنهم لا يشهدون فعلاً : لأن الشهادة تحتاج أن يوافق القلب اللسان ويسانده ، وهذه الشهادة منهم من اللسان فقط لا يساندها القلب .

الإنسان عُرْضَةٌ لَأَن يَقُولَ الصِّدْقَ مَرَّةً وَالْكَذِبَ مَرَّةً ، لكن هؤلاء بمجرد أن يقولوا (نشهد) فهم كاذبون ، وهذا معنى :

﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ..﴾ (٦٢) [النحل]

لأنهم حينما يقولون مثلاً : العزيز ابن الله ، المسيح ابن الله ، الملائكة بنات الله . هذه كلها قضايا باطلة ليس لها واقع يوافق منطوق اللسان .. فآلسنتهم تصف الكذب .

وإن أردت أن تعرف الكذب الذي لا يطابق الواقع فاستمع إليه فبمجرد أن يقال تعلم أنه كذب .. مثل ما حدث مع مُسَيْلِمَةَ الذي ادَّعى النبوة ، مجرد أن قال : أنا نبي قلنا : مسيلمة الكذاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿أَن لَّهُمُ الْحُسْنَى ..﴾ (٦٣) [النحل]

أى : أن الكذب فى قولهم (لهم الحسنى) فهذا اغترار وتمنُّ على الله دون حق ، ومثل هذه المقولة فى سورة الكهف ، فى قصة أصحاب الجنتين ، يقول تعالى :

﴿وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٢٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا (٢٦)﴾

[الكهف]

فهذه مقولات ثلاث كاذبة ،

قوله :

﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ (٢٥)

[الكهف]

هذه الاولى ، فكم من أشياء تغيرت ، ومن يضمن لك بقاء ما أنت فيه ، والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا ^(١) مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَشِيرُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ^(٢) ﴾ (٢٠)

[القلم]

الكذبة الثانية :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ﴾ (٢٦)

[الكهف]

فقد أنكر الساعة .

الكذبة الثالثة :

﴿ وَلَكِنْ رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٢٦)

[الكهف]

وهذا هو الشاهد فى الآية هنا ، ففيها اعتذار وتمنُّ على الله دون حق ، كمن ادعوا أن لهم الحسنى ، وهم ليسوا أهلاً لها .

وفى موضع آخر تأتي نفس المقولة :

(١) الصَّرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القلموس القويم ٢٧٥/١] .

(٢) أى : احترقت فصارت سوداء مثل الليل . وقيل : الصَّريم أرض سوداء لا تثبت شيئاً . [لسان العرب - مادة : صرم] .

﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ (٤٩)
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾ [فصلت]

وهكذا الإنسان في طبيعته أنه لا يسأل من طلب الخير ، وكلما
وصل فيه إلى مرتبة تمنى أعلى منها ، يقنط إن مسه شر ، وإن رفع
الله عنه ورحمته قال : هذا لي .. أنا أستحقه ، وأنا جدير به .. ألا
قلت : هذا فضل من الله ونعمته ، ثم بعد ذلك هو يتمنى على الله
الأماني ويقول :

﴿ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾ [فصلت]

ويروى أن سيدنا داود - عليه السلام - مع ما أعطاه الله من
الملك والعظمة أنه صعد يوماً سطح منزله ، فابتهلاه الله يسرب من
الجراد الذهب ، فحينما رآه داود جعل يجمع منه في ثوبه ، فقال له
ربه : ألم أغنك يا داود ؟ قال : نعم ولكن لا غنى لي عن فضلك^(١) .

وقوله تعالى :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ .. ﴿٦٢﴾ [التحل]

لا جرم : أي حقا أن لهم النار على ما تقدم منهم أن جعلوا الله
ما يكرهون ، وتصف السنتهم الكذب ، وهذه أفعال يستحقون النار
عليها .

وكلمة ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ منها جارم بمعنى مجرم ، فالمعنى :
لا جريمة في عقاب هؤلاء ، لأنه لا يقال على عقوبة الجريمة أنها

(١) أورده البخاري في صحيحه (٩٧٢) ، وأحمد في مسنده (٤١٢/٢) من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه ، ولكن في حق أيوب عليه السلام وليس داود . والله أعلم .

جريمة .. إذن : لها معنيان ، لا بدّ أن لهم النار ، أو لا جريمة في أن لهم النار جزاء أعمالهم .

﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (١٢)﴾ [النحل]

جاءت في كلمة مُفْرَطُونَ عدة قراءات^(١) : مَفْرَطُونَ ، مَفْرِطُونَ ، مَفْرَطُونَ ، مَفْرَطُونَ . وجميعها تلتقى في المعنى .

نحن حينما نصلي على جنازة مثلاً ، إذا كان الميت مكلفاً نقول في الدعاء له : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه .. اللهم إن كان مُحْسِنًا فزِدْ في إحسانه ، وإن كان مُسِيئًا فتجاوز عن سيئاته » . فإن كان صغيراً غير مكلف قلنا في الدعاء له « اللهم اجعله قرطاً وذخراً »^(٢) . فما معنى فرطاً هنا ؟

معناه : أن يكون الطفل قرطاً لأبويه ومُقدّمة لهما إلى الجنة .. يمرُّ بين يديّ والديه ويسبقهما إلى الجنة ، وكأنه يقدم عليهما ليُهد لهما الطريق ليغفر الله لهما .. إذن : معنى مُفْرَطُونَ أي مُقدّمون . ولكن إلى النار .

(١) قراءة (مُفْرَطُونَ) : قراءة أبي عبيدة والكسائي والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . ومعناه . متروكون منسيون في النار .

- قراءة (مَفْرَطُونَ) : قراءة نافع في رواية ورش ، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ، ومعناه . مسرفون في الذنوب والمعصية أي : أفرطوا فيها .

- قراءة (مَفْرِطُونَ) : قراءة أبي جعفر القاري . أي . مضطربون أمر الله ، فهو من التفریط في الواجب ، [ذكره القرطبي في تفسيره ٢٨١٦/٥] .

(٢) أورد البخاري في صحيحه (٢٠٣/٢ - فتح الباري) كتاب الجنائز - باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة من قول الحسن البصري : « يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب . ويقول اللهم اجعله لنا قرطاً وسلفاً وأجرأ » .

ومنه قوله تعالى عن فرعون :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ (٩٨)

[هود]

أى : يتقدمهم إلى النار .. كما كنتَ مُقَدِّمًا عليهم ، وإمامًا لهم فى الدنيا ، فسوف تتقدمهم هنا وتسبقهم إلى النار .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٣)

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يُقَسِّمُ بما يشاء على ما يشاء ، أما نحن فلا نقسم إلا بالله ، وفى الحديث الشريف : « مَنْ كَانَ حَالِفًا ، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمِتْ »^(١) .

والحق تبارك وتعالى هنا يحلف بذاته سبحانه ﴿ تَاللَّهِ ﴾ ، مثل : والله وبالله .

وقد جاء القسم لتأكيد المعنى ؛ ولذلك يقول أحد الصالحين : من أغضب الكريم حتى ألجأ أن يقسم !

وقد يؤكد الحق سبحانه القسم بذاته ، أو القسم ببعض خلقه ، وقد ينفى القسم وهو يُقَسِّمُ ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ (١)

[البلد]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الإيمان - رواية (٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه ، فقالا لهم رسول الله ﷺ : « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تطغفوا بآبائكم ، فمن كان حالفًا فلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمِتْ » .

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٨٠٣٢﴾

وقوله : ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَلَّيْكُمْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]

ومعنى : لا أقسم أن هذا الأمر واضح جليّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مُقسماً لأقسمتُ به ، بدليل قوله :

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَلَّيْكُمْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة]

إذن : الحق سبحانه يُقسم بذاته ليؤكد لنا الأمر تأكيداً ، وتأكيد الأمر عند الحكم في القضاء مثلاً : إما بالإقرار ، وإما باليمين .. فإذا ما أقسمت له وحلفت فقد سددت عليه مناقذ التكذيب .

والحق سبحانه يقول :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ .. ﴿٦٣﴾﴾ [النحل]

أى : لست بدّعاء في أن تُكذّب من قومك ، فهذه طبيعة الذين يستقبلون الدعوة من الله على السنة الرسل : لأن الرسل لا يرسلهم الله إلا حينما يطم الفساد ويعم .

ومعنى إرسال الرسل - إذن - أنه لا حلّ إلا أن تتدخل السماء ؛ ذلك لأن الإنسان فيه مناعات يقينية في ذاته ، وهي نفسه اللوامة التي تلومه إذا أخطأ وتعدّل من سلوكه ، فهي رادع له من نفسه .

فإذا ما تبدّلت هذه النفس ، وتعوّدت على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمة ، فمن لا تُردعه نفسه اللوامة يُردعه المجتمع من حوله .. فإذا ما فسد المجتمع أيضاً ، فماذا يكون الحل ؟ الحل أن تتدخل السماء لإنقاذ هؤلاء .

إذن : تتدخل السماء بإرسال الرسل حينما يعم الفساد المجتمع

كله ؛ ولذلك فامة محمد ﷺ من شرقها عند ربها أن قال لهم : أنتم مأمونون على رعاية منهجى فى ذواتكم ، لوأمون لأنفسكم ، أمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر فى غيركم ؛ لذلك لن أرسل فيكم رسولا آخر ، فأنتم سوف تقومون بهذه المهمة .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. (١١٠) ﴾
[آل عمران]

لقد آمن أمة محمد ﷺ على أن تكون حارسة لمنهجه ، إما بالنفس اللوامة ، وإما بالمجتمع الأمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، وهذا شرف عظيم لهذه الأمة .

[ذن : يأتى الرسول حينما يعمُ الفساد .. فما معنى الفساد ؟ .. الفساد : أن توجد مصالح طائفة على حساب طائفة أخرى ، فأهل الفساد والمنتفعون به إذا جاءهم رسول ليخلص الناس من فسادهم ، كيف يقابلونه ؟ أيقابلونه بالترحاب ؟ بالطبع لا .. لا بد وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار ، ويعلموا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم .

ويُتبع الحق سبحانه هذا بقوله :

﴿ فَرِيقٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَالُهُمْ .. (١١٢) ﴾
[النحل]

هنا يتدخل الشيطان ، ويَزِين لاهل الفساد أعمالهم ، ويحثهم على محاربة الرسل ؛ فهؤلاء الذين سيقضون على نفوذكم ، سوف يأخذون ما فى أيديكم من مُتَع الدنيا ، سوف يهزؤون مراكزكم ،

وَيَحِطُّونَ مِنْ مَكَانَتِكُمْ بَيْنَ النَّاسِ .. هَؤُلَاءِ سَوْفَ يَرْفَعُونَ عَلَيْكُمْ
السُّفْلَةَ^(١) وَالْعَبِيدَ ..

وَهَكَذَا يَتَمَسَّكُ أَهْلُ الْفُسَادِ وَالظُّلْمِ بِظُلْمِهِمْ ، وَيَعْضُونَ عَلَيْهِ
بِالنَّوَاجِذِ ، وَيَقْفُونَ مِنَ الرِّسْلِ مَوْقِفَ الْعَدَاءِ ، قَاطِنٌ نَفْسَكَ عَلَى هَذَا ،
فَلَنْ تُقَابِلَ مِنَ السَّادَةِ إِلَّا بِالْجُحُودِ وَبِالْإِنْكَارِ وَبِالْمُحَارَبَةِ .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَهَوِّلْ لَهُمُ الْيَوْمَ .. (٦٢) ﴾ [النحل]

أى : فى الآخرة ، فما دام الشيطان تولاهم فى الدنيا ، وزين
لهم ، وأغراهم بعداء الرسل ، فكليتولهم الآن ، وليدافع عنهم يوم
القيامة .. وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِئٌ مِنْكَ
إِنِّى أَخَافُ اللَّهََ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر]

وفى جدالهم يوم القيامة مع الشيطان يقولون له : أنت أغويتنا
وزيئت لنا .. ماذا يقول ؟ يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان هنا : إمَّا بالحجة التى تُقنع ، وإمَّا بالقهر والغلبة
والقوة التى تفرض ما تريد ، وليس للشيطان شىء من ذلك ..
لا يملك حجة يُقنعك بها لتفعل ، ولا يملك قوة يُجبرك بها أن تفعل
وأنت كاره .

(١) السفلة : نقيض العلية . وهم أراذل الناس وغوغاؤهم . [لسان العرب - مادة : سفل] .

وهكذا يجادلهم الشيطان ويرد عليهم دعواهم ، فليس له عليكم سلطان ، بل مجرد الإشارة أو قمعكم في المعصية .

وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ^(١) عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ (٤٨) ﴾

[الأنفال]

وقوله :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٩) ﴾

[النحل]

يُصِفُ الْعَذَابَ هُنَا بِأَنَّهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ مُهِلِكٌ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْعَذَابَ بِأَنَّهُ أَلِيمٌ ، عَظِيمٌ ، مُهِسِّنٌ ، شَدِيدٌ .. وَالْعَذَابُ شُعُورٌ بِالْأَلَمِ وَالْإِحْسَاسُ بِهِ ، وَقَدْ تَوَصَّلَ الْعُلَمَاءُ إِلَى أَنَّ الْإِحْسَاسَ كُلَّهُ فِي الْجُلْدِ ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِيُذَيِّمَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْعَذَابَ :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦) ﴾

[النساء]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾

(١) نكص : رجع وأحجم بعد إقدام . أي : رجع الشيطان منقهضاً إلى الوراء معنفاً بزمته من المشركين في بدر بعد أن أغرامهم بالقتال . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٧] .

فالكتاب هو القرآن الكريم .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ لَيَبَيِّنَنَّ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ .. ﴾ (٦٤)

[النحل]

دليل على أن أتباع الرسل السابقين نشأ بينهم خلاف ، فأي خلاف هذا طالما أنهم تابعون لنبي واحد ؟ ما سببه ؟

قالوا : سبب هذا الخلاف ما يُسمونه بالسلطة الزمنية ..
ولتوضيح معنى السلطة الزمنية نضرب مثلاً بواحد كان شيخاً لطريقة
مثلاً ، فلما مات تنازع الخلافة أبناؤه من بعده .. كُلُّ يريد لها ،
وأخذ يجمع حوله مجموعة من أتباع أبيه .. فلو كانت مسألة الخلافة
هذه واضحة في أذهانهم ما حدث هذا الخلاف .

وكذلك السلطة الزمنية حدثت في أتباع الرسل الذين أخذوا
يكتبون الصكوك ، ويذكرون ما يحيون وما يروونه صواباً من وجهة
نظريتهم ، كل هؤلاء كان لهم نفوذ بما تُسميه السلطة الزمنية .

فكيف - إذن - يتركون محمداً ﷺ يأخذ منهم هذه السلطة ،
ويُضيع عليهم ما هم فيه من سيادة ، فقد جاء الرسول ﷺ ليبيِّن
لهم . أى : يردّهم إلى جادة الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. ﴾ (٦٤)

[النحل]

الهدى : معناه بيان الطريق الواضح للغاية النافعة ، والطريق

لا يكون واضحاً إلا إذا خلا من الصُّعَابِ والعُقَبَاتِ ، وخلا أيضاً من المخاوف ، فهو طريق واضح مأمون سهل ، وايضاً يكون قصيراً يُوصِّلُكَ إلى غايته من أقصر الطرق .

وَضِدُّ الْهَدْيِ : الضَّلَالُ . وَهُوَ أَنْ يُضَلَّكَ ، فَإِنْ أَرَدْتَ طَرِيقاً وَجْهَكَ إِلَى غَيْرِهِ ، وَدَلَّكَ عَلَى سِوَاهُ ، أَوْ دَلَّكَ عَلَى طَرِيقٍ بِهِ مَخَافٌ وَعُقَبَاتٌ .

أما الرحمة ، فقد وصف الحق تبارك وتعالى القرآن بأنه رحمة فقال :

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ ۝٨٢ ﴾ [الاسراء]

فكيف يكون القرآن شفاءً ؟ وكيف يكون رحمة ؟

الشفاء : إذا أصابنا داء ربنا سبحانه وتعالى يقول : طيِّبُوا دَاءَكُمْ وداووا أمراضكم بكذا وكذا ، ورُدُّوا الْحُكْمَ إِلَى اللَّهِ .. هذا شفاء .

أما الرحمة : فهي أن يمنع أن يأتى الداء مرة أخرى ، فتكون وقاية تقتلع الداء من أصله فلا يعود .

ومثل هذا يحدث فى عالم الطب ، فقد تذهب إلى طبيبٍ لِيُعَالَجَكَ مِنْ دَاءٍ مُعَيَّنٍ .. بِشُورٍ فِي الْجِلْدِ مِثْلًا ، فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِمَا يَرَاهُ ظَاهِرًا ، وَيَصِفُ لَكَ مَا يَدَاوِي هَذِهِ الْبُثُورَ .. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تُعَاوِدُكَ مَرَّةً أُخْرَى .

أما الطبيبُ الْحَاقِقُ الْمَاهِرُ فَلَا يَنْظُرُ إِلَى الظَّاهِرِ فَقَطْ ، بَلْ يَبْحِثُ عَنْ سَبَبِهِ فِي الْبَاطِنِ ، وَيَحَاوِلُ أَنْ يَقْتُلَعَ أَسْبَابُ الْمَرَضِ مِنْ جَذُورِهَا ، فَلَا تُعَاوِدُكَ مَرَّةً أُخْرَى .

سُورَةُ النِّحْلِ

٨٠٣٩

ولذلك ، لو نظرنا إلى قصة أيوب - عليه السلام - وما ابتلاه الله به ترى فيها مثالا رائعا لعلاج الظاهر والباطن معا ، فقد ابتلاه ربّه ببلاء ظهر أثره على جسمه واضحا ، ولما أذن له إسبحانه بالشفاء قال له :

﴿ اِرْكُضْ^(١) بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (٤٢) [ص]

(مُغْتَسَلٌ) : أى . يغسل ويزيل ما عندك من آثار هذا البلاء .

(وَشَرَابٌ) : أى . شراب يشفيك من أسباب هذا البلاء فلا يعود .

وكذلك الحال فى علاج المجتمع ، فقد جاء القرآن الكريم وفى العالم فساد كبير ، وداءات متعددة ، لا بدّ لها من منهج لشفاء هذه الداءات ، ثم نعطىها مناعات تمنع عودة هذه الداءات مرة أخرى .
وقوله تعالى :

﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦٤) [النحل]

أى : أن هذا القرآن فيه هدى ورحمة لمن آمن بك وبرسالتك ؛ لأن الطبيب الذى ضربناه مثلا هنا لا يعالج كل مريض ، بل يعالج مَنْ وثق به ، وذهب إليه وعرض عليه نفسه ففحصه الطبيب وعرف علته .

وهكذا القرآن الكريم يسمعه المؤمن به ، فيكون له هدى ورحمة ،

(١) الركنض : الضرب بالرجل وتحريكها . قال تعالى : ﴿ اِرْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴾ (٤٢) [ص] أى : اضرب بها . [لسان العرب - مادة : ركض ، والقاموس المزيّن ١/ ٢٧٥] .

ويترك في نفسه إشراقات نورانية تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدرجات ، في حين يسمعه آخر فلا يعي منه شيئاً ، ويقول كما حكى القرآن الكريم :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ (١٦)

[محمد]

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ (٤٤)

[فصلت]

﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ^(١) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (٤٤)

[فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، ولكن الاستقبال مختلف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ (٦٥)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينقلنا إلى آية ملهية مُحسنة لا ينكرها أحد ، وهي إنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر ؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته تعالى ، وأنه مأمون على خلقه .

وكانه سبحانه يقول لهم : إذا كنتُ أنا أعطيكُم كذا وكذا ، وأوقر لكم الأمر المادي الذي يفيد عنايتي بكم ، فإذا أنزلت لكم منهجاً ينفعكم ويصلح أحوالكم فصدقوه .

(١) الوقْر : ثقل في السمع أو صمم ، [القاموس القويم ٢/ ٣٥٠] وسعناه في الآية أنهم لا يفهمون ما فيه كان في آذانهم صمماً أو ثقلًا في السمع . [انظر ابن كثير ٤/ ١٠٢] .

فهذا دليل مادى مُحَسَّنٌ يُوصِّلُهُمْ إِلَى تصديق المنهج المعنوى الذى جاء على يد الرسول ﷺ فى قوله تعالى :

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. (٨٢)﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.. (٦٥)﴾ [النحل]

هذه آية كونية مُحَسَّنة لا ينكرها أحد .

ثم يقول : ﴿فَآخِضًا بِدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا (٦٥)﴾ [النحل]

موت الأرض ، أى حالة كَوْنِهَا جَدْبَاءَ مُقْفِرَةً لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا نَبَاتَ ، وهذا هو الهلاك بعينه بالنسبة لهم ، فإذا مَا أَجْدَبَتْ الْأَرْضُ اسْتَشْرَفُوا لِسَحَابَةٍ ، لَعْمَامَةٍ ، وَانْتَظَرُوا مِنْهَا الْمَطَرَ الَّذِى يُحْيِى هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ .. يُحْيِيهَا بِالنَّبَاتِ وَالْعُشْبِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ هَامِدَةً مَيِّتَةً .

فلو قَبِضَ مَاءُ السَّمَاءِ عَنِ الْأَرْضِ لَمُتُّمْ جُوعًا ، فَخَذُوا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُحَسَّنةِ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ الْآيَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِى هِىَ مَتَهَجُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ عَلَى يَدِ رَسُولِهِ ﷺ ، فَكَمَا أَمْتَنَنِى عَلَى الْأَوَّلَى فَأَمْتَنِى عَلَى الثَّانِيَةِ .

وقوله : ﴿إِنِّ لَفِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾ [النحل]

مع أن هذه الآية تُرَى بِالْعَيْنِ وَلَا تُسْمَعُ ، قَالَ الْقُرْآنُ :

﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾ [النحل]

.. لماذا ؟

قالوا : لَأنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَتَى بِهِذِهِ الْآيَةَ لِيُفَتِّحَهُمْ إِلَى الْمَتَهَجِ الَّذِى سَيَأْتِيهِمْ عَلَى يَدِ الرَّسُولِ ﷺ ، وَهَذَا الْمَتَهَجُ سَيُسْمَعُ مِنَ الرَّسُولِ الْمُبَلِّغِ لِمَتَهَجِ اللَّهِ .

ومثال ذلك أيضاً في قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا ^(١) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١)

[الفصص]

فالضياء يُرى لا يُسمع .. لكنه قال : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ لانه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك في الليل هي السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ^٢ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ

فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٦٦)

الكون الذي خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل في الأرض والجيال والعمياء وغيرها ، ثم النباتات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفي الآية السابقة أعطانا الحق - تبارك وتعالى - نموذجاً للجماد الذي اهتزَّ بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً .. ﴾ (٦٦)

[النحل]

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار ، والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

(٢) الفَرْث : ما في الكرش من طعام مهضوم متغير كزبد الرثاعة . [القاموس الشويم] ٧٤/٢ .

معنى ، وإن اتفقا فى المعنى العام^(١)

سقى : كما فى قوله تعالى :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (٢١)

[الإنسان]

أى : أعطاهم ما يشربونه .. ومضارعه يسقى . ومنها قوله تعالى
فى قصة موسى عليه السلام :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا .. ﴾ (٢٤)

[القصص]

أما أسقى : كما فى قوله تعالى :

﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (٢٢)

[الحجر]

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس فى
حال نزوله ، ولكن ليكون فى الأرض لمن أراد أن يشرب .. فالحق
تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه ..
لا .. بل هو مخزون فى الأرض لمن أراد . والمضارع من أسقى :
يُسقى .

إذن : هناك قرئ بين الكلمتين ، وإن اتفقتا فى المعنى العام ..
وفرق بين أن تُعطى ما يُستفاد منه فى ساعته ، مثل قوله :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴾ (٢١)

[الإنسان]

وبين أن تُعطى ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما فى قوله :

(١) قاله الفراء فيما نقله عنه ابن منظور فى اللسان : العرب تقول لكل ما كان من بطون
الأنعام ومن السماء أو نهر يجرى لقوم « أسقى » ، فإذا سقاك ماء لشفتك قلوا « سقاء »
ولم يقلوا : اسقاء . [لسان العرب - مادة : سقى] .

سُورَةُ الْحَجَرِ

٨٠٤٥

﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ۖ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

لذلك يقولون : إن الذي يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطى المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ، وقد يصنعه مؤجلاً فيعطيه ما يساعده على الكسب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسبه .

والحق - تبارك وتعالى - اعطانا هذه الفكرة في سورة الكهف ، في قصة ذي القرنين ، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٢) ﴾ [الكهف]

فما داموا لا يفقهون قولاً .. فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا :

﴿ يٰۤأَيُّهَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا^(١) عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

نقول : الذي يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أن يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصل إلى طريقة للتفاهم معهم ، في حين أنه كان قادراً على تركهم والانصراف عنهم ، وحجته أنهم لا يفقهون ولا يتكلمون .

فلما أراد ذو القرنين أن يبني لهم السد لم يئن هو بنفسه ، بل علمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ، ولا يحتاجون إليه .. فقال :

(١) الخَرْجُ والخَرَجُ : ما يخرج صاحبه المال للمعامل عنده من الأجر جزاء عمله أو ما يُخرجه

من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/ ١٨٩] .

﴿آتُونِي زَبَرَ^(١) الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝ (٦٦)﴾ [الكهف]

إِذَنْ : عَلَّمَهُمْ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ إِحْسَانًا دَائِمًا لَا يَنْتَهَى .

وقوله : ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ ۝ (٦٦)﴾ [النحل]

أى : مما فى بطون الأنعام ، فقد ذُكِرَ الضمير فى (بطونه) باعتبار [إرادة الجنس] .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

﴿مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ۝ (٦٦)﴾ [النحل]

والقَرْنُ فى كرش الحيوان من فضلات طعامه .

قالعبارة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين القَرْنِ ، وهو رَوْثُ الأنعام وبقايا الطعام فى كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنْقَرٍ ، ومن بين دم ، والدم له لونه الأحمر ، وهو أيضاً غير مُسْتَسَاغٍ ؛ ومنهما يُخْرِجُ لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة القَرْنِ .

وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ ؟

وَيُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۝ (٦٦)﴾ [النحل]

(١) زَبَرَ الحديد : قطعه . الصدقان : الجبلان وقيل ما بينهما . أى : وضع بعضه على بعضه من الأساس حتى إذا حاذى به رموس الجبلين طويلاً وعرضاً قال انفخوا . والقطر : النحاس المذاب . [قاله فى تفسير ابن كثير ١٠٤/٢] .

أى : يسيغه شارب به ويستلذ به ، ولا يُقَصُّ به شارب به ، بل هو مُسْتَسَاغٌ سَهْلٌ الانزلاق أثناء الشُّرْبِ : لأن من الطعام أو الشراب ما يخلو لك ويسوغ وتها به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ۝٤١ ﴾ [النساء]

هنيئاً أى : تستلذون به ، ومريئاً : أى نافعاً للجسم ، يمرى عليك : لأنك قد تجد لذة فى شيء أثناء أكله أو شربه ، ثم يسبب لك متاعب فيما بعد ، فهو هنيئٌ ولكنه غير مريء .

فاللبن من نعم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفى إخراجه من بين قرث ودم عبرة وعظة ، وكان الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسى الذى نشاهده إلى المعنى القيمى فى المنهج ، فالذى صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قلوبنا قادرٌ على أن يصنع لنا من المنهج ما يصلح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤٧ ﴾

ثمرات النخيل هى : البلح ، والأعناب هو : العنب الذى تُسميه الكرم . والتعبير القرآنى هنا وإن امتنَّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنَّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكرًا : أى مُسكرًا ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرةً فقد نزلت هذه الآيات قبل تحريم الخمر .

وكان الآية تحمل مُقدِّمة لتحريم الخمر الذي يستحسنونه الآن
ويمستدحونه ؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذي يقرأ هذه الآية بفطنة
المستقبل عن الله يعلم أن الله حُكماً في السكر سيأتي .

كيف توصلوا إلى أن الله تعالى حُكماً سيأتي في السكر ؟

قالوا : لأنه قال في وصف الرِّزْق بأنه حسن ، في حين لم يصف
السكر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسناً ؛ ذلك لأننا نأكل
ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون
تدخل منا فيما خلق الله لنا .

أما أن تُغَيَّر من طبيعته حتى يصير خمراً مُسكرًا ، فهذا إفساد
في الطبيعة التي اختارها الله لنا لتكون رزقاً حسناً .

وكانه سبحانه يُنبِّه عباده ، أنا لا أمتن عليكم بما حرمتُ ، فانا
لم أحرّمه بعد ، فاجعلوا هذا السكر - كما ترونه - متعة لكم ، ولكن
خذوا منه عبرة أني لم أصفه بالحسن ؛ لأنه إن لم يكن حسناً فهو
قبيح . فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الأمر .

ثم يقول تعالى :

﴿إِن لِّى ذَلِكْ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧)

[النحل]

لأن العقل يقتضى أن نوازن بين الشينين ، وأن نسأل : لماذا
لم يوصف السكر بأنه حسن ؟ .. اليس معناه أن الله تعالى لا يحب
هذا الأمر ولا يرضاه لكم ؟

إذن : كان في الآية نية التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر
كان هذا تمهيداً له .

سُورَةُ النحل

﴿٨٠﴾ ﴿٨١﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾

والآية هي : الأمر العجيب الذي يُنبئكم أن الله الذي خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيتكم وقوايتكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمة الروحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

النحل خلق من خلق الله ، وكل خلق لله أودع الله فيه وفي غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

أى : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حسب ما يتناسب مع طبيعته ؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف .. فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حد التخمّة ، ثم بعد ذلك يشتكى مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإن أُجبرته على الأكل ؛ ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للغريزة في الحيوان بالحمار الذي يهتمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سقته ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة .. فإذا ما وجدها في مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع

ولم يُقدِّم عليها ، وإنَّ ضريته وصِحتَ به .. فلا تستطيع أبداً إجباره على شيء فوق قدرته .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التي جعلها الله سبحانه فيه ، على خلاف الإنسان الذي يفكر في مثل هذه الأمور ليختار منها ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ، فنستطيع أن نُشبه هذه الغريزة في الحيوان بالعقل الإلكتروني الذي لا يعطيك إلا ما غُدِّيتَ به من معلومات .. أما العقل البشري الرياني فهو قادر على التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨) ﴾

[النحل]

الحق تبارك وتعالى قد يمتنَّ على بعض عباده ويُعلِّمهم لغة الطير والحيوان ، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما في قصة سليمان عليه السلام^(١) .. والله سبحانه الذي خلقها وأبدعها يُوحى إليها ما يشاء .. فما هو الوحي ؟

الوحي : إعلام من مُعلِّم أعلى لمُعلِّم أدنى بطريق خفي لا نعلمه نحن ، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وحياً .

فالوحي إذن يقتضي : مُوحياً وهو الأعلى ، ومُوحى إليه وهو الأدنى ، ومُوحى به وهو المعنى المراد من الوحي

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَبِّكَ مُبَشِّرٌ دَاوُدَ وَقَالَ إِنَّا نَبِّئُكَ أَنَّكَ نطق الطير .. (١٧) ﴾ [النمل] وقد قال تعالى من سليمان وجنوده ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ إِنَّا أَنبَأَهَا النَّمْلَ أَنْ يَدْخُلُوا مَسَاكِنَهُمْ لَا يُحِيطُ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَنُفِثَ مِنْهَا جُحُودًا مِنْ قَرْيَةٍ .. (١٩) ﴾ [النمل].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . (٧)﴾ [الفصص]

هذا هو وَحْيُ الله إلى ما يشاء من خَلْقِه : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقربين ، إلى أم موسى ، إلى النحل .. إلخ .

وقد يكون الوحي من غيره سبحانه ، ويُسمى وَحْيًا أيضًا ، كما في قوله تعالى :

﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ . . (١٢٩)﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . . (١١٢)﴾ [الأنعام]

لكن إذا أُطْلِقَت كلمة (الوَحْي) مُطْلَقًا بدون تقييد انصرفت إلى الوحي من الله إلى الرسل : لذلك يقول علماء الفقه : الوحي هو إعلَامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتبركون الانواع الأخرى : وَحْيُ الفرائض ، وَحْيُ التَّكْوِينِ ، وَحْيُ الفطرة .. إلخ .

وقوله : ﴿أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل]

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القدم ، ومن هؤلاء باحث تتبّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصل إلى أن النحل أول ما وُجِدَ عاش في الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التي صنعها له البشر ، وهي ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووجه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصل إلى أن أقدم أنواع العسل ما وُجد في كهوف الجبال ، وقد توصلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حرق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصل إلى عمره .. وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفي لا نعلمه نحن ، وعملية الرحي تختلف باختلاف الموحى والموحى إليه ، ويمكن أن تمثل هذه العملية بالخدام الفطن الذي ينظر إليه سيده مجرد نظرة فيفهم منها كل شيء : أهو يريد الشراب ؟ أم يريد الطعام ؟ أم يريد كذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦١)

علّة كون العسل فيه شفاء للناس أن يأكل النحل من كل الثمرات ؛ ذلك لأن تنوع الثمرات يجعل العسل غنياً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شيء في الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث ؟ ترى بعض الناس يقول : أكلت كثيراً من

(١) ذللاً أى مهيأة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم ١/ ٢٤٥] .

العسل ، ولم أشعر له بفائدة .. نقول : لأننا تدخلنا في هذه العملية ، وفسدنا الطبيعة التي خلقها الله لنا .. فالأصل أن نترك النحل يأكل من كُلِّ الثمرات .. ولكن الحاصل أننا نضع له السكر مثلاً بدلاً من الزُّهْر والتوار الطبيعي ، ولذلك تتغير طعم العسل ، ولم تعد له ميزته التي ذكرها القرآن الكريم .

لذلك : فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً في سعره بين نوع وآخر ، ذلك حسب جودته ومدى مطابقته للطبيعة التي حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ ۝٦٩ ﴾

[النحل]

أى : تتقلى حُرّة بين الأزهار هنا وهناك ؛ ولذلك لا نستطيع أن نبني للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بدّ له من التنقل من بستان لآخر ، فإذا ما جفت الزراعات يتغذى النحل من عسله ، ولكن الناس الآن يأخذون العسل كله لا يتركون له شيئاً ، ويضعون مكانه السكر ليتغذى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى : ﴿ ذُلُلًا ۚ ۝٦٩ ﴾

[النحل]

أى : مُذَلَّة مُهْدَدة طيعة ، فتخرج النحلة تسعى في هذه السُّبُل ، فلا يردّها شيء ، ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لآخرى ، وهل رأيت شجرة مثلاً ردت نحلة ؟ لا .. قد ذللّ الله لها حياتها ويسرها .

سُورَةُ النِّحْلِ



ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أن ذلَّلَ لنا سُبُلَ الحياة .. ودلَّلَ لنا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .. فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبي الصغير ، ويتحكم فيه يُنيخه ، ويحمّله الأثقال ، ويسير به كما أراد ، في حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحد التحكم فيه .. وما تحكم فيه الصبي الصغير بقوته ، ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صغر حجمه يمثل خطراً يفرّج منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يذِّلَّهُ لنا ، فافزعنا على صغر حجمه .. كذلك لو تأملنا البرغوث مثلاً .. كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقض مضاجعنا ، ويحرمانا لذة النوم في هدوء .. فهل يستطيع أحد أن يذِّلَّ له البرغوث ؟!

وفي ذلك حكمة بالغة وكان الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذللت لكم شيئاً ، ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والبقيل تستطيعون الانتفاع به ، وإن لم أذِّلَّهُ لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .. إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خدّها كما خلقها الله لك .

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا .. (٦٩)﴾ [النحل]

ذلك أن النحلة تمتص الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم في بطنها عملية طهي ربانية تجعل من هذا الرحيق شهيداً مُصَقًّى : لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تنقيّه كما هو .. فلم يقل القرآن : من أفواهها ، بل قال : من بطونها .. هذا المعمل الإلهي الذي يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

[النحل]

﴿شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ.. (٦٩)﴾

ما دام النحل يأكل من كُلِّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءات مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طُعمها وروائحها .. إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

[النحل]

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ.. (٦٩)﴾

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزأهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجربون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعي كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخل الإنسان في غذاء النحل بقيت فيه فائدة ، وبقيت فيه صفة الشفاء ، وأهمها امتصاص المائبة من الجسم ، وأى ميكروب تريد أن تقضى عليه قُمُ بامتصاص المائبة منه يموت فوراً .

فإذا ما توقَّر لنا العسل الطبيعي الذى خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء ، ولكن إذا تدخل الإنسان في هذه العملية أفسدها .. فالكون كله الذى لا دخل للإنسان فيه يسير سيراً مستقيماً لا يتخلف ، كالشمس والقمر والكواكب .. إلخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذى يخرج عن منهج الله .

فالشئ الذى لك دخل فيه ، إما أن تتدخل فيه بمنهج خالقه أو تتركه ؛ لأنك إذا تدخلت فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير ، وإن تدخلت فيه بمنهجك أنت أفسدته .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١﴾

[البقرة]

إنهم لا يعرفون .. لا يفرقون بين الفساد والصلاح .

وفى القرآن أمثلة للناس الذين يفسدون فى الأرض ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، يقول تعالى :

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾

[الكهف]

فالذى اخترع السيارة وهذه الآلات التى تنفث سمومها وتلوث البيئة التى خلقها الله .. صحيح وفّر لنا الوقت والمجهود فى الحمل والتقل ، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عطب بسبب هذه الآلات .. انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان .

كان يجب على مخترع هذه الآلات أن يوازن بين ما تؤديه من منفعة وما تسببه من ضرر ، وأضف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مروعة تزهق بسببها الأرواح .. وبالله هل رأيت أن تصادم جملان فى يوم من الأيام .. فلا بُدَّ إذن أن نقيس المنافع والأضرار قبل أن نُقدم على الشيء حتى لا نُفسد الطبيعة التى خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ٦٦﴾

[النحل]

الناس : جَمْعٌ مُخْتَلَفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب

الداءات ، فكيف يكون في هذا الشراب شفاءً لجميع الداءات على اختلاف أنواعها ؟.. نقول : لأن هذا الشراب الذي أعدّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه .. من رحيق مُتَعَدِّدِ الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر .. ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس ، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس ، وتنوع الداءات عندهم .. وكان كل عنصر منه يُداوي داءً من هذه الداءات .

وقوله تعالى :

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩) [النحل]

التَّفَكَّرُ : أَنْ تُفَكِّرَ فيما أنت بصددہ لتستنبط منه شيئاً لست بصددہ ، وبذلك تُثري المعلومات ؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها تولد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحى ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء ؛ لأن الارتقاءات التى تراها فى الكون هى نتيجة التَّفَكُّر وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألا نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار .. يقول تعالى :

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥) [يوسف]

ففى الآية حثٌّ على التَّفَكُّر فى ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذى اخترع الآلة البخارية .. كيف توصل إلى هذا الاختراع الذى أفاد البشرية ؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القدر الذى يغطى على النار يرتفع غطاؤه مع بخار الماء المتصاعد أثناء الغليان .. فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء ؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة فى تسيير ودفع العربات .

وكذلك أرشميدس - وغيره كثيرون - توصلوا بالاعتبار والتفكير فى ظواهر الكون ، إلى قوانين فى الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة نتمتع نحن بها الآن ، فالذى اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان فى حَمْلِ الأثقال ؟ وما أقصى ما يمكن أن يحمله ؟ فبعد أن اخترعوا العجلات واستخدمت فى الحمل تمكن الإنسان من حَمْلِ وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذى اخترع خزانات المياه .. كم كانت المشقة فى استخراج الماء من البئر ؟ أو من النهر ؟ فبعد عمل الخزانات وضخ المياه أصبحنا نجد الماء فى المنازل بمجرد فتح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبر ، وحينما يفكر فى ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التى خلقها الله وحكنا على التفكير فيها والاستنباط منها .. وكان الحق سبحانه يقول لنا : لقد أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإن أردتم ترف الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدبر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لفتة أخرى .. وهى أنه سبحانه يجعل

من المحسّات ما يُقَرِّبُ لَنَا المعنويّات ليلفِتْنَا إلى منهجه سبحانه :
ولذلك ينقلنا هذه النُّقْلة من المحسوس إلى المعنوي ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ^(١)
لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (٧٠)

قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. ﴾ (٧٠) [النحل]

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يدّعها أحد لنفسه ، وقد أمّدكم
بمقوّمات حياتكم فى الأرض والنبات والحيوان ، الأنعام التى تعطينا
اللبن صافياً سليماً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذى فيه شفاء
للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مقوّمات الحياة ، وأعطانا
ما يزيل معائب الحياة .. وما دُمْتُمْ صدّقتم بهذه المحسّات فاسمعوا :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ .. ﴾ (٧٠)

[النحل]

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعتزّف أن الله خلقنا ، ولكن
كيف خلقنا ؟ هذه لا نعرفها نحن ؛ لأنها ليست عملية معملية .. فالذى

(١) أَرْدَلُ الْعُمُرِ : هو الذى يَخْرُفُ من الكِبَرِ حتى لا يعقل ، وبَيَّنّه بقوله : ﴿ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ
عِلْمٍ شَيْئًا .. ﴾ [الحج] ، [لسان العرب - مادة : رذل] . وقال على بن أبى طالب
رضى الله عنه : أَرْدَلُ الْعُمُرِ : خمس وسبعون سنة [ذكره السيوطى فى الدر المنثور
١٤٦/٥] .

خالق هو الحق سبحانه وحده ، وهو الذى يُخبرنا كيف خلق .. أما أن يتدخل الإنسان ويُقحم نفسه فى مسألة لا يعرفها ، فنرى من يقول : إن الإنسان أصله قرد .. إلى آخر هذا الهراء الذى لا أصل له فى الحقيقة .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول لنا : إذا أردتم أن تعرفوا كيف خلقتُم فاسمعوا ممن خلقكم .. إياكم أن تسمعوا من غيره ؛ ذلك لأثنى :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ .. (٥١) ﴾
[الكهف]

هذه عملية لم يُطلع الله عليها أحداً :

﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾
[الكهف]

أى : ما اتخذتُ مساعداً يعاوننى فى مسألة الخلق .

وما هو المضل ؟ المضل هو الذى يقول لك الكلام على أنه حقيقة ، وهو يضلُّك .

إذن : ربنا سبحانه وتعالى هنا يعطينا فكرة مُقدِّماً : احذروا ، فسوف يأتى أناس يضلُّونكم فى موضوع الخلق ، وسوف يُغيِّرون الحقيقة ، فإياكم أن تُصدِّقوهم ؛ لأنهم ما كانوا معى رقت أن خلقتكم فيدَّعون العلم بهذه المسألة .

ونفس هذه القضية فى مسألة خلق السموات والأرض ، فإله سبحانه هو الذى خلقهما ، وهو سبحانه الذى يُخبرنا كيف خلق .

فحين يقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. (٧٠)﴾

[النحل]

فعلينا أن نقول : سَمْعًا وطاعة ، وعلى العين والرأس .. يا رب أنت خلقتنا ، وأنت تعلم كيف خلقتنا ، ولا تسأل في هذا غيرك ، ولا تُصدق في هذا غير قولك سبحانه .

ثم يقول تعالى :

﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ .. (٧١)﴾

[النحل]

أى : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع .. وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين ؛ فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين ؛ لأنه لا يليق بك ذلك ، فانت منه وإليه .. فلماذا التمرد ؟

ربنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه في أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين في بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يُرَدُّ إلى أرذل العمر ، أى : يعيش عمراً طويلاً .. وماذا في أرذل العمر ؟

يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أن كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتَلِلاً ، يُرَدُّ إلى الضَّعْف في كل شيء ، حتى في أُمُيز شيء في تكوينه ، في فكره ، فبعد العلم والحفظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شيء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتية فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضى علينا بالموت فهذا رحمة بنا وسر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعيننا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنَّا نأمره .

ومن هنا كان التوفى نعمة من نعم الله علينا ، ولكي تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدَّ الله في أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن « أرذل العمر » وما يعانونه من ضعف وما يعانيه ذوهم في خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذي قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُستبشراً بالموت ؛ لأنه عمُر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذي لم يُعدِّ العدة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزَعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْفٌ للعطف يفيد الترتيب مع التراخي .. أي : مرور وقت بين الحدثين .. فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدث الثاني (يتوفاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أي : تتابع الحدثين ، كما في قوله تعالى :

﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (٢١)

[عبر]

فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى :

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ ۖ﴾ (٧٠) [النحل]

وأردل العمر : اردؤه وأقله وأخسه : ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، فقال : .

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ﴾ (٧٨) [النحل]

وهذه هي وسائل العلم في الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أَرْدَلِ العمر فقدت هذه الحواس قدرتها ، وضعف عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخرف والهرم ، فقد توقفت آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : ﴿لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۖ﴾ (٧٠) [النحل]

لذلك يُسَمُّونَ هذه الحواس الوارث^(١) .

ويُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧١) [النحل]

لأنه سبحانه بيده الخلق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلب علماً ، كما قال سبحانه :

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ۖ﴾ (١٤) [المك]

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : « اللهم آمِئْتَعْنِي بِسَمْعِي وَبِصَرِّي ، واجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي » قال ابن شميل : أمر أبقيهما معي صحيحين سليمين حتى أموت ، [لسان العرب - مادة : ورث] .

فلا بُدَّ من علم ، لأن الذى يصنع صنعة لا بُدَّ أن يعرف ما يصلحها وما يفسدها ، وذلك يتطلب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٧١)

لو نظرنا إلى الكون من حولنا لوجدنا أننا لا تتساوى إلا فى شيء واحد فقط ، هو أننا عبيد لله .. نحن سواسية فى هذه فقط ، وما دون ذلك فنحن مختلفون فيه ، تختلف ألواننا ، تختلف أجسامنا .. صورتنا .. مواهبنا .. أرزاقنا ..

والعجيب أن هذا الاختلاف هو عينُ الاتفاق ؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثلاً : إذا دخلت أنت وصديقك أحد المطاعم وطلبتما دجاجة .. أنت بطبيعتك تحب صدر الدجاجة وصديقك يحب جزءاً آخر منها .. هذا خلاف .. فساعة أن يأتى الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوافق حيث تأخذ أنت ما تحب ، وهو كذلك .. هذا خلاف أدى إلى وفاق .. فلو فرضنا أن كلانا يحب الصدر مثلاً .. هذا وفاق قد يؤدي إلى خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أينما يأخذ الصدر ؟!

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين فى أشياء ، وأراد أن يكون

هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .. فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجدَ إنسانٌ مجمَعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بناء بيت مثلاً كان هو المهندس الذي يرسم ، والبنّاء الذي يبني ، والعامل الذي يحمل ، والنجار والحداد والسيّاح .. الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ .. لا ..

ولكن الخالق سبحانه تَرى هذه المواهب بين الناس تُترأى لكى يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل فى الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَيْنُ الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جلّ وعلاً ، فقال :

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾

[هود]

فقد خلقنا هكذا .

ولاً فلو اتحدنا واتفقنا فى المواهب ، فهل يعقل أن تكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمّن يبني ؟ ومّن يزرع ؟ ومّن يصنع ؟ .. الخ
إذن : من رحمة الله أن جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

﴿فِي الرِّزْقِ .. (٧٦)﴾

[النحل]

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنى وهذا فقير .. والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كلّ

شئ تنتفع به فهو رِزْقك .. فهذا رِزْقُه عَقْلُه ، وهذا رِزْقُه قُوته العضلية .. هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألا ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخلق من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حِلْم ، شجاعة .. كل هذا من الرزق الذي يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهِمًا ، ولم تحدد الآية مَنْ الفاضل وَمَنْ المفضول ، فكلمة - يَعْضُ - مُبْهِمة لفهم منها أن كل بعض من الأبعاد فاضل في ناحية ، ومفضول في ناحية أخرى .. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة .. وهكذا .

إذن : فكل واحد من خلق الله رَزَقَه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر في الناس حتى يتكامل الخلق ولا يتكررون .. وإذا وجدت موهبة في واحد وكانت مفقودة في الآخر فالمصلحة تقتضي أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة .. كيف ؟

القوى يعمل للضعيف الذي لا قوة له يعمل بها ، فهو إذن فاضل في قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليَقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أن يجعل الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التي يستبقى بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتى هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضلاً من أحد على أحد ؛ لأن التفضل غير مُلْزَم به - فليس كل واحد قادراً على أن يعطى دون مقابل ، أو يعمل دون أجر .. إنما الحاجة هى التى تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذى ربط المجتمع ؟ هى الحاجة لا التفضل ، وما دام العالم سيُرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً فى ناحية لا يغترُ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندكُ سِمَة الكبرياء فى الناس ، فكلُّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغنى صاحب العظمة والجاه .. والذى قد تُلجِثه الظروف وتُحوِّجه لعامل بسيط يُصلح له عَطْلاً فى مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نكدًا مُؤرَقاً حتّى يُسَعِّفه هذا العامل البسيط ، ويقضى له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أن يقضى مثل هذه المهام البسيطة فى المنزل .. وهو فى نفس الوقت فاضل على الباشا فى هذا الشيء .

فالجميع - إذن - فى الكون سواسية ، ليس فىنا مَنْ بيته وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله .. كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهب فى الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كلُّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط فى المجتمع .

وقد عَرِضَتْ هذه القضية فى آية أخرى فى قوله تعالى :

﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا﴾ (٣٢)
[الزخرف]

البعض يفهم أن الفقير مُسَخَّر للغنى ، لكن الحقيقة أن كلا منهما مُسَخَّر للآخر .. فالفقير مُسَخَّر للغنى حينما يعمل له العمل ، والغنى مُسَخَّر للفقير حينما يعطى له أجره ..

ولذلك فالشاعر العربى يقول :

النَّاسُ لِلنَّاسِ مِنْ يَدِي وَحَاضِرَةٌ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ
وتضرب هنا مثلاً بأخس الحرف فى عُرف الناس - وإن كانت
الحرف كلها شريفة ، وليس فيها خِسة طالما يقوت الإنسان منها
نفسه وعباله من الحلال .. فالخِسة فى العاقل الأخرق الذى لا يُتَقَنُ
عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم
أفضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورتيش التى
يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء
يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشتري علبة
الورتيش هذه .. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا
العامل البسيط .

فقوله تعالى :

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا..﴾ (٣٢) [الزخرف]

مَنْ مَّنَّا يُسَخَّرُ الْآخِر ١٩ كُلُّ مَّنَّا مُسَخَّرٌ لِلْآخِر ، أَنْتَ مُسَخَّرٌ لِي
فِيمَا تَتَّقَنهُ ، وَأَنَا مُسَخَّرٌ لَكَ فِيمَا أَتَّقَنهُ .. هَذِهِ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ لِيَتِمَّ
التَّوَازُنُ وَالتَّكَامُلُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجْتَمَعِ .

وَرَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ هَذِهِ الْمِهَنَ طَبِيعِيَّةً فَيُنَا .. يَعْنِي
هَذَا لَكُنَا وَهَذَا لَكُنَا .. لَا .. الَّذِي يَرْضَى بِقَدْرِ اللَّهِ فِيمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ عَمَلٍ
مُهْمَا كَانَ حَقِيرًا فَيَنْظُرُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُتَّقَنُ هَذَا الْعَمَلَ وَيَجْتَهِدُ فِيهِ
وَيَبْذُلُ فِيهِ وَسْعَهُ يَقُولُ لَهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ : مَا دُمْتُ رَاضِيَةً بِقَدْرِي فَي
هَذَا الْعَمَلِ لَأَرْفَعَنَّكَ بِهِ رِفْعَةً يَتَعَجَّبُ لَهَا الْخَلْقُ ..

وَفِعْلًا تَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى أَحَدِهِمْ وَيَشِيرُونَ إِلَيْهِ : كَانَ شَيْئًا ..
كَانَ أَجِيرًا .. نَعَمْ كَانَ .. لَكِنَّهُ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ وَاتَّقَنَ وَأَجَادَ ،
فَعَوَّضَهُ اللَّهُ وَرَفَعَهُ وَأَعْلَى مَكَانَتِهِ .

وَلِذَلِكَ يَقُولُونَ : مَنْ عَمِلَ بِإِخْلَاصٍ فِي أَيِّ عَمَلٍ عَشْرَ سَنِينَ
يُسَيِّدُهُ اللَّهُ بِقِيَّةِ عَمْرِهِ ، وَمَنْ عَمِلَ بِإِخْلَاصٍ عَشْرِينَ سَنَةً يُسَيِّدُ اللَّهُ
أَبْنَاءَهُ ، وَمَنْ عَمِلَ ثَلَاثِينَ سَنَةً سَيِّدُ اللَّهُ أَحْفَادَهُ .. لَا شَيْءَ يَضِيعُ عِنْدَ
اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

فَلَيْسَ فَيُنَا أَعْلَى وَأَدْنَى ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّكَ أَعْلَى مِنَ النَّاسِ ،
نَحْنُ سَوَاسِيَةٌ ، وَلَكِنْ مَّنَّا مَنْ يُتَّقَنُ عَمَلَهُ ، وَمِنَّا مَنْ لَا يُتَّقَنُ عَمَلَهُ ؛
وَلِذَلِكَ قَالُوا : قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ .

وَلَا تَنْظُرْ إِلَى زَاوِيَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى مَجْمُوعِ
الزَّوَايَا ، وَسَوْفَ تَجِدُ أَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ عَادِلٌ فِي تَقْسِيمِ الْمَوَاهِبِ عَلَى
النَّاسِ .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلةَ بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوي مجموع كُلِّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة .. الخ لوجدتَ نصيب كُلِّ مَنَّا في نهاية المعادلة يساوي نصيب الآخر ، فانت تزيد عنى فى القوة ، وأنا أزيد عنك فى العلم ، وهكذا .. لأننا جميعاً عبيدُ الله ، ليس مَنَّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. ﴾ (٧١)

[النمل]

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك .. والمعنى : أننا لم نَرِ أحداً منكم فضله الله بالرزق ، فأخذه وورَّعَه على عبيده ومماليكه ، أبداً .. لم يحدث ذلك منكم .. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أن يُورَّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن فى الآية إقامة للحجة عليهم ، واستدلال على سوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى^(١)

وكان القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فَضَّلَ بعضكم فى

(١) عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى تصارى نجران حين قاتوا عيسى ابن الله .. فقال الله لهم : ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ .. ﴾ [النمل] قال القرطبي فى تفسيره (٢٨٦٨/٥) : أى : لا يرد للمولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى الحال شرعاً سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم ، فتجعلون لى ولعاً من عبيدى ..

الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، وورَّعه على عبیده ؟ ..
أبدأ .. لم يحدث منكم هذا .. فكيف تأخذون حق الله في العبودية
والألوهية وحقه في الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه
للأصنام والأوثان ؟

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون .. فكيف تسمحون لأنفسكم أن
تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى في آية أخرى :

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ
شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. ﴾ (٢٨)

[الروم]

أى : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟
فهذه لُقطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ (٧١)

[النحل]

أى : أنكم سويُّتم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم
شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإن رزقنا وفضلنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا
الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطي أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ،
فإذا ما طلب منك أن تعطي أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من
زكاة يقول لك :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ﴾ (٢٤)

[البقرة]

مع أن الحق سبحانه وأحب الرزق والتَّعم ، يطلب منك أن

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

○ ٨٠٧٣ ○

تُقْرِضُهُ ، وكأنه سبحانه يحترم عملك ومجهودك ، ويحترم ملكيتك الخاصة التي وهبها لك .. فيقول : أقرضني . لعلمه سبحانه بمكانة المال في النفوس ، وحرص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقرض ، فجعل القرض له سبحانه لتثق أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ أَفَبِعَمَلِهِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴾ (٧١) [النحل]

آى : بعد أن أنعم الله عليهم بالرزق ، ولم يطلب منهم أن ينتروه على الخير ، جحدوا هذه النعمة ، وأنكروا فضل الله ، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان ، وأخذوا حق الله في العبودية والألوهية وأعطوه للأصنام والأوثان ، وهذا عين الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَقْبَالِ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢)

الحق سبحانه في الآية السابقة قدّن لنا قضية القمة - قضية العقيدة - في أننا لا نعطي شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والألوهية والطاعة وغيرها ، لا نعطيها لغيره سبحانه .. وإذا صحت هذه القضية العقدية صحت كل قضايا الكون .



سُورَةُ النِّحْلِ

٨٠٧٤

ثم بين سبحانه أنه خلقنا من واحد ، ثم خلق من الواحد زوجة له ، ليتم التناسل والتكاثر .. إذ إن استمرار بقائكم خاضعَ لأمرين :

الأمر الأول : استبقاء الحياة ، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق ، فئاكل وتشرب فنستبقى الحياة ، فبعد أن تحدث عن استبقاء الحياة بالرزق في الآية السابقة ذكر :

الأمر الثاني : وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع ، فقال سبحانه :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٧٢)﴾ [النحل]

والأزواج : جمع زوج ، والزوج لا يعنى الرجل فقط ، بل يعنى الرجل والمرأة ؛ لأن كلمة (زوج) تُطلق على واحد له نظير من مثله ، فكل واحد منهما زوج .. الرجل زوج ، والمرأة زوج ، فتطلق - إذن - على مفرد ، لكن له نظير من مثله .

و ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ .. (٧٢)﴾ [النحل]

أى : من نفس واحدة ، كما قال فى آية أخرى :

﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (٦)﴾ [الزمر]

يعنى : أخذ قطعة من الزوج ، وخلق منها الزوجة ، كما خلق سبحانه حواء من آدم - عليهما السلام .

أو : ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا .. (٦)﴾ [النساء]

أى : من جنسها ، كما قال تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة]

أى : من جنسكم .

فالمسألة تحتمل المعنيين .. مَنْ اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضلع آدم أى : منه ، من بعضه فلا مانع ، وَمَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خلقاً مستقلاً ، ثم زَوَّجَ بينهما بالزواج فلا مانع .. فالأول على معنى البُعْضية ، والثانى على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمة أحاداً .. كما لو قال المعلم لتلاميذه : أخرجوا كتبكم ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جمع . وكتبهم جمع ، فهل سيُخرج كل تلميذ كُتُب الآخرين ؟ لا .. بل كل منهم سيُخرج كتابه هو فقط .. إذن : القسمة هنا تقتضى أحاداً .. وكذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ۚ ﴾ (٢١)

[الروم]

أى : خلق لكل منكم زَوْجًا .

ولكى نتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخلق بدأ بآدم عليه السلام - نردُّ الأشياء إلى الماضى ، وسوف نجد أن كُلَّ متكاثر فى المستقبل يتناقص فى الماضى .. فمثلاً سَكَّان العالم اليوم أكثر من العام الماضى .. وهكذا تتناقص الأعداد كلما أوغلنا فى الماضى ، إلى أن نصلَ إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام - ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه :

﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۚ ﴾ (١)

[النساء]

كلام صحيح يؤيده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربُّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أنْ جعلَ هذا الزوجَ من أنفسنا ، وليس من جنسٍ آخر ، لأنَّ إلفَ الإنسانِ وأنسَه لا يتمُّ إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوَّرَ الحالَ إذا جعلَ الله لنا أزواجاً من غير جنسنا !! كيف يكون ؟!

هذا الزوج اشتراكٌ معنا في أشياء ، واختلف عنا في شيء واحد ، اتفقنا في أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عياناً وأذنان .. يديان ورجلان .. الخ . وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأنس والألفة .

واختلفنا في شيء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جتمعنا جنس ، وفرقنا النوع ليتمَّ بذلك التكامل الذي أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوَّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثدي صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دُعيت الحاجة لتغيير النوع .. فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ (٧٧)

[النحل]

ليزداد الإلف والمحبة والأنس والمودة بينكم ؛ ولذلك تجد في

قصة سيدنا سليمان عليه السلام - والهدد ، حينما تفقد الطير وعرف غياب الهدد قال :

﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾
[النمل]

وهذا سلطان الملك الذي أعطاه الله لسليمان .. قالوا في :

﴿لَأَعَذِّبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١)﴾
[النمل]

أى : يضعه في غير جنسه .. إذن : وضعه في غير جنسه نوع من العذاب^(١) .. وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفي الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾
[الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاث لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كلُّ منهما إلى الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته .. فإذا ما امتزت هذه الدرجة ونفرا أحدهما من الآخر جاء دور المودة والمحبة التي تعمك بزمان الحياة الزوجية وتوفر ل كليهما قدراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة، فيرحم كل منهما صاحبه .. يرحم ضعفه .. يرحم مرضه .. وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عرضة للعواصف في رحلة الحياة .

(١) ومن أنواع العذاب أيضاً ما ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٢٦٠) والسيوطي في الدر المنثور (٦/٢٤٩) أن ينفخ ريشه ويتركه للنمل يأكله .

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل ، فلم يَعُدْ بينهما سَكَنٌ ولا مَوَدَّةٌ ،
ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالت بينهما العِشْرَةُ ، وأصبح
من الحكمة «فارقة أحدهما للآخر» .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ،
ومع ذلك جعله ربنا سبحانه أبغض الحلال^(١)، حتى لا نقدم عليه إلا
مُضْطَرَّين مُجْبَرَيْن .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .. ﴾ (٧٢) [النحل]

البنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفدة وهم وكْدُ
الولد ، هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ؛ ذلك لأن الإنسان بطبيعته
يحب الحياة ويكره الموت ، وهو يراه كل يوم يحصد النفوس من
حوْله .. فأيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقَّن أن الحياة تفوته
فى نفسه أراد أن يستبقيها فى وكْدِهِ .. ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين
مَنًا ، للذكور الذين يُمثّلون امتداداً للأباء .

فإذا ما رزقه الله الأبناء ، وضمن له الجيل الأول تطّلع إلى أن
يرى أبناء الأبناء ؛ ليستبقى الحياة له ولولده من بعده ؛ ولذلك
فالشاعر الذى يخاطب ابنه يقول له :

أَبْنَى .. يَا أَنَا بَعْدَمَا أَقْضَى^(٢)

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « أبغض الحلال إلى الله عز وجل
الطلاق » . أخرجه أبو داود فى سننه (٢٦٧٨) وابن ماجه فى سننه (٢٠٦٨) .

(٢) قضى الرجل نحب : استوفى أجله ومات . قال تعالى : ﴿ فَبَيْنَهُمْ مَّنْ قُضِيَ نَحْبُهُ .. ﴾ (٧٢)
[الأحزاب] مات أو استشهد . [القاموس القويم ١٢٢/٢] .

سُورَةُ النِّحْلِ

٧٩-٨

وهذه هي نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذُكِرَ لهم بعد موتهم ..
وكان اسمه موصولاً لا ينتهى .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً .. ﴾ (٧٢) [النحل]

تدلُّنا على ضرورة الحرص على اندماج الأجيال .. زوجين ، ثم
أبناء وحفدة .. فما فائدة اندماج الأجيال ؟ ما فائدة المعاصرة
والمخالطة بين الجد وحفيده ؟

نلاحظ أن الوليد الصغير يبدأ عنده الإدراك بمجرد أن تعملَ
وسائل الإدراك عنده ، فيبدأ يلتقط ممَّنْ حوله ويتعلَّم منهم .. فإذا
كان له إخوة أكبر منه تعلَّم منهم مثلاً أباً ، أما .. فإذا لم يكنْ له
إخوة تُعلِّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الطفل الثانى أذكى من الأول ، والثالث أذكى من
الثانى .. وهكذا لأنه يأخذ ممَّنْ قبله وممَّنْ حوله ، فيزداد بذلك
إدراكه ، ويزداد خبراته ومعلوماته .

ولنتصور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجاء الحفيد الذى يعاصر
الجيلين ؛ جيل الأب وجيل الجد ، يشبَّ الصغير فى أحضانهما ، فتراه
يأخذ من أبيه نشاطه فى حركة الحياة وسَعْيِهِ للرِّزْقِ .

فى حين أنه يأخذ من جدِّه القيم الدينية حيث الجد فى البيت
باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فأقبل على الطاعة والعبادة .. فيسمع
منه الصغير قراءة القرآن .. متى يؤذن للظهر .. يا ولد هات

المصحف .. يا ولد هات السجادة لأصلى ، إلى غير هذه من الكلمات التي يأخذ منها الصغير هذه القيم .

إذن : الحفيد يلتقط لونا من النشاط والحركة في جيل أبيه ، ويلتقط لونا من القيم في جيل جدّه ؛ ولذلك فإن ابتعاد الأجيال يُسبّب نقصاً في تكوين الأطفال ، والحق سبحانه يريد أن تلتحم الأجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .

وقوله تعالى :

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ .. (٧٦) ﴾ [النحل]

الطيبات في الرزق الذي جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفي الزواج الذي جعله الله لاستبقاء النوع .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِصْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٧) ﴾ [النحل]

الباطل : هو الأصنام التي اتخذوها من دون الله .

وفي الآية استفهام للتعجب والإنكار .. كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم في البدء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .. وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً .. وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نعم الحياة ما يستبقى حياتكم ، ومن نعم الأزواج ما يستبقى نوعكم ، وجعلكم في نعمة ورفاهية .. خلقكم من عدم ، وأمدكم من عدم .

سُورَةُ النِّحْلِ

٨٠٨١

أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبديل أن تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع .. وهل عملت لكم الأصنام شيئاً من ذلك ؟! هل أنعمت عليكم بنعمة من هذه النعم ؟!

هذه الأصنام محتاجة إليكم .. تأخذ منكم ولا تعطيكُم .. فهذا مائل يريد من يقيمه .. وهذا كُسر يحتاج لمن يصلحه .. انقل الإله .. ضع الإله في مكان كذا .. الخ .

ولذلك يقول تعالى في الآية بعدها :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ٧٣

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضي تنفيذ الأمر واجتناب النهي .. فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهي فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة في الحياة تُعين على عبادة فهي عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية تضرب هذا المثل :

إذا أردت أن تؤدى فرض الله في الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولتأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يدّ شاركت فيه منذ كان حبة قمح تلقى في الأرض إلى أن أصبح رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية في الحياة هي في حدّ ذاتها عبادة لأنها أعانتك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أن تُصلّى ، فراجع عليك أن تستر عورتك .. انظر إلى هذا القماش الذي لا تتم الصلاة إلا به .. كُلُّ مَنْ أسهم في زراعته وصناعته حتى وصل إليك .. جميعهم يؤدّون عبادة بحركتهم في صناعة هذا القماش .

إذن : كل شيء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة في الكون تؤدي إلى شيء من هذا فهي عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩)﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا الْبَيْعَ) .. لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُستهلك .. ولم يقل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتي ثمرتها في ساعتها .. فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيع صناعته .. لكن البيع صفقة حاضرة ، فهي محل الاهتمام .. وكذلك لم يقل : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيع ، ولكن المشتري قد يشتري وهو

كاره .. فأتى القرآن بأدق شيء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعى في
مناكب^(١) الأرض :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ
اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

ف قوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [النحل]

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التي يُؤثرونها على الله ..
وهي الأصنام .. فبالله سبحانه الذي خلقهم ورزقهم من الطيبات ،
وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة .. كان يجب
أن يعبدوه لتعظيمه وفضله .. فالذي لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبد
لنعمه وحاجته إليه .. فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة
لذاته ، وعبادة لصفات الذات في معطياتها ، فمن لم يعبد ذاته عبده
لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضي تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي .. فكيف
تكون العبادة إذن في حق هذه الأصنام التي اتخذوها ؟ كيف
تعبدون لها وهي لم تأمركم بشيء ولم تنهكم عن شيء ؟

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل : طرقها . وقيل : جوانبها . قال الأزهري - أشبه التفسير
والله أعلم تفسير من قال : في جبالها . لأن قوله : ﴿ عُوذِيْ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولاً .. (١٠) ﴾
[المائدة] معناه : سهل لكم السلوك فيها ، فامكنكم السلوك في جبالها . فهو أبلغ في
التذليل . [لسان العرب - مادة : تكب] .

وهذا أول نُقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك .. ماذا تُعطى الأصنام - أو غيرها من معبوداتكم - لمن عبدها ، وماذا أعدتُ لهم من ثواب ؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ .. إذن : فهو إله بلا منهج .

والتدين غريزة في النفس يلجأ إليها الإنسان في وقت ضعفه وحاجته .. والله سبحانه هو الذى يحب أن تلجأ إليه وتدعو وتطلب منه قضاء الحاجات .. وله منهج يقتضى مطلوبات تدكُ السيادة والطغيان في النفوس ويقتضى تكاليفات شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمكَّ إنسان في إله ويقول : أنا أعبدُه دون أن يأمر بشيء أو ينهى عن شيء ! ما أسهل أن يُرضى في نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألا تنسوا أن هذا الإله الذى ليس له تكليف لن تستطيعوا أن تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه في شدة .. فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبون منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نفْعاً ولا ضرراً .

لذلك وجدنا الذين يدعون النبوة .. هؤلاء الكذابين يُيسرون على الناس سبيل العبادة ، ويبيحون لهم ما حرّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الاتباع .

فجاء مسيلمة الكذاب وأراد أن يُسهّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة .. وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضِيقُونَ بالتكليف ، ويميلون لدين سهّل يناسب مَمَمَهُم الدُّنْيَا .

ومكنا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يؤيدونهم ويتأصرونهم .. ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخذوعون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا...﴾ (٧٣) [النحل]

نلاحظ في هذه الآية نوعاً من الارتقاء في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم في آية أخرى :

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٧٤) [النحل]

فنفى عنهم القدرة على الخلق ، بل إنهم هم المخلوقون .. يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيه معوله حتى يُصوّره على صورة ما ، ثم يتخذها إلهاً يعيده من دون الله .

فلما نفى عنهم القدرة على الخلق أراد هنا أن يترقى في الاستدلال ، فنفى عنهم مجرد أن يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فنقّرر الآية هنا أنهم لا يملكون .. مجرد الملك .

وقوله تعالى :

﴿ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ۚ ۞ ﴾ (٧٣)

[التحد]

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصيرين يأتي رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مقومات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإن أردتم ترف الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مقومات الحياة لتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقي المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فأنبت لنا نبات الأرض . .

ونوضح ذلك فنقول : هب أن عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضك الجوع في يوم من الأيام .. هل تستطيع أن تأكل من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن في حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة .. رغيف العيش الذي يحفظ لك حياتك في هذا الموقف أفضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذي رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رزق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أي : أقل ما يُقال له شيء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قل ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رزقاً يكفيهم .. لا .. بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٧٣)

[النحل]

أى : لا يملكون لهم رزقاً فى الحاضر ، ولن يملكوا فى المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهم لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وقتاً .. وأشياء معلقة يمكن أن تستأنف فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٧٣)

[النحل]

حكم قاطع لا استئناف له فيما بعد .

ولذلك : نجد هؤلاء الذين يحيون أن يجدوا فى القرآن مأخذاً يجادلون فى قوله تعالى^(١) :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَأَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

فهؤلاء يرون فى السورة تكراراً يتنافى وبلاغة القرآن الكريم .. نقول : ليس فى السورة تكرار لو تأملتم .. ففى السورة قطع علاقات على سبيل التأييد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ (٦) ﴾

[الكافرون]

(١) ذكر الواحدى فى ، أسباب النزول ، ص ٢٦١ فى سبب نزول هذه السورة أن رجلاً من قريش قالوا : يا محمد ألم اتبع ديننا ومنتجع دينك . تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركتك فيه ولخذنا يحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال - معاذ الله أن أشرك به غيره - فأنزل الله تعالى ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (٦) ﴾ [الكافرون] .

في الحاضر ، وفي المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾

[الكافرون]

هذا قَطْعُ علاقات في الوقت الحاضر .. ولكن مَنْ يُدْرِينا لعلنا

نستأنف علاقات أخرى فيما بعد .. فجاء قوله تعالى :

﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل في إعادة العلاقات في المستقبل ،

فالقضية - إذن - منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى في قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾

[التحل]

أي : لا يستطيعون الآن ، ولا في المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضُرُّهُ أُمُّ الْإِيمَانِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾

الأمثال : جمع مثل ، وهو النَّد والتَّظْهير .

وفى الآية نَهَى عن أَنْ تُشَبَّهَ الله سبحانه بشيء آخر ؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله ..
إياك أن تقول عن ذات : إنها تشبه ذاته سبحانه ، أو صفات تشبه صفاته سبحانه ، فَإِنْ وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر فاعلم أنها على مقياس :

[انشورى] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١)

فالحق سبحانه ينهانا أَنْ نضرب له الأمثال ، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال ؛ لأنه حكيم يضرب المثل فى محله ليُوضح القضية الفامضة بالقضية المشاهدة ؛ ولذلك يقول تعالى :

[النحل] ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ..﴾ (٦٠)

أى : الصفة العليا فى كل شيء ، فإذا وجدت صفات مشتركة بينكم وبين الحق سبحانه فنزّه الله عن الشبيه والنظير والنّد والمثيل وقل : (ليس كمثله شيء) .

فأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك مسبوقٌ بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه العدم .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه ليُوضح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثلاً لنوره كما نظن .. بل هو مثل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى فى سورة النور :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَاهُ﴾^(١) فِيهَا مِصْبَاحُ
الْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ^(٢) يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ
يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

[النور]

نور السماوات والأرض : لأنه بالنور تكون الهداية حسية
أو معنوية .. فالنور الحسي مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من
مصادر الضوء .. هذا النور الحسي هو الذي يبين لك الأشياء لتسير
في الكون على بصيرة وهدى .. فلو حاولت السير ليلاً دون ضوء
يهديك فسوف تصطدم بالأشياء من حولك : إما أقوى منك تحطمك
ويؤذيك ، وإما تكون أنت أقوى منه فتحطمه أنت .. فالذي يهدى
خطاك هو النور الحسي .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القيم والأخلاق ، وهذا النور
يجعلك أيضاً تسير في الحياة على بصيرة وهدى ، ويحميك من
التخبط في مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور القيمي الذي
أنزله الله لنا في كتابه الكريم ، وقال عنه :

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو
عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

(١) المشكاة هي النكوة ، الطاقة ، التي ليست بنافذة ، [لسان العرب - مادة - شكا] .

(٢) الكوكب الدرّي - هو الكوكب الشديد البريق واللمعان - [القاموس الثوميم ٢٢٦/١] .

رِضْوَانُهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

[المائدة]

فهو نور لكن معنوى .. بالقيم والأخلاق والفضائل .. ولا ثقل في هذا المثل : إنه مثل لنور الله .. بل مثل لسلطان تنويره للكون ، ولو تأملنا بقية الآية لادررنا ذلك .

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ۖ (٣٥)﴾

[النور]

البعض يقولون : المشكاة هي المصباح .. لا .. المشكاة هي الكوة أو الطاقة المسدودة في الجدار يعرفها أهل الريف في بناياتهم القديمة ، وهي تجويف غير نافذ في الجدار يُوضَع فيه المصباح .

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ (٣٥)﴾

[النور]

أى : ليس مصباحاً عادياً بل في زجاجة ، وهي تحمي ضوء المصباح أن يبعثره الهواء من كل ناحية ، وفي نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافي من الهواء لاستمرار الاشتعال ، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دخان يُعَكِّرُ صفو الزجاجاة .

وأهل الريف يعرفون شمعة الجاز التي ليس لها زجاجة ، وما يصدر عنها من دخان أسود ضار .. إذن : المصباح هنا في غاية الصفاء والقوة ! لأن الزجاجاة أيضاً ليست زجاجاة عادية ، بل زجاجاة كأنها كوكب دُرّى ، وكَوْنُهَا كالكوكب الدرّى يعنى أنها تُضَيِّئُ بنفسها .

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۖ (٣٥)﴾

[النور]

هذا المصباح يُوقد بزيت ليس عادياً ، بل هو زيت من زيتونة ..
شجرة زيتون معتدلة المناخ .

﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ.. (٣٥)﴾ [النور]

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقاء أنه يُضيء ، ولو لم تَمْسَسْه
نار ؛ ولذلك أعطانا منتهى القوة :

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ.. (٣٥)﴾ [النور]

ولذلك قال تعالى في وصف هذا المصباح :

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ.. (٣٥)﴾ [النور]

وبعد أن وقفت على أوصاف هذا المصباح ، وأنه يُوضَع في كُوَّة
صغيرة ، يا الله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة في هذه الكُوَّة ؟

إن : فهذا مُثَلٌّ ليس لتوره سبحانه .. فتوره لا يُدْرِكُ ، وإنما هو
مُثَلٌّ لتنويره للكون ، الذي هو كالكُوَّة والطاقة في هذا المثل .. فمعنى
قوله تعالى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.. (٣٥)﴾ [النور]

أي : مُنُورُهُمَا ، فكما أنه لا يَعْقِل وجود نقطة مظلمة في هذه
الكُوَّة ، فكذلك توره سبحانه وتنويره للكون .. وهذا هو النور الحسى
الذى أمد الله به الكون .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوى الذى يُنْزِل على عباد
الله الصالحين تجليات نورانية ، وفيوضات ربانية نتلقاها في بيوت
الله :

سُورَةُ النَّحْلِ

○ ٨-٩٣ ○

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ (٢٦) رِجَالٌ (٢٧) ۝ ﴾ [النور]

وهكذا تجمع بين النور الحسى والنور المعنوى ﷻ

ولذلك ، قابو تمام^(١) حينما أراد أن يمدح الخليفة شُبَّهه بمشاهير
العرب في الشجاعة والكرم والحلم والذكاء ، فقال :

إِقْدَامِ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فِي حِلْمٍ أَحْتَفٍ فِي ذُكَاةِ إِيَّاسٍ
فاعترض على هذا التشبيه أحد حُصَّادِ أَبِي تمام ، وقال له : كيف
تُشَبِّه الخليفة بأجلاف العرب ؟ ففي جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن
خَزَنَتِهِ ألف واحد كحاتم .. ولكي يخرج أبو تمام من هذا المأزق ،
وَيُفْلِتَ من هذا الفخ الذي نصب له حاسده ، قال على البديهة :

لَا تُنْكِرُوا ضَرْبِي لَهُ مِنْ دُونِهِ مَثَلًا شَرُّودًا فِي النَّدَى وَالْيَاسِ^(٢)
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ^(٣)
والحق سبحانه وتعالى وإنْ نهانا تحن أن نضرب له مثلاً لِقَلَّةِ
عِلْمِنَا ، فهو سبحانه القادر على ضَرْبِ الأمثال حتى بِأَقْلَى المخلوقات ،
وَأَنْفِهَا فِي نَظَرِنَا .. فيقول تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَرَقَهَا .. (٢٦) ۝ ﴾
[البقرة]

(١) هو حبيب بن أرس الطائي ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠هـ) ، نشأ نشأة متواضعة
حيث كان يعمل صبيًا لحاكمه ، توفي ٢٢١ هـ عن ٥١ عامًا
(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السفاه والكرم . واليَّاس : القوة
والحرب .
(٣) النبراس : التصباح والسراج . والمشكاة : كوة في جدار البيت ليست بناقذة وتعرف في
قرانا بـ « الحافاة » مع نطق الحاف همزة .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة . ولا تستحقّر أن يجعلها الله مثلاً ؛
لأنه سبحانه لا يستحي أن يضرب بها المثل ؛ لأن في هذه البعوضة
كل أجهزة تكوين الحياة التي فيك ، وفي أضخم الحيوانات مثل الفيل
والجمل ؛ ولأن هذه البعوضة التي تستحقّرها قد تكون أقوى منك ،
قد تُعجزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى :

﴿وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَعِذُّوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمُطْلُوبُ﴾ (٧٣)

[الحج]

يا الله عليك . هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أن تستردّ من
الذّابة ما أخذته من طعامك ؟ هل تقدر على هذه العملية ؟

إذن : حينما يضرب الله لك مثلاً يجب أن تحترم ضَرْبَ الله
للمثل ، وأن تبحث فيما وراء المثل من الحكمة .. وأنه سبحانه جاء
بهذا المثل لهذا المخلوق الحقيق في نظرك ليُوضّح لك قضية غامضة
يُنَبِّهك إليها .

ولاهمية ضَرْبِ المثل في توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء
ليُقرّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة
لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة ..
مثل قضية الحاسد الذي يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد
يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً في رفّعه بين قومه .

أخذ الشاعر العربي هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً
توضيحياً ، فقال :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَّحَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ
 لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طَيْبُ عَرَفٍ^(١) الْعُودِ
 فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها
 الرجل العادي ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها
 أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُسُوهُ صورتك ، فإذا بالحقبة
 تتكشف للجميع ويظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل ..
 وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذي لا نشم رائحته إلا إذا
 حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثل الشعري أن أحد أهل الخير كان يتردد
 من حين لآخر على أحد بيوت البلدة وبها عجوز مقعدة في حاجة إلى
 مساعدة . فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى
 الجميلات التي قد تكون مطمعا .. فاستغل أحد الحُساد هذه الجيرة ،
 واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسنة .. وفعلاً تتبعه
 الناس ، فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة .. ومن هنا عرف الناس
 عنه فضيلة لم يكن يعرفها أحد .

وقد رأينا على مرّ التاريخ من اتهموا ظلماً ، وقيل في حقهم
 ما يندى له الجبين .. ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال
 يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم
 ومكارمهم .

(١) العَرَفُ : الريح ، طيبة كانت أو خبيثة . والعود : هو الذي يُتَبَخَّرُ به . والعود : خشبة كل
 شجرة ، دق أو غلط . [لسان العرب - مادتا : عرف ، عود] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧١) [النحل]

وهذه علة النهى عن ضَرْبِ الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال ؛ لأنه سبحانه يعلم ، ويأتى بالمثل فى محله .

وبعد أن هيأنا ربنا سبحانه لتلقى الأمثال ، وأعد أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه .. أتى بهذا المثل .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ
وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَارِ رِزْقِ اللَّهِ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا
هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٠)

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان :

الطرف الأول : عبد : أى مولى ، وصفه بأنه مملوك التصرف ، وأنه لا يقدر على شيء من العمل ؛ ذلك لأن العبد قد يكون عبداً ولكنه يعمل ، كمن تسمع له بالعمل فى التجارة مثلاً وهو عبد ، وهناك العبد المكاتب الذى يتفق مع سيده على مال يُؤديه إليه لينال حريته ، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمع المال المتفق عليه .. فهذا عبد ، ومملوك ، ولا يقدر على شيء من السعى والعمل .

والطرف الثانى : سيد حر ، رزقه الله وأعطاه رِزْقاً حسناً أى :

سُورَةُ النِّحْلِ

8097

حلالاً طيباً .. ثم وفقه الله للإنفاق منه بشتى أنواع الإنفاق : سرّاً وجَهراً .. وهذه منزلة عالية : رَزَقَ من الله وصفه بأنه حلال طيب لا شُبُهَة فيه ، بعد ذلك وفقه الله للإنفاق منه .. كُلُّ حَسْبٍ ما يناسبه ، فمن الإنفاق ما يناسبه السُّرُّ ، ومنه ما يناسبه الجَهْرُ :

﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَبِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُزَوِّرُهَا الْمُقَرَّرَاءُ فَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ..﴾ (٢٧١) [البقرة]

هذان هما طرفا المثل المضروب لنا .. ويترك لنا السياق القرآني الحكم بينهما .. وكان الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب ، إلا إذا كان الجواب سيأتى على وفق ما يريد .. ولا جواب يُعقل لهذا السؤال إلا أن نقول : لا يستون .. وكان الحق سبحانه جعلنا نتطق نحن بهذا الحكم .

وقد ضرب الله هذا المثل لعبدة الأصنام ، الذين أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، فمثل الحق سبحانه الأصنامَ بالعبيد المملوك الذى لا يقدر على شيء .

وضرب المثل الآخر للسيد الذى رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سرّاً وجَهراً ، ألم تَرَ إلى قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿وَأَسْبَغْ^(١) عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (٢٨) [لقمان]

(١) اسبغ الله النعمة : أتمها ورُسّعها . [القاموس القويم - مادة : سبغ] . وشيء سبغ . كامل واقف . وسبغت النعمة : اتسعت . [لسان العرب - مادة : سبغ] .

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ فِي الانْتِصِرَافِ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعَ مَا أُعْطَاهُمْ مِنْ رِزْقٍ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تُعْطِيهِمْ شَيْئًا .

وَمِنْ هَذَا تَتَضَحُّ الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَرَكَ الْحُكْمَ بِنَفْسِهِ فِي هَذَا الْمَثَلِ ، وَأَتَى بِهِ عَلَى صُورَةِ سَوَالٍ لِيَأْخُذَ الْحُكْمَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَيَشْهَدُوا هُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ؛ لِيَقْطَعَ عَلَيْهِمْ سَبِيلَ الْإِنْكَارِ وَالْجِدَالِ .

وَلَنَا هُنَا وَقْفَةٌ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ .. (٧٥) ﴾ [النحل]

فَالْحَدِيثُ عَنْ مُثْنَى ، وَكَانَ الْقِيَاسُ أَنَّ يَقُولُ : هَلْ يَسْتَوِيَانِ ، فَلِمَاذَا عَدَلَ عَنِ الْمُثْنَى إِلَى الْجَمْعِ ؟

نَقُولُ : لِأَنَّ الْمَثَلَ وَإِنْ ضُرِبَ بِمُفْرَدٍ مُقَابِلَ مُفْرَدٍ إِلَّا أَنَّهُ يَنْطَبِقُ عَلَى عَدِيدِينَ .. مُفْرَدٌ شَائِعٌ فِي عَدِيدِ مَمْلُوكِينَ ، وَفِي عَدِيدٍ مِنَ السَّادَةِ أَصْحَابِ الرِّزْقِ الْحَسَنِ ، ذَلِكَ لِيُعْمَمَ ضَرْبُ الْمَثَلِ .

إِذَنْ : لَيْسَ فِي اخْتِلَافِ الضَّمِيرِ هُنَا مَا يَتَعَارَضُ وَبَلَاغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، بَلْ هِيَ دِقَّةُ آدَاءٍ ؛ لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات]

بَعْضُهُمْ يَرَى فِي الْآيَةِ مَأْخُذًا ، حَيْثُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْمُثْنَى ، ثُمَّ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ فِي (اقْتَتَلُوا) ، ثُمَّ تَعُودُ لِلْمُثْنَى فِي (بَيْنَهُمَا) .

نَقُولُ لَهُؤُلَاءِ : لَوْ تَدَبَّرْتُمُ الْمَعْنَى لَعَرَفْتُمْ أَنَّ مَا تَتَخَذُونَهُ مَأْخُذًا ،

وتعتبرونه اختلافاً في الأسلوب هو منتهى الدقة في التعبير القرآني ..
ذلك أن الحديث عن طائفتين : مُسْتَتَى .. نعم .. فلو تقاتلا ، هل
ستمسك كل طائفة سيفاً لتقاتل الأخرى ؟

لا .. بل سيمسك كل جندي منها سيفاً .. فالقتال هناك
بالمجموع .. مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى ، فناسب أن
يقول : اقتتلوا ؛ لأن القتال حركة ذاتية من كل فرد في الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصلح ، هل نصالح كل جندي من هذه على
كل جندي من هذه ؟ لا .. بل الصلح شأن السادة والزعماء والقادة
لكل طائفة ، ففي الصلح تعود للمستتي ، حيث ينوب هؤلاء عن
طائفة ، وهؤلاء عن طائفة ، ويتم الصلح بينهما .

إذن : اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البياني ؛ لأن
المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٧٥) ﴾ [النحل]

كان الحق سبحانه يقول : الحمد لله أن وافق حُكْمكم ما أريد ،
فقد نطقتم أنتم وحكمتم .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا
ما يُسمونه « صيانة الاحتمال » ؛ لأنه لما نزل القرآن الكريم كان
هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكِّرون في الإيمان واعتناق
هذا الدين ، فلما نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ،

وربما صرفهم عما يفكرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون
الاحتمال في أن أناساً منهم عندهم علم ، ويرغبون في الإيمان .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ
عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ
لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٧٦)

وهذا مثل آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والأبكم هو الذي لا يتكلم ..
ولا بد أن يسبق البكم صمٌّ : لأن الكلام وليد السمع ، فإذا أخذنا
طفلاً عربياً وربناه في بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس
صحيح : ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً ، بل هو وليد
البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان .. فإذا لم يسمع شيئاً
فكيف يتكلم ؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار :

﴿ صُمُّ بَكْمٌ ﴾ (١٨)

[البقرة]

هذا الأبكم لا يقدر على شيء من العمل والنفع لك ، يقول تعالى :

- (١) البكم : أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر . وهو أخرس بين الخرس . [لسان
العرب - مادة - بكم] .
(٢) لكّل : العاجز الثقيل لا خير فيه . كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ .. ﴾ (٧٦) [النحل]
وهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ١٦٩/٢] .

﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ .. ﴾ (٧٦) [النحل]

أى : عالة على سيده ، لا ينفع حتى نفسه ، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضى بها شيئاً لسيده ، حتى هذه ليست عنده .

﴿ أَيْنَمَا يُوْجِهُهُ لَا يَأْتِ بَخِيرٍ .. ﴾ (٧٦) [النحل]

إذن : لا خير فيه ، ولا منفعة البتة ، لا له ولا لغيره ، هذه صفات الرجل الاول .

لماذا عن مقابله ؟

﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ .. ﴾ (٧٦) [النحل]

وهذه اول صفات الرجل الآخر ، أنه يأمر بالعدل ، وصفة الامر بالعدل تقتضى أنه سمع منهجاً ، ووعته أذنه ، وانطلق به لسانه أمراً بالعدل ، وهذه الصفة تقابل : الايكم الذى لا يقدر على شيء .

﴿ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٧٦) [النحل]

أى : أنه يذهب إلى الهدف مباشرة ، ومن أقصر الطرق ، وهذه تقابل : أينما يوجهه لا يأت بخير .

والسؤال هنا أيضاً : هل يستويان ؟ والإجابة التى يقول بها العقل : لا .

وهذا مثل آخر للأضنام .. فهى لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تفصح ، وهى لا تقدر على شيء لا لها ولا لعابديها .. بل هى عالة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها

وَيَنْصِبُونَهَا ، وَيُصْلِحُونَ كَسْرَهَا ، وَهَكَذَا هُمُ الَّذِينَ يَخْدُمُونَهَا
وَلَا يَنْتَفِعُونَ مِنْهَا بِشَيْءٍ .

فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تُسَوِّونَ بَيْنَ الرَّجُلِ الْأَوَّلِ وَالرَّجُلِ الْآخِرِ الَّذِي يَأْمُرُ
بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، فَكَيْفَ تُسَوِّونَ بَيْنَ إِلَهٍ لَهُ صِفَةُ
الْكَمَالِ الْمَطْلُوقِ ، وَأَصْنَامٍ لَا تَمْلِكُ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟

أَوْ نَقُولُ : إِنَّ هَذَا مِثْلٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْحَقَّ سَبَّحَانَهُ
فِي الْمِثْلِ السَّابِقِ قَالَ :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا .. ﴾ (٧٥)

[النحل]

وَفِي مِقَابِلِهِ قَالَ :

﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا .. ﴾ (٧٥)

[النحل]

وَلَمْ يَقُلْ عَبْدٌ أَوْ رَجُلٌ .

إِنَّمَا هُنَا قَالَ : ﴿ رَجُلَيْنِ .. ﴾ (٧٦)

[النحل]

فَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْهُ أَنَّهُ مِثْلٌ لِلرَّجُلِ الْكَافِرِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ الْإِبْرَاهِيمُ ،
وَالرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ، وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ .

وَالْحَقُّ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ :

﴿ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ
إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٧٧)

سورة الحديد

○ ٨١.٢ ○

أراد الحق سبحانه أن يُعلمنا أن العالم منه عالم الملك ، ومنه عالم الملكوت .. عالم الملك هو العالم المحسّس لنا ، وعالم الملكوت المخفى عنا فلا نراه .

ولذلك ، فرمينا سبحانه وتعالى لما تكرم على سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قال :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٧٥)

[الأنعام]

إذن : الله تعالى في كونه ظاهر وغيب .. الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبية لا يراها أحد ، ولا يطلع عليها .. حتى في ذاتك أنت أشياء غيب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غيب لا تعرفها أنت .. وهذا الغيب تُسمّيه : غيب الإنسان .

إذن : فإنا غائب عنى أشياء ، وغيرى غائب عنه أشياء .. هذا الغيب الذى لا نعرفه يقدّه بعض الناس نقصاً فينا ، وهو فى الحقيقة نوع من الكمال فى النفس البشرية ؛ لأنك إن أردت أن تعلم غيب الناس فاسمح لهم أن يعلموا غيبك .

ولو خيّرت فى هذه القضية لاخترت أن يحتفظ كل منكم بغيبه لا يطلع عليه أحد .. لا أعرف غيب الناس ، ولا يعرفون غيبى ؛ ولذلك يقولون : « المغطى مبيع » .

فسرّ الغيب كمال فى الكون ؛ لأنه يُرى ويثرى الفائدة فيه .. كيف ؟

مبّ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسّنات ، ثم اطلعت على

سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسوف ترى هذه السيئة كفيلة بأن تُزهدك في كل حسناته وتُكرهك فيه ، وتدعوك إلى النفرة منه ، فلا تستفيد منه بشيء ، في حين لو سترت عنك هذه السيئة لاستطعت الانتفاع بحسناته .. وهكذا ينمى الغيبُ الفائدة في الكون .

وفي بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه :

« يَا بَنِي آدَمَ سَتَرْتُ عَنْكَ وَسَتَرْتُ مِنْكَ ، فَإِنْ شِئْتَ فَضَحْنَا لَكَ وَفَضَحْنَاكَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَسْبَلْنَا عَلَيْكَ سِتْرَ السَّيْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(١)

فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار ؟

أعتقد أن الجميع سيختار الستر .. فما دُمْتَ تحب الستر وتكره أن يُطلع الناس على غيبك فإياك أن تتناول لتعرف غيب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسنة من السمع والبصر والشَّمِّ والدُّوق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غيب وضع الله في كونه مقدمات تُوصِّلُ إليه وأسباباً لئلا يكون غيباً .. كالكهرباء والجاذبية وغيرها .. كانت غيباً قبل أن تُكتشف .. وهكذا كل الاكتشافات والأسرار التي يكشفها لنا العلم ، كانت غيباً عنا في وقت ، ثم صارت مُشاهدة في وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كل أسرار كونه مرة واحدة ، بل ينزله بقدرٍ ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ (٢٦)

[الحجر]

(١) لم أتف على هذا الأثر رغم طول البحث ، ولكن قد أخرج الحكيم الترمذي عن الحسن مرسلاً والعقيلي عنه من أنس . قال الله تعالى : أنا أكرم وأعظم عقولاً من أن أستر على عبد مسلم في الدنيا ثم أفضحه إذ سترته ، ولا أزال الجفَر لعبدى ما استغفرنى ، وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤/٤٠٥) وضعفه .

فالذى كان غَيْبًا فى الماضى أصبح ظاهرًا مُشَاهِدًا اليوم ؛ لان الله سبحانه كشف لنا أسبابه فتوصلنا إليه .. فهذا غَيْب جعل الله له مَقْدَمَات يصل إليها مَنْ يبحث فى الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحين وقت ميلاده وفق الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ فى المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثت فى كُلِّ المخترعات والمكتشفات لوجدت ٩٠٪ منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما تسميه « غيب الأكوان » .

ومثال هذا الغيب : إذا كلفت ولدك بحل تمرين هندسى .. ومعنى حل التمرين أن يصل الولد إلى نقطة تريد أنت أن يصل إليها .. ماذا يفعل الولد ؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطِيَات ، ثم يستخدم ما لديه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يأت بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة فى الكون هى المعطيات مَنْ بحث فيها توصل إلى غيبيات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾

[البقرة]

فلِذَا أَدْنَىٰ اللَّهُ لَهُم تَكْشِفَتْ لَهُم الْأَسْرَارُ : إما بالبحث ، وإما بالخطأ ، أو حتى بالمصادفة .. فطالما حان وقت ميلاد هذا الغيب واكتشافه : فإن صادف بحثاً من البشر التقيا ، وإلا أظهره الله لنا دون بحث ودون سعي منا .

وهناك نوع آخر من الغيب ، وهو الغيب المطلق ، وهو غيب عن كل البشر استأثر الله به ، وليس له مُقَدِّمات وأسباب تُوصِلُ إليه ، كما في النوع الأول .. هذا الغيب ، قال تعالى في شأنه :

﴿عَنِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ (٢٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ۖ (٢٧)﴾ [الجن]

فإذا ما أعلمنا الرسول غيباً من الغيبات فلا نقول : إنه يعلم الغيب .. لأنه لا يعلم إلا ما أعلمه الله من الغيب .. إذن : هذا غيب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغيب المطلق غيبُ استأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحداً حتى الرسل .. ولما سئل الرسول ﷺ عن الساعة ، قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »^(١) .

وفي الإسراء والمعراج يحدثنا ﷺ أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، وعاء خيره فيه فلا يعطيه إلا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو في حية رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

سُورَةُ النُّحْلِ

○ ٨١٠٧ ○

لأهل الاستعداد السلوكي الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله ﷺ .

ولذلك يقول راوى الحديث : إن رسول الله ﷺ أعطاني وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثته أي رويته وقلته للناس ، وأما الآخر فلو بُحْتُ به لَقُطِعَ خلقومي هذا ، فهذا من الأسرار التي يختار الرسول ﷺ لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٧)﴾ [النحل]

هذا يُسمونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أي قصر غيب السموات والأرض عليه سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٧)﴾ [النحل]

أي : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض : أي : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .. (٧٧)﴾ [النحل]

جاءت الآية بهذا الغيب الوحيد : لآله الغيب الذي استأثر الله به ..

وَلَا يُجَلِّيهَا لَوَقْتَهَا إِلَّا هُوَ .. فَنَاسِبَ الْحَدِيثِ عَنِ الْغَيْبِ أَنْ يَأْتِيَ بِهَذَا
الْغَيْبِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ .

وما هو لَمَحَ البصر ؟

عندنا أفعال متعددة تدلُّ كُلُّهَا عَلَى الرُّؤْيَا الْعَامَّةِ ، وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ
مِنْهَا مَعْنَى خَاصَّةٌ بِهَا نَقُولُ : رَأَى وَنَظَرَ وَرَمَقَ وَلَحَظَ وَلَمَحَ .. فَرَأَى
مِثْلًا أَيْ بَجُمُوعِ عَيْنِهِ ، وَرَمَقَ بِأَعْلَى ، وَلَحَظَ بِجَانِبٍ ، فَكُلُّهَا مَرْتَبِطَةٌ
بِحَرَكَةِ الْحَدَقَةِ ، هَذِهِ الْحَرَكَةُ مَا نَسْمِيهِ بِاللَّمَحِ .

إِذَنْ : لَمَحَ الْبَصَرُ هُوَ تَحَرُّكُ حَدَقَةِ الْعَيْنِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّيْءِ
الْمَرْتَبِيِّ .. فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَرَى مَا فَوْقَكَ تَحْرِكُ الْحَدَقَةَ إِلَى أَعْلَى ، وَإِنْ
أَرَدْتَ أَنْ تَرَى مَا هُوَ أَسْفَلَ تَحْرِكُ الْحَدَقَةَ إِلَى أَسْفَلَ وَمِثْلًا .

هَذِهِ الْحَرَكَةُ هِيَ لَمَحَ الْبَصَرِ ، انْتِقَالَ الْحَدَقَةِ مِنْ وَضْعٍ إِلَى
وَضْعٍ .

إِذَنْ : شَبَّهَ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرَ السَّاعَةِ عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ بِلَمَحِ
الْبَصَرِ ، وَلَكِنَّ اللَّامَ حَدَثٌ ، وَالْأَحْدَاثُ تَحْتَاجُ إِلَى أَوْزَانٍ ، وَقَدْ تَطَوَّلَ
الْأَوْزَانُ فِي ذَاتِهَا وَلَكِنَّهَا تَقْصُرُ عِنْدَ الرَّأْيِ .

وَقَدْ قَرَّبَ إِلَيْنَا الْعِلْمُ الْحَدِيثَ هَذِهِ الْقِصَصِيَّةُ بِمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ مِنْ
إِعَادَةِ الْمَشَاهِدِ الْمَصُورَةِ عَلَى الْبَطْنِ لِيُعْطِيكَ فُرْصَةً مَتَابَعَتِهَا بِدَقَّةٍ ،
فَنَرَاهُمْ مِثْلًا يُعِيدُونَ لَكَ مَشْهُدًا كَرَوِيًّا لَتَرَى كُلَّ تَفَاصِيلِهِ ، فَتَجِدَ
الْمَشْهُدَ الَّذِي مَرَّ كَلِمَ الْبَصَرِ يُعْرَضُ أَمَامَكَ بِطَيِّبَةٍ فِي زَمَنِ أَطْوَلَ ،

فى حين أن الزمن فى السرعة يتجمع تجمعا لا تتركه أنت بأى معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن : فهى جزئيات حركة فى جزئيات زمان ، فلمح البصر الذى هو تحرك حذقة العين تحتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمر الساعة ، بل هذا أقرب ما يعرفه الإنسان ، وأقرب تشبيه لقهم أمر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قيل لك : ما أمر فلان ؟ وما شأنه ؟ . تأخذ فى سرد الأحداث .. حدث كيت وكيت .. فإذا قلنا : ما أمر الساعة ؟ ما شأنها ساعة تقوم ، حيث يموت الأحياء أولا ، ثم يحيا الجميع من لذن آدم عليه السلام ثم حشر وحساب وثراب وعقاب .

أحداث كثيرة وعظيمة لخلق متعددين من الإنس والجن .. يحدث هذا كله كلمح البصر بالنسبة لنا ، ولكن إياك أن تتصور أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

فالأشياء بالنسبة له سبحانه لا تعالج ، وإنما هى كن فيكون ، حتى كن مكونة من حرفين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أمر الساعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقل من هذا فى فهمنا .

والحق سبحانه وتعالى حيما تكلم عن أهل القبور ، قال :

﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٤٦) [النازعات]

فى حين أننا نرى أنهم غابوا كثيراً فى قبورهم .. إذن : كيف يُقاسُ الزمن ؟ .. يُقاس بتتابعك للأحداث ، فحينما لا يوجد حَدَث لا يوجد زمن .. وهذا ما نراه فى حال النائم الذى لا يستطيع تحديد الزمن الذى نامه إلا على غالب ما يكون فى البشر .

ولذلك ، فى قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مائة عام وتسعة أعوام قالوا :

﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..﴾ (١١٣) [المؤمنون]

فهذا هو الغالب فى عُرْف الناس : ذلك لأنهم استيقظوا فلم يجدوا شيئاً حولهم يدل على زمن طويل .. الحال كما هو لم يتغير فيهم شيء .. فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيئاً بعد أن كانوا فتية لَعلموا بمرور الزمن .. إذن : الزمن بالنسبة لعدم الحدث زمن مكفى .

أو نقول : إن أَمْر الساعة فى أن الحق سبحانه يجعلها جامعة للناس إلا كلمح البصر ، فكل ما يحدث فيها لا تقيسه بزمن ، لأن الذى يُقاسُ بالزمن إنما هى الأحداث الناشئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن .

فلو أردتَ نُقل هذا الشيء من هنا إلى هنا فسوف يحتاج منك وقتاً ومجهوداً ، أما لو كلفتَ طفلاً بنقل هذا الشيء فسوف يأخذ وقتاً أكثر ويحتاج مجهوداً أكثر .. إذن : فالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً .

ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدث الناس بالإسراء والمعراج^(١) قالوا : أتدعى أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً .. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومزاولة ، تأخذ وقتاً يتناسب وقدراتهم في الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس .. ومحمد ﷺ لم يقل : أسريت ، بل قال : أسرى بي ، الذي أسرى به هو الله سبحانه ، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى ،

وكذلك إذا قيسَ زمن أمر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر ، أو هو أقرب من ذلك .. إنما هو تشبيه لنقرب لكم الفهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٧٧) [النحل]

أى : يكون أمر الساعة كذلك ؛ لأن الله قادر على كل شيء ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات ، فقدرته الله هي القدرة العليا التي لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث .

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) حديث الإسراء أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٢) كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٦٢) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إني أسرى بي الليلة » قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين قهقرائنا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على راسه مستعجب للكتاب . رُغم . قال : وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ « الحديث بطوله .

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

(مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) المراد الأرحام ؛ لأنها في البطون ،
والمظروف في مظروف يعتبر مظروفاً ، كما لو قلت : في جيبى كذا
من النقود أو في حافظتى كذا من النقود .. العبارتان معناهما واحد .
وأمهاتكم : جمع أم ، والقياس يقتضى أن نقول فى جمع أم :
أمات ولكنه قال :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ (٧٨) [النحل]

بزيادة الهاء .

وساعة يكون الجنين فى بطن أمه تكون حياته حياة تبعية ، فكل
أجهزته تابعة لأمه .. فإذا شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية
مستقلة .. وعند الولادة نرى أطباء التوليد يقولون : الجنين فى
الوضع الطبيعى أو فى غير الوضع الطبيعى .. فما معنى الوضع
الطبيعى للجنين عند الولادة ؟

الوضع الطبيعى أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل ، هذا
هو الوضع الطبيعى ؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يُخرجه خلقاً آخر :

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..﴾ (١٤) [المؤمنون]

كانه كان خلقاً لكنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خلقاً آخر مُستقلاً
بذاته .. فتكون الرأس إلى أسفل ، وهى أول ما ينزل من المولود ،
وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس .

ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالثنفس تكون له ذاتية ، فإذا ما تعسّر خروج باقى جسمه فتكون له فرصة التنفس ، وهذا من لطف الله سبحانه ؛ لأن الجنين فى هذه الحالة لا يخنق أثناء معالجة باقى جسمه .

أما إذا حدث العكس فكان الرأس إلى أعلى ، ونزل الجنين بقدميه ، فبمجرده نزول الرّجلين ينفصل عن أمه ، ويحتاج إلى حياة ذاتية ويحتاج إلى تنفس ، فإذا ما تعسّرت الولادة حدث اختناق ، ربما يؤدى إلى موت الجنين .

العلم أخذ قضية من قضايا الكون مجزوم بها وعليها دليل :
وقوله تعالى :

﴿ لَا تَعْلَمُونَ^(١) شَيْئًا .. (٧٨) ﴾

[النحل]

ذلك لأن وسائل العلم والإدراك لم تعمل بعد ، فإذا أراد الله له أن يعلم يخلق له وسائل العلم ، وهى الحواس الخمس : السمع والبصر والشم واللمس والتذوق ، هذه هى الحواس الظاهرة التى بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف ، وبها يدرك ما حوله .

وإن كان العلم الحديث قد أظهر لنا بعض الحواس الأخرى ، ففى علم وظائف الأعضاء يقولون : إنك إذا حملت قطعتين من الحديد مثلاً فبأى حاسة تُميّز بينهما من حيث الثقل ؟

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٢٨٧٧/٥) : فيه ثلاث لغاويل

أحدها : لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من العيثاق فى أصلاب آبائكم .

الثانى : لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء .

الثالث : لا تعلمون شيئاً من مآلحكم .

هذه لا تُعرف باللمس أو السمع أو البصر أو الذوق أو الشم ..
إذن : هناك حاسة جديدة تُميّز الثقل هي حاسة العضل .

وكذلك تُوجد حاسة البين ، التي تتمكن بها من معرفة سُمك
القماش مثلاً وأنت في محل الأقمشة ، حيث تفرك القماش بين
أصابعك ، وتستطيع أن تُميّز بين الرقيق والسُميك .

فالطفل المولود إذن لا يعلم شيئاً ، فهذا أمر طبيعي لأن وسائل
العلم والإدراك لديه لم تُؤدِّ مهمتها بعد .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ .. (٧٨) ﴾ [النحل]

وقد بين لنا علماء وظائف الأعضاء أن هذا الترتيب القرآني
للأعضاء هو الترتيب الطبيعي ، فالطفل بعد الولادة يسمع أولاً ، ثم
بعد حوالي عشرة أيام يُبصر .. وتستطيع تجربة ذلك ، فترى الطفل
يفزع من الصوت العالي بعد أيام من ولادته ، ولكن إذا وضعت
أصبعك أمام عينيه لا يطرف ؛ لأنه لم يَر بعد .

ومن السمع والبصر - وهما السادة على جميع الحواس - تتكون
المعلومات التي في الأفئدة ، هذا الترتيب القرآني الوجودي ، وهو
الترتيب الطبيعي الذي وافق العلم الحديث .

ونلاحظ في الآية أفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة :

﴿ وَجَعَلْ لَّكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ .. (٧٨) ﴾ [النحل]

(١) أي : وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي . والأبصار لتبصروا بها آثار صفته .
والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . [قاله القرطبي في تفسيره (٢٨٧٧/٥)] .

فلماذا لم يأتِ السمع جَمْعاً ؟

المتحدث هنا هو الحق سبحانه ؛ لذلك تأتي الألفاظ دقيقة معجزة .. ولنتنظر لماذا السمع هنا مفرد ؟

فَرَّقَ بين السمع وغيره من الحواس ، فحين يوجد صوت في هذا المكان يسمعه الجميع ، فليس في الأذن ما يمنع السمع ، وليس عليها قُفْلٌ تَقْلُهُ إذا أردنا ألا نسمع ، فكان السمع واحد عند الجميع ، أما المراتى فمختلف ؛ لأننا لا ننظر جميعاً إلى شيء واحد .. بل المراتى عندنا مختلفة فهذا ينظر للسقف ، وهذا ينظر للأعمدة .. إلى آخره .

إذن : المراتى لدينا مختلفة .. كما أن للعين قُفْلاً طبيعياً يمكن إسْدَاله على العين فلا ترى ، فكان الأبصار لدينا مختلفة متعددة .

وكذلك الحال في الأفئدة ، جاءت جَمْعاً ؛ لأنها متعددة مختلفة ، فواحد يَعِي وَيُدْرِك ، وآخر لا يعي ولا يدرك ، وقد يعي واحد أكثر من الآخر .

إذن : إفراد السمع هنا آيةٌ من آيات الدقة في التعبير القرآني المعجز ؛ لأن المتكلم هو رب العزة سبحانه .

ونلاحظ أيضاً تقديم السمع على باقى الحواس ؛ لأنه أول الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أن يُولَدَ إلى أن يفارق الحياة ، ولا يغيب عنه حتى لو كان نائماً ؛ لأن بالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد قلنا في قصة أهل الكهف أنهم ما كان لهم أن يناموا في سُبَاتٍ^(١) عميق ثلاثمائة وتسع سنين إلا إذا حجب الله عنهم هذه

(١) السبات : النوم . قال الزجاج : هو أن يتقطع عن الحركة ، والروح في بدنه . والسبت : القطع ، فكانه إذا نام فقد انقطع عن الناس . [لسان العرب - مادة : سبت] .

الحاسة ، فلا تزعجهم الأصوات . فقال تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ١١ ﴾ [الكهف]

أى : قلنا للآذن تعطى هذه المدة حتى لا تزعجهم أصوات الصحراء ، وتقلق مضاجعهم ، والله تعالى يريد لهم السُّبات والنوم العميق ،

وفى قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ .. ٧٨ ﴾ [النحل]

هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج (الميلاد) أم هى موجودة قبله ؟ .. يجب أن نُفرّق بين السمع وآلته ، فقبل الإخراج تتكون للجنين آلات البصر والسمع والتذوق وغيرها .. لكنها آلات لا تعمل ، فالجنين فى بطن أمه تابع لها ، وليست له حياة ذاتية ، فإذا ما نزل إلى الدنيا واستقلّ بحياته يجعل الله له هذه الآلات تعمل عملها .

إذن : فمعنى :

﴿ جَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ .. ٧٨ ﴾ [النحل]

أى : جعل لكم الاستماع ، لا آلة السمع .

وقوله :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النحل]

تُوحى الآية بأن السمع والأبصار والافتدة ستعطى لنا كثيراً من المعلومات الجديدة والإدراكات التى تنفعنا فى حياتنا وفى مَقُومَات وجودنا ، وننفع بها غيرنا ، وهذه النعم تستحق منا الشكر .

سُورَةُ الْحَجَّالِ

○ ٨١١٧ ○

فكلما سمعتَ صَوْتًا أو حكمةَ تحمد الله أن جعل لك أذنًا تسمع ،
وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أن جعل لك عيناً ترى ، وكلما
شممتَ رائحةَ زكية تحمد الله أن جعل لك أنفاً تشمُّ .. وهكذا تستوجب
النعم شكرَ المنعم سبحانه ،

ولكى تقف على نعم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرِمَ منها ، ونأمل
حالك وحالهم ، وما أنت فيه من نعم الحياة ولذاتها ، وما هُمْ فيه من
حُرْمَان .

ثم ينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى في قوله تعالى :

﴿الْمَرِيرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧١)

فالحق سبحانه ينقلنا هذا إلى صورة أخرى من صُور الكون ..
بعد أن حدثنا عن الإنسان وما حوله .. فالإنسان قبيل أن يخلقه الله
في هذا الوجود أعدَّ له مقومات حياته ، فالشمس والقمر والنجوم
والأرض والسماء والمياه والهواء ، كل هذه أشياء وُجدت قبل
الإنسان ، لِتهيء له الوجود في هذا الكون .

والله سبحانه يريد منا بعد أن كفلَ لنا استبقاء الحياة بالرزق ،
واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ، يريد منا إشراف عقائدنا بالنظر في
ملكوته الله وما فيه من العجائب : لنستدل على أنه سبحانه هندس
كُونَهُ هندسة بديعة متداخلة ، وأحكمه إحكاماً لا تصادم فيه .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فالنظر إلى كَوْنِ الله الفسيح ، كم فيه من كواكب ونجوم وأجرام . كم هو مكيء بالحركة والسكون والاستدارة . ومع ذلك لم يحدث فيه تصادم ، ولم تحدث منه مضرة أبداً قى يوم من الأيام .. الكون كله يسير بنظام دقيق وتناسق عجيب ! ولكي تتجلى لك هذه الحقيقة انظر إلى صنعة الإنسان ، كم فيها من تصادمات وحوادث يروح ضحيتها الآلاف .

هذا مثلٌ مُشَاهِدٌ للجميع ، الطير في السماء .. ما الذي يُمسكها أَنْ تقعَ على الأرض ؟ وكان الحق سبحانه يجب أَنْ يُلْقِئَنَا إلى قضية أكبر :

﴿إِنْ أَلَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ رَأَيْنَا أَنْ أُمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

فعلينا أَنْ نُصَدِّقَ هذه القضية .. فنحن لا ندرك بأعيننا جرم الأرض ، ولا جرم الشمس والنجوم والكواكب .. نحن لا نقدر على معرفة كل ما في الكون .. إذن : يجب علينا أَنْ نُصَدِّقَ قَوْلَ رَبِّنَا ، ولا نجادل فيه .

واليكم هذا المثل الذي تشاهدونه كل يوم :

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ .. (٧٩)﴾ [النحل]

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿ ٨١٦٩ ﴾

إياك أن تقول إنها رفرفة الأجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثَبِّت
أجنحته في الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض ، فهناك إذن
ما يمسكه من الوقوع ؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ^(١) وَيَقْبِضْنَ .. ﴾ [الملك]

أى : أنها في حالة بسط الأجنحة ، وفي حالة قبضها تظل مُعلَّقة
لا تسقط .

وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل
الأوز وغيره من الطيور .

إذن : ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هي آية من آيات الله
تمسك هذا الطير في جو السماء .. فتراه حراً طليقاً لا يجذبه شيء
إلى الأرض ، ولا يجذبه شيء إلى السماء ، بل هو حر يرتفع إن أراد
الارتفاع ، وينزل إن أراد النزول .

فهذه آية مُحَسَّنة لنستدل بها على قدرة الله غير المحسنة إلا بإخبار
الله عنها ، فإذا ما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا
مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ﴾ [٤١] ﴿ [فاطر]

آمنّا وصدّقنا .

(١) أى : باسقاط أجنحتها . قال ابن كثير في تفسيره (٢٩٨/٤) : « أى : تارة يصطفن
أجنحتهم في الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتتشر جناحاً » .

وقوله تعالى :

﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ .. (٧٩) ﴾

[النحل]

أى : فى الهواء المحيط بالأرض ، والمتأمل فى الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسى فى ثبات الأشياء فى الكون ، فالجبال والعمارات وغيرها .. ما الذى يمسكها أن تقع ؟

إياك أن تظن أنه الأسمنت والحديد وهندسة البناء .. لا .. بل يمسكها الهواء الذى يحيط بها من كل جانب ، بدليل أنك لو فرغت جانباً منها من الهواء لانهارت فوراً نحو هذا الجانب ؛ لأن للهواء ضغطاً ، فإذا ما فرغت جانباً منها قلَّ فيه الضغط فانهارت .

فالهواء - إذن - هو الضابط لهذه المسألة ، وبالهواء يتوازن الطير فى السماء ، ويسير كما يهوى ، ويتحرك كما يحب .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾

[النحل]

أى : أن الطير الذى يطير فى السماء فيه آيات أى عجائب ، عجائب صنعة وعجائب خلق ، يجب أن تتفكروا فيها وتعتبروا بها .

ولكى نقف على هذه الآية فى الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران .. إنه العربى عباس بن فرناس^(١) ، أول من حاول

(١) مخترع أندلسى . من أهل قرطبة ، كان فى عصر الخليفة عبد الرحمن الثانى فى القرن التاسع للميلاد . كان فيلسوفاً شاعراً ، له علم بالفلك . وهو أول من صنع المقاتلة لمعرفة الأوقات . ملأ فى بيته السماء بتجويمها وغيرونها وبروثها ورجوعها توفى عام ٢٧٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٢ / ٢٦٤] .

الطيران في الأندلس ، فعمل لنفسه جناحين ، وألقى بنفسه من مكان مرتفع .. فماذا حدث لأول طائر بشري ؟

طار مسافة قصيرة ، ثم هبط على مؤخرته فكسرت ؛ لأنه نسي أن المسألة ليست مجرد الطيران ، فهناك الهبوط الذي نسي الاستعداد له ، وفاته أن يعمل له (زِمَكِي)^(١) ، وهو الذيل الذي يحفظ التوازن عند الهبوط .

وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف ؟ وكم فيها من أجهزة ومعدات قياس وانضباط ؟ وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو موجه يوجهها ، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير في السماء له جناحان ومقدمة وذيل ، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطل محركها .. أو اختل توازنها ؟!

إذن : الطير في السماء آية تستحق النظر والتدبر ؛ لنعلم منها قدرة الخالق سبحانه .

ويقول تعالى :

﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧١) [النحل]

يؤمنون بوجود واجب الوجود ، يؤمنون بحكمته ودقته صنّعه ، وأنها لا مثيل لها من صنعة البشر مهما بلغت من الدقة والإحكام .

(١) الزمك : إخال الشيء بعضه في بعض . والزمكي أصل ذنب الطائر ، وقيل : هو منبته ، وقيل : هو ذنبه كله . [لسان العرب - مادة : زمك] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ
إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا
أَتُنَادُونَهُمْ أُنَاسًا مَتَعًا إِلَى حِينٍ ﴾ (٨٠)

قوله :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا .. ﴾ (٨٠) [النحل]

كلمة سكن مأخوذة من السكون ، والسكون ضد الحركة ، فالبيت
تُسَمَّى سَكَنًا : لأن الإنسان يلجأ إليه ليرتاح فيه من حركة الحياة
خارج البيت ، إذن : في الخارج حركة ، وفي البيت سكن .

والسكن قد يكون مادياً كالبيت وهو سكن الغالب ، وقد يكون
معنوياً ، كما قال تعالى في حق الأزواج :

﴿ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ﴾ (٢١) [الروم]

فالزوجة سكنٌ معنويٌّ لزوجها ، وهذا يُسمونه سكن القلب .

فلن قال قائل :

﴿ مِنْ بُيُوتِكُمْ .. ﴾ (٨٠) [النحل]

(١) الظن : الانتقال من مكان إلى مكان . أي : السفر . [القاموس القويم ١/ ٤١٥] .

(٢) الأثاث : المال كله والمتاع ، ما كان من لباس أو مشي أو فراش أو نثار . [لسان العرب ..

مادة : أثاث] .

يعنى : نحن الذين صنعناها وأقمناها . فكيف جعلها الله لنا ؟ .

نقول : وأنت كيف صنعتها ؟ ومِمَّ بَنَيْتَهَا ؟ صنعتها من غابٍ أو خشب ، أو بَنَيْتَهَا من طين أو طوب .. كل هذه المواد من مادة الأرض من عطاء الله لك ، وكذلك العقل الذى يُفَكِّرُ ويرسم ، والقسوة التى تبنى وتُشَيِّدُ كلها من الله .

إذن : ﴿ جَعَلَ لَكُم ﴾ إما أَنْ يكونَ جَعَلًا مباشرًا ، وإما أَنْ يكونَ غير مباشر .. فإله سبحانه جعل لنا هذه المواد .. هذا جَعَلَ مباشر ، وأعانتنا وقوّانا على البناء .. هذا جَعَلَ غير مباشر ،

لكن فى أىّ الأماكن تُبنى البيوت ؟

البيوت لا تُبنى إلا فى أماكن الاستقرار ، التى تتوفر لها مقومات الحياة .. فقبل أن تُنظَّم مدينة سكنية نبحث أولاً عن مقومات الاستقرار فيها من مأكَل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه وصرف .. إلى آخره .

فإن وجدت هذه المقومات فلا مانع من البناء هنا .. فإذا لم توجد المرافق فى الصحراء ومناطق البدو ، هنا لا يناسبها البيوت والبناء الدائم ، بل يناسبها :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. ﴾ (٨٠)

[النحل]

فترى أهل البدو يتخذون من الجلود بُيُوتًا مثل الخيمة والفسطاط .. حيث نراهم كثيرى التنقل يبتغون مواطن الكلا والعشب ، ويرحلون طلباً للمرعى والماء ، وهكذا حياتهم دائمة التنقل من مكان

لآخر .. فيناسيهم بيت من جلد أو من صوف أو من وبر خفيف
الحمل ، يضمونه أيما حظوا رجالهم ، ويرفعونه أيما ساروا ..
والظعن هو التنقل من مكان لآخر .

إذن : كلمة (سكن) تفيد الاستقرار ، وتوفر كل مقومات
الحياة ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لأدم :

﴿ اَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. ﴾ (٣٥)

[البقرة]

أى : المكان الذى فيه راحتكم ، وفيه نعيمكم ، فحدد له مكان
إقامة وسكن ..

ومكان الإقامة هذا قد يكون عاماً ، وقد يكون خاصاً ، مثل لو
قلّت : أسكن الاسكندرية .. هذا سكن عام ، فلو أردت السكن الحقيقى
الخاص بك لقلّت : أسكن فى شارع كذا ، وفى عمارة رقم كذا ، وفى
شقة رقم كذا ، وربما كان لك حجرة خاصة من الشقة هذه .

إذن : هذا سكن خاص بك .. سكنك الحقيقى الذى تشعر فيه
بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتى
لا يشاركك فيه أحد ؛ ولذلك ترى بعض سكان العمارات يشكون من
الإزعاج والضوضاء ، ويتمنون أن يعيشوا فى بيوت مستقلة تحقق
لهم الراحة الكافية التى لا يضايقهم فيها أحد .

إذن : حينما ننظر إلى السكون .. إلى السكن ، نحتاج المكان
الضيق الذى يحقق لنا الخصوصية التامة التى تصل إلى حجرة ،
مجرد حجرة ، ولكنها تعنى السكن الحقيقى الخاص بى ، وقد تصل

الخصوصية أن نجعل لكل ولد من الأولاد سريراً خاصاً به في نفس الحجرة .

فإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة وجدنا الإنسان على العكس يطلب السعة ؛ لأن الحركة تقتضى السعة في المكان ، فمن كان عنده مزرعة يطلب عزبة ، ومن كان عنده عزبة يتمنى ثانية وثالثة وهكذا ؛ لأن حركة الحياة تحتاج مجالاً واسعاً فسيحاً .

هذا عن النوع الأول ، وهو السكن المادى سكن القلب ، وهو من أعظم نعم الله على عباده .. أن يكون لهم سكن يأوون إليه ، ويرتاحون فيه من عناء وحركة الحياة .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه أن يُعَذِّبَ بنى إسرائيل ، أشاع سكنهم في الأرض كلها ، وحرّمهم من نعمة السكن الحقيقى الخاص ، فقال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ .. ﴾ (١٠٤) [الإسراء]

فالأرض هي المكان العام الذى يسكن فيه كل الناس .. فليس لهم بلد تجمعهم ، بل يبددهم الله في الأرض ولم يجعل لهم وطناً ، كما قال في آية أخرى :

﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا .. ﴾ (١٦٨) [الأعراف]

حتى في البلاد التى يعيشون فيها تراهم معزولين عن الناس في أماكن خاصة بهم لا يذوبون في غيرهم ، وهكذا سكنوا الأرض ، ولم تحدد لهم بلد .

أما النوع الثانى من السكن ، وهو السكن المعنوى أو سكن القلب ، فهو سكن الزوج إلى زوجته الصالحة التى تُخَفِّف عنه عناء الحياة وهمومها ، تبتسم فى وجهه إن كان مسروراً وتُهدِّئ من غضبه إن كان مُغْضَباً ، تحتويه بما لديها من حُب وحنان وإخلاص .. هذا هو السكن المعنوى ، سكن القلب .

وقوله :

﴿وَمِنْ أَصْرَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (النحل)

الأصواف للغنم ، والأوبار للابل ، والشعر للماعز .. فما الفرق بين هذه الثلاث فى الاستعمال ؟

يستعمل الناس كلاً من الصوف والوبر ؛ لأن الشُعيرات فيها دقيقة جداً يمكن نُدْفُها وِعَزْلُها والانتفاع بها فى القُرْش والأبسطة والألحفة والملابس وغيرها مما يحتاجه الناس .

أما شعر الماعز فالشُعيرات فيه شديدة لا يمكن نُدْفُها أو عَزْلُها ، فلا يمكن الانتفاع به فى هذه المنسوجات ، وقوله تعالى :

﴿أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ (النحل)

الأثاث : هو ما يوجد فى البيت مما تتطلبه حركة الحياة كالأبسطة والمفارش والملابس والستائر .

والمَتَاع : هو ما يُسْتَمْتَع وَيُنْتَفَع به .. والفرق بينهما أن الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغير كثيراً ، أما المتاع فقد يتغير حسب الحاجة .

فأنت مثلاً قد تحتاج إلى تغيير التلغاف القديم لتأشى بآجر حديث ، مُلَوْن مثلاً ، لكن قَلْماً تُغَيِّر التَّلَاجَةَ أو الغسالة مثلاً .

وقوله : ﴿إِلَى حِينٍ ۝٨١﴾ [النحل]

لأن الإنسان قد يغتر حين يستوفي متطلبات حياته ، وقد تلهيه هذه النعم عن مطلوب المنعم سبحانه ، فينشغل بالنعمة التي هو فيها عن المنعم الذي أنعم عليه بها .. فتأتي هذه الآية مُحذِّرة .

إياك أن تغتر بالمتاع والآث : لأنها متاع إلى حين .. متاعٌ موقوت لا يدوم ، ومهما استوفيت حظك منها في الدنيا فإنها صائرة إلى أمرين :

إما أن تفوتها بالموت ، وإما أن تفوتك بالفقر والحاجة .. إذن : هي زاهية زاهية .. فتذكروا دائماً قوله تعالى :

﴿إِلَى حِينٍ ۝٨١﴾ [النحل]

فمتاع النعمة موقوت ، لكن متاع المنعم سبحانه خالد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرِيرًا يُقِيكُمْ مِنَ الْحَرِّ وَسُرِيرًا يُقِيكُم بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝٨١﴾

(١) الكُنْ : ما يُصَان أو يستتر فيه الشيء . والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم ١٧٥/٢] .

(٢) السُريرال - التقيص يقى الحر والبرد . أما قوله تعالى : ﴿وَسُرِيرًا يُقِيكُمْ بِأَسْكُمْ ۝٨١﴾ [النحل] فهي الدروع . [لسان العرب - مادة : سربل] .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار ، ويجدون مقومات الحياة ، وتكلم عن أهل الترحال والتنقل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم . ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً ، ولا حتى جلود الأنعام .. ماذا يفعل هؤلاء ؟

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظلّون به من وهج الشمس ، وجعل لهم من الكهوف والسراديب في الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه . وهكذا استوعبت الآيات جميع الحالات التي يمكن أن يكون عليها بشر ، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس ، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله .

أما مَنْ لا يملك بيتاً يأويه ، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتاً ، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حرّ الشمس ، وجعل له كهوف الجبال تُكِنّه وتأويه .

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرت الظل الذي يقينا حرّ الشمس ، ولم تذكر مثلاً البرد ؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهي بلاد حارة ، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدّفء .

وقوله :

﴿ ظِلًّا .. (٨١) ﴾

[النحل]

الظلال جمع ظل ، وهو الواقى من الشمس ومن إشعاعاتها ، وقد يُوصَف الظل بأنه ظل ظليل .. أى : الظل نفسه مُظلل ، وهذا ما نراه في صناعة الخيام مثلاً ، حيث يجعلون لها سقفاً من طبقة واحدة

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿٨١﴾ ٨١٢٩

تتلقى حرارة الشمس ، وإن حجب أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة ، وهنا يلجأون إلى جعل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس .

وهنا نقول : إن الظل نفسه مُظَلَّل ، وكذلك الحال في ظل الأشجار حيث يظل الورق بعضه بعضاً ، فتشعر تحت ظل الأشجار بجو لطيف بارد حيث يغطي ظل ظليل يحجب عنك ضوء الشمس ، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق .

لذلك فالشاعر يقول في وصف روضة :

وَقَانَا فُحَّةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مَضَاعِفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنَّى وَاجْهَتْنَا فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ
وهكذا الأشجار تحجب عنا الضار ، وتسمح بالنافع .

وقوله : ﴿ أَكُنَّا .. (٨١) ﴾ [النحل]

جمع كن ، وهو الكهف أو المغارة في الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمى بها ، والكن من الستر : لأنها تستر الناس ونحن نقول مثلاً للولد : انكنْ يعني : اسكنْ واستر .

ويقول تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيَكُم بِأَسْكُم .. (٨١) ﴾

[النحل]

السراويل : هي ما يكبس من الثياب أو الدروع :

﴿ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل]

أى : تحميكم من الحر .. فقال هنا الحر أيضاً : لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية فقال : المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ، ففى الآية اكتفاءً بالحر عن البرد ؛ لأن الشيء إذا جاء يأتى مقابله .. فليس بالضرورة ذكر الحالتين ، فإحدهما تعنى الأخرى .

هذا دفاع مشكور منهم ، ومعنى مقبول حول هذه الآية .. لكن لو قَطَعْنَا إلى باقى الآيات التى تحدثت فى هذا الموضوع لوجدناها : واحدة تتكلم عن الحر ، وهى هذه الآية ، وأخرى تتكلم عن البرد فى فى قوله تعالى :

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ ..﴾ [النحل]

أى : من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد ، وما نستدفئ به .. فكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى .

والمستأمل فى تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملابس لا يعطى للإنسان حرارة تدفئه ، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط ، فحرارة الإنسان ذاتية من داخله ، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان .

والأطباء يقولون : إن الجسم السليم حرارته ٣٧° لا تختلف إن عاش عند خط الاستواء أو عاش فى بلاد الاسكيمو فى القطب الشمالى ، فهذه هى الحرارة العامة للجسم .

فى حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفت درجة حرارتها ، كُلٌّ حَسَبَ ما يناسبه : فالكبد مثلاً درجة حرارته ٤٠° ، وتختلف

وظيفته إذا نقصت عن هذه الدرجة ، فى حين أن درجة حرارة جفن العين مثلا ٥٩° ، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبة العين ، ويفقد الإنسان البصر .. فسيحان الله الذى حفظ حرارة هذه الأعضاء فى الجسم لا يطفى أحدها على الآخر .

لذلك حينما سافرنا إلى أمريكا ، وفى إحدى مناطق البرودة الشديدة كانت أول نصائحهم لنا ألا نمسك آذاننا بأيدينا .. لماذا ؟ قالوا : لأن درجة حرارة اليد أقل من درجة حرارة الأذن ، ووضع اليد الباردة على الأذن قد تُسبب كثيرا من الأضرار .

إن : كل ما نستخدمه من ملابس وأغطية تقينا برد الشتاء لا تعطينا حرارة ، بل تحفظ علينا حرارتنا الطبيعية فلا تتسرب ، وبذلك تتم التدفئة .. وتستطيع أن تضع يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً ، أما فى الصباح فتجده دافئاً .. فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك ، وليس العكس .

وقوله :

﴿وَسَرَابِيلٌ تَقِيكُم بِأَسْكُمُ .. (٨١)﴾

[النحل]

الباس هنا : أى الحرب . والسراويل التى تقى من الباس هى الدروع التى يلبسها الجنود فى الحرب لتقيهم الضربات .

ولكن هذه الآية فى سياق الحديث عن بعض نعم الله علينا فى الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال .. حياة دعة وسلام ونعمة ، فما الداعى لذكر الحرب هنا ؟

ذلك لأن الحياة لها منطق سلامة للجميع ، فإن اختل منطق

السلامة فعلى الناس أن يقفوا فى وجه مَنْ يُخلُ بِسلامة المجتمع ..
وأن يكون على استعداد لذلك فى كل وقت ، لأبَدٍ فى وقت السَّلم أنْ
تُعَدَّ العُدَّة للحرب ؛ لذلك تحدث عن الحرب وُعِدَّتْها ، وهو يتحدث عن
السكون والاستقرار والنعمة .

والحق سبحانه وتعالى حين يُنزل الآيات البينات التى تحمل لنا
منهج السماء يقول :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ
بِالْقِسْطِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]

هذا هو المنهج الذى يعتمد على الحجة والإقناع .. فإن لم يصلح
هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر ،
يقول تعالى :

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥)﴾ [الحديد]
وقوله :

﴿كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ .. (٨١)﴾ [النحل]

كان من تمام نعمة الله أن نحفظها ممن يُفسدها علينا ، ونقف له
بالمرصاد ونضرب على يده ؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسدين فى
مجتمعنا فسوف يُفسدون علينا هذه النعم ، وستظل مهددين ،
لا تشعر بلذة الحياة ومتعتها .

(١) البأس : الشدة والقوة . قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥)﴾ [الحديد] أى :
قوة وصلابة . [الفاموس القويم ٥٢/١] .

إذن : لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع .

وقوله : ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ﴾ (٨١) [النحل]

تُسلمون : أى تُلَقَّونَ زمام الاستسلام إلى الله الذى أسلمتَ له ، وأنت لا تُلَقَّى زمامك إلا لمن تثق فيه .. والإنسان قد يُلَقَّى زمامه فى أمر لا يجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر ، فإذا كنتَ فى حاجات نفسك تُلَقَّى زمامك لمن هو مثلك ، ويساويك فى قلة المعلومات ، ويساويك فى قلة الحكمة ، ومع ذلك تُسلم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت ، أفلا تُلَقَّى زمامك وتُسلم أمرك إلى ربك وخالقك ، وخالق كُلِّ هذه النعم من أجلك ؟

إذن : جاء ذُكر هذه النعم ، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى تُسلمَ عن يقين واقتناع ، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة فى طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، إنْ أطعناه فلن نزيد فى ملكه سبحانه ، وإنْ عصيناه فلن تنقصَ من ملكه سبحانه .

إذن : تسليمنا الأمر والزمَام لله من مصلحتنا نحن .. فالإنسان حينما يُسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تُلَوِّى رأيه فى المسألة ، إنما ربُّنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكماً فليس له مصلحة فيه فلا يُلَوِّى ، لا يكون إلا لصالحك .

وبعد أنْ عدَّد هذه النعم فى الذات والمحيطات وفى السكن وفى الانطباعات . قال : إياك بعد ذلك أنْ تُسلمَ زمامك لغيري ، وإنْ أجرى عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة ! لأننى لا أجرى عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه .

لذلك نقول : لا عبادة كالتسليم : لأن التسليم لحُكمه تسليمٌ

لحكيم ، تسليمٌ لغير منتفع .. وما دُمْتَ قد سلمتَ زمامك لربك عن وجل يُجلى لك الحكمة فيما جرى لك من الأحداث لتعلمَ رضاك عن حُكمه لحكمته ، فتقول : أنا رضيتُ بحكمك يا رب .

ولذلك نقول في الدعاء : أحمدك على كُلِّ قضائك ، وجميع قَدرك حمْد الرُّضا بحكمك لليقين بحكمك .

أى : لك حكمة يارب فيما أجريتَ على من أحداث ، ولكنى لا أراها .

والذى يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط : لأنه بذلك يُطيل على نفسه امدَ القضاء : لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به ، فإله تعالى لا مُجبر له .

فإن أردت رفع القضاء فأرضَ به أولاً ، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضى من نفسك لم يكن مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضجراً .

فالذى يُسلم زمامه إلى الله ويردّ كل حدث وقع أو بلاء نزل به يردّه إلى الله ، وإلى حكمة مُجريه ، الله تعالى يقول له : لقد فهمتَ عني ، ويرفع عنه البلاء .

وفي مقام التسليم لله دائماً نذكر قصة سيدنا إبراهيم حينما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل - عليهما السلام .. وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبتلى الرجل بذبح ولده الذى رزقه على كبر ، ويذبحه هو بيده .

إنه ابتلاء من مراتب مُتعددة ، ومن نواح مختلفة ، وليت الأمر بوحى ظاهر ، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأول فيه ، ولكن رؤيا الأنبياء حق .

ونرى إبراهيم - عليه السلام - يقصُّ على ولده المسألة حرصاً عليه أن يتحوَّل قلبه عن أبيه ساعة يأخذه ليذبحه ، وأيضاً لكي يشاركه ولده في الرضا بقدر الله ، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء .. فقال له :

﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ .. (١٠٢)﴾ [الصافات]

فليس الغرض هنا أن يزعجه أو يخيفه ، ولكن ليقول له : هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضاً ، ولا يتغير قلبه على أبيه .

ولذلك كان الولد حكيماً في الرد ، فقال :

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٣)﴾ [الصافات]

ما دام الأمر من الله فافعل ، وهكذا سلَّم إسماعيلُ كما سلَّم إبراهيم ، فقال تعالى :

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ^(١) لِلْجَبِينِ (١٠٤)﴾ [الصافات]

أسلما : أى الأب والابن ، ورَضِيا بقضاء الله ، جاء الفرج ورفَّع القضاء ، فقد فهم كل منهما الأمر عن الله ، فلم يرفع القضاء فقط ، بل وفديناه بذبح عظيم ، ليس هذا فقط ، بل ومُننا عليه بولد آخر :

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢)﴾ [الصافات]

إذن : لعلمكم تُسَلِّمونَ زمامكم إلى الله ، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجدكم فيه ، وأمدكم بكل متطلبات الحياة ضماناً لبقاء

(١) تله : ألقاه على منكبه وخلفه . كما تقول كَبَّهْ لوجهه . (لسان العرب - مادة : تَلَّ) .

حياتكم ، وضماناً لبقاء نوعكم ، ومنعكم هذه المتع .

قالذي أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جنيراً أن
تُسَلِّمُوا له زمام أمركم وتُسَلِّمُوا له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمُبِينُ ﴾ (٨٢)

أى : لا تحزن يا محمد إذا تعرض قومك ، فليست مأموراً إلا
بالبلاغ ، ويخاطبه الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاقِعٌ ^(١) نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

[الشعراء]

أى : مهلكها . وقال تعالى :

﴿ إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا
خَاضِعِينَ ﴾ (٤)

[الشعراء]

لكن الدين لا يقوم على السيطرة على القلب ، وقرئ بين السيطرة
على القلب والسيطرة على القلب ، فيمكنك بمسدس فى يدك أن
تُرغمنى على ما تريد ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبى على شيء
لا يؤمن به . والله يريد من القلوب لا القوالب ، ولو أراد من القوالب
لجعلها راغمة خاضعة لا يشد منها واحد عن مرادة سبحانه .

ولذلك حينما أرسل الله سليمان - عليه السلام - وجعله ملكاً
رسولاً لم يقدر أحد أن يقف فى وجهه ، أو يعارضه لما له من

(١) يخع نفسه : قتلها مما وغيباً وحزناً . [اللاموس القويم ٥٦/١] .

السلطان والقوة إلى جانب الرسالة .. أمّا الأمر في دعوته ﷺ فقام
على البلاغ فقط دون إجبار .

وقوله : ﴿البلاغُ المبينُ﴾ (٨٢) [النحل]

أى : البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة
وحركاتها ، فقد جاء المنهج الإلهى شاملاً للحياة بداية بقول : لا إله
إلا الله حتى إمطة الأذى عن الطريق ، فلم يترك شيئاً إلا حدثنا فيه ،
فهذا بلاغ مبين محيط لمصالح الناس .. فلا يأتى الآن مَنْ يتمكّن
ويقول : ربنا ترك كذا أو كذا .. فمنهج الله كامل ، فلو لم تأخذوه
ديناً لوجب عليكم أن تأخذوه نظاماً .

ونرى الآن الأمم التى تُعَادى الإسلام تتعرّض لمشاكل فى حركة
الحياة لا يجدون لها حلاً فى قوانينهم ، فيضطرون لحلول أخرى
تتوافق تماماً أو قريباً من حلّ القرآن ومنهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣)

وقد حكى القرآن عنهم فى آيات أخرى :

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) [الزخرف]

وقال عنهم :

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمَا مَآخِذَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ ..﴾ (١٤) [النمل]

ذلك لأنهم يعلمون تماماً أن الله خلقهم ، وأنه خلق السموات والأرض .. يعلمون كل نعم الله عليهم ، ومع ذلك يُنكرونها ويجحدونها .. لماذا ؟

لأن الإيمان بالله والاعتراف بشعمه مسألة شاقة عليهم ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها .. ما أسهل أن يقولوا « لا إله إلا الله » لكنهم يعلمون أن : لا إله إلا الله لها مطلوبات ، فما دام لا إله إلا الله ، فلا يُشرع إلا الله ، ولا يأمر إلا الله ، ولا ينهى إلا الله ، ولا يحل إلا الله ، ولا يحرم إلا الله .

إذن : مطلوبات لا إله إلا الله جعلتهم في قالب من حديد ، متضيقين بمنهج يهدم سيادتهم ، ويمنع الطغيان والجبروت ، منهج يُسوّي بين السادة والعبيد .

إذن : الدين الحق يُقيد حركتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، فتراهم يعرفون الله ولا يؤمنون به ؛ لأنهم يعلمون مطلوبات لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإلا لو كانت مجرد كلمة لقالوها .

وقوله :

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢)

[النحل]

بعض العلماء يقولون : أكثرهم يعني كلهم .. لا .. بل هذا أسلوب قرآني لصيانة الاحتمال والاحتياط للقلة التي تفكر في الإسلام ويرادها أمر هذا الدين الجديد من هؤلاء الكفار ، لا بد أن تُراعى أمور هذه القلة . ونترك لهم الباب مفتوحاً ، فلاحتمال هذا قائم ..

فلو قال القرآن : كلهم كافرون لتعارض ذلك مع هؤلاء الذين

يفكرون في أَنْ يُسَلِّمُوا .. وكذلك مراعاة لهؤلاء الذين لم يبلغُوا حَدَّ التكليف من أبناء الكفار .

إذن : قوله ﴿ وَآكُثِرُهُمْ ﴾ تعبير دقيق ، فيه ما نُسمِّيه صيانة الاحتمال .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٨٤)

الحق تبارك وتعالى يُنبِّهنا هنا إلى أن المسألة ليست ديناً ، وتنتهى القضية آمنٌ مَنْ آمن ، وكفرٌ مَنْ كفر .. إنما ينتظرنا بعث وحساب وثواب وعقاب .. مرجع إلى الله تعالى ووقوف بين يديه ، فإن لم تذكر الله بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للقائك به لاحقاً .

والشاهد : هو نبيُّ الأمة الذى يشهد عليهم بما بلغهم من منهج الله .

وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴾ (١٤٣) [البقرة]

فكان أمة محمد ﷺ أعطاه الله أمانة الشهادة على الخلق لأنها بلغتهم ، فكل مَنْ آمن برسول الله ﷺ مطلوب منه أن يبلغ ما بلغه الرسول ، ليكون شاهداً على مَنْ بلغه أنه بلغه :

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ (٨٤) [النحل]

فحينما يشهد عليهم الشهيد لا يُؤْذَنُ لهم في الاعتذار ، كما قال تعالى في آية أخرى :

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (٣٦) [المرسلات]

او حينما يقول احدهم :

﴿رَبِّ ارْجِعْنِي﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ..﴾ (١٠٠) [المؤمنون]

فلا يُجَابُ لذلك ؛ لانه لو عاد إلى الدنيا لفعل كما كان يفعل من قبل ، فيقول تعالى :

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ..﴾ (٢٨) [الأنعام]

وقوله :

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) [النحل]

يستعتبون : مادة استعتب من العتاب ، والعتاب مأخوذ من العتب ، وأصله الغضب والموجدة تجدها على شخص آخر صدر منه نحوك ما لم يكن متوقعاً منه .. فتجد في نفسك موجدة وغضباً على مَنْ أساء إليك .

فإن استقر العتب الذي هو الغضب والموجدة في النفس ، فانت إما أن تعتب على مَنْ أساء إليك وتوضح له ما أغضبك ، فربما كان له عذر ، او أساء عن غير قصد منه ، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك .. فنقول : عتب فلان على فلان فاعتبه ، أي : أزال عتبه .

والإنسان لا يُعَاتِب إلا عَزِيزاً عليه يحرص على علاقته به ،
ويضعه موضعاً لا تنأى منه الإساءة ، ومن حقه عليك أن تعاتبه
ولا تدع هذه الإساءة تهدم ما بينكما .

إذن : معنى :

﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٨٤)

[النحل]

أى : لا يطلب أحد منهم أن يرجعوا عما أوجب العتب وهو
كفرهم .. فلم يعد هناك وقت لعتاب : لأن الآخرة دار حساب ،
وليست دار عمل أو توبة .. لم تعد دار تكليف .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (٨٥)

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ .. ﴾ (٨٥)

[النحل]

كان العذاب سيئاً حسب إمامهم ، فيروته قبل أن يباشروه ، وهكذا
يجتمع الله عليهم ألواناً من العذاب : لأن إدراكات النفس تتأذى
بالمشاهدة قبل أن تألم الأحاسيس بالعذاب : لذلك قال :

﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ .. ﴾ (٨٥)

[النحل]

وقوله : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .. ﴾ (٨٥)

[النحل]

أى : لا يمهلون ولا يؤجلون .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ أَرَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَيْنَا
هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ
الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

ذلك حينما يجمع الله المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس
والجن والأصنام ، وكل مَنْ أشركوه مع الله وَجْهًا لوجه يوم القيامة ،
وتكون بينهما هذه المواجهة .. حينما يرى المشركون شركاءهم الذين
أضلّوهم وزيّنوا لهم المعصية ، وزيّنوا لهم الشرك والكفر بالله ..
يقولون : هؤلاء هم سببُ ضلّالنا وكُفْرنا .. كما قال تعالى عنهم في
آية أخرى :

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

[البقرة]

ويقول تعالى :

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾﴾

[سبا]

وقوله :

﴿فَالْقَوْلُ إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ .. ﴿٨٦﴾﴾

[النحل]

أى : ردّوا عليهم بالمثل ، وناقشوهم بالحجة ، كما قال تعالى في
حقّ الشيطان .

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلَومُونِي وَلِرُؤُوسِهِمْ أَنفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ^(١) وَمَا أَنتم بِمُصْرِخِي^(٢)﴾ . . ﴿٢٢﴾

[إبراهيم]

إذن : ردوا عليهم القول : ما كان عليكم سلطان . نحن دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا قوة تُرغمكم على الفعل ، ولا حُجة تُقنعكم بالكفر ؛ ولذلك يتهمونهم بالكذب :

[التحل]

﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٨٦)

أى : كاذبون فى هذه الدعوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ^(٣) وَضَلَّ عَنْهُمْ

مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٨٧)

السَّلم : أى الاستسلام .. فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهلة ، تعمل أو لا تعمل . إنما الآن ﴿لمن الملك اليوم﴾ ؟ الأمر والملك لله ، وما داموا لم يُسلموا طواعية واختياراً ، فليُسلموا له قهراً ورغمًا عن أنوفهم .

وهنا تتضح لنا مِيزة من مِيزات الإيمان ، فقد جعلنى استسلم لله

(١) المُصْرِخ : المغيث المنقذ من يستصرخه ، واستصرخه : استغاث به . [القاموس القويم ٢٧٣/١] .

(٢) أى : استسلم المشركون لعذابه وخضعوا لعززه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . [تفسير القرطبي ٢٨٩٠/٥] .

عن وجل مختاراً ، بدل أن استسلم قهراً يوم أن تتكشف الحقيقة على أنه لا إله إلا الله ، وسوف يواجهني سبحانه وتعالى في يوم لا اختيار لي فيه .

وقوله :

﴿ وَضَلُّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٨٧)

[النحل]

كلمة : الضلال ترد بمعان متعددة ، منها : ضل أي غاب عنهم شفاعاتهم ، فآخذوا يبحثون عنهم فلم يجدوهم ، ومن هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ أَتَدْرَأُ ضَلَّتْ فِي الْأَرْضِ أُنثَىٰ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴾ (١٠٠)

[السجدة]

أي : يغيبوا في الأرض ، حيث تاكل الأرض ذراتهم ، وتغيبهم في بطنها .. وكذلك نقول : الضالة أي الدابة التي ضلت أي : غابت عن صاحبها .

ومن معاني الضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى :

﴿ أَنْ نَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ .. ﴾ (٢٨٢)

[البقرة]

ومن معانيه : التردد ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ (٧)

[الضحى]

فلم يكن لرسول الله ﷺ منهج ثم تركه وانصرف عنه وفارقه ، ثم هداه الله .. بل كان ﷺ متحيراً متردداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقول الراجحة من أفعال تتنافى مع العقل السليم والفطرة النيرة ،

سُورَةُ النُّحْلِ

٨١٤٥

فكانت حيرة الرسول ﷺ فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها .

فقوله :

﴿ وَضَلُّ عَنْهُمْ .. (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : غاب عنهم :

﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : يكذبون من ادعائهم آلهة وشفعاء من دون الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾

هنا فرّق بين الكفر والصدّ عن سبيل الله ، قال كفر ذنب ذاتي يتعلق بالإنسان نفسه ، لا يتعداه إلى غيره .. فأكفر كما شئت - والعياذ بالله - أنت حر !!

أما الصدّ عن سبيل الله فذنب متعدّ ، يتعدّى الإنسان إلى غيره ، حيث يدعو غيره إلى الكفر ، ويحمله عليه ويؤيّه له .. فالذنب هنا مضاعف ، ذنب لكفره في ذاته ، وذنب لصدّه غيره عن الإيمان ، لذلك يقول تعالى في آية أخرى :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ .. (٩٢) ﴾ [العنكبوت]

فإن قال قائل : كيف وقد قال تعالى :

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۖ ۞ (١٦٤)﴾ [الأنعام]

نقول : لا تعارض بين الآيتين ، فكل واحد سيحمل وزره ، فالذى صدَّ عن سبيل الله يحمل وزرين ، أما مَنْ صدَّه عن سبيل الله فيحمل وزر كفره هو .

وقوله :

﴿وَدَنَّا لَهُمْ عَذَابًا لَّفَوْقَ الْعَذَابِ ۖ ۞ (١٦٥)﴾ [النحل]

العذاب الأول على كفرهم ، ودنناهم عذاباً على كفر غيرهم مِنْ صدُّوهم عن سبيل الله .

ولذلك فالنبي ﷺ يقول : « مَنْ سَنَّ سَنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سَنَةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(١) .

فإياك أَنْ تَقَعَ عَلَيْكَ عَيْنُ الْمُجْتَمِعِ أَوْ أُذُنُهُ وَأَنْتَ فِي حَالِ مَخَالَفَةٍ لِمَنْهَجِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَخَالَفَةَ سَتُؤَثِّرُ فِي الْآخَرِينَ ، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي مَخَالَفَةِ أُخْرَى بِلِ مَخَالَفَاتٍ ، وَسَوْفَ تَحْمِلُ أَنْتَ قِسْطًا مِنْ هَذَا .. فَانْتَ مُسَكِّنٌ تَحْمِلُ سَيِّئَاتِكَ وَسَيِّئَاتِ الْآخَرِينَ .

وقوله :

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ ۖ ۞ (١٦٦)﴾ [النحل]

والإفساد : أَنْ تَعْمَدَ إِلَى شَيْءٍ صَالِحٍ أَوْ قَرِيبٍ مِنَ الصَّالِحِ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٦١/٤ ، ٢٦٢) ، وابن ماجه في سننه (٢٠٧) والترمذي في سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

فَتَقَسَّدَهُ ، وَلَوْ تَرَكَتَهُ وَشَانَهُ لَرَبِمَا يَهْتَدِي إِلَى مَنَهِجِ اللَّهِ .. إِذَنْ : أَنْتَ
أَفْسَدْتَ الصَّالِحَ وَمَنَعْتَ الْقَائِلَ لِلصَّالِحِ أَنْ يُصْلِحَ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ
لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩)

قوله :

﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ ..﴾ (٨٩) [النحل]

يعنى من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعَاة
والوعاظ والأئمة الذين بلغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون
أمام الله سبحانه على مَنْ قَصُرَ فِي مَنَهِجِ اللَّهِ .

وقد يكون معنى :

﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ ..﴾ (٨٩) [النحل]

أى : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى :
﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤)

[النور]

وقوله : ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ..﴾ (٦١) [فصلت]

والشَّهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شك أن
حجته قوية وبَيِّنَتُه واضحة .

وقوله :

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ .. ﴾ (٨٩)

[النحل]

أى : شهيداً على أمتك كأنه ﷺ شهيد على الشهداء .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ .. ﴾ (٩٠)

[النحل]

الكتاب : القرآن الكريم .. تبياناً : أى بياناً تاماً لكل ما يحتاجه
الإنسان ، وكلمة (شىء) تُسمَّى جنس الأجناس . أى : كل ما
يُسمَّى « شىء » فبيانه فى كتاب الله تعالى .

فإن قال قائل : إن كان الأمر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن
يجتهدوا ليُخرجوا لنا حكماً معيناً ؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً فى الأصول ، وقد
أعطى الحق تبارك وتعالى لرسوله ﷺ حق التشريع ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧)

[الحشر]

إذن : فسنة الرسول ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ،
وهى شارحة له ومُوضِّحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين
هذا فى كتاب الله ؟ نقول فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .. ﴾ (٧)

[الحشر]

وقد بيّن الرسول ﷺ هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل

رضى الله عنه - قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكاناته في القضاء . فسأله : « بِمَ تَقْضِي ؟ » قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبُسْنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ^(١) ولا ألو - أي لا أقصر في الاجتهاد .

فقال ﷺ : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله » ^(٢) .

إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نص فيها ، لا في الكتاب ولا في السنة ، فنقد أبيح لنا الاجتهاد فيها .

ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده ^(٣) - رحمه الله - حدث عنه وهو في باريس أن أحد المستشرقين قال له : أليس في آيات القرآن :

﴿ مَا قَرُّطًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ۖ .. ﴾ (٢٨)

قال : بلى ، قال له : فهات لي من القرآن : كم رغيفاً يوجد في أوردب القمح ؟

(١) قال الخطابي في « معالم السنن » : « يريد الاجتهاد في رد القضية من طريق القياس إلى معنى الكتاب والسنة ، ولم يرد الرأي الذي يفتح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنة . وفي هذا إثبات القياس وإيجاب الحكم به » . نقله شمس الحق العظيم آبادي في « عون المعبود شرح سنن أبي داود » ، (٢١٩/٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٠/٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٢) ، وأبو داود في سننه (٣٥٨٧) ، والترمذي في سننه (١٢٢٧) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه .

(٣) مفتي الديار المصرية ، من كبار رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام ، ولد ١٨٤٩ م في قرية من قرى الغربية بمصر ، تعلم بالجامع الاحمدى بطنطا ثم الأزهر ، له « تفسير القرآن الكريم » ورسالة التوحيد - أصدره مع الألفاظ جريدة « العروة الوثقى » في باريس ، توفي بالاسكندرية عام ١٩٠٥ عن ٥٦ عاماً .. [الاعلام للزركلى ٢/٢٥٢] .

فقال الشيخ : فسأل الخبان فعنده إجابة هذا السؤال .. فقال
المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذي ما فرط في شيء ، فقال
الشيخ : هذا القرآن هو الذي علمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر ،
فقال :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧)

[الأنبياء]

إذن : القرآن أعطاني الحجة ، وأعطاني ما أستند إليه حينما
لا أجد نصاً في كتاب الله ، فالقرآن ذكر القواعد والأصول ، وأعطاني
حقَّ الاجتهاد فيما يعن لي من الفروع ، وما يستجد من قضايا ، وإذا
وُجد في القرآن حكم عام وجب أن يؤخذ في طيه ما يؤخذ منه من
أحكام صدرت عن رسول الله ﷺ : لأن الله وكفه.

فقال :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴾ (٧)

[الحشر]

وكذلك الإجماع من الأمة : لأن الله تعالى قال :

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ مَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ^(١) مَا تَوَلَّى .. ﴾ (١١٥)

[النساء]

وكل اجتهاد يرد إلى أهل الاجتهاد :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ

مِنْهُمْ .. ﴾ (٨٣)

[النساء]

(١) نوله ما تولى : أي توجهه إلى ما أحب ، أي : فيسره إلى ما فضله ، فنتشره في ضلاله
الذي أثره وأعبه ، أو تمكنه من السير في ضلاله حتى يلقي جزاءه . [القاموس القويم

إذن : فكل ما صدر عن الرسول ﷺ وعن الإجماع ومن الأئمة المجتهدين موجود في القرآن ، فهو إذن صادق .

ويجب هنا أن تُفرّق بين الأشياء والقضايا فهي كثيرة ، فما الذي يتعرّض له القرآن ؟ يتعرض القرآن للأحكام التكليفية المطلوبة من العبد الذي آمن بالله ، وهناك أمور كونية لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأن يعلمها ، فهو ينتفع بها سواء علمها أو جهلها ، فكون الأرض كروية الشكل ، وكونها تدور حول الشمس ، وغير هذه الأمور من الكونيات إن علمها فبها ونعمت ، وإن جهلها لا ينفعه جهله من الانتفاع بها .

فالأمى الذي يعيش في الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيئاً عن طبيعتها وكيفية عملها ، ومع ذلك ينتفع بها ، مجرد أن يضع أصبعه على زرّ الكهرباء تُضىء له .

فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانة واضحة ربما صدّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مقاصد القرآن حول الآيات الكونية ؛ ولذلك سألوا رسول الله ﷺ عن الأهلّة ، كما حكى القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ (١٨٩) ﴾ [البقرة]

والأهلّة : جمع هلال ، وهو ما يظهر من القمر في بداية الشهر حيث يبدو مثل قلامة الظفر ، ثم يزداد تدريجياً إلى أن يصل إلى مرحلة البدر عند تمام استدارته ، ثم يتناقص تدريجياً أيضاً إلى أن يعود إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف رَدُّ عليهم القرآن ؟ لم يُوضح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الأرض إذا حالتُ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية ؛ لذلك يقول لهم : اصبروا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه في الألهة :

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

قصدتهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدي ، فاهتمّ ببيان الحكمة منها ، وفي نفس الوقت ترك هذه المسألة للزمن يشرحها لهم ، حيث سيجدون في القرآن ما يُعينهم على فهم هذا الموضوع .

إذن : قوله تعالى :

﴿مِنْ شَيْءٍ .. (٢٨)﴾ [الأنعام]

أى : من كل شيء تكليفى ، إن فعله المؤمن أثيب ، وإن لم يفعله يُعاقب ، أما الأمور الكونية فيعطيه منها على قدر وعيهم لها ، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد .

لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله في القرن الذى نزل فيه ، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء ، فالحقول تتفتح على مرّ العصور وتتفتح عن فكر جديد ، ولا يصح أن يظلّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد ، لا بدّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتفاعات البشر في علومه الكونية .

والرسول ﷺ حينما رأى الناس يُؤبِرُونَ النخل ، أى : يُلْقِحُونَهُ .
وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب ، حيث يأخذون من الذكر ويضعون
فى الأنثى . فماذا قال لهم ؟ قال : لو لم تفعلوا لأمُرت ، ففى الموسم
القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل ، فلما سئل ﷺ فى ذلك
قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ^(١) .

فهذا أمر دنيوى خاضع للتجربة ووليد بحث معملى ، وليس من
مهمة الرسول ﷺ توضيح هذه الأمور التى يتفق فيها الناس وتتفق
فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التى تختلف فيها الأهواء ،
فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً فى العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات
والاستنباطات التى تُسخر أسرار الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف
الناس حول مُعطيات هذه الموجة المادية ؟ هل نقول مثلاً : هذه
كهرباء أمريكانى ، وهذه كهرباء روسى ؟ هل نقول : هذه كيميائى
إنجليزى ، وهذه كيميائى ألمانى ؟

فهذه مسألة وليدة المعمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، فى
حين نجدهم يختلفون فى أشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه
اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية .. الخ ،
فجاء الدين ليحسم ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك ترى كل معسكر يحاول أن يسرق ما توصل إليه المعسكر
الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليقاطعوا أحدث

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٦٢) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ مرّ بمقوم
يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لأمُرت . قال : فخرج شيخاً أمر بهم فقال : ما أنخلكم ؟
قالوا : قلت كنا وكنا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ما توصل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً ؟ لا .. بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكي لا تنتقل هذه المبادئ إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنهم .

وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح في حق رسول الله أن يُشير على الناس بشيء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أن يُوصل قاعدة في نفوس المتكلمين في شئون الدين : إياكم أن تُفحموا أنفسكم في الأمور المادية العملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوي فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كُروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم في قضية لا تدخل للدين فيها ، وقد حذّرهم رسول الله ﷺ من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كُروية فعلاً ؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غلقه .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨٩)

[التحل]

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدًى) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضى أن يقول : وهادياً ، لكن لم يصف القرآن بأنه هادٍ ، بل هُدًى ، وكأنه نفس الهدى : لأن هادياً ذاتٌ ثبت لها الهداية ، إنما هُدًى : يعنى هو جوهر الهدى ، كما

نقول : فلان عادل . وفى المبالغة نقول : فلان عدل . كأن العدل
مجسّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى :

﴿ وَلَوْ قَوْلُ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) [يوسف]

فما معنى الهدى ؟ هو الدلالة على الطريق الموصّل لل غاية من
أقرب الطرق .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ مرّة يوصّف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. ﴾ (٨٢) [الإسراء]

والشفاء : أن يوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هى الوقاية
التي تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فمن عمل بمنهجه فقد
بُشِّرَ بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد فى نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩٠)

للحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ،
وإيتاء ذى القربى . وثلاثة نواه : عن الفحشاء والمنكر والبغى . ولما
نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه

الآية^(١) لأنها جمعت كل الفضائل التي يمكن أن تكون في القرآن الكريم .
ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون^(٢) كان رسول الله ﷺ يحب له أن
يسلم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله ﷺ لا يحب عرض
الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشيماً تحسن في الإسلام .

وكانه - ﷺ - ضنّ بهذه المخايل أن تكون في غير مسلم ، لذلك
كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا
عثمان بن مظعون تريت في الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ في
مجلس ، فراه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون :
ما حدث يا رسول الله ؟ فقال : إن جبريل - عليه السلام - قد نزل
على الساعة يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل]

قال ابن مظعون - رضي الله عنه : فاستقر حب الإيمان في قلبي
بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير^(٣) .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن
مظعون في هذه الآية قال : يا معشر قريش آمنوا بالذي جاء به
محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق^(٤) .

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٩٢/٥) .

(٢) هو : عثمان بن مظعون الجمعي - أبو السائب - صحابي . كان من حكماء العرب في
الجاهلية . أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً . هاجر إلى أرض الحبشة مرتين ، شهد بدرًا ، لما
مات حواء النبي ﷺ فقبله ميتاً . حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان . [الأعلام
للزركلي ٢١٤/٤] .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٥٩/٥) وعزاه لأحمد والبخاري في الأدب وابن أبي
حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما . وكذا أورده الواحدي في
أسياب الغزول (١٦١) .

(٤) أورده القرطبي في تفسيره (٢٨٩٩/٥) أن أبا طالب قال : اتبعوا ابن أخي ، فوالله إنه
لا يأمر إلا بأحسن الأخلاق .

وَيُرَوَّى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَعْرُضُ نَفْسَهُ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ ،
وَكَانَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ ، قَالَ عَلِيٌّ : فَإِذَا بِمَجْلِسٍ عَلَيْهِ رِقَارٌ
وَمَهَابَةٌ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدَعَاهُمْ إِلَى شَهَادَةِ آلِهِ إِلَّا اللَّهَ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَامَ إِلَيْهِ مَقْرُونُ بْنُ عَمْرٍو وَكَانَ مِنْ شِيَّانِ
ابْنِ ثَعْلَبَةَ فَقَالَ : إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟ فَقَالَ ﷺ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

[النحل]

فَقَالَ مَقْرُونُ : إِنَّكَ دَعَوْتَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَحْسَنِ الْأَعْمَالِ ،
أَفَكَيْتَ^(٢) قُرَيْشٍ إِنْ خَاصَمْتُكَ وَظَاهَرَتْ عَلَيْكَ .

أَخَذَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ هَذِهِ الْآيَةَ وَنَقَلَهَا إِلَى عِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ،
فَاخَذَهَا عِكْرَمَةُ وَنَقَلَهَا إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّ آيَةَ نَزَلَتْ
عَلَى مُحَمَّدٍ تَقُولُ كَذًا وَكَذَا ، فَأَفَكِرَ^(٣) الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ - أَيْ : فَكَّرَ
فِيمَا سَمِعَ - وَقَالَ : وَاللَّهِ إِنْ لَهُ لِحِلَاوَةٌ ، وَإِنْ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةٌ ، وَإِنْ
أَعْلَاهُ لَمُثْمَرٌ ، وَإِنْ أَسْفَلُهُ لَمُغْدِقٌ ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ ، وَمَا هُوَ
بِقَوْلِ بَشَرٍ^(٤) .

وَمَعَ شَهَادَتِهِ هَذِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ ، فَقَالُوا : حَسْبُكَ أَنَّهُ شَهِيدٌ
لِلْقُرْآنِ وَهُوَ كَافِرٌ .

(١) الْإِفْكَ : الْكُذْبُ وَالْإِثْمُ . وَالْأَفْسَاكُ : الَّذِي يَأْتِيكَ النَّاسُ أَيْ يَصْدِدُهُمُ مِنَ الْحَقِّ بِبَاطِلِهِ .
وَالْمَافُوكُ : الْمَافُونَ وَهُوَ ضَعِيفُ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : أَفَكَ] .
(٢) فَكَّرَ فِي الشَّيْءِ وَأَفَكَرَ فِيهِ وَتَفَكَّرَ . بِمَعْنَى وَاحِدٍ . [لِسَانُ الْعَرَبِ - مَادَّةُ : فَكَّرَ] .
(٣) أَوْرَدَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (٢٨٩٢/٥) .

وهكذا دخلت هذه الآية قلوب هؤلاء القوم ، واستقرت في أفئدتهم ؛ لأنها آية جامعة مانعة ، دعت لكل خير ، ونهت عن كل شر .

قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۖ ﴾ (٩١) [النحل]

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمي الحاكم العادل مُنصِفاً ؛ لأنه إذا مثَّل الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصف تكوينه ، وكأنه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قسَد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان ، والميزان تختلف دقته حسب الموزون ، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقل زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُم ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً في الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقل ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر في كل أقضية الحياة من القفة في شهادة ألا إله إلا الله إلى إمطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب في أمور التكليف كلها ، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب ، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح في حركة الحياة .

فكيف يكون العدل في الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود

إله في الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً . وآخرون يقولون بتعدد الآلهة ، هكذا تناقضت الأقوال وتباعدت الآراء ، فجاء العدل في الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنْزَهُ عَمَّا يُشَبِّهِه الصَّوَادِثُ ، كما وقف موقف العدل في صفاته سبحانه وتعالى .

فَلَهُ سَمْعٌ ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا تنفي عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطلة ، ولا نُشَبِّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبهة ، بل نقول : ليس كمثله شيء ، ونقف موقف العدل والوسطية .

كذلك من الأمور العقيدية التي تجلّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَفْعَلُ أَفْعَالَهُ بِاخْتِيَارِهِ دُونَ دَخْلِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي أَعْمَالِ الْعَبْدِ ؛ وَلِذَلِكَ رَتَّبَ عَلَيْهَا ثَوَابًا وَعِقَابًا . وَمَنْ يَقُولُ : لَا ؛ بَلْ كُلُّ الْأَعْمَالِ مِنْ اللَّهِ وَالْعَبْدُ مُجْبَرٌ عَلَيْهَا .

فيأتي الإسلام بالعدالة والوسطية في هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التي خلقها الله فيه للاختيار .

وفي التشريع والأحكام حدث تباين كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام - في القصص ميثاقاً : في شريعة موسى حيث طغت المادية على بني إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام :

﴿ أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهَنَّةَ (١٥٤) ﴾

[النساء]

فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم

الْقَصَاصِ وَلَا يَدُّ ، وَلَوْ تَرَكَهُمُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ لَكُنْتُ فِيهِمُ الْقَتْلَ ، فَهُمْ لَا يَنْتَهُونَ إِلَّا بِهَذَا الْحُكْمِ الرَّادِعِ : مَنْ قَتَلَ يُقْتَلُ ، وَالْقَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ .

وقد تعدى بنو إسرائيل في طلبهم رؤية الله ، فكونك ترى الإله تتاقض في الألوهية ؛ لأنك حين تراه عينك فقد حددته في حين .

إذن : كونه لا يرى عين الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع في رؤيته جلاً وعلاً ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التي بين جنبي كل منا ماذا تعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكر ، وبها نعيش ، أين هي ؟

فإذا ما فارقت الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس في مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأي حاسة من حواسك ؟

فإذا كانت الروح وهي مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمن خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنى من المعاني التي يدعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها ، هذا الحق ما شكله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟ فإذا كنا لا نستطيع أن نتصور الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع في رؤيته ؟

ومن إسراف بنى إسرائيل في العادية أن جعلوا لله تعالى في التلمود جماعة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قاعداً على صخرة يُدلى رجليه في قصعة من المرمر ، ثم أتى حوت .. الخ .. سبحانه الله ؛
ألهذا الحد وصلت بهم العادية ؟

ومن هنا كان الكون في حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هي أيضاً مُسرّفة في الروحانية ليحدث نوع من التوازن في الكون ، فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - بعد مادية مُفرطة وإسراف في الموسوية ، فكيف يكون حُكم القصاص فيها وهي تهدف إلى أن تسمو بروحانيات الناس ؟

جاءت شريعة عيسى عليه السلام تُهدئ الموقف إذا حدث قتل ، فيكفي أن قُتل واحد ولتستبقى الآخر ولا نثير ضجة ، ونهيج الأحقاد والثرة بين الناس ، فدعت هذه الشريعة إلى العفو عن القاتل .

ثم جاء الإسلام ووقف موقف العدل والوسطية في هذا الحكم ، فأقرّ القصاص ودعا إلى العفو ، فأعطى وليّ المقتول حقّ القصاص ، ودعاه في نفس الوقت إلى العفو في قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ..

[البقرة]

﴿ (١٢٨) ﴾

ونلاحظ هنا أن القرآن جعلهم إضوة ليُرَقّق القلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص في الإسلام حكمٌ عالية ، فليس الهدف منه أن يُضخم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ .. ﴾ (١٧٩) [البقرة]

فمن أراد أن يحافظ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينما يُعطى ربنا تبارك وتعالى حقَّ القصاص لولى المقتول ويُمكنه منه تبرؤ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر في العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكم الغلُّ من الصدور ويُطفيء نار النار بين الناس .

ولذلك نرى في بعض البلاد التي تنتشر فيها عملية النار يأتى القاتل حاملاً كفته على يده إلى ولى المقتول ، ويضع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديك اقتلتنى وهذا كفى .

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق ولى الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من ولى الدم أداةٌ سنَاء ، ووسيلة محبة ، فحين نعطيهِ حقَّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصبحت حياة القاتل هبة من ولى الدم ، فكانه استأنسه واستبقاه بعفوه عنه ، وهذا جميل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حقن دم ابننا .

موقف آخر لعدالة الإسلام ووسطيته نراها فى حكم الحيض مثلاً ، نفى شريعة موسى - عليه السلام - يُخرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفى شريعة عيسى - عليه السلام - لا مانع من وجودها فى البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل فى هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض فى بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢٢٢)

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية فى حياتنا ، والتى هى عصب الحياة ، والتى بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث فى المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزَّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يخدمنى به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذى تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتراودك فيه آمال ، فإن شاركت فى حركة الحياة واكتسبت المال الذى هو عصب الحياة فعليك أن توازن بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقت جميع ما اكتسبت فى نفقاتك الحاضرة فقد ضيعت على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبني به بيتاً مثلاً ، أو تشتري به سيارة ، أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة .

وهذا ما نسميه الإسراف .

وفى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء ، وكذلك لا يليق بك التقشير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسك الرمق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطلالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾
[الإسراء]

أى : لا تُمسك يدك بخلًا وتقتيراً ، فتكون ملوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بسطاً يصل إلى حد الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسر حينما ترى المقتصد قد حقق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقى هو فى حياته وأنت مُعَدَم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدخر جزءاً من كسبك يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى :

﴿إِنَّ الْمُبْتَلِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ٢٧﴾
[الإسراء]

وقال : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا^(١) وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ

(١) قتر الرجل على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . [القاموس القويم ٩٩/٢] .

[الفرقان]

قَوَامًا (١٦٧) ﴿

إذن : فالعدلُ أمرٌ دائرٌ في كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عقدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال في حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْرُ الْأُمُورِ الْوَسْطُ .

[النحل]

وقوله : ﴿ وَالْإِحْسَانُ .. (١٦٨) ﴾

ما الإحسان ؟

إذا كان العدل أن تأخذ حَقَّك ، وأن تُعاقبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبْتَ بِهِ كما قال تعالى :

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ .. (١٦٩) ﴾

[البقرة]

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. (١٧٠) ﴾ [النحل]

فالإحسان أن تتركَ هذا الحق ، وأن تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجهِ الله ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ وَالْكَافِرِينَ الْفِيَظُ وَالْعَالَمِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٧١) ﴾

[آل عمران]

والناس في الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستعداده الخُلُقِي .

وأول هذه المراتب كظم الفَيْظِ ، من كَظَمَ الْقِرْبَةَ الْمَمْلُوءَةَ ،

فإنَّ الإنسانَ يكظم غَيْظَه في نفسه ، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والردِّ بالمثل ، ولكنه يظل يعاني ألم الغيظ بداخله وتناجح ناره في قلبه .

لذلك يحسُنُ الترقى إلى المرتبة الأعلى ، وهي مرتبة العفو ، فيأتى الإنسان ويقول : لماذا أدعُ نفسي قريسة لهذا الغيظ ؟ لماذا أشغل به نفسي ، وأقاسى ألمه ومراره ؟ فيميل إلى أن يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمن أساء إليه ، ويُخرج المسألة كلها من قلبه .

فإن ارتقى الإنسان في العفو ، سعى إلى المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة أن تُحسن إلى من أساء إليك ، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردِّ بالمثل ، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ، فالذى اعتدى اعتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسبه ، والذى ترقى في درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله تعالى ، وأبْن قدرتك من قدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسان أجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أن تعفوَّ عمن أساء ، بل إلى أن تُحسن إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولدين اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه ، فعماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيهما يميل قلبك ؟

لا شك أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه ، وقد يتعدى الأمر

إلى أن تُرضيه بهدية وتُريه من حنانك والطفك ما يذهب عنه ما يُعاني ، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهي التي عطفت قلبك إليه ، وعادت عليه بالهدايا والالطاف .

إذن : من الطبيعي أن يُحسن المعتدي عليه إلى المعتدي ، وأن يشكر له أن تسبب له في هذه النعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصري - رحمه الله : أفلا أحسن لمن جعل الله في جانبي ؟

فالإحسان : أن تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكون من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبدنا الله به ، فمثلاً تعبدنا الله بخمس صلوات في اليوم والليلة فلا مانع من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر في الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسان في الكيفية دون زيادة في العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أحسن ما أنا بصدد من القرض ، وأتقن ما أنا فيه من العمل ، وأخلص في ذلك عملاً بحديث جبريل عليه السلام - حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »^(١) .

فعليك أن تستحضر في عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإن لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقل من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأن تُعطى العبادة حقها ولا تسرق منها ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه

مسلم في صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فَاللَّصُّ لَا يَجْرُؤُ عَلَى سَرَقَةِ الْبَيْتِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَهُ يَرَاهُ ، فَإِذَا
كُنَّا نَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ بَعْضِنَا الْبَعْضَ فَيَخْشَى أَحَدُنَا نَظَرَ الْآخَرِينَ ، أَيْلِقُ
بِنَا أَنْ نَتَجَرَّأَ عَلَى اللَّهِ وَنَحْنُ نَعْلَمُ نَظْرَهُ إِلَيْنَا ۚ

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي :

« يَا عِبَادِي ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي لَا أَرَاكُمْ فَالْخَلُّ فِي
إِيمَانِكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنِّي أَرَاكُمْ ، فَلِمَ جَعَلْتُمُونِي أَهْوَنَ
الْمُنَظَرِينَ إِلَيْكُمْ ؟ »

وقال بعضهم^(١) في معنى العدل والإحسان :

العدل : أَنْ تُسْتَوَى السَّرِيرَةُ مَعَ الْعَلَانِيَةِ .

والإحسان : أَنْ تَعْلُو السَّرِيرَةُ وَتَكُونَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَلَانِيَةِ .

والمعكَّر : إِنْ عُلَّتِ الْعَلَانِيَةُ عَلَى السَّرِيرَةِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ۖ ۝ (٩٠) ﴾ [النحل]

إِيتَاءٌ : أَيْ إِعْطَاءٌ .

قالوا : لَأَنَّ الْعَالَمَ حَلَقَاتٌ مَقْتَرَنَةٌ ، فَكُلُّ قَادِرٍ حَوْلَهُ أَقْرِبَاءٌ ضُعَفَاءُ
مُحْتَاجُونَ ، فَلَوْ أَعْطَاهُمْ مِنْ خَيْرِهِ ، وَأَقْضَى عَلَيْهِمْ مِمَّا أَقْضَى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قاله سفيان بن عيينة فيما نقله القرطبي عنه في تفسيره (٢٨٩٢/٥) وقال ابن العربي :

- العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ،
والاجتناب للزواجر ، والاعتثال للأوامر .

- وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، ولزوم القناعة قس كل حال
ومعنى .

- وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف
من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إسامة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا في سر
ولا في علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من الجلوى .

لَعَمَّ الْخَيْرِ كُلِّ الْمَجْتَمَعِ ، وما وجدنا مُعَوِّزاً محتاجاً ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعْطَى مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى في مجتمعنا فقيراً ، وقد حُتَّتْ الآيَةُ عَلَى الْقَرِيبِ ، وَحُتَّتْ عَلَيْهِ الْقُلُوبُ ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك . وداخل في دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبي ﷺ ؛ لأن قرابة النبي ﷺ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الزَّكَاةُ الَّتِي أَحَلَّتْ لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مِيزَةٌ يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ في حاجة إلى الزكاة ، وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَاؤُكُمْ أَصْحَابَ رَحِمٍ ، فَلَا تَتَسَوُا أَنْ قَرَابَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْلَى مِنْ أَرْحَامِكُمْ ، كما قال تعالى :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..﴾ (١)

[الاحزاب]

هذه هي مجموعة الأوامر الواردة في هذه الآية ، وإن مجتمعاً يُتَقَدُّ مثل هذه الأوامر ويتحلَّى بها أفرادُه ، مجتمع ترتقى فيه الاستعدادات الخَلْقِيَّةُ ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع نَعْمُ فِيهِ النِّعْمَةُ ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لمجتمع سعيد آمن يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ ۝٦٠ ﴾ [النحل]

وهذه مجموعة من النواهي تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قوياً يضمن سلامة المجتمع ، وأولى هذه النواهي النهي عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذي سماه القرآن فاحشة ، فهي إذن الزنا ، أو كل شيء يخدش حُكماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنس الأعراض ، وبه يشك الرجل في أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصّ عليه القرآن صراحة في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَاءً سَبِيلاً ۝٦١ ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء في الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذي يخجل صاحبه منه ويستتره عن الناس ، فلا يستطيع أن يُجاهر به ، كانه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصح ، ولا ينبغي لأحد أن يطلع عليه . (والمنكر) هو الذنب الذي يتجرأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرج أن يعرفه المجتمع فيستتره في نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .
(والبغى) هو الظلم فى أى لونٍ من ألوانه ، وهو داخل فى
أشياء كثيرة أعظمها ما يقع فى العقيدة من الشرك بالله ، كما قال
تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٤) ﴾ [لقمان]

والظلم هذا أن تسلب الحق - تبارك وتعالى - صفة من صفاته ،
وتشرك معه غيره وهو خالقك ورزقك ، ومنه ظلم الرسول ﷺ حيث
لم يُجرب عليه فى يوم من الأيام أن قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما
لم يُجرب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة ، ومع هذا كله
قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون ، وأى ظلم
أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظَلَمَ الإنسان نفسه حينما يُحقق لها شهوة عاجلة
ومتعة زائفة ، تُورثه نداماً وحسرة وألماً أجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم
نفسه ظلماً كبيراً وجَرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فضلاً عن ظلم الإنسان
لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمت مجموعة من الأوامر والنواهي التى تضمن
سلامة المجتمع بما جمعت من مكارم الأخلاق ، والأخلاق أعم من أن
تكون فى الاعتقادات ، وأعم من أن تكون فى المعجزة إيماناً بها ،
وأعم من أن تكون فى التكليف ، وأعم من أن تكون فى أمر لا حدَّ
فيه ولا حكم ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعْظُمُكُمْ (١٥) ﴾ [النحل]

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكي نعرفه ، ولكنه عرضة لأن نغفل عنه ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العظة إلا قيما له قيمة ، ومادام الشيء له قيمة فلا تصطفى له إلا من يحب ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يحب خلقه وصنعتهم ؛ لذلك يعظهم ويذكرهم باستمرار لكي يكونوا دائماً على الجادة ليستمتعوا بنعم المسبب في الآخرة ، كما تمتعوا بنعمة الأسباب في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٩١)

الوفاء : أن تفي بما تعاهدت عليه ، والعهود لا تكون في المفروض عليك ، إنما تكون في المباحات ، فانت حر أن تلقاني غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً في الساعة كذا ومكان كذا فقد تحول الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كل منا ملزماً بأن يفي بعهده ؛ لأن كل واحد منا عطل مصالحه ورتب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أن يفي أحدهما ويخلف الآخر ، لأن ذلك يتسبب في عدم تكافؤ الفرص ، ومعلوم أن مصالح العباد في الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

سورة النحل

وقد ينتظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه مُلْزَمٌ به وحده ،
أو أنه عبءٌ عليه دون غيره ، لكنه في الحقيقة عليك وعلى غيرك ،
فكما طلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين ، فكلُّ تكليف لك
لا تنتظر إليه هذه النظرة ، بل تنتظر إليه على أنه لصالحك .

بك الحال ، وإذا تبدل غناك فقراً ، فكما أخذنا منك في حال الغنى سنُعطيك في حال الفقر ، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى الأمور التكليفية .

وقوله تعالى :

﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ . . (٩١) ﴾

[النحل]

عهد الله : هو الشيء الذي تعاهد الله عليه ، وأول عهد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما يطلبه منك وما يكلفك به ، وإياك أن تُخلَ بأمر من أموره ؛ لأن الاختلال في أي أمر تكليفي من الله يُعدُّ نقصاً في إيمانك ؛ لأنك حينما آمنت بالله شهدت بما شهد الله به لنفسه سبحانه في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (١٨) ﴾

[آل عمران]

فأول مَنْ شهد الله سبحانه لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات (والملائكة) أي : شهادة المشاهدة (وأولوا العلم) أي : بالدليل والحجة .

إذن : فأول عهد بينك وبين الله تعالى أنك آمنتَ به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مربيّاً ، فاستمع إلى ما يطلبه منك ، فإن لم تستمع وتنفذ فاعلم أن العهد الإيماني الأول قد اختل .

ولذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - لم يُكلف الكافر ، لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يُكلف مَنْ آمَنَ ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيماني :

[البقرة]

﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٨٢)﴾

كما فى قوله تعالى :

[البقرة]

﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.. (١٨٣)﴾

فيا مَنْ آمَنْتَ بى رَبِّكَ ، ورضيتنى إلهاً اسمع مِنِّى ؛ لأننى سأعطيك
قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذى يُسعدك بالمسبب فى
الآخرة بعد أن أسعدك بالاسباب فى الدنيا .

وقوله :

[النحل]

﴿وَلَا تَقْضُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا.. (٩١)﴾

الإيمان : جمع يمين ، وهو الحلف الذى تحلفه وتؤكد عليه
فنقول : والله ، وعهد الله .. الخ . إذن : فلا يليق بك أن تنقضَ
ما أكَّدته من الإيمان ، بل يلزمك أن تُوفى بها ؛ لأنك إن وفيت بها
وفى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر
إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد
الإيمانى بالله تعالى ؛ لأننا حينما نتعاقد نُشهد الله على هذا العهد ،
فنقول : بينى وبينك عَهْدُ الله ، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى
لنوثق ما تعاهدنا عليه ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

[النحل]

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا.. (٩١)﴾

أى : شاهداً ورقياً وضامناً .

وقوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (١١)﴾ [النحل]

أى : اعلم أن الله مُسَلِّع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكِنُّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أن تعطيه وأنت تنوى أن تخالفه ، إياك أن تُعطى العهد خُداعاً ، فربك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل .

ثم يُعَقِّب الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِنَّ وَلِيَّيْنَنْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ (١٢)﴾

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا فى هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينقضون العهد والأيمان ، ولا يُوفون بها ، بهذه المرأة القرشية الحمقاء ربيعة بنت عامر ، وكانت تأمر جواريتها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر ، ثم تأمرهنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر^(١) ، والمتأمل فى هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة .

أولاً : ما الغزل ؟

(١) الأثلاث : جمع نكت ، وهو الغزل يُحْلُ بعد غثته وإحكامه . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٤] .
(٢) النكث : المكر والخديعة والعدو وما يفعل من فساد باطنه وسامت سريره . [القاموس القويم ١/ ٢٢٤] .

(٣) أورده القرطبي فى تفسيره (٢/ ٢٨٩٧) وعزاه لفراف . قال القرطبي : حكاه عبد الله بن كثير والنسفي ولم يسميا المرأة . وقال مجاهد والقاسم : ذلك ضرب مثل لا على امرأة معينة .

الْفَزْلُ عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فَكُنَّ يُحْضِرْنَ المَادَّةَ التي تصلح للفزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف في طولها من نوع لآخر يُسمونها التيلة ، فيقولون « هذه تيلة قصيرة » « وهذه طويلة » .

وَالْفَزْلُ هو أن تُكوِّنَ من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً مستديراً وانسيابياً دون عُقْدٍ فيه لكي يصلح للنسج بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المغزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم برمها بالمغزل ، ليخرج في النهاية خيطٌ طويلٌ مُنسَجٌّ متناسقٌ لا عُقْدَ فيه .

وَالْآيَةُ هنا ذكرت المرأة في هذا العمل ؛ لأنه عمل خاص بالنساء في هذا الوقت دون الرجال ، فكانت المرأة تَكْنُ في بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التي تكون منها أثاث بيتها من قُرْش وملايس وغيره .

وإلى الآن نرى المرأة التي تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْتَرِك الاختلاط ، تراها تقوم بمثل هذا العمل النسائي .

وقد تطور المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة ، مما يُيسِّر للنساء هذه الأعمال ، ويحفظهن في بيوتهن ، وينشر في البيت جَوْكاً من التعاون بين الأم وأولادها ، وأمامنا مثلاً مشروع الأسر المنتجة حيث تشارك المرأة بنجزء كبير في رُقَى المجتمع ، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصون حرمتها .

فَالْقُرْآنُ ضَرْبٌ لَنَا مِثْلًا بِعَمَلِ الْمَرَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، هَذَا الْعَمَلُ الَّذِي
يَحْتَاجُ إِلَى جَهْدٍ وَوَقْتٍ فِي الْغَزْلِ ، وَيَحْتَاجُ إِلَى أَكْثَرٍ مِنْهُ فِي نَقْضِهِ
وَفُكِّهِ ، فَهَذِهِ عَمَلِيَّةٌ شَاقَّةٌ جَدًّا ، وَرَبَّمَا أَمَرَتِ الْجَوَارِي بِفُكِّ الْغَزْلِ
وَالنَّسِيجِ أَيْضًا ؛ وَلِذَلِكَ أَطْلَقُوا عَلَيْهَا حَمَقَاءَ قَرِيشٍ .

وقوله :

﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ .. ﴾ (٩٦)

[النحل]

كَلِمَةُ قُوَّةٍ هُنَا تَدُلُّنَا عَلَى الْمَرَاهِلِ الَّتِي تَعْمُرُ بِهَا عَمَلِيَّةُ الْغَزْلِ ، وَكَمْ
هِيَ شَاقَّةٌ ، بِدَايَةِ مَنْ جَزَّ الصَّوْفَ مِنَ الْغَنَمِ أَوْ الْوَيْرَ مِنَ الْجِمَالِ ، ثُمَّ
خَطَّ أَطْرَافَ كُلِّ تَيْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعِيرَاتِ ، بِحَيْثُ تَكُونُ طَرَفُ كُلِّ تَيْلَةٍ
مِنْهَا فِي وَسْطِ الْآخَرَى لِكَيْ يَتِمَّ التَّلَاحُمُ بَيْنَهَا بِهَذَا الْمَرْجِ ، ثُمَّ تَدِيرُ
الْمَرَاةُ الْمَغْزُولَ بَيْنَ أَصَابِعِهَا لِتَخْرُجَ لَنَا فِي النِّهَايَةِ بَضْعَةٌ سَنَتِيمَتَرَاتٍ
مِنَ الْخِيطِ ، وَلَوْ قَارَنَّا بَيْنَ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ الْيَدَوِيَّةِ ، وَبَيْنَ مَا تَوَصَّلَتْ إِلَيْهِ
صِنَاعَةُ الْغَزْلِ الْآنَ لَقَبِينَا لَنَا كَمْ كَانَتْ شَاقَّةً عَلَيْهِمْ .

فَكَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ شَبَّهَ الَّذِي يُعْطَى الْعَهْدَ وَيُؤْتَقَفُ بِالْإِيمَانِ
الْمُؤَكَّدَةِ ، وَيَجْعَلُ اللَّهُ وَكِيلًا وَشَاهِدًا عَلَى مَا يَقُولُ بِالنِّسْبَةِ غَزَلَتْ هَذَا
الْغَزْلَ ، وَتَحَمَلَتْ مَشَقَّتَهُ ، ثُمَّ رَاحَتْ فَتَنْقُضُ مَا أَنْجَزَتْ ، وَفُكَّتْ
مَا غَزَلَتْه .

وَكَذَلِكَ كَلِمَةُ (قُوَّةٌ) تَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ يَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةٍ ، هَذِهِ
الْقُوَّةُ إِمَّا أَنْ تُحَرِّكَ السَّاكِنَ أَوْ تُسَكِّنَ الْمُتَحَرِّكَ ؛ لِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي
آيَةِ أُخْرَى :

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ .. ﴾ (٩٣)

[البقرة]

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه ، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه .

وهذه يسمونها في علم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل متحركاً إلى أن يعرض له شيء يُسكنه ، والساكن يظل ساكناً إلى أن يعرض له شيء يُحركه .

ومن هنا يتعجب الكثيرون من الأقمار الصناعية التي تدور أعواماً عدة في الفضاء : ما الوقود الذي يُحرك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام ؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها ، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط ، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذب ، فإذا ما استقر القمر أو السفينة الفضائية في منطقة عدم الجذب تدور وتحرك بنفسها دون وقود ، فهناك الشيء المتحرك يظل متحركاً ، والساكن يظل ساكناً .

والحق - تبارك وتعالى - بهذا المثل المشاهد يُحذرننا من إخلاف العهد ونقضه ؛ لأنه سبحانه يريد أن يصون مصالح الخلق ؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيمان التي تبرم بينهم ، فمن خان العهد أو نقض الأيمان لا يوثق فيه ، ولا يُطمأن إلى حركته في الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

[النحل]

وقوله : ﴿ أُنْكَاثًا ۖ ۝٩٢ ﴾

جمع نكث ، وهو ما نقض وحل فتله من الغزل .

وقوله :

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ..﴾ (٩٢) [النحل]

الدُّخْلُ : أَنْ تَدْخُلَ فِي الشَّيْءِ شَيْئًا أَدْنَى مِنْهُ مِنْ جَنْبِهِ عَلَى سَبِيلِ الْغِشِّ وَالْخَدَاعِ ، كَانَ تَدْخُلَ فِي الذَّهَبِ عِيَارَ ٢٤ قَيْرَاطًا مِثْلًا ذَهَبًا مِنْ عِيَارِ ١٨ قَيْرَاطًا ، أَوْ كَانَ تَدْخُلَ فِي اللُّوزِ مِثْلًا نَوَى الْمَشْمَشِ عَلَى أَنَّهُ مِنْهُ . فَكَانَ الْأَيْمَانُ الْقَائِمَةُ عَلَى الصَّدْقِ وَالْوَفَاءِ يُعْطِيهَا صَاحِبُهَا وَهُوَ يَتَوَكَّلُ بِهَا عَلَى الْغِشِّ وَالْخَدَاعِ ، فَيَحْلِفُ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يَقْصِدُ تَتْوِيمَهُ وَالتَّغْيِيرَ بِهِ .

وقوله :

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ (٩٢) [النحل]

هَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ فِي أَنْ تَتَّخِذَ الْأَيْمَانُ دَخَلًا فِيمَا بَيْنَنَا ، الْأَيْمَانُ الزَّائِفَةُ الْخَادِعَةُ : ذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِي بَاعَ نَوَى الْمَشْمَشِ مِثْلًا عَلَى أَنَّهُ لُوزٌ ، فَقَدْ أَرْبَى أَيْ : أَخَذَ أَرْبَدًا مِنْ حَقِّهِ وَنَقَصَ حَقَّ الْآخَرِينَ ، فَالْعِلَّةُ إِذَنْ فِي الْخَدَاعِ بِالْأَيْمَانِ الطَّمَعِ وَطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِينَ .

وَقَدْ تَأْتَى الزِّيَادَةُ بِصُورَةٍ أُخْرَى ، كَانَ تُعَاهَدُ شَخْصًا عَلَى شَيْءٍ مَا ، وَأَدْبِتَ لَهُ بِالْعَهْدِ وَالْأَيْمَانِ وَالْمَوَاقِيقِ ، ثُمَّ عَنْ لَكَ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ سِوَاءَ كَانَ بِالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ أَوْ بِالْإِغْرَاءِ ، فَتَنَقَّضَ الْعَهْدُ الْأَوَّلُ لِأَنَّ الثَّانِيَّ أَرْبَى مِنْهُ وَأَزِيدَ .

(١) قَالَ مُجَاهِدٌ فِي سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ آيَةِ : نَزَلَتْ فِي الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانَتْ الْقَبِيلَةُ مِنْهُمْ إِنْ خَالَفَتْ أُخْرَى ، ثُمَّ جَاءَتْ إِحْدَاهُمَا قَبِيلَةٌ كَثِيرَةٌ قُوَّةً فَدَاخَلَتْهَا غَدْرًا الْأَوَّلَى وَتَنَقَّضَ عَهْدُهَا وَرَجَعَتْ إِلَى هَذِهِ الْكَبْرَى [تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ ٢٨٩٨/٥] .

وفى مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حذرَه ، فَمَنْ يُدْرِكْ لَعْلَه يُفْعَلْ بِكَ كَمَا فَعَلْتَ ، وَيُكَالُ لَكَ بِنَفْسِ الْمَكْيَالِ الَّذِي كَلَّتَ بِهِ لَغِيرَكَ ، فاحذر إذا تجرأت على خلق الله أن يُجَرِّئَ الله عليك مَنْ يَسْقِيكَ مِنْ نَفْسِ الْكَاسِ .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أن تُغْشَى النَّاسَ ، وتذكر أن لك عندهم مصالح ، وفى أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأت عليهم جرأهم الله عليك ؛ لأنه سبحانه يقول : أَنَا الْقَيُّومُ ، أَيْ : الْقَائِمُ عَلَى أَمْرِكُمْ . فناموا أنتم فأنا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلاحظها جيداً .

مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى النَّاسِ جَرَأَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَخْلَصَ عَمَلَهُ وَاتَّقَنَهُ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ أَنْ يُتَّقَنُوا لَهُ حَاجَتَهُ .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا يَلْتَوِكُمُ اللَّهُ بِهِ... (٩١) ﴾

[النحل]

أى : يختيركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أن عقدتم العهد ، أفى نيتكم الوفاء ، أم فى نيتكم الغدر والخداع ؟

وهب أنك تتوى الوفاء ثم عرض لك ما حال بينك وبينه ، فاشه سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفى عليه شيء .

إن : الابتلاء هنا لا يعنى النكبة والبلاء ، بل يعنى مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذى يفشل فى الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .

وقوله :

﴿ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٩٢)

[النحل]

فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشف الحقائق ، ويأتى القضاء فيما اختلفنا فيه فى الدنيا ، وهب أن إنساناً عمى على قضاء الأرض فى أشياء ، تقول له : إن عميت على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل^(١) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٣)

لو حلف امتناع لامتناع . أى : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٢١)

[الأنبياء]

فقد امتنع الفساد لامتناع تعدد الآلهة .

فلو شاء الله لجعل العالم كله أمة واحدة على الحق ، لا على

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأتضية (٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىى . ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . لئأنظى له على نحو ما أسمع منه . فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه . فإنما أقطع له به قطعة من النار » .

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة في خلق الأشياء المسخرة ، بحيث لا يخرج شيء عما أريد منه ، وكان من الممكن أن يأتي

الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه في هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً في الكون ، أليست الملائكة قائمة على التسخير ؟

فالتسخير يُثبت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شيء ، لكن الاختيار يثبت المحبوبة لله تعالى ، وهذا فرقٌ يجب أن نتدبره .

فمثلاً لو كان عندك عيذان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيدته إليك في حبل ، في حين تركت مسعوداً حراً طليقاً ، وحين أمرت كلاهما لبس وأطاع ، فأى طاعة ستكون أحب إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة بالاختيار ؟

فكان الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرمه بأن جعله مختاراً في أن يطيع أو أن يعصى ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً ، وهو قادر على المعصية ، فقد أثبت المحبوبة لربه سبحانه وتعالى .

ولا بد أن تتوافر للاختيار شروطٌ . أولها : العقل ، فهو آلة الاختيار ، كذلك لا يُكلف المجنون ، فإذا توفّر العقل فلا بد له من النضج والبلوغ ، ويتم ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مثله ، وأصبحت له ذاتية مولده .

وهذه سمّة اكتمال الذات ؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين ، وليس أهلاً للتكليف ، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات ، فلا بد له أن يكون مختاراً غير مكره ، فإن أكرهه على الشيء فلن يسأل عنه ، فإن اختل شرط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار ، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة في الاختيار .

والحق تبارك وتعالى وإن كرم الإنسان بالاختيار ، فمن رحمته به أن يجعل فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسَخَّرَةٌ لا نَحْلَ له فيها .

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية ، وتتوقف عليها حياة الإنسان ، فكان من رحمة الله بنا أن جعل هذه الأعضاء تعمل وتؤدي وظيفتها دون أن نشعر .

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام في اليقظة والمنام دون أن نشعر به ، وكذلك التنفس والكلى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسَخَّرَةٌ ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لطف الله بخلقه أن جعل هذه الأعضاء مُسَخَّرَةٌ ، لأنه بالله لو أنت مختار في عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم ؟

إذن : من رحمة الله أن جعلك مُخْتَاراً في الأعمال التي تعرض لك ، وتحتاج فيها إلى النظر في البدائل ؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا آذيت حيواناً فإنه يُؤذيك ، وليس لديه بديل آخر .

ولكن إذا آذيت إنساناً ، فيحتمل أن يردّ عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلت ، أو أقل ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذي يُرجِّح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى :

﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٢١)

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك ، بدليل قوله :

﴿وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ..﴾ (٩٣) [النحل]

وهذه الآية يقف عندها المتمحكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم في فهم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذي يضل الناس ، فلماذا يُعَذِّبهم ؟ وتتعجب من هذا الفهم لكتاب الله وتقول لهؤلاء : لماذا أخذتم جانب الضلال وتركتم جانب الهدى ؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذي يهدي ، فلماذا يُدْخِلنا الجنة ؟

إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون ؛ لأن معنى :

﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ..﴾ (٩٣) [النحل]

أى : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان . فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسلت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنتظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق - تبارك وتعالى - لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضال ؛ قال المعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهدى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقل الأمر إلى عكس هذا الفهم ، بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿وَلْتَسْأَلْنِ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) [النحل]

فالعبد لا يُسأل إلا عما عملت يداه ، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار في العمل ، وكيف تسأل عن شيء لا تدخل لك فيه ؟ فلتفهم - إذن - عن الحق تبارك وتعالى مُرَادُهُ من الآية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤)

وردت كلمة الدُّخْلُ في الآية قبل السابقة قلنا : إن معناها : أن تُدْخَلَ في الشيء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغش والخداع ، وإن كان المعنى واحداً في الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدُّخْلِ وعَلَّتْهُ ، وهي أن تكون أمة أربى من أمة ، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر ، أما في هذه الآية فسجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدُّخْلِ ، وهي :

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا..﴾ (٩٤) [النحل]

نفى الآية نهىً عن اتخاذ الأيمان للغش والخداع والتدليس ؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتي على المجتمع من أساسه ، وفقد الثقة المتبادلة بين الناس والتي عليها يقوم التعامل ، وتبني حركة الحياة ، فالذي يُعطى عهداً ويُخلفه ، ويحلف يميناً ويحُثُّ^(١) فيه يشتهر عنه أنه مُخَلِّفٌ للعهد ناقض للميثاق .

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجروا أحداً على

(١) حث في يمينه : لم يقب باليمين . [القاموس التوحيدي ١/ ١٧٥] .

الصَّفْقُ^(١) معه ، فيصبح مَهِينًا يَنْفُضُ النَّاسُ أَيْدِيَهُمْ مِنْهُ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ أَمِينًا وَأَمَلًا لِلثِّقَةِ وَمَحَلًّا لِلتَّقْدِيرِ^(٢) .

هذا معنى قوله تعالى :

﴿ فَتَزِلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ۖ ۝٩٨ ﴾

[النحل]

وبذلك يسقط حَقُّهُ مع المجتمع ، ويحقيق به سوء فعله ، ويجنى بيده ثمار ما أفسده في المجتمع ، وبانتشار هذا الخلق السيء تتعطل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زَلَّةٌ وَكَيْسٌ بعد ثبات وقوة ، بعد أَنْ كَانَ أَمَلًا لِلثِّقَةِ صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقْبَلُ عليه الناس ، وَيُحْيُونَ التعامل معه بما لديه من شرف الكلمة وَصِدْقُ الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مَرْكَزُهُ فِي السُّوقِ أَيْ : زَلَّتْ قَدَمُهُ بِمَا حَدَثَ مِنْهُ مِنْ تَقْضٍ لِلْعُهُودِ ، وَجِثَتْ فِي

(١) تصافقوا : تبايعوا ، وصفق يده بالبيعة والبيع وعلى يده صفقا ، ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . [لسان العرب - مادة : صفق] .

(٢) أخرج أبو داود في سننه (٢٢٨١) والبيهقي في السنن الكبرى (٧٨/٦) وكذا في السنن الصغرى (٢٢٠٩) والحاكم في مستدركه (٥٢/٢) من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما » .

قال الطيبي رحمه الله : « الشركة عبارة عن اختلاط أموال بعضهم ببعض بحيث لا يتميز ، وشركة الله تعالى إيمانا على الاستعارة ، كانه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما » . نقله شمس الدين العليم أباندى في عون المعبود (١٧٠/٥) .

الأيمان وغير ذلك مما لا يليق بأهل الثقة في السوق ، ومثل هذا ينتهي به الأمر إلى أن يعلن إفلاسه في دنيا التعامل مع الناس

أما الوفاء بالعهود والمواثيق والأيمان فيجعل قدمك في حركة الحياة ثابتة لا تتزعزع ولا تهتز ، فتري مال الناس جميعاً ماله ، وتجد أصحاب الأموال مقبلين عليك يضعون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة في التعامل .

ولذلك ، فالتشريع الإسلامي حينما شرع لنا الشركة راعى هذا النوع من الناس الذي لا يملك إلا سمعة طيبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإن دخل شريك بما لديه من رأس المال ، فهذا شريك بما لديه من شرف الكلمة وشرف السلوك ، ووجاهة بين الناس ، وماضٍ مشرف من التعامل .

وهذه يسمونها « شركة الوجوه والأعيان » وهذا الوجيه في دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قد نرى هذه الثقة لا في شخص من الأشخاص ، بل نراها في ماركة من الماركات أو العلامات التجارية ، فنراها تُباع وتُشتري ، ولها قيمة غالية في السوق بما نالته من احترام الناس وتقديرهم ، وهذا أيضاً نتيجة الصدق والالتزام والأمانة وشرف الكلمة .

وقوله تعالى :

﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)﴾

[النحل]

السوء : أى العذاب الذى يمُسُّه صاحبه فى الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكساد فى الحال ، بعد أن سقط من نظر المجتمع ، وهدم جسر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (٩٤)﴾

[النحل]

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأيمان ولا يُوفُونَ بها ، فهل فى هذا صدٌّ عن سبيل الله ؟

نقول : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شيء يجعل حركة الحياة منتظمة تُدَارُ بِشَرَفٍ وَأَمَانَةٍ وَصِدْقٍ وَنَفَاقَةِ عَهْدٍ .

ومن هنا ، فالذى يُخْلِفُ الْعَهْدَ ، ولا يَفِي بِالْمَوَاقِيقِ يعطى للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يَضُنُّ بِعَالِهِ ، وصاحب المعروف يتراجع ، قُلُوبُ أَقْرَضَتْ إِنْسَانًا وَعَدَرَ بِكَ فَلَا أَظُنُّكَ مُقْرِضًا لآخر .

إذن : لا شك أن فى هذا صدّاً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس فى فعل الخير .

وقوله تعالى :

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)﴾

[النحل]

فبالإضافة إلى ما حاقَّ بهم من خسارة فى الدنيا ، وبعد أن زُلَّتْ بهم القدم ، ونزل بهم من عذاب الدنيا ألواناً ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أى فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينهانا ويحذّرنا : إياك أن تجعلَ
عَهْدَ الله الذي أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كِفِيلًا ، فبعد أن كنتَ
حرًا في أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجبًا
ومفروضًا عليك .

أو : عهد الله - أي - شرعه الذي تعاهدت - على العمل به
والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيماني الأعلى ، وهو أن تؤمنَ بالله
ويصدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول
من أحكام ، إياك أن تقابله بشيء آخر تجعله أعلى منه ؛ لأنك إن
نقضت عهد الله لشيء آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلت هذا
الشئ أعلى من عهد الله ؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلًا .

ثم يأتي تعليل ذلك في قوله :

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..﴾ (٩٥)

[النحل]

فالخير في الحقيقة ليس في متاع الدنيا مهما كثر ، بل فيما عند
الله تعالى ، وقد أوضح ذلك في قوله تعالى :

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (٩٦)

[النحل]

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..﴾ (٩٥)

[النحل]

فهذا أسلوب تأكيد بالقصر بإعادة الضمير (هو) ، فلم يَقُلِ الحق سبحانه إنما عند الله خير لكم ، فيحتمل أن ما عند غيره أيضاً خير لكم ، أما في تعبير القرآن ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : الخير فسيما عند الله على سبيل القَصْرِ ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (٨١)

[الشعراء]

فجاء بالضمير « هو » ليؤكد أن الشافي هو الله لوجود مَظَنَّة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما في الأشياء التي لا يُظَنَّ فيها المشاركة فتأتى دون هذا التوكيد كما في قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ (٨١)

[الشعراء]

فلم يقل : هو يميتنى هو يحيين ؛ لأنه لا يميت ولا يحيى إلا الله ، فلا حاجة للتوكيد هنا .

ما الذى يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد ؟

الذى يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد أن يرى مصلحة سطحية فوق ما تعاهد عليه يجعله يخرج عما تعاهد عليه إلى هذه السطحية ، ولكنه لو عقل وتدبر الأمر لعلم أن ما يسعى إليه ثمن بخس ، ومكسب قليل زائل إذا ما قارنه بما ادخّر له في حالة الوفاء ؛ لأن ما أخذه حظاً من دنياه لأبد له من زوال .

والعقل يقول : إن الشيء ، إذا كان قليلاً باقياً يفضل الكثير الذى لا يبقى ، فما بالك إذا كان القليل هو الذى يفنى ، والكثير هو الذى يبقى .

ومثال ذلك : لو أعطيتك فاكهة تكفيك أسبوعاً أو شهراً فأكلتها في يوم واحد ، فقد تمتعتَ بها مرة واحدة ، وفائدتك منها مُتَعَّ وأكلاتٌ متعددة لو أكلتها في وقتها .

لذلك : فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهك أنْ ما عند الله هو الخير الحقيقي ، فجعل موازينك الإيمانية دقيقة ، فمن الحق أن تتبع الكثير الباقي بالقليل الغاني :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾ [النحل]

في الآية دِقَّةُ الحساب ، ودِقَّةُ المقارنة ، ودِقَّةُ حلِّ المعادلات الاقتصادية .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

يُوضِّحُ الحق تبارك وتعالى أن حظَّ الإنسان من دُنْيَاهِ عَرَضٌ زائل ، فإِذَا أَنْ تَفُوتَهُ بِالْمَوْتِ ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو باقٍ لا يُفَادِلُهُ .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦) ﴾ [التحل]

كلمة ﴿ صَبَرُوا ﴾ تدلُّ على أن الإنسان سيَتَعَرَّضُ لِهَزَاتِ نفسية نتيجة ما يقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نقضه ، حينما يلوح

له بريق المال وتتحرك بين جنابه شهوات النفس ، فيقول له الحق تبارك وتعالى : اصبر .. اصبر لا تكن عجولاً ، وقارن المسائل مقارنة هادئة ، وتحمل كل مشقة نفسية ، وتغلب على شهوة النفس ؛ لتصل إلى النتيجة المحمودة .

فالتلميذ الذى يجتهد ويتعب ويتحمل مشقة الدرس والتحصيل يصبر على الشهوات العاجلة لما ينتظره من شهوات باقية آجلة ، فوراء الدرس والتحصيل غاية أكبر وهدف أسمى .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

[النحل]

﴿وَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦)﴾

أى : على مشقات الوفاء بالعهود .

[النحل]

﴿أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾

أى : أجراً بالزيادة فى الجزاء على أحسن ما يكون ؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً فله الجزاء ، أما المباح فالمفروض ألا جزاء له ، ولكن فضل الله يجزى عليه أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ۖ

فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)﴾

الحق تبارك وتعالى يُعطينا قضية عامة ، هى قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرجال ، وليس للمرأة

سُورَةُ النِّحْلِ

٨١٩

تَدْخُلُ فِي إعطاء العهود ، حتى إنها لما دخلت في عهد مع النبي ﷺ يوم بيعة العقبة جعل واحداً من الصحابة يبايع النساء ثيابة عنه^(١)

إذن : المرأة بعيدة عن هذا المعترك نظراً لأن هذا من خصائص الرجال عادة ، أراد سبحانه وتعالى أن يقول لنا : نحن لا نمنع أن يكونَ للأنثى عملٌ صالح .

ولا تظنَّ أن المسألة منسحبة على الرجال دون النساء ، فالعمل الصالح مقبول من الذكر والأنثى على حدٍّ سواء ، شريطة أن يتوقَّر له الإيمان ، ولذلك يقول تعالى :

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ...﴾ (٩٧) [النحل]

وبذلك يكون العمل له جدوى ويكون مقبولا عند الله ؛ ولذلك نرى كثيراً من الناس الذين يُقدِّمون أعمالاً صالحةً ، ويخدمون البشرية بالاختراعات والاكتشافات ، ويدأرون المرضى ، ويبنون المستشفيات والمدارس ، ولكن لا يتوفر لهم شرط الإيمان بالله .

فنرى الحق تبارك وتعالى لا يبخس هؤلاء حقهم ، ولكن يُعجلُ لهم في الدنيا ؛ لأنه لا حظَّ لهم في أجر الآخرة ، يقول تعالى :

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠) [الشورى]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

(١) ذكر ابن هشام في السيرة (٤٦٦/٢) أن رسول الله ﷺ كان لا يصانح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن ، قال : اذهبن فقد بايعتكن .

﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾
[الزَّالِزَةِ]

وهذا كله خاصٌ بأمور الدنيا ، فالذي يحسن شيئاً ينال ثمرته ، لكن في جزاء الآخرة نقول لهؤلاء : لا حَظَّ لكم اليوم ، وخذوا أجركم ممن عملتم له فقد عملتم الخير للإنسانية للشهرة وخلود الذكر ، وقد أخذتم ذلك في الدنيا فقد خلدوا ذكراكم ، ورفعوا شأنكم ، وصنعوا لكم التماثيل ، ولم يبخسوكم حقكم في الشهرة والتكريم .

ويوم القيامة يواجههم الحق سبحانه وتعالى : فعلتم ليقال .. وقد قيل ، فاذهبوا وخذوا ممن عملتم لهم^(١) .

هؤلاء الذين قال الله في حقهم :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ^(٢) يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً جَعَى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَكَاهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)﴾
[النَّازِعَاتِ]

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت . ولكك لعلك لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئء فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار » الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) وأحمد في مسنده (٢٢٢/٢) .

(٢) القاع والسقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكامات . [القاموس القويم ١٢٧/٢] والسراب : ما تراه في نصف النهار في الأرض الغضاء كأنه ماء وليس بماء . [القاموس القويم ٣٠٨/١] .

يُفَاجَأُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ لَهُ إِلَهًا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ وَيَعْمَلَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَمَرْضَاتِهِ .

إِذَنْ : فَالْإِيمَانُ شَرْطٌ لِقَبُولِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فإِذَا مَا تَوَفَّرَ الْإِيمَانُ فَقَدْ اسْتَوَى الذِّكْرُ وَالْأُنْثَى فِي الثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ .

يَقُولُ تَعَالَى :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۚ ﴾ (٩٧)

[النحل]

هَذِهِ هِيَ النَتِيجَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَبْتَغِي صَاحِبُهُ وَجْهَ اللَّهِ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ ، فَيَجْمَعُ اللَّهُ لَهُ حَظَّتَيْنِ مِنَ الْجَزَاءِ ، حَظًّا فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ الْهَانِئَةِ^(١) ، وَحَظًّا فِي الْآخِرَةِ :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٧)

[النحل]

وَيَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۚ ﴾ (٧٨)

الاستعاذة : اللجوء والاعتصام بالله من شيء تخافه ، لم أنت لا تلجأ ولا تعتصم ، ولا تستجير ولا تستنجد إلا إذا استشعرت في نفسك أنك ضعيف عن مقاومة عدوك .

فإذا كان عدوك الشيطان بما جعل الله له من قوة وسلطان ،

(١) نقل القرطبي في تفسيره خمسة أقوال في تأويل الحياة الطيبة :

الاول : الرزق الحلال ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء .

الثاني : الطاعة ، قاله الحسن البصري وعلى بن أبي طالب .

الثالث : توفيقه إلى الطاعات ، فإنها تؤديه إلى رضوان الله . قال معناه الضحاك .

الرابع : الجنة . قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . قال الحسن البصري : لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة .

الخامس : حلالة الطاعة . قاله أبو بكر الوراق .

وما له من مداخل للنفس البشرية فلا حول لك ولا قوة في مقاومتها إلا أن تلجأ إلى الله القوى الذى خلقك وخلق هذا الشيطان ، وهو القادر وحده على رده عنك ؛ لأن الشيطان فى معركة مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة .

وقد أقسم الشيطان للحق تبارك وتعالى ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

[ص]

فما عليك إلا أن تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أن ترتس فى حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوى القادر على أن يدفع عنك ما لم تستطع أنت دفعه عن نفسك ، فلا تقاومه بقوتك أنت ؛ لأنه لا طاقة لك به ، ولا تدعه ينفرد بك ؛ لأنه إن انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغلبة .

ولذلك نقول دائماً : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أى : لا حول : لا تحول عن المعصية ، ولا قوة . أى : على الطاعة إلا بالله .

ونحن نرى الصبى الصغير الذى يسير فى الشارع مثلاً قد يتعرض لمن يعتدى عليه من أمثاله من الصبية ، أما إذا كان فى صحبة والده فلا يجروا أحد منهم أن يتعرض له ، فما بالك بمن يسير فى صحبة ربه تبارك وتعالى ، ويلقى بنفسه فى حماية الله سبحانه ؟!

وفى مقام الاستعاذة بالله نذكر قاعدة إيمانية علمنا إياها

سُورَةُ النِّحَالِ

٨١٩٩

الرسول ﷺ في حديثه الشريف : « من استعاذ بالله فأعيذوه »^(١) .

فيلزم المؤمن أن يعيذ من استعاذ بالله ، وإن كان في أحب الأشياء إليه ، والرسول ﷺ يعطينا القدوة في ذلك ، حينما تزوج من فتاة^(٢) على قدر كبير من الحسن والجمال لدرجة أن نساءه غرن منها ، وأخذن في الكيد لها وزحزحتها من أمامهن حتى لا تغلبهن على قلب النبي ﷺ ، ولكن كيف لهن ذلك ؟

حاولن استغلال أن هذه الفتاة ما تزال صغيرة غرة ، تتمتع بسلامة النية وصفاء السريرة ، ليس لديها من تجارب الحياة ما تتعلم منه لؤماً أو مكراً ، وهي أيضاً ما تزال في نشوة فرحتها بأن أصبحت أمّاً للمؤمنين ، وتحرص كل الحرص على إرضاء النبي ﷺ فاستغل نساء النبي ﷺ هذا كله ، وقالت لها إحداهن : إذا دخلت على رسول الله فقولى له : أعوذ بالله منك ، فإنه يحب هذه الكلمة .

أخذت الفتاة هذه الكلمة بما لديها من سلامة النية ، ومحبة لرسول الله ، وحرص على إرضائه ، وقالت له : أعوذ بالله منك ، وهي لا تدري معنى هذه العبارة فقال ﷺ : « لقد عُدْتُ بمعاذ ، الحقى بأهلك »^(٣) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٠/١) ، وأبو داود في سننه (٥١٠٨) والنسائي في سننه (٨٢/٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه » .

(٢) هي ابنة الجون . قال ابن حجر العسقلاني في الذخ (٣٥٧/٩) : « الصحيح أن اسمها أمية بنت النعمان بن شراميل الكننية » .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٥٤ - ٥٢٥٧) ، وابن ماجه في سننه (٢٠٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

أى : ما دُمْتُ استعذت بالله فأنا قبلت هذه الاستعاذة ؛ لأنك استعذت بمعاذ أى : بمن يجب علينا أن نترك من أجله ، ثم طلقها النبي ﷺ أمثالاً لهذه الاستعاذة .

إذن : مَنْ استعاذ بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يُعيذه ، ومن استجار بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يكون جندياً من جنود الله ، ويجيره حتى يبلغ مأمنه .
وفى الآية الكريمة أسلوب شرط ، اقتصرن جوابه بالفاء فى قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَعِذْ ۖ ۝٦٥﴾

[النحل]

فلماذا رأيت الفاء فاعلم أن ما بعدها مترتب على ما قبلها ، كما لو قلت : إذا قابلت محمداً فقل له كذا .. فلا يتم القول إلا بعد المقابلة . أما فى الآية الكريمة فالمراد : إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ ؛ لأن الاستعاذة هنا تكون سابقة على القراءة ، كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ۖ ۝٦﴾

[المائدة]

فالمعنى : إذا أردتم إقامة الصلاة فاغسلوا وجوهكم . وكذلك إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأن القرآن كلام الله .

ولو آمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم لعلمنا أن قراءة القرآن تختلف عن أى قراءة أخرى ، فأنت كى تقرأ القرآن تقوم بعملیات متعددة :

أولها : استحضر قداسة المنزل سبحانه الذى آمنت به وأقبلت على كلامه .

ثانيها : استحضار صدق الرسول فى بلاغ القرآن المنزل عليه .

ثالثها : استحضار عظمة القرآن الكريم ، بما فيه من أوجه الإعجاز ، وما يحويه من الآداب والأحكام .

إذن : لديك ثلاث عمليات تستعد بها لقراءة كلام الله فى قرآنه الكريم ، وكل منها عمل صالح لن يدعك الشيطان تؤديه دون أن يتعرض لك ، ويؤسوس لك ، ويصرفك عما أنت مقبل عليه .

وساعتها لن تستطيع منعه إلا إذا استعنت عليه بالله ، واستعدت منه بالله ، وبذلك تكون فى معية الله منزل القرآن سبحانه وتعالى ، وفى رحاب عظمة المنزل عليه محمد صدقاً ، ومع استقبال ما فى القرآن من إعجاز وآداب وأحكام .

ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن .

ومع ذلك لا مانع من حمل المعنى على الاستعاذة أيضاً بعد قراءة القرآن ، فيكون المراد : إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله .. أى : بعد القراءة : لأنك بعد أن قرأت كتاب الله خرجت منه بزيادة إيمان وتجليات ربانية ، وتعرضت لآداب وأحكام طُلبت منك ، فعليك - إذن - أن تستعيذ بالله من الشيطان أن يفسد عليك هذا الزاد وتلك التجليات ، أو يصرفك عن أداء هذه الآداب والأحكام .

وقوله تعالى :

﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾

[النحل]

أى : الملعون المطرود من رحمة الله ! لأن الشيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أن تُجرّبه لتعرف طبيعته وكيفية التعامل معه ، بل له معنا يساويق عداً منذ أبينا آدم عليه السلام .

وقد حذر الله تعالى آدم منه فقال :

﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ .. (١١٧) ﴾

[طه]

وسيق أن رُجم ولُعِنَ وأبعد من رحمة الله ، فقد هددنا بقوله :

﴿ لَأَحْتَكِنَ^(١) ذُرِّيَّتَهُ .. (١٢) ﴾

[الإسراء]

إذن : هناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خلق الإنسان ، وإلى قيام الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١١) ﴾

لحكمة أرادها الخالق سبحانه أن جعل للشيطان سلطاناً . أى :

تسلطاً .

(١) احتكك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على العجز ، كأنه وضعه فى حنك فلا يفلت منه . وقوله معناه : أى لا ملكن أمرهم واستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القريم ١/ ١٧٥] .

وكلمة (السلطان) مأخوذة من السَّليط ، وهو الزيت^(١) الذي كانوا يُوقِدُون به السُّرُج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء ، فكانوا يضعون هذا الزيت في إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة ، وعندما توقد تستص من هذا الزيت وتُضيء ؛ ولذلك سُمِّيَتْ الحجة سلطاناً ؛ لأنها تنير لصاحبها وجه الحق .

والسلطان ، إما سلطان حجة تقنعك بالفعل ، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به . وإما سلطان قَهْر وغلبة يجبرك على الفعل ويحكمك عليه قَهراً دون اقتناع به .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التي تُضيء لك وتوضح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التي تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع وإن لم ترها .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيًا من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة والإقناع ، ولا قوة القهر . وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى على لسان الشيطان يوم القيامة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ^(٢) وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ

(١) قال ابن الأعرابي : السليط عند عامة العرب الزيت . وعند أهل اليمن : دهن السمسم . وقال الزجاج : اشتقاق السلطان من السليط . والسليط ما يُضاه به . [لسان العرب - مادة : سلط] .

(٢) أي : بمفيتكم . والمصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة . والمصرخ هو المقيت . [تفسير القرطبي ٥/٢٦٩٤] .

بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ [إبراهيم]

هذا حوار يدور يوم القيامة بعد أن انتهت المسألة وتكشفت الحقيقة ، وجاء وقت المصارحة والمواجهة . يقول الشيطان لأوليائه مُتنصلاً من المسؤولية : ما كان عتدى من سلطان عليكم ، لا سلطان حجة تقنعكم أن تفعلوا عن رضا ، ولا سلطان قهر أجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فاتيتموني طائعين .

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ۚ ﴾ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم]

أى : نحن فى الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتى ؛ لأن الصُراخ يكون من شخص وقع فى ضائقة أو شدة لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عال لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أى : أزالوا سبب صُراخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالة سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صُراخى .

وكذلك فى حوار آخر دار بين أهل الباطل الذين تكاثفوا عليه فى الدنيا ، وما هى المواجهة يوم القيامة :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْلُونَ ﴿٢٨﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا نَقُولُ إِنَّ الْيَمِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ نَكُنْ لَكُمْ مَوَدِّينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الصافات]

والمراد بقوله : (عَنْ الْيَمِينِ) أن الإنسان يزاول أعماله بكلتا

سُورَةُ النِّحْلِ

٨٢٠

يديه ، لكن اليد اليمنى هي العمدة في العمل ، فأتيت به عن اليمين .
أى : من ناحية اليد الفاعلة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ ﴾ [الصافات]

أى : فى انتظار إشارة منا ، مجرد إشارة ، فسارعتم ووقعتم فيما وقعتم فيه .

فعلى مَنْ يكون تسلط الشيطان وتلك الغلبة والقهر ؟
يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن تسلط الشيطان لا يقع على مَنْ
آمن به رباً ، ولجأ إليه واعتصم به ، وما دُمْتَ آمِنْتَ بالله فأنت فى
مَعِيَّتِهِ وحَفَظِهِ ، ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق لله تعالى أن
يتسلط عليك أو يغلبك .

إذن : الحصن الذى يقينا كيد الشيطان هو الإيمان بالله والتوكل
عليه سبحانه .

فعلى مَنْ إذن يتسلط الشيطان ؟
يُوضِّح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ

وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [١٠٠]

معنى يتولونه : أى يتخذونه ولياً يطيعون أمره ، ويخضعون
لوسوسته ، ويتبعون خطواته :

﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل]

أى : مشركون بالله ، أو يكون المعنى : وهم به أى بسببه أشركوا : لأنه أصبح له أوامر ونواه وهم يطيعونه ، وهذه هى العبادة بعينها ، فكانهم عبيدوه من دون الله بما قدّموه من طاعته فى أمره ونهيه .

وقد سَمَّى الله طريقة الشيطان فى الإضلال والغواية وَسْوَسةً ، والوسوسة فى الحقيقة هى صَوْتُ الحَلَى حينما يتحرك فى أيدى النساء ، فيُحدث صوتاً رقيقاً فيه جاذبية وإغراء تهيج له النفس ، وكذلك الشيطان يدخل إليك عن طريق الإغراء والتزيين ، فإذا ما هاجت عليك نفسك وحدثتك بالمعصية تركك لها ، فعند هذه النقطة تنتهى مهمته .

ولكن ، هل النفس لا تفعل المعصية إلا بوسوسة الشيطان ؟

قالوا : لا ، فالنفس - والمراد هنا النفس الأمّارة بالسوء - قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشيطان ، وقد يُوسوسُ الشيطان لها ، وينزعها نزغاً ويؤليها ، ويُزين لها معصية ما كانت على بالها .

فكيف - إذن - يُفرّق بين هاتين المعصيتين ؟

النفس حينما ترغب فى معصية أو شهوة تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، وإذا قاومت نفسك ، وحاولت صرفها عن هذه الشهوة ألحّت عليك بها ، وطلبتها بعينها ، فشهوة النفس إذن ثابتة : لأنها تشتهى شيئاً واحداً تلح عليه .

سُورَةُ الْجَنَّةِ

٨٢٠٧

ولكن حينما يُوسُوسُ الشيطان لك بشهوة فرجد منك مقاومة
وقدرة على مجابهته صرف نظرك إلى أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً بأى
شكل من الأشكال ، فتراه يُزَيِّن لك معصية أخرى وأخرى ، إلى أن
ينال منك ما يريد .

ومن ذلك ما نراه فى الرشوة مثلاً - والعياذ بالله - فإن رفضت
رشوة المال زين لك رشوة الهدية ، وإن رفضت رشوة الهدية زين
لك الرشوة بقضاء مصلحة مقابلة .

وهكذا يظل هذا اللعين وراءك حتى يصل إلى نقطة ضعف فيك ،
إذن : فهو ليس كالنفس يقف بك عند شهوة واحدة ، ولكنه يريد أن
يوقع بك على أى صورة من الصور .

ولكى نقف على مداخل الشيطان ونكون منه على حذر يجب أن
نعلم أن الشيطان على علم كبير وصل به إلى صفوف الملائكة ، بل
سَمَّوه « طاووس الملائكة » ، ويمكن أن نقف على شيء آمن علم
الشيطان فى دقة قَسَمه ، حينما أقسم للحق تبارك وتعالى أن يُغوى
بنى آدم ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

[ص]

هكذا عرف الشيطان أن يُقسم القسم المناسب ، فلم يقل : بقوتى
ولا بحجتى سأغوى الخلق ، بل عرف الله تعالى صفة العزة ، فهو
سبحانه عزيز لا يُغلب ؛ لذلك ترك لخلق حرية الإيمان به ، فقال :

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ (٢١) ﴾

[الكهف]

فالمعنى : فبِعِزَّتِكَ عَنْ خَلْقِكَ : يَوْمَن مِّنْ يَّوْمِن ، وَيَكْفُر مِّنْ يَّكْفُر ،
سَوْفَ أَدْخُلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ لِإِغْوَاءِ الْبَشَرِ ، وَلَكِنِّى لَا أَجْرُقُ عَلَى
الْإِقْتِرَابِ مِمَّنْ اخْتَرْتَهُمْ وَاصْطَفَيْتَهُمْ ، لَنَ اتَّعَرَّضَ لِعِبَادِكَ الْمَخْلُصِينَ ،
وَلَا نَدْخُلَ لِي بِهِمْ ، وَلَا سُلْطَانُ لِي عَلَيْهِمْ .

كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ دَقِيقٌ فِي تَخْطِيطِهِ ، وَهَذَا مِنْ
مَدَاخِلِهِ وَتَلْبِيسِهِ الَّذِى يَدْعُونَا إِلَى الْحَذَرِ مِنْ هَذَا اللَّعِينِ . فَالشَّيْطَانُ
لَا حَاجَةَ لَهُ فِى أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْخُمَارَاتِ مَثَلًا ، فَقَدْ كَفَاهُ أَهْلُهَا مَشَقَّةُ
الْوَسْوَاسَةِ ، وَوَقَرُوا عَلَيْهِ الْمَجْهُودَ ، هَؤُلَاءِ هُمُ أَوْلِيَاؤُهُ وَأَحْبَابُهُ
وَمُرِيحُوهُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّهُ فِى حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَكُونَ
فِى الْمَسَاجِدِ لِيُفْسِدَ عَلَى أَهْلِ الطَّاعَةِ طَاعَتَهُمْ .

وَقَدْ أَوْضَحَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَفُطِنَ إِلَيْهَا الْإِمَامُ الْجَلِيلُ أَبُو حَنِيفَةَ
النُّعْمَانُ ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِالْفُطْنَةِ ، وَعَلَى دِرَايَةِ بِمَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ
وَتَلْبِيسِهِ ، وَكُلُّ هَذَا جَعَلَ لَهُ بَاعًا طَوِيلًا فِى الْإِفْتَاءِ ، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ
أَحَدُهُمْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ :

قَالَ : يَا إِمَامَ كَانَ لَدَىَّ مَالٌ دَفَنْتُهُ فِى مَكَانٍ كَذَا ، وَجَعَلْتُ عَلَيْهِ
عَلَامَةً ، فَجَاءَ السُّبُلُ وَطَمَسَ هَذِهِ الْعَلَامَةَ ، فَلَمْ أَهْتِدِ إِلَيْهِ ، فَمَاذَا
أَفْعَلُ ؟

فَتَبَسَّمَ أَبُو حَنِيفَةَ وَقَالَ : يَا بُنَى لَيْسَ فِى هَذَا عِلْمٌ ، فَقَى أَىَّ بَابٍ
مِنْ أَبْوَابِ الْفَقْهِ سَيَجِدُ أَبُو حَنِيفَةَ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ ؟! وَلَكِنِّى سَاحَتَالُ لَكَ .

وَفِعْلًا تَفَتَّقْتُ قَرِيبَةَ الْإِمَامِ عَنْ هَذِهِ الْحِيلَةِ الَّتِى تَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ
وَفَقْهِهِ ، قَالَ لَهُ : إِذَا جِئْتَ فِى اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْ ، وَقُمْ بَيْنَ يَدَى رَبِّكَ

مُتَهَجِّدًا . وفى الصباح أخبرنى خبرك .

وفى صلاة الفجر قابله الرجل مُبْتَسِمًا . يقول : لقد وجدتُ المال ، فقال : كيف ؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يديّ ربى فى الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدتُ مالى ، فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تُتِمَّ ليلتك مع ربك .

ثم يقول الحق سبحانه :

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ ومنها : أبدلت واستبدلت ، أى : رفعتُ آية وطرحْتُها . وجئتُ بأخرى بدلًا منها ، وقد تدخل الباء على الشيء المتروك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ ۞ (١١) ﴾ [البقرة]

أى : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية ؟ كلمة آية لها معانٍ متعددة منها :

- الشيء العجيب الذى يلفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول : هذا آية فى الجمال ، أو فى الشجاعة ، أو فى الذكاء ، أى : وصل فيه إلى حدٍّ يدعو إلى التعجب والانبهار .

- ومنها الآيات الكونية ، حينما نتأمل في كون الله من حولك تجد آيات تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسفاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ (٢٧)

[فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٢٨)

[الشورى]

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبدل ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (٢٩)

[الفتح]

- ومن معاني الآية : المعجزة ، وهي الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتي المعجزة على أيدي الأنبياء لتكون حجة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ في هذا النوع من الآيات أنه يتبدل ويتغير من نبي لآخر ؛ لأن المعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان في شيء نبغ فيه القوم ؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة في مجال لا علم لهم به لقالوا : لو أن لنا علماً بهذا لأتينا بمثلته ؛ لذلك تأتي المعجزة فيما نيقنوا فيه ، وعلموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغ قوم موسى عليه السلام في السحر كانت معجزته من

نوع السحر الذى يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى - عليه السلام -
ونبغ قومه فى الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان
- عليه السلام - يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

فلما بُعث محمد ﷺ ، ونبغ قومه فى البلاغة والفصاحة والبيان ،
وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلقون قصائدهم على أستار الكعبة
اعتزازاً بها ، فكان لا بُدَّ أَنْ يتحداهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه
وهى القرآن الكريم ، وهكذا تتبدل المعجزات لتناسب كُلَّ منها حال
القوم . وتتحداهم بما اشتهروا به ، لتكون أدعى للتصديق وأثبت
للحجة .

- ومن معانى كلمة آية : آيات القرآن الكريم التى تُسميها حاملة
الأحكام ، فإذا كانت الآية هى الأمر العجيب ، فما وجه العجب فى
آيات القرآن ؟

وجه العجب فى آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات فى أمة أمية ،
وأُنزلت على نبي أميٍّ فى قوم من البدو الرُّحْل الذين لا يجيدون شيئاً
غير صناعة لقول والكلام الفصيح ، ثم تجدَ هذه الآيات تحمل من
القرائين والأحكام والآداب ما يُرهب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما
حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب ، فنراهم
يتطلعون للإسلام ، ويستغفون فى أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا
عجيباً ؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التى هى آيات الكتاب الكريم ، والتى
تُسميها حاملة الأحكام ، هل تتبدل هى الأخرى كسابقتها ؟

نقول : آيات الكتاب لا تتبدل : لأن أحكام الله المظلوية ممن عاصر رسول الله ﷺ كالأحكام المظلوية ممن تقوم عليه الساعة .

وقد سبق الإسلام باليهودية والمسيحية ، فعندنا أمر رسول الله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة . اعترض على ذلك اليهود^(١) وقالوا : ما بال محمد لا يثبت على حال ، ليأمر بالشئ اليوم ، ويأمر بخلافه غداً ، فإن كان البيت الصحيح هو الكعبة فصلاحتكم لبيت المقدس باطلاً ، وإن كان بيت المقدس هو الصحيح فصلاحتكم للكعبة باطلاً .

لذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ... (١٠١)﴾ [النحل]

فالمراء بقول الحق سبحانه :

﴿آيَةٌ مَكَانَ آيَةٍ... (١٠١)﴾ [النحل]

أى : جئنا بآية تدل على حكم يخالف ما جاء فى التوراة ، فقد كان استقبال الكعبة فى القرآن بدل استقبال بيت المقدس فى التوراة .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ... (١٠١)﴾ [النحل]

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٥٧٤/٢) مرسلًا من حديث الزهري أن القبلة صرقت نحو المسجد الحرام فى وجب على رأس ستة عشر شهرًا من مخرج رسول الله ﷺ من مكة . وأن اليهود أنشأت تقول . قد اشتاق الرجل إلى بلده ، وبيت أبيه . وما لهم حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجهاً . ومرة وجهاً آخر .

أى : يُنْزَلُ كُلُّ آيَةٍ حَسَبَ ظُرُوفِهَا : أَمَّةٌ وَبَيْتٌ وَمَكَانٌ وَزَمَانٌ .

وقوله : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۖ ﴾ (١٠١) [النحل]

أى : اتهموا رسول الله ﷺ بالكذب المتعمد ، وأن هذا التحويل من عنده ، وليس وحياً من الله تعالى : لأن أحكام الله لا تتناقض . ونقول . نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض فى الدين الواحد ، لما إذا اختلفت الأديان فلا مانع من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القرآن الكريم لا تتبدل ، ولكن يحدث فيها نسخ ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ ﴾ (١٠٦) [البقرة]

واليك أمثلة للنسخ فى القرآن الكريم :

حينما قال الحق سبحانه : ﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ۖ ﴾ (١٦) [التغابن]

جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل ، فالمشروع سبحانه حين يرى أن الاستطاعة لا تكفى يُخَفِّفُ عَنَّا الْحُكْمَ ، حتى لا يُكَلِّفَنَا فَوْقَ طَاقَتِنَا ، كما فى صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (٢٨٦) [البقرة]

وقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (٧) [الطلاق]

فليس لنا بعد ذلك أن نلوى الآيات ونقول : إن الحكم الفلانى لم تعد النفس تطيقه ولم يعد فى وسعنا ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم الوسع ويكلف على قدره ، فإن كان قد كلف فقد علم الوسع ، بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خفف عنكم من تلقاء نفسه سبحانه ، كما قال تعالى :

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا..﴾ (١٦٦) [الأنفال]

ففى بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ..﴾ (١٥٠) [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضعفًا ، قال :

﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..﴾ (١٦٦) [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى اثنين . فإش تعالى هو الذى يعلم حقيقة وسُعنا ، ويكلفنا بما نقدر عليه ، ويخفف عنا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أن نُقحم أنفسنا فى هذه القضية ، ونُقدّر نحن الوُسْعَ باهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُتّته ذاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ^(١) لِلْوَالِدَيْنِ..﴾ (١٨٠) [البقرة]

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢١١/١) : : اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين . وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية الموارث ، فلما نزلت آية الميراث نسخت هذه وصارت الميراث المقسمة فريضة من الله يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل مئة الموصى . .

فلما استقر الإيمان في النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً ، وَغَيَّرَ الْحَكَمَ
من الوصية إلى خير منها وهو الميراث ، فقال تعالى :

﴿وَلَا يُوْثِقُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ.. (١١)﴾ [النساء]

إذن : الحق تبارك وتعالى حينما يُغَيِّرُ آية ينسخها بأفضل منها .

وهذا واضح في تحريم الخمر مثلاً ، حيث ثرى هذا التدرج
المحكم الذي يراعى طبيعة النفس البشرية ، وأن هذا الأمر من العادات
التي تَمَكَّنَتْ من النفوس ، ولا بُدُّ لها من هذا التدرُّج ، فهذا ليس أمراً
عَقْدِيّاً يحتاج إلى حُكْم قاطع لا جدال فيه .

فانظر إلى هذا التدرج في تحريم الخمر : قال تعالى :

﴿وَمِن لَّمَرَاتِ الْخَيْلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ مَسْكَراً^(١) وَرِزْقاً
حَسَناً (٦٧)﴾ [النحل]

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا : لقد
بيّن الله للخمر أمراً في هذه الآية : ذلك لأنه وصف الرزق بأنه
حَسَنٌ ، وسكت عن السُّكْرِ فلم يصفه بِالْحُسْنِ ، فنلّ ذلك على أن
الخمر سيأتي فيه كلام فيما بعد .

وحينما سئل ﷺ عن الخمر ردّ القرآن عليهم :

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا.. (٢١٩)﴾ [البقرة]

(١) قال ابن عباس : السُّكْر : الخمر . والرزق الحسن . جميع ما يؤكل ويشرب خلافاً من
هاتين الشورتين . قال ابن العربي : الصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون
منسوخة ، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدني . نقله القزويني في
تفسيره (٢٨٥٢/٥ ، ٢٨٥٤) .

جاء هذا على سبيل النصيح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مَخْرَجاً من أسر هذه العادة السيئة .

ثم لُوحِظَ أن بعض الناس يُصلى وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون^(١) ، فجاء الحكم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ.. (٤٣)﴾

[النساء]

ومقتضى هذا الحكم أن يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تنأى لهم الصلاة دون سُكْرٍ إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عرِّدَهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذي يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة أَلْفَتْ فيها تَرْكَ الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مُهَيَّئَةً لتقبل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ.. (٩٠)﴾

[المائدة]

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره (٥٠٠ / ١) سبب نزول هذه الآية أن علي بن أبي طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدمعنا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً ، قال فقروا : « قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبده ما تعبدون » فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ.. (٤٣)﴾ [النساء] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحكماً بما هو أحسن منه .
والعجيب أن نرى من علمائنا من يتعصب للقرآن ، فلا يقبل القول
بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول :

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَبَهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۚ ﴾ (١٠٦) [البقرة]

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمى البداء^(١) ، ففي النسخ كان الله
تعالى أعطى حكماً ثم تبين له خطؤه ، فعدل عنه إلى حكم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب في هذا القول ، فمعنى
النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا
المعنى يقع النسخ في القرآن الكريم .

ومنهم من يقف عند قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۚ ﴾ (١٠٦) [البقرة]

فيقول : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ فيها علة للتبديل ، وضرورة تقتضي
النسخ وهي الخيرية ، فما علة التبديل في قوله : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ؟

أولاً : في قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ قد يقول قائل :
ولماذا لم يأت بالخيرية من البداية ؟

نقول : لأن الحق سبحانه حيثما قال :

(١) قال السيوطي في الإتقان (٦٠/٣) : « أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود فظنوا
منهم أنه بداء ، كالأذى يرى للراى ثم يبدو له ، وهو باطل لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء
بعد الإماتة وعكسه . والمرض بعد الصحة وعكسه ، وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر
والتبين » وقال ابن كثير في تفسيره (١٥١/١) : « المسلمون كلهم متفقون على جواز
النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه » .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ .. (١٠٢)﴾ [آل عمران]

وهذه منزلة عالية في التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواص من عباد الله ، شَقَّتْ^(١) هذه الآية على الصحابة وقالوا : وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يا رسول الله ؟

فنزلت :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٠٣)﴾ [التغابن]

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الاولى مطلوبا ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فَمَنْ ارَادَ أَنْ يَرْتَقِيَ بِتَقْوَاهُ إِلَى (حَقِّ تَقَاتِهِ) فيها ونِعْمَت . واكثر الله من امثاله وجزاه خيرا ، وَمَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الاولى :

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ .. (١٠٢)﴾ [آل عمران]

وإن كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قَلَّةٌ ، في حين أن الثانية :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٠٣)﴾ [التغابن]

وإن جعلت التقوى على قَدْرِ الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ،

(١) قال سعيد بن جبیر : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتفرجت جباههم . فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفا على المسلمين : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٠٣)﴾ [التغابن] فنسخت الآية الاولى ، ذكره ابن كثير في تفسيره (٢٧٧/٤) .

ومن هنا كانت الثانية خيراً من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما في قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أى : أن الأولى مثل الثانية ، فما وجه التفسير هنا ، وما سبب التبديل ؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلف فى مدى طاعته وانصياعه ، إن نُقل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقة فى هذا ، ولا تيسير فى ذاك ، هل سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش ؟

مثل هذه القضية واضحة فى حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس فى الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولا تيسير عليهم فى الاتجاه نحو الكعبة ، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله^(١) ، فكان من الناس مَنْ قال : سمعاً وطاعة ونقذوا أمر الله قوراً دون جدال ، وكان منهم مَنْ اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضاً ما نراه فى مناسك الحج مما سألنا رسول الله ﷺ حيث نُقبل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمى الجمرات وهى أيضاً حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هى لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٩)

[النحل]

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ،

(١) وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْطَى الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لَعَلَّكُمْ مِنْ تَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِنْ نُفُوسٍ عَلَى عَقِبِهِ .. ﴾ (١٢٧) [البقرة] .

فالحق سبحانه وتعالى يلغى كلامهم السابق :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ .. ﴾ (١٠١) [النحل]

ويقول لهم : لا ليس بمفتتر ولا كذاب ، فهذا اتهمنا باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ هنا ليس بالضرورة أن تقابل بالاقبل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون . وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء في قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴾ (١٨) [الحج].

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمعه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حق عليه العذاب ، فلم يقل القرآن : وقليل حق عليه العذاب .

وعلى فرض أن :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١١) [النحل]

إذن : هناك أقلية تعلم صدق رسول الله ﷺ في البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صدق كل آية في مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية .

فمن هم هؤلاء الذين يعلمون في صفوف الكفار والمشركين ؟

قالوا : لقد كان هؤلاء قَوْمُ أصحاب عقول راجحة ، وفهم
للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب في هذه المسألة ، ولكنهم
أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (١٤) [النمل]

وأيضاً من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون في الهدى ، ويرادهم
الإسلام ، وكان لديهم مشروع إسلام يُعدون أنفسهم له ، وهم على
علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضاً من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التي
تدفع عنهم ، والعصبية التي ترد عنهم كيّد الكفار ، وليس عندهم
أيضاً طاقة أن يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم
مؤمنون ويعلمون صدق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرة
لهم على إعلان إيمانهم .

وفي هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ
أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٢١) هم الذين كفروا وصدّوكم
عن المسجد الحرام والهدى^(١) معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون
ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطهروهم فتصيبكم منهم معرة بغير
علم .. (٢٥) [التفتح]

أي : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن

(١) الهدى : هي الذبيحة تُبذَر إلى الحرم لدى الحج . [القاموس القويم ٢٠٦/٢] ومعكوفاً :

محبوساً عن أن يبلغ أماكن تحريمه . [القاموس القويم ٢٢٢/٢] .

بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم .

﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَيُوا لَعَذَابَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح]

أى : لو كانوا مُمَيِّزِينَ ، الكفار فى جانب ، والمؤمنون فى جانب
لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإن
غير الأكثرية يعلم أنهم كاذبون فى قولهم :

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ .. ﴿١٠١﴾﴾ [النحل]

وما داموا اتهموك بالافتراء فقل ردًا عليهم :

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يرد على الكفار افتراءهم على
رسول الله ، واتهامهم له بالكذب المتعمد ، وأنه جاء بهذه الآيات من
نفسه ، فقال له : يا محمد قل لهؤلاء : بل نزله روح القدس .

والقدس : أى المطهر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول :
حاتم الجود مثلاً . والمراد به « روح القدس » سفير الوحي جبريل
عليه السلام ، وقد قال عنه فى آية أخرى :

[الشعراء]

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ ﴾

وقال عنه :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾

[التكوير]

وقول الحق سبحانه :

[النحل]

﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .. ﴿١٠٧﴾ ﴾

أى : أن جبريل لم يأت بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمُحمد ﷺ لم يأت بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

[النحل]

﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

أى : ليُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلم بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفي هذا دليل على أن المؤمنين طائعون مُتضاعون لله تعالى مُصدقون للرسول ﷺ فى كُلِّ ما بلغ عن ربه تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٠٣)

وفى هذه الآية اتهام آخر لرسول الله ﷺ واقتراء جديد عليه ، لا يأنف القرآن من إناعته ، فمن سمع الاتهام والاقتراء يجب أن يسمع الجواب ، فالقرآن يريد أن يفضح أمر هؤلاء ، وأن يظهر إفلاس حججهم وما هم فيه من تخبط .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴾ (١٠٣) [النحل]

وقد سبق أن قالوا عن رسول الله « مجنون » وبراءة الله بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤) [القلم]

والخلق العظيم لا يكون في مجنون : لأن الخلق الفاضل لا يوضع إلا في مكانه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ مَا أَنتَ بِمَعْنٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ (٢) [القلم]

وسبق أن قالوا : ساحر وهذا دليل على أنهم مغفلون يتخبطون في ضلالهم ، فلو كان محمد ساحراً ، فكلم لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهى المسألة ؟

(١) الإلحاد : الميل . يقال : لحد والحد ، أى : مال عن القصد [تفسير القرطبي ٥/٣٩٠٥] .

وسبق أن قالوا « شاعر » مع أنهم أدركوا الناس بقنون القول
شعراً ونثراً وخطابة ، ولم يُجربوا على محمد ﷺ شيئاً من ذلك ،
لكنه الباطل حينما يكج في عناده ، ويتكبر عن قبول الحق .

وهنا جاءوا بشيء جديد يكذبون به رسول الله ، فقالوا :

﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ۖ ۝١٠٣ ﴾ [النحل]

أى : أن رسول الله ﷺ يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه
القرآن فقالوا^(١) : إنه غلام لبنى عامر بن لؤى اسمه (يعيش) ،
وكان يعرف القراءة والكتابة ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرا
تخصص السابقين مثل عنتره وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربت أقوالهم في تحديد هذا الشخص الذى يزعمون أن
رسول الله ﷺ تعلم على يديه ، فقالوا : اسمه « عداس » وقال
آخرون : سلمان الفارسي . وقال آخرون : بكعام وكان حداداً رومياً
نصرانياً يعلم كثيراً عن أهل الكتاب .. الخ .

والحق تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء ، ويظهر إفلاسهم الفكرى ،
وإصرارهم على تكذيب رسول الله ﷺ فيقول :

﴿ لِسَانَ الَّذِي يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي ۚ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝١٠٤ ﴾

[النحل]

(١) قاله المهدوي عن عكرمة . [ذكره القرطبي في تفسيره ٢٩٠٤/٥] . وذكرت أقوال
أخرى : أنه غلام للفاتك بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً . ومنها : أنه غلام عتبة بن
ربيعة واسمه عداس . وقيل : عابس غلام حريطب بن عبد العزى . ويسار أبو فكيهة مولى
ابن الحضرمي ، وكان قد أسلم .

اللسان هنا : اللغة التي يُتحدَّث بها .

وَيُكْهِدُونَ إِلَيْهِ : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعَلِّم رسول الله ﷺ .

أعجمي : أى لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يَقُلْ (أعجمي) ، لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبويه^(١) صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عَجَمِي .

أما الأعجمي فهو الذي لا يُفصح ولا يُبين ، حتى وإن كان عربياً . وقد كان فى قبيلة لؤي رجل اسمه زياد يُقال له « زياد الأعجمي » لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربى .

إذن : كيف يتأتى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أن يُعَلِّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزة فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؟

كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه ﷺ التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه ﷺ تردد إلى معلم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم ؟

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان الحرشي بالولاء . أبو بشر . إمام النحاة . ولد فى إحدى قرى شيراز (١٤٨ م) ، قسّم البصرة فلزم الخليل بن أحمد فهاقه ، وسيبويه بالفارسية رائحة النجاج . توفى بشيراز ١٨٠ هـ عن ٢٢ عاماً (الاعلام - للزركلى ٨١/٥) .

سُورَةُ الْجَحَلَاءِ

٨٢٢٧

كما أن ما يحويه القرآن الكريم من آيات وأحكام ومعجزات ومعلومات يحتاج في تعلّمه إلى وقت طويل يتّلمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جريتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعقل أن ما في القرآن يمكن أن يطويه صَدْرُ واحدٍ من هؤلاء ١٩ لو حدث لكان له من المكانة والمنزلة بين قومه ما كان للنبي ﷺ من منزلة ، ولأشاروا إليه بالبنان ولذاع صيته ، واشتهر أمره ، وشيء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝١٢﴾ [النحل]

أى : لغته ﷺ ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبينة ، لا لبس فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ
اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٤﴾

الحق تبارك وتعالى في قوله :

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. ۝١٤﴾ [النحل]

ينفى عن هؤلاء صفة الإيمان ، فكيف يقول بعدها :

﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. ۝١٤﴾ [النحل]

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مهتدين ؟

قُلْنَا : إن الهداية نوعان :

- هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوى فيها المؤمن والكافر ، فقد
دَلَّ الله الجميع ، وأوضح الطريق للجميع ، ومنها قوله تعالى :
﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .. (١٧)﴾ [قصص]
أى : أرشدناهم ودللناهم .

- وهداية المعونة والتوفيق ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن ، ومنها
قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَأَنَّا هُمْ فَقَرَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

إذن : معنى :

﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. (١٤)﴾ [النحل]

أى : هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً : إن الجهة هنا مُنْفَكَّة إلى شيء آخر ،
فيكون المعنى : لا يهديهم إلى طريق الجنة ، بل إلى طريق النار ، كما
قال تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقَلَّموَا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
طَرِيقًا (٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (٦٩)﴾ [النساء]

بدليل قوله تعالى بعدها :

[النحل]

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾

ولأنه سبحانه في المقابل عندما تحدّث عن المؤمنين قال :

[محمد]

﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦)﴾

أي : هداهم لها وعرفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِثَايَكِ اللَّهِ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُوتُ (١٠٥)﴾

كان الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله
واتهمستموه بالكذب فإن الكذب الحقيقي أن تُكذّبوا بآيات الله ،
ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ في تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يقل : وأولئك
هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه
صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما سئل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال :
« نعم » . لأن الله قال :

[المائدة]

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. (٣٨)﴾

فما دام قد شرع حكماً ، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر
وارداً ومحتمل الحدوث .

وَسُئِلَ : أَيْزَنِي الْمُؤْمِنُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ :

﴿ الزَّائِنَةُ وَالزَّائِي .. (١) ﴾

[النور]

وَسُئِلَ : أَيْكَذِبُ الْمُؤْمِنُ ؟ قَالَ : لَا^(١) .

والحديث يُوضِّحُ لَنَا فِطَاعَةَ الْكَذِبِ وَشَنَاعَتَهُ ، وَكَيْفَ أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ ، فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهَا عِقَابًا مَعْلُومَةً فِي حِينٍ تَرَكَ عِقَابُ الْكَذِبِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهَا جَرِيْمَةٌ أَعْلَى مِنَ الْعِقَابِ وَأَعْظَمُ .

إِذَنْ : الْكَذِبُ صِفَةٌ لَا تُلِيقُ بِالْمُؤْمِنِ ، وَلَا تُتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ ؛ ذَلِكَ لِأَنَّهُ إِذَا اشْتَهَرَ عَنْ وَاحِدٍ أَنَّهُ كَذَّابٌ لَمَّا اعْتَادَهُ النَّاسُ مِنْ كَذِبِهِ ، فَتَخَشَى أَنْ يَقُولَ بَرَّةً : أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَقُولُ قَائِلٌ : إِنَّهُ كَذَّابٌ وَهَذِهِ كَذْبَةٌ مِنْ أَكَاذِبِهِ .

ثُمَّ يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ^(٢) :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٦) ﴾

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي مَوْطِئِهِ (ص ٩٩٠) مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ سَلِيمٍ مَرْسَلًا .

(٢) سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَزَلَتْ فِي عِمَارِ بْنِ يَاسِرٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَشْرَ كَتَبِينَ أَخَذُوهُ وَأَبَاهُ يَاسِرًا وَأُمَّهُ سَمِيَّةً وَصَهِيبًا وَبِلَالًا وَخَبَابًا وَسَلَامًا ، فَأَمَّا سَمِيَّةٌ فَلَمَّا رُبِّطَتْ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ ، وَوُجِّهَتْ قُبُلُهَا بِحَرَبَةٍ ، وَثَقِيلَ لَهَا : إِنَّكَ أَسْلَمْتِ مِنْ أَجْلِ الرِّجَالِ ، فَقَتَلَتْ وَقَتَلَ زَوْجُهَا يَاسِرٌ ، وَهُمَا أَوَّلُ قَتِيلَيْنِ قُتِلَا فِي الْإِسْلَامِ .

وَأَمَّا عِمَارٌ فَلَمَّا أَعْطَاهُمَا مَا كَرَدُوا بِلِسَانِهِ مَكْرَهُمَا ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنَّ عِمَارًا كَفَرَ ، فَقَالَ كَلَّا ، إِنَّ عِمَارًا مَلَأَ إِيْمَانًا مِنْ قَرْنِهِ إِلَى قَدَمِهِ ، وَاسْتَطَلَّ الْإِيْمَانُ يُلْحِمُهُ وَبِهِ ، فَأَتَى عِمَارَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْكِي ، لَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ عِمَارًا لَكَ فَعْدٌ لِي بِهِمْ بِمَا قَتَلْتَ . فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ . (ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ (ص ١٦٢)

وَتَفْسِيرُ الْفَرَطِيِّ (٢٩٠٧/٥) .

الحق سبحانه وتعالى سبق وأن تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدث عن الذين يخلفون العهد ولا يؤمنون به ، ثم تحدث عن الذين افترؤا على رسول الله والذين كذبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لابد أن تثار .

وفي هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . قالقول وحده لا يكفي ولا بد وأن تشهد بذلك ، ومعنى تشهد أن يواطىء القلب واللسان كل منهما الآخر في هذه المقولة .

والمتأمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضي أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أن يواطىء القلب اللسان إيجاباً بالإيمان ؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقي في إيمانه ؛ لأنه يقول ما يضمّره قلبه .

الثانية : أن يواطىء القلب اللسان سلباً أي : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقي في كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أن يؤمن بلسانه ويضمّر الكفر في قلبه ، وهذه حالة المنافق ، وهو غير منطقي في إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هي المرادة في هذه الآية . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر ؟ وما جزاؤه ؟

قوله :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

هذه جملة الشرط تأخر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخَلَ لِلإِنْسَانِ فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، في حين قلبه مطمئن بالإيمان .

﴿ مَنْ كَسَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلنا على أنه لا شيء عليه ، ولا بأس أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهي رخصة تقى الإنسان موارد الهلاك في مثل هذه الأحوال .

وفي تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقت كلمة الكفر وهي مطمئنة بالإيمان ،

وفي الحديث الشريف : « رفع عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه »^(١) .

ويذكر القاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمّية أول شهيدين في الإسلام ، فكيف استشهدا ؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة الكفر مقابل

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٠٩/٥) : « والخير وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء » قاله القاضي أبو بكر بن العربي . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلي في القوائد . وابن المنذر في كتاب الإقناع . »

العفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين ؟ صدَّعا بالحق وأصرًّا على الإيمان حتى نالا الشهادة في سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أَخَذَ بِهَا ، حيثما تعرَّض لتعذيب المشركين .

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمار بن ياسر كفر ، فانكر ﷺ هذا ، وقال :

« إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان في عمار قد اختلط بلحمه ودمه » ^(١) .

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكي ، ثم قص عليه ما تعرَّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلَّصني من أيديهم إلا أنِّي تنازلتكم ^(٢) وذكر آلهم بخير ، فما كان من النبي ﷺ إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له : « إن عادوا إليك فقلَّ لهم ما قلت » ^(٣) .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها

(١) أخرج أبو نعيم في الحلية (١٣٩/١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه » . وأورده الواحدى في أسباب النزول (ج ١٦٢) .

(٢) أى : أنه تنازل رسول الله ﷺ بالسبب والشتيم وذكره بالشر .

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٧٠/٥) وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ وذكر آلهم بخير ، ثم تركوه ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك شيء ؟ قال : شر ، ما تُركت حتى قلت منك وذكر آلهم بخير ، قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعد .

رسول الله ﷺ وقالوا : فما بال بلال^(١) ؟ فقال : « عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق » .

ولا شك أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأمله ، وأن الصدع بالحق والصبر على البلاء أعلى منزلة ، وأسْمَى درجة من الأخذ بالرخصة ؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

لذلك ، ففي حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة يصدق ثبوتها ، فقال لرجل : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : فما تقول في ؟ فقال الرجل في لباقة : وأنت كذلك ، يعني أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحة بثبوت هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : وما تقول في ؟ فقال الرجل متهمكاً : أجهر لاني أصبحت أصم الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل . فلما علم رسول الله ﷺ خبرهما قال : « أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق »^(٢) .

(١) وذلك أن بلالا هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يُعذِّبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول : أحدٌ أحدٌ ، حتى ملوه ، ثم كَتَفُوهُ وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبي مكة . نكرة القرطبي في تفسيره (٢٩٠٨/٥) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٧٢/٥) وعزاه لابن أبي شيبة عن الحسن أن عيينة لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه فقال : إني أصم . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم . فأرسله . فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال : « أما صلاحك فعضي على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة » وذكر ابن كثير في تفسيره (٥٨٨/٢) رواية تفيد أن الأول منهما هو حبيب بن زيد الأنصاري .

وقد تحدث العلماء عن الإكراه في قوله تعالى :

﴿لَا مَنَ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. (١٠٦)﴾ [النحل]

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالي :

– إذا أكره الإنسان على أمر ذاتي فيه ، كان قيل له : اشرب الخمر والأقْتُلْكَ أو عَذِّبْكَ قالوا : يجب عليه في هذه الحالة أن يشربها وينجو بنفسه ؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس من يعصون الله بشربها . فإن قيل له : اكفر بالله والأقْتُلْكَ أو عَذِّبْكَ ، قالوا : هو مُخَيَّرٌ بين أن يأخذ بالنقْية هنا ، ويستخدم الرخصة التي شرعها الله له ، أو يضدع بالحق ويصمد .

– أما إذا تعلّق الإكراه بحق من حقوق الغير ، كان قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلْكَ ، ففي هذه الحالة لا يجوز لك قتله ؛ لأنك لو قتلته لَقُتِلْتَ قصاصاً ، فما الفائدة إذن ؟ .

وبعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، يتحدث عن النوع الآخر :

﴿وَلَسَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا .. (١٠٦)﴾ [النحل]

أي : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُشْرِحاً بها صدره ، وهذا النوع هو المقصود في جواب الشرط .

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ [النحل]

فإن كانت الآيات قد سكنت عَنْ أَكْرَهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكره ، فقد بيّنت أن من شرح بالكفر صدرًا عليه غضب من الله أي : في الدنيا . ولهم عذاب عظيم أي : في الآخرة .

وكما رأينا في تاريخ الإسلام نماذج للنوع الأول الذي أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صدراً ، وهم المنافقون ، ومنهم من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبي السرح من عامر بن لؤي .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١٠٧)

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى : ما استحقوه من العذاب السابق .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ .. ﴾ (١٠٧) [النحل]

استحب : أى أثر وتكلف الحب ؛ لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أن تُحب لذاتها ، ولوجد الأغيار بها كثيرة تتقلب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السقم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة ؟

والحق تبارك وتعالى يريد منا أن نعطي كلاً من الدنيا والآخرة ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة فى حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلا ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله ؟ لذلك نقول : إن الدنيا أهم من أن تُنسى ، وأنفسه من أن تكون غاية ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنْسَ نَفْسِكَ مِنَ الدُّنْيَا .. ﴾ (٧٧)

[القصاص]

ففهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأخذ الحظوظ منها ، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيناً مُعرضاً للنسيان والإهمال ، فيُذكِّرنا بها ، ويحُثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب ، فإنا لا أقول لك : لا تنسَ الشيء الفلاني إلا إذا كنتَ أعلم أنه عُرضةٌ للنسيان ، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام .

ويكفيها وَصَفَ هذه الحياة بالدنيا ، فليس هناك وَصَفٌ أَقْلَ من هذا الوصف ، والمقابل لها يقتضى أن نقول : العُلْيَا وهي الآخرة ، نعم نحن لا نُنكر قُدْرَ الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها ، ففيها الحياة والحسَّ والحركة ، وفيها العمل الصالح والذكرى الطيبة .. إلخ .

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء ، في حين أن الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التي لا يعترينا زوال ، ولا يهددها موت ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

أى : الحياة الحقيقية التى يجب أن نحرص عليها ونحبها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . (٢٤) ﴾ [الأنفال]

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرَزِّقُونَ ؟ قالوا : يُحْيِيكُمْ أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا تزول .

وقوله :

﴿عَلَى الْآخِرَةِ...﴾ (١٠٧)

[النحل]

لقائل أن يقول : إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة ، فكيف يُقال عنهم :

﴿اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ...﴾ (١٠٧)

[النحل]

نقول : من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ (٢٨)

[النحل]

وأيضاً منهم مَنْ قال :

﴿وَلَمَّا رُدُّوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَاحِدُونَ خِرَاءَ مُنْهَاهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦)

[الكهف]

إذن : من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة ، ولكنه يُفَضِّلُ عليها الدنيا .

وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٧)

[النحل]

أى : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوى فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

إذن : إذا نقيت الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصبت على الكافر لكونه كافراً ، فكان كُفْرُهُ سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يَهْذِهِ الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ
وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ (١٠٨)

طبع : أى ختم عليها ، وإذا تأملت الختم وجدت المقصود منه أن
الشيء الداخل يظل داخلاً لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجاً
لا يدخل .

وَفَرَّقَ بين ختم البشر وختم ربنا سبحانه ، فقصارى ما نفعله أن
نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلاً ، أو نريد إغلاق مكان
ما نختم عليه بالشمع الأحمر للتأكد من غلقه ، ومع ذلك نجد مَنْ
يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا ختم الحق سبحانه وتعالى على شيء فلا يستطيع أحد
التحايل عليه سبحانه .

فالمراد - إذن - بقوله تعالى :

﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (١٠٨)

[النحل]

أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من
الإيمان لا يدخل فيها ؛ ذلك لأن القلب هو الرعاء الذى تصبّ فيه
الحواس التى هى وسائل الإدراكات المعنوية ، وأهمها السمع
والبصر .

فبالسمع تسمع الوحي والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله في كونه وعجيب صنّعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفت هذه الحواس عما أَرَادَهُ اللهُ مِنْهَا ، وبَدَلُ أَنْ تَمُدَّ الْقَلْبَ بِدَلَالِ الْإِيمَانِ تَعَطَّلَتْ وَظَلَفَتْهَا .

فبالسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْعٌ اعْتِبَارِيٌّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبَصِّرُ ما حَرَّمَ اللهُ فَلَا يَوْجِدُ بَصَرٌ اعْتِبَارِيٌّ ، فما الذي سيوصل إلى القلب - إذن - من خلال هذه الحواس ؟

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله في كونه قلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أَرَادَ الْإِيمَانُ قُلْنَا لَهُ : لَا بُدَّ أَنْ تُخْرِجَ الْكُفْرَ مِنْ قَلْبِكَ أَوَّلًا ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان في قلب واحد ؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى في الماديات يسمونه (عدم التداخل) يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فتري أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء .

فكذلك الحال في الأوعية المعنوية .

فإن أردتَ الْإِيمَانَ - أيها الكافر - فأخرج أولاً ما في قلبك من الكفر ؛ واجعله مُجَرِّدًا مِنْ كُلِّ هَوًى ، ثم ابحث بعقلك في أدلة الكفر وأدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدخله في قلبك ، لكن أن تبحث أدلة الإيمان وفي جوفك الكفر فهذا لا يصح ، لا بُدَّ مِنْ إِخْلَاءِ الْقَلْبِ أَوَّلًا وَتَجْعَلَ الْأَمْرَيْنِ عَلَى السَّوَاءِ .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (٤)

وفى الأثر : « لا يجتمع حب الدنيا وحب الله فى قلب واحد »^(١)
 لأن للإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت
 قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعله مزدحماً
 بالمظروف فيه .

كما أن طبع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه
 وتعالى يعطى عبده مراده ، حتى وإن كان مراده الكفر ، وكأنه
 سبحانه يقول لهؤلاء : إن كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنشرح له
 صدوركم فسوف أطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها
 الإيمان ، بل وأزيدكم منه إن أحببتم ، كما قال تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ ۝١٠ ﴾ [البقرة]

فهتئناً لكم بالكفر . واذهبوا غير مأسوف عليكم .

وقوله : ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٨ ﴾ [النحل]

الغافل : مَنْ كان لديه أمر يجب أن يستتبه إليه ، لكنه غفل
 عنه ، وكأنه كان فى انتظار إشارة تنبيه عقله ليصل إلى الحق .

ثم ينهى الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى :

﴿ لَا جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝١٩ ﴾

(١) ورد فى معنى هذا عدة آثار :

- قال عيسى بن مريم : « كما لا يستقيم الفار والماء فى إناء ، كذلك لا يستقيم حب
 الآخرة والدنيا فى قلب المؤمن » . أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ثم الدنيا » (ص ٣٤) .
 - وقيل ليونيس بن متى : « يا يونس إذا أحب العظم الدنيا فزعت متاجاتى من قلبه » .
 أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ثم الدنيا » (ص ١٥٦) .

فَقُولْهُ تَعَالَى :

﴿ لَا جَرَمَ .. (١٠٩) ﴾

[النحل]

أى : حقاً ولا بُدُّ ، أولاً جريمة فى أن يكون هؤلاء خاسرين فى الآخرة ، بما اقترفوه من مُوجبات الخسارة ، وبما اتَّوَّأ به من حيثيات ترتَّب عليها الحكم بخسارتهم فى الآخرة ، فقد حقَّ لهم وثبت لهم ذلك .

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحيثيات ، بداية من قولهم عن رسول الله :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١) ﴾

[النحل]

وقولهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٢) ﴾

[النحل]

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانسراح صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبت لهم الخسران فى الآخرة يوم تُصَفَّى الحسابات ، وتكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْرَانًا مَنْ اقترف كل هذه الجرائم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا
ثُمَّ جَهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿ ٨٢٤٢ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتُتْرَكُ... (١٥) ﴾ [النحل]

أى : ابتلوا وعذبوا عذاباً أليماً : لأنهم أسلموا .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦) ﴾ [النحل]

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعباده الذين أسرقوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب ؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب لئیسَ من رحمة الله ، ولتحول - وإن أذنب ولو ذنباً واحداً - إلى مجرم يشقى به المجتمع ، فلم ينأسامة بارقة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاق .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويغفر ذنب المسيء ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »^(١) .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إن أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدل سيئاته حسنات ، كما قال سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأَرْسَلْنَاكَ بِدَلِّ اللَّهِ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى . قال النوى فى شرح مسلم : « قال المازرى : المراد به قبول التوبة ، وإنما ورد لفظ يبسط اليد لأن العرب إذا رضوا لشيء بسط يده لقبوله . وإذا كرهه نبضها عنه ، فخطبوا بأمر حسن بفهمونه ، وهو مجاز ، فإن يد الجارحة مستحيلة فى حق الله تعالى » .

لو رأى المذنب ذلك كان أدعى لإصلاحه ، وأجدى فى انتشاله من الوعدة التى تردى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . (١١٨) ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ودلهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإن اغترَّ مُفْتَرٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لى حسنات ، نقول له : وَمَنْ يَدْرِي لَعَلَّه لَا تَنْطَبِقُ عَلَيْكَ شُرُوطُ الَّذِينَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وهل تضمن أن يُمهلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتى بغتة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾

قد يكون المعنى فى هذه الآية على اتصال بالآية السابقة ، ومتعلق بها ، فيكون المراد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل]

يحدث هذا :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا . (١١١) ﴾ [النحل]

أى : يوم القيامة . أو يكون المعنى : اذكر يا محمد :

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ (١١١) [النحل]

وهل للإنسان أكثر من نفس ، فتجادل إحداهما عن الأخرى ؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة في الدنيا والآخرة ، ولكنها تختلف في الدنيا عنها يوم القيامة ؛ لأن الحق سبحانه منحها في الدنيا الاختيار ، وجعلها حرة في أن تفعل أو لا تفعل ، فكان من النفوس : الطائعة ، والعاصية ، والمنصاعة ، والمكابرة .

فإذا ما وقفت النفس في موقف القيامة ، وواجهت الحق الذي كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة ، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها ، فكان نفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا في موقف ينادي فيه الحق تبارك وتعالى :

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) [غافر]

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة ، فقال تعالى :

﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٢٢) [الأنعام]

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...﴾ (٣) [الزمر]

﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا...﴾ (٢٩) [فصلت]

إذن : هي نفس واحدة ، تجادل عن نفسها في يوم لا تجزى فيه نفس عن نفس ، فكل مشغول بكرهه ، مُحاسَبٌ بذنبه ، كما قال تعالى :

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٢٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٢٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٢٧)﴾
[عبس]

وقوله تعالى :

﴿وَتَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾ [النحل]

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ،
فالميزان ميزان عدل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً .

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾
[الزلزلة]

وقوله تعالى : ﴿وَتَوَفَّى (١١١)﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جور ،
فالجميع عبيد لله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإن رحمهم فبفضله ،
وإن عذبهم فبعذله ، وقد قال تعالى :

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨)﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ
اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾

(١) رَغَدَ العيش . اتسع وطاب . وقوله : ﴿وَكَلَّا مَتَّهَا رَغَدًا حَتَّىٰ لَبِثَا (١٢٥)﴾ [البقرة] أي : اكلا طيباً موصفاً عليكم فيه .

الحق سبحانه وتعالى. بعد أن تكلم عن الإيمان بالله والإيمان بصدق رسوله في البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله في الكتاب والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله وللرسول والمنهج ، أراد سبحانه أن يعطينا واقعاً ملموساً في الحياة لكل ذلك ، لضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابهاً تاماً في ناحية معينة بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماماً .

والهدف من ضرب الأمثال أن يوضح لك مسجولاً معلوم ، فإذا كنت مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل فلان - المعلوم لك - في الطول ومثل فلان في اللون .. إلخ من الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تكون صورة كاملة لهذا الشخص الذي لا تعرفه .

لذلك ، فالشيء الذي لا مثيل له إياك أن تضرب له مثلاً ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ (٧٤) ﴾ [النحل]

لأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا نظير له ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وهو سبحانه الذي يضرب المثل لنفسه ، أما نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه .

لذلك نجد في القرآن الكريم أمثلاً كثيرة توضح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوي بالأمر الحسي الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضرب به الله لنا مثلاً في الإنفاق في سبيل الله ، وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلف على صاحبها أضعافاً مضاعفة . فانظر كيف صور لنا القرآن هذه المسألة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يضاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾
[البقرة]

وهكذا أوضح لنا المثل الأمر الغيبي المجهول بالأمر المحسّس المُشاهد الذي يعلمه الجميع ، حتى استقرّ هذا المجهول في الذهن ، بل أصبح أمراً مُتيقناً شاخصاً أمامنا .

والمثال في هذا المثل التوضيحي يجد أن الأمر الذي وضّحه الحق سبحانه أقوى في العطاء من الأمر الذي أوضح به ، فإن كانت هذه الأضعاف المضاعفة هي عطاء الأرض ، وهي مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى ؟

وكلمة (ضَرَبَ) مأخوذة من ضَرَبَ العملة ، حيث كانت في الماضي من الذهب أو الفضة ، ولخوف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النقاد أي : الخبراء في تمييز العملة يضربونها أي : يختمون عليها فتصير مُعتمدة موثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مثلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرّ في الذهن واعتُمد .

فقال تعالى في هذا المثل :

[النحل]

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ۖ﴾ (١١٢)

الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشئ من أنواع النعم فوجدوها ، ولم يشكره عليها ، ولم يؤدِّ حقَّ الله فيها ، واستعمل نعمة الله في معصيته فقد عرَّضها للزوال ، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ، لذلك قال الشاعر :

إِذَا كُنْتُ فِي نِعْمَةٍ فَأَرْعَهَا فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تُزِيلُ النُّعْمَ
وَحَافِظُ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الْإِلَهِ فَإِنَّ الْإِلَهَ شَدِيدُ النَّقْمِ

ولكن ، القرية التي ضربها الله لنا مثلاً هنا ، هل هي قرية معينة أم المعنى على الإطلاق ؟ قد يراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة^(١) ، أو غيرها من القرى ، وعلى كل فتحديدها أمر لا فائدة منه ، ولا يؤكِّر في الهدف من ضرب المثل بها .

والقرية : اسم للبلد التي يكون بها قريٌّ لمن يمرُّ بها ، أي : بلد استقرار . وهي اسم للمكان فإذا حدث عنها يراد المكين فيها ، كما في قوله تعالى :

﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ﴾ (٨٧) [يوسف]

فالمراد : أسأل أهل القرية ؛ لأن القرية كمكان لا تُسأل .. هكذا

(١) قاله ابن عباس ومجاهد . وقالت عائشة وحفصة رضي الله عنهما : هي المدينة . [ذكره السيوطي في الدر المنثور ١٧٤/٥] وقال الفرطبي في تفسيره (٢٩٢١/٥) : « قيل إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصلة من سائر القرى » .

قال علماء التفسير ، على اعتبار أن في الآية مجازاً مرسلًا علاقته المحلية .

ولكن مع تقدّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مددًا جديدًا ، كما قال سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ۚ ۝٥٢ ﴾ [فصلت]

والآن تطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين ، فمثلاً يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .

ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن القرية يمكن أن تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجّل وتحتفظ بما سجّلته ، بل وأكثر من ذلك يتطلعون لإعادة الصور والأصوات من بدء الخليقة على اعتبار أنها موجودة في الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تُضَيّع .

وما أشبه هذه الموجات باندياح المَاء إذا أُلقيت فيه بحجر ، فينتج منه عدة دوائر تبتعد عن مركزها إلى أن تتلاشى بالتدريج .

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ؛ لأن أهلها قد يكذبون ، أما هي فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الأداء القرآني .

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

﴿٨٢٥١﴾

وقوله تعالى : ﴿كَانَتْ أَمْنَةً مَّطْمَئِنَّةً.. (١١٢)﴾ [النحل]

أمنة : أى غي مَأْمَن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نعم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : ﴿مُطْمَئِنَّةً.. (١١٢)﴾ [النحل]

أى : لديها مقومات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقرّة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا فى المكان الخالى من المنقّصات ، والذي يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمانينة هما سرّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنّ الله تعالى على قريش قال :

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش]

فطالما شيعت البطن ، وأمنت النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول ﷺ يعطينا صورة مثلى للحياة الدنيا ، فيقول :

« مَنْ أَصْبَحَ مَعَافًى فِي بَدَنِهِ ، أَمِنًا فِي سِرِّيهِ^(١) ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »^(٢)

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا وَغَدَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ .. (١١٢)﴾ [النحل]

(١) السرب : للنفس والمذهب . وقال ابن درستويه : وإنما المعنى آمن فى أهله وولده .

وقيل : السرب هنا القلب ، أى : آمن القلب . [لسان العرب - مادة : سرب] .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٢٤٩/٥) ، وابن حبان (٢٥٠٣ - موارد الثمانيان) من حديث

أبي الدرداء رضى الله عنه ، وأدرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٨٩/١٠) وعزاه للطبرانى

وقال : « رجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم » .

معلوم أن الناس هم الذين يخرجون لطلب الرزق ، لكن في هذه القرية يأتي إليها الرزق ، وهذا يُرجح القول بأنها مكة ؛ لأن الله تعالى قال عنها :

﴿ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَيِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَسَكُنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧) [التقصص]

ومن تيسر له العيش في مكة يرى فيها الثمرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمت لهم النعمة واكتملت لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم ؟ هل استقبلوها بشكر الله ؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم في طاعته ومرضاته ؟ لا .. بل :

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ .. ﴾ (١١٧) [النحل]

أي : جحدت بهذه النعم ، واستعملتها في مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١١٨) [النحل]

وكان في الآية تحذيراً من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ، واستعمل النعمة في مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ .. ﴾ (١١٩) [النحل]

من الذوق ، نقول : ذاق وتذوق الطعام إذا وضعه على لسانه وتذوقه . والذوق لا يتجاوز حلمات اللسان . إذن : الذوق خاص بطعم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقل : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

[النحل]

﴿لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ.. (١١٧)﴾

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان ، والمتأمل في الآية يطالع دقة التعبير القرآني ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك ؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس في البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوض من المخزون في الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهت الشحوم تغذى الجسم على اللحم ، ثم بدأ يثحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هزالاً وذبولاً ، ثم يتكمش ويجف ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجي على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشحوب لونه وتغير بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض :

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٢٢)﴾ [البقرة]

وكذلك الخوف وإن كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كتوب يرتديه .

، وهكذا جسّد لنا التعبير القرآني هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسة الذوق ؛ لأنها أقوى الحواس .

وفي تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يوحي بشمولهما الجسم

كله ، كما يلقه اللباس فليس الجوع في المعدة فقط ، وليس الخوف في القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتهر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فنراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

حَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَسِيغُ مَوَدَّتِي فَأَحِسُّ مِنْهَا فِي الْفُؤَادِ دَبِيحًا

فلذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحول الحب من القلب ، وسكن جميع الجوارح ، وخالط كل الاعضاء ، على حد قول الشاعر :

لَا عُضْوٌ لِي إِلَّا وَفِيهِ صَبَابَةٌ فَكَأَنُّ أَعْضَائِي خُلُقَنَ قُلُوبًا

وقوله : ﴿يَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل]

أى : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدورهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصدود والجحود والنكران ، وتعرضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيئوا لقتله ، حتى دعا عليهم قاتلاً :

«اللهم أشدّد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»^(١)

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ،

(١) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد في مسنده (٤٧٠/٢) ، ٥٠٢ .

(٥٢٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

حتى إنهم كانوا يأكلون الجيف ، ويخلطون الشعر والوبر بالدم فيأكلوه .

وظلوا على هذا الحال سبع سنين حتى ضَجُّوا ، وبلغ بهم الجَهْدُ والضَّنْكُ مُنتَهَاهُ ، فإرسلوا وفداً منهم لرسول الله ، فقالوا : هذا عملك برجال مكة ، فما بال صبيباتها ونسائها ؟ فكان ﷺ يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطيب .

أما لباس الخوف فتَمَثَّلَ في السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ من المدينة لترهيبهم وتزعجهم ! ليعلموا أن المسلمين أصبحت لهم قوة وشوكة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ
وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١١٣)

رأينا كيف كانت النعمة تامة على أهل مكة ، وقد تمثلت هذه النعمة في كَوْنِهَا أَمْنَةٌ مَظْمُونَةٌ ، وهذه نعمة مادية يحفظ الله بها القالب الإنساني ، لكنه ما يزال في حاجة إلى ما يحفظ قِيَمَهُ وأَخْلَاقَهُ .

وهذه هي نعمة النعم ، وقد امتنَّ الله عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولا منهم ، فما فائدة النعم المادية في بلد مهزوزة القيم ، مُنْحَلَةٌ الأخلاق ، فجاءهم رسول الله ﷺ ليُقَوِّمَ ما اعرجَ من سلوكهم ، ويُصْلِحَ ما فسد من قِيَمِهِمْ ومبادئهم .

وقوله : ﴿ مِنْهُمْ ۖ ﴾ (١١٣)

أى : من جنسهم ، وليس غريباً عنهم ، وليس من مطلق العرب ، بل من قريش أفضل العرب وأوسطها .

يقول تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ... ﴾ (١١٣) [النحل]

وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال ، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة ، ولكنهم كما كفروا بالنعم المادية كفروا أيضاً بالنعم القيمة متمثلة في رسول الله ﷺ .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ (١١٤) [النحل] من الذى أخذهم ؟

لم تقل الآية : أخذهم الله بالعذاب ، بل : أخذهم العذاب ، كأن العذاب نفسه يشاق لهم ، وينقض عليهم ، ويسارع لأخذهم ، ففى الآية تشخيص يوحى بشدة عذابهم .

كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِحَبْلِهِمْ هَلْ أَتَيْنَا بِكَ مِنْ مَّزِيدٍ ﴾ (٣٥) [ق]

ثم يقول تعالى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَائِلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عَابِدُونَ ﴾ (١١٤)

(١) الضمير فى (فكلوا) هنا يحتمل أمرين :

- ١ - أن يكون الخطاب للمؤمنين ، ليأكلوا من الرزق الحلال الطيب . ومن الغنائم .
- ٢ - أن يكون الخطاب للمشركين . لأن النبى ﷺ بعث إليهم بضعام ، بعد أن أكلوا الجيف والكلاب الميتة والجلود . [تفسير القرطبي ٢٩٢٢/٥] بتصريف .

قُلْنَا : إن الرسول ﷺ حينما اشتد الحال بأهل مكة حتى أكلوا الجيف ، كان يرسل إليهم ما يأكلونه من الحلال الطيب رحمة منه ﷻ بهم فيقول :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . (١١٤) ﴾ [النحل]

أى : إن هذا الرزق ليس من عندى ، بل من عند الله .

﴿ حَلَالًا طَيِّبًا . (١١٤) ﴾ [النحل]

ذلك لأنهم كانوا قبل ذلك لا يتورعون عن أكل ما حرم الله ، ولا عن أكل الخبيث ، فأراد أن يُنبِّههم أن رزق الله لهم من الحلال الطيب الهنيء ، فيبدلهم الحلال بدل الحرام ، والطيب بدل الخبيث .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ . (١١٤) ﴾ [النحل]

وهنا إشارة تحذير لهم أن يتقوا فيما وقعوا فيه من قتل من جُود النعمة ونكرانها والكفر بها ، فقد جربوا عاقبة ذلك ، فنزع الله منهم الأمن ، وألبسهم لباس الخوف ، ونزع منهم الشئع ورغد العيش ، وألبسهم لباس الجوع ، فخذوا إذن عبرة مما سلف :

﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا

أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ^(١) فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ

اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

(١) الإلال : الصياح ورفع الصوت . وأهل بالذبيحة : ذكر اسم من ذبحها له . [القاموس

الحق سبحانه وتعالى بعد أن قال :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا .. (١٧١) ﴾ [النحل]

أراد أن يكرر معنى من المعاني سبق ذكره في البقرة والمائدة ،
فقال في البقرة :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ بِهِ لَعَنَ اللَّهُ فَمَنْ اضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ^(١) وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٢) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى في سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لَعَنَ اللَّهُ بِهِ .. (٤) ﴾ [المائدة]

وهذه الأشياء كنتم تأكلونها وهي مُحَرَّمَةٌ عليكم ، والآن ما دُمنا
ننقذكم ، ونجعل لكم معونة إيمانية من رسول الله ، فكلوا هذه الأشياء
جلالاً طيباً .

ولكن ، لماذا كرر هذا المعنى هنا ؟

التكرار هنا لأمرين :

الأول : أنه سبحانه لا يريد أن يعطيهم صورة عامة بالحكم ، بل
صورة مُشَخَّصة بالحالة : لأنهم كانوا جوعى يريدون ما يأكلونه ،
حتى وإن كانت الجيف ، ولكن الإسلام يُحَرِّمُ الميتة ، فأوضح لهم أنهم
بعد ذلك ستأكلون الحلال الطيب .

(١) أي : في غير بُغْيٍ ولا عدوان ، وهو مجاوزة الحد فلا إثم عليه في أكل ذلك . وقال مقاتل
ابن حيان : غير باغ ، بمعنى : غير مستحقه ، وقال السدي : غير باغ - يبتغي فيه شهوته -
(تفسير ابن كثير ٢/٢٠٥) .

ثانياً : ان النص يختلف ، ففي البقرة :

﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ يَغْيِرُ اللَّهَ.. (١٧٣)﴾ [البقرة]

وهنا : ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّغْيَرِ اللَّهِ بِهِ .. (١١٥)﴾ [النحل]

وليس هذا من قبيل التفنُّن في الأسلوب ، بل المعنى مختلف تماماً :
ذلك لأن الإهلال هو رَفْع الصوت عند الذبح ، فكانوا يرفعون أصواتهم
عند الذبح ، ولكن والعياذ بالله يقولون : باسم اللات ، أو باسم
العُزَّى ، فيهلون بأسماء الشركاء الباطلين ، ولا يذكرون اسم الله
الوهاب .

فمرة يهلون به لغير الله ، ومرة يهلون لغير الله به . كيف ذلك ؟
قالوا : لأن الذبح كان على نوعين : مرة يذبحون للتقرب للأصنام ،
فيكون الأصل في الذبح أنه أَهْلٌ لِّغْيَرِ اللَّهِ بِهِ . أى : للأصنام .
ومرة يذبحون لياكلوا دون تقرب لأحد ، فالأصل فيه أنه أَهْلٌ به
لغير الله .

إذن : تكرار الآية لحكمة ، وسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ .. (١١٥)﴾ [النحل]

الاضطرار : ألا تجد ما تأكله ، ولا ما يقيم حياتك .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هنا رخصة عندما تُلجئنا الضرورة أن
نأكل من هذه الأشياء المحرمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسدُّ الجوع ،
فمعنى (غَيْرَ بَاغٍ) غير مُتجاوزٍ للحدِّ ، فلو اضطررتَ وعندك ميّنة

وعندك طعام حلال ، فلا يصح أن تأكل الميتة في وجود الحلال .

﴿وَلَا عَادٍ (١١٥)﴾

[النحل]

أى : ولا معتمد على القدر المرحّص به ، وهو ما يمسك الحياة ، ويسدّ جوعك فقط ، دون شيع منها .

ويقول تعالى :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥)﴾

[النحل]

وفى البقرة :

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ (١٧٣)﴾

[البقرة]

فالمعنى واحد ، ولكن هنا ذكر المغفرة والرحمة ، وهناك ذكر سببهما .

وتجدر الإشارة هنا إلى ما يتشددّ به البعض من الملاحدة الذين يبحثون في القرآن عن مغمز ، فيقولون : طالما أن الله حرّم هذه الأشياء ، فما فائدتها في الكون ؟

نقول : أنظنّون أن كل موجود في الكون وجب ليؤكل ، اليس له مهمة أخرى ؟ ومن ورائه مصلحة أخرى غير الأكل ، فإنّ حرّم الإسلام أكله فقد أباح الانتفاع به من وجه آخر .

فالحنزير مثلاً حرّم الله أكله ، ولكن خلقه لمهمة أخرى ، وجعل له دوراً في نظافة البيئة ، حيث يلتهم القاذورات ، فهو بذلك يؤدّي مهمة في الحياة .

وكذلك الثعابين لا تأكلها ، ولها مهمة في الحياة أيضاً ، وهي أن
تُجهز لنا السم في جوفها ، وبهذا السم تعالج بعض الداءات
والأمراض ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وكذلك يجب أن نعلم أن الحق سبحانه ما حرّم علينا هذه الأشياء إلا لحكمة ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادى وتجاربہ ما يُقَرِّب له المعانى القيمية الدينية ، فلو نظر إلى الآلات التى تُثار من حوله من مأكينات وسيارات وطائرات وخلافه لوجد لكل منها وقوداً ، ربما لا يناسب غيرها ، حتى فى النوع الواحد نرى أن وقود السيارات وهو البنزين مثلاً لا يناسب الطائرات التى تستخدم نفس الوقود ، ولكن بدرجة نقاء أعلى .

إذن : لكل شيء وقود مناسب ، وكذلك أنت أيها الإنسان لك وقودك المناسب لك ، وبه تستطيع أداء حركتك في الحياة ، وأنت صنعة ربك سبحانه ، وهو الذي يُحدّد لك ما تأكله وما لا تأكله ، ويعلم ما يُصلحك وما يضرّك .

والشيء المحرّم قد يكون مُحَرَّمًا في ذاته كالهيئة لما فيها من ضرر ، وقد يكون حلالاً في ذاته ، ولكنه مُحَرَّم بالنسبة لشخص معين ، كأن يُمنع المريض من تناول طعام ما ؛ لأنه يضر بصحته أو يؤخر شفاؤه ، وهو تحريم طارئ لحين زوال سببه .

وصورة أخرى للتحريم ، وهي أن يكون الشيء حلالاً في ذاته ولا ضرراً في تناوله ، ومع ذلك تحرمه عقوبة ، كما تفعل في معاقبة الطفل إذا أساء فنحرمه من قطعة الحلوى مثلاً .

إذن : للتحريم أسباب كثيرة ، سوف نرى أمثلة منها قريباً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ
وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١١٦)

معنى ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ : تُظهره على أوضح وجوهه ، فليس
كلامهم كذباً فقط ، بل يصفه ، فمن لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام
هؤلاء .

والمراد بالكذب هنا قولهم :

﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ .. ﴾ (١١٦) [النحل]

فهذا كذب واقتراء على الله سبحانه ؛ لأنه وحده صاحب التحليل
والتحريم ، فإياك أن تُحل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرّم شيئاً حسب
هواك ؛ لأن هذا افتراء على الله ^(١) :

﴿ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .. ﴾ (١١٦) [النحل]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١١٦) [النحل]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٢٤/٥) : « قال مالك . لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا
حلال وهذا حرام .. ولكن يقولوا : إياكم كذا وكذا . ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن
التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل . وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من
الاعيان . إلا أن يكون الباري تعالى يخبر بذلك عن » .

سُورَةُ النُّحْلِ

﴿ ٨٢٦٢ ﴾

فإن انطلى كذبهم على بعض الناس ، فآخذوا من ورائه منفعة عاجلة ، فعدوا قليل سيُفتضح أمرهم ، وينكشف كذبهم ، وتنقطع مصالحهم بين الخلق .

ويصف الحق سبحانه ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بأنه :

﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١٧)

أي : ما أخذتموه بكذبكم وافترائكم على الله متاع قليل زائل ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقي الذي قال الله عنه :

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ (٩٦)

[النحل]

ليس هذا فقط بل :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١٧)

[النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٨)

(١) وذلك في سورة الأنعام ، في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْمٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّعْمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا لِرَبِّ الْحَوَالِ أَوْ مَا سُكِّطَ فِي ظُنُورِهِمْ ذَلِكَ جِزْيَتُهُمْ مِنْهُنَّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام] . فاليهود لا تاكل الإبل والنعام والأوز ولا تكل شربة غير مشقوقة الأصابع ، وكذلك حرم عليهم الدمن إلا ما كان مختلما بعظم . (من تفسير ابن كثير ١/ ١٨٥) ينصرف كثير .

بعد أن تكلمت الآيات فيما أحل الله وفيما حرّم ، وبَيَّنَّتْ أن التحليل أو التحريم لله تعالى ، جاءت لنا بصورة من التحريم ، لا لأن الشيء ذاته مُحَرَّم ، بل هو مُحَرَّم بتحريم عقوبة ، كالذي مثَّلْنَا له سابقاً بحرمان الطفل من الحلوى عقاباً له على سوء فعله .

والذين هادوا هم : اليهود عاقبهم الله بتحريم هذه الأشياء ، مع أنها حلال في ذاتها ، وهذا تحريم خاصٌ بهم كعقوبة لهم .

وقوله تعالى :

﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۖ (١١٨) ﴾ [النحل]

المراد ما ذُكِرَ في سورة الانعام من قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حُرْمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حُرْمًا عَلَيْهِمْ حُرْمَتُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ [الأنعام]

كل ذي ظفر : الحيوان ليس منفرج الأصابع ، والحوايا : هي المصارين والامعاء ، ونرى أن كل هذه الأشياء المذكورة في الآية حلال في ذاتها ، ومُحَلَّلَةٌ لغير اليهود ، ولكن الله حرّمها عليهم عقوبة لهم على ظلمهم وبغيهم ، كما قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حُرْمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٦) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .. (١٦٧) ﴾ [النساء]

أي : بسبب ظلمهم حرّمنا عليهم هذه الطيبات .

ذلك لأن من أخذ حكماً افتراءً على الله فحرم ما أحل الله . أو حل ما حرم الله لا بد أن يُعاقبَ بمثله فيُحرم عليه ما أحل لغيره ، وقد وقع الظلم من اليهود لأنهم اجتروا على حدود الله وتعاليمه ، وأول الظلم وقمته الشرك بالله تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٢)

[لقمان]

والظلم نُقل الحق من صاحبه إلى غيره .

ومن ظلمهم : ما قالوه لموسى - عليه السلام - بعد أن عبث بهم البحر ، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴾ (١٢٨)

[الأعراف]

ومن ظلمهم : أنهم عبدوا العجل من دون الله .

ومن ظلمهم لموسى - عليه السلام - : أنهم لم يؤمنوا به . كما قال تعالى :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ﴾ (٨٢)

[يونس]

ومن ظلمهم :

﴿ وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّيَاءَ وَقَدْ ظَنَّوْا أَنَّ أَكْثَرِيَهُمْ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْدِي النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (١٢٩)

[النساء]

إِذْ : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حقهم حرّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١١٨)

[النحل]

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرّموا من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١١٩)

الحق سبحانه وتعالى يعطي عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أن شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لتحوّل المذنب - ولو امرأة واحدة - إلى مجرم يُعزّب في المجتمع ، ويفتح باب التوبة يقى الله المجتمع من هذه العريضة .

ويبين الرسول ﷺ مكانة التوبة فيقول :

« الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته يارض غلاة^(١) فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ

(١) الغلاة : الصحراء الواسعة التي لا ماء بها ولا أنيس ، فهي أرض قفر لأنها قُليت من كل خير . [لسان العرب - مادة : غلا]

هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها^(١) ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت
عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح^(٢) .

وقوله تعالى فى بداية الآية : ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على كثرة ما تقدم من
ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم ليبيِّن لك البؤس الشاسع بين رحمة الله
وإصرار العصاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : ﴿بِجَهَالَةٍ﴾

أى : بطيش وخمق وسفَه ، وجميعها داخله فى الجهل بمعنى أن
تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم ،
إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ،
والمراد أن ينظر إلى خير عاجل فى نظره ، ويترك خيراً أجلاً فى نظر
الشرع .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ (١٧)

[النساء]

بجهالة : يعنى فى لحظة سفَه وطيش ، فالعاصى يعلم الحكم تماماً ،
ولكنه فى غفلة عنه ، وعدم تبصر بالعواقب ، ولو فكَّر فى عاقبة أمره
ما تجرَّأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدِّم عليها إلا فى غيبة العقل .

(١) الخطام . أن يأخذ حبلاً من ليف أو شعر أو كتان ، فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد
فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد التبعير ثم يُثْنَى على مُخَطِّمِهِ . [اللسان -
مادة : خطم] .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ولذلك قال ﷺ :

« لا يزنَى الزَّانِي حين يزنَى وهو مؤمن ، ولا يسرق السَّارِق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »^(١)

ولو استحضِر قسوة الجزاء لما أقدم على معصيته ، ولكن سَفَهه وطَيْشه يُغْلَفُ الجزاء ويستتره عنهُ وَيُزَيِّنُ له ما ينتظره من لذة ومتعة عاجلة .

ومَبِّ أن شخصاً ألحَتْ عليه غريزة الجنس ، وهى أشرس الغرائز فى الإنسان ، فسكَّر فى الفاحشة والعياذ بالله ، وقبل أن يقع فى هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة.

بأش عليك ، ماذا تراه يفعل ؟ هل يُصِرُّ على جريمته ؟ لا ، لأنه كان ذاهلاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إذن: طيشه وسفهه صرفه عن التفكير فى العاقبة وأذهله عن ردِّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجِّلة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ۚ ﴾ (١١٩)

[التحل]

والتوبة هنا هى التوبة النصوح الصادقة ، التى ينوى صاحبها الإقلاع عنها وعدم العود إليها مرة أخرى ، ويعزم على ذلك حال توبته ، فإذا فعل ذلك قبل الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعود للذنب مرة أخرى إذا ضَعُفَتْ نفسه عن المقاومة ، فإن عاد عاد إلى التوبة من جديد ، لأن الله سبحانه من

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٢٥) .

اسمائهُ ﴿ التَّوَاب ﴾ أى : كثير التوبة ، فلم يقل: تائب بل تواب ، فلا تنقطع التوبة فى حق العبد مهما اذنب ، وعليه أن يحدث لكل ذنب توبة .

بل وأكثر من ذلك ، إذا تاب العبد وأحسن التوبة ، وأتى بالأعمال الصالحة بدلاً من السيئة ، من الله عليه بأن يُبدل سيئاته حسنات ، وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل]

فيه إشارة لحرص النبى ﷺ علينا ، وأنه يسره أن يغفر الله لنا .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد غفور رحيم ، فكانه سبحانه يمتن على نبيه ﷺ أنه سيغفر للمذنبين من أمته .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً نبيه إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا

وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١٣٠]

بعد أن ذكرت الآيات طرفاً من سيرة اليهود ، وطرفاً من سيرة أهل مكة تعرضت لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟

ذلك لأنه أبو الأنبياء ، وله مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون فيه ، حتى المشركون يقولون : نحن على دين إبراهيم ، والنصارى قالوا عنه : إنه نصرانى . واليهود قالوا : إنه يهودى .

فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام ،
وتوضح مواصفاتها ، وترد وتبطل مزاعمهم في إبراهيم عليه السلام ،
وهاكم مواصفاته :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً.. (١٢٠)﴾

[النحل]

أُمَّة : الأمة في معناها العام : الجماعة ، وسياق الحديث هو
الذي يحدد عددها ، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أى : جماعة
الشعراء ، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد ، كما في قوله
تعالى :

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ.. (٢٣)﴾

[القصص]

فسمى جماعة من الرعاة أمة ؛ لأنهم خرجوا لغرض واحد ، وهو
سقى دوابهم .

وتطلق الأمة على جنس في مكان ، كامة الفرس ، وأمة الروم ،
وقد تطلق على جماعة تتبع نبياً من الأنبياء ، كما قال سبحانه :

﴿وَأَنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾

[فاطر]

وحين نتوسع في معنى الأمة نجد أنها في رسالة محمد ﷺ تشمل
جميع الأمم ؛ لأنه أرسل للناس كافة ، وجمع الأمم في أمة واحدة ،
كما قال تعالى :

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (١٢)﴾

[الأنبياء]

ومعنى أمة واحدة . أى : جامعة لكل الأمم .

فالمعنى - إذن - أن إبراهيم - عليه السلام - يقوم مقام أمة كاملة ؛ لأن الكمالات المطلقة لله وحده ، والكمالات الموهوبة من الله لخلق في الرسل تُسمى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما ما دون الرسل فقد وُزعت عليهم هذه الكمالات ، فآخذ كل إنسان واحداً منها ، فهذا آخذ الحُلم ، وهذا الشجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا في الرسل .

فإذا نظرت إلى إبراهيم - عليه السلام - وجدت فيه من المواهب ما لا يوجد إلا في أمة كاملة .

كذلك رسولنا محمد ﷺ حينما حدد موقعه بين رسالات الله في الأرض يقول :

« الخير في » وهذا هو الكمال البشري الذي أعطاه الله إياه - وفي أمته ^(١) .

أي : أن كل واحد منهم أخذ جزءاً من هذا الكمال ، فكان كماله ﷺ مبعثر في أمته كلها .

لذلك حين تتابع تاريخ إبراهيم - عليه السلام - في كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه يعطيك خصلة من خصال الخير ، وصفة من صفات الكمال ، فإذا جمعت هذه الصفات وجدت أنها لا توجد إلا في أمة بأسرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

(١) قال ابن خيبر العسقلاني : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القاري في « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطي في « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) ، والعجلوني في كشف الغطاء (١٧٦/١) .

ومن معانى أمة : أنه عليه السلام يقوم مقام أمة فى عبادة الله وطاعته .

وقوله : ﴿ قَاتِلُوا لِلَّهِ ۚ ١٢٠ 〉 [النحل]

أى : خاشعاً خاضعاً لله تعالى فى عبادته .

﴿ حَنِيفًا ١٢٠ 〉 [النحل]

الحنف فى الأصل : الميل ، وقد جاء إبراهيم - عليه السلام - والكون على فساد واعوجاج فى تكوين القيم ، فمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحاد عن هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعالى لا يبعث الرسل إلا إذا طم الفساد ، إذن : ميله عن الاعوجاج والفساد ، فمعه أنه كان مستقيماً معتدلاً على الدين الحق ، مائلاً عن الاعوجاج حائداً عن الفساد .

ثم يُنْهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢١ 〉 [النحل]

وهذه هى الصفة الرابعة لخليل الله إبراهيم بعد أن وصفه بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفى عنه الشرك بالله ، فما فائدة نفى الشرك عنه مرة أخرى فى :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢١ 〉 [النحل]

يجب أن نفرّق بين أنواع الشرك ، فمنه الشرك الأكبر ، وهو أن تجعل لله شركاء ، وهو القمّة فى الشرك . ومنه الشرك الخفى ، بأن تجعل للأسباب التى خلقها دخّل فى تكوين الأشياء .

فَالَايَةُ هُنَا : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٠) [النحل]

أى : الشرك الخفى ، فالأوصاف السابقة نفت عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفى عنه شرك الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفى .

ولذلك عندما أُلقيَ - عليه السلام - فى النار لم يلتفت إلى الأسباب وإن جاءت على يد جبريل - عليه السلام - ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا^(١) . فأين الشرك الخفى - إذن - والأسباب عنده معدومة من البداية ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿شَاكِرًا لِأَنْعِمِهِ أَجَبْتَهُ وَهَدَيْتُهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢١)

قوله تعالى : ﴿شَاكِرًا لِأَنْعِمِهِ﴾ (١٢١) [النحل]

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدعون أنكم على ملة إبراهيم - عليه السلام - فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكراً لله على نعمه .

وقوله : ﴿اجْتَبَاهُ﴾ (١٢٢) [النحل]

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم - عليه السلام - كان عن اختبار ، كما قال تعالى :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ (١٢٤) [البقرة]

أى : اختبره ببعض التكليف ، فأتَمَّها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه :

(١) أورده القرطبي فى تفسيره (٤٤٨٢/٦) فى تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْنَا لَا تَأْمُرْهُنَّ أَنْ يَكُنَّ عَلَىٰ نَفْسِكُمْ ظَالِمَ فَاذْنًا﴾ . وفى حديث أبي بن كعب : وأن إبراهيم عليه السلام قال : «خسبى من سؤالى علمه بحالى» .

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ (١٢٤) [البقرة]

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة في ذريته قال :

﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ ﴾ (١٢٤) [البقرة]

فعدّل الله له هذه الرغبة ، وصحّح له ، بأن ذريتك سيكون منها الظالم ، فقال :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۖ ﴾ (١٢٤) [البقرة]

لذلك تعلّم إبراهيم - عليه السلام - من هذا الموقف ، وأراد أن يحتاط لنفسه بعد ذلك ، فعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ ﴾ (١٢٦) [البقرة]

فصحّح الله له أيضاً هذا المطلب ، فالموقف هنا مختلف عن الأول ، الأول كان في إمامة القيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أما هذه لرزق وعطاء ربوبية يشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصي ، فالجميع في الرزق سواء ، فقال تعالى :

﴿ وَمَنْ كَفَرَ ۖ ﴾ (١٢٦) [البقرة]

أي : سأرزق الكافر أيضاً^(١) .

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله (وَمَنْ كَفَرَ) أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، فأخلق خلقاً لا أرزقهم ، امتنعهم قليلاً ثم اضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير . ثم قرأ ابن عباس : ﴿ كَلَّا بُدَ لَهُمْ ذَلِكَ وَمَنْ عِطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۖ ﴾ [الإسراء] . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٧٥) .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التي تُربّي الأنبياء ، وتصنعهم على عيْنها ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع في النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشري .

ويدل على دقة إبراهيم - عليه السلام - في أداء ما طُلب منه موقفه في بناء البيت ، فبعد أن دلّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفى إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أن يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتى بالأمر على أتمّ وجوهه ؛ وينقذه بدقة واحتياط ، ففكر أن يأتى بحجر مرتفع . ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذي هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده ؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيماني وتخليه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع ، وفي مكان خالٍ من مقومات الحياة وأسباب العيش^(١) .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسببها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم ؛ لذلك حينما سأله هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك ؟

فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يضيّعنا . وكان إيمان

(١) وذلك قوله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بِئْرَةِ الْحَمْرِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٧) ﴿

إبراهيم نضح على زوجته ، وملا قلبها يقيناً في الله تعالى .

وقوله سبحانه :

﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾

[النحل]

كيف .. بعد كل هذه الاوصاف الإيمانية تقول الآيات (وهذه) ليست هذه كلها هداية ؟

نقول : المراد زاده هداية ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾

[محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَايَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾

الحق سبحانه يُبَيِّنُ أن جزاء إبراهيم - عليه السلام - عظيم في الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء في ذريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وما نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم في الدنيا ؛ لأنه بالغ في طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم - عليه السلام - من ربه هذه المكانة ، فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَآتِنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٤) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ

فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾

[الشعراء]

حُكْماً : أي : حكمة أضع بها الأشياء في مواضعها .

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢) [النحل]

فإن كان هذا جزاءه في الدنيا ، فلا شك أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣)

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لآلئمه ، واجتباه ربه وهده .. إلخ قال :

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (١٢٣) [النحل]

يا محمد :

﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (١٢٣) [النحل]

كان قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أى شريعة التوحيد .

ثم يؤكد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣) [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٢٤)

بعد أن تحدث الحق سبحانه عن إبراهيم أبى الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلم عن بنى إسرائيل فى قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكان القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فها هى صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم ؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام ؟

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كالإبراهيم فى اتباعه ، فيذكر ما كان منهم فى أمر السبت .

و (السبت) هو يوم السبت المعروف التالى للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِتُ سَبْتًا . يعنى : سكن واستقر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سَبَاتًا ﴾ (٩)

[النبا]

ذلك أن بنى إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى - عليه السلام - أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتى الله فيه خلق

الكون في ستة أيام ، وهو اليوم الذي اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا في ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود في يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام في يوم الجمعة ، واختاروا يوم الأحد على اعتبار أنه أول بدء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة^(١) .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أن يتفرغوا لعبادته في هذا اليوم ، وافقهم ليُبين لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفروا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجبتهم ، فلو اختار لهم يوماً لاعترضوا عليه ، ولكن هاهم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقيدة عامة ،

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٨٥٦) كتاب الجمعة من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « أصلُ الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق » .

هي أن الآيات التي تأتي مُصَدِّقَةً للرسول في البلاغ عن الله تعالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقد تكون باختيار المرسل إليهم أنفسهم ، وقد كان من بني إسرائيل أن كَذَّبُوا بهذه وهذه ، ولذلك قال تعالى :

﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء]

أي : لكونهم يقترحون الآية ثم يكذبونها ، فأمرهم تكذيب في تكذيب .

وقصة السبت ذُكِرَتْ في مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى :

﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ^(١) الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [١٦٣]

[الأعراف]

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصيد في يوم السبت ، فكادهم الله وأغاضهم ، فكانت تأتيتهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشرار ، ولا ينتفعون منها بشيء إلا الحسرة والأسف ، فيقولون : لعلها تأتي في الغد فيخيّب الله رجاءهم :

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [١٦٣]

[الأعراف]

وقد سُمِّيَ القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً ؛ لأنهم اعتدوا على ما شرع الله ، قال تعالى :

(١) اختلف المفسرون في تحديد هذه القرية ، فقال ابن عباس : هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة . وقال ابن شهاب الزهري : هي طبرية . وقال سعيد بن جبير : هي مدجن . أوردهما السيوطي في الدر المنثور (٤٨٧/٢) .

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿٨٢٨١﴾

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥)

[البقرة]

وقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (١٢٤)

[النحل]

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُوحى بوجود طائفتين متناقضتين فى هذه القضية ، والحقيقة أن الخلاف لم يكن بين اليهود بعضهم البعض ، بل بينهم وبين نبيهم الذى اختار لهم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت ، فجعل الله الخلاف عليهم .

فالمعنى : إنما جعل السبت حُجَّةً على الذين اختلفوا فيه : لأنه أثبت عدوانهم على يوم العبادة ، فبعد أن اقترحوه واختاروه انقلب حُجَّةً عليهم ، ودليلاً لإدانتهم .

ولو تأملنا قوله :

﴿عَلَى الَّذِينَ﴾ (١٢٤)

[النحل]

نجد أن كلمة (على) تدلُّ على الفوقية أى : أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى ؛ فكان السبت جام ضد مصلحتهم ، وكان خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ (٦)

[الزمر]

(٦) أى : فى يوم الجمعة . اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبى ﷺ أمر باتباع الحق . وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود . [قاله القرطوبى فى تفسيره ٢٩٢٧/٥] .

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ، ولكن المعية لا تقتضى العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَذَرَّ مَغْفِرَةً لِلنَّاسِ عَلَى ظَلَمِهِمْ.. (٦)﴾ [الرعد]

أى : أن المغفرة عكت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن رحمة الله ومغفرته عكت على أن تُعامل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله سبقت غضبه ، ونفس الملحظ تجده فى قول الحق سبحانه :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ (٣٩)﴾ [إبراهيم]

فالكبر كان يقتضى عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكبر .
ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَحَدِّ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)﴾

فبعد أن تحدثت الآيات عن النموذج الإيمانى الأعلى فى الإنسان فى شخص أبى الأنبياء إبراهيم ، وجعلت من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسلك باتباعه ، أخذت فى بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله .

قوله : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ.. (١٢٥)﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى لا يوجه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله ﷺ إلا وهو يعلم أنه سينفذ ما أمر به ، وسيقوم بأمر الدعوة ، ويتحمل مسئوليتها .

﴿ادْعُ﴾ : بمعنى دُلَّ الناس وارشدهم .

﴿سَبِيلَ رَبِّكَ﴾ (١٢٥) [النحل]

السبيل هو الطريق والمنهج ، والحكمة : وَضَعَ الشيء في موضعه المناسب ، ولكن لماذا تحتاج الدعوة إلى الله حكمة ؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَنْ انحرف عن هذا المنهج ، وَمَنْ انحرف عن منهج الله تجده أَلْفَ المعصية وتعود عليها ، فلا يَدُّ لك أَنْ ترفُقَ به لِتُخرجه عما أَلْفَ وتقييمه على المنهج الصحيح ، فبالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تركه لما أحبَّ وما أَلْفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسَلَكَ اللين والرفق ، وأحسنْتَ عَرَضَ الدعوة عليه طأوعك في أَنْ يترك ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصيح في عموميه ثقيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تخرجه أمام الآخرين ؛ لأن كل هذه التصرفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (١٢٥) [النحل]

ويُروى في هذا المقام - مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة

الحسنة - قصة دارت بين الحسن والحسين رضي الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغي أن يكون عليه الداعية .

لم يروى أنهما رأيا رجلاً لا يُحسن الوضوء ، وأرادا أن يُعلّماه الوضوء الصحيح دون أن يجرحاً مشاعره ، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومةً بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسن أن تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أن يرى كلا منهما يتوضأ ، ثم يحكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحكم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذي ما أحسنتُ .

إنه الوعظ في أعلى صورة ، والقودة في أحكم ما تكون .

مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول ﷺ ، حينما أتاه شاب في قوّة شبابه ، يشتكى عدم صبره عن رغبة الجنس ، وهي - كما قلنا - من أشرس الغرائز في الإنسان .

جاء الشاب وقال : « يا رسول الله إنّني لفي الزنا » .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخَفِ عِلَّتَهُ ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أول خطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله ؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلّ رسول الله ﷺ الداء من نفس هذا الشاب ؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يؤذنه ، بل أخذه وربّت على كتفه في لطف ولين ، ثم قال :

« أتحييه لامك ؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعِلْتُ قِداك . قال : فكذلك الناس لا يحبون لامهاتهم ، قال : أُنحبه لأختك ؟

سُورَةُ النِّحْلِ

○ ٨٢٨ ○

قال : لا يا رسول الله جُعِلَتْ قِدَاكَ ، قال : « فكَذَلِكَ النَّاسُ لا يحبونه لأخواتهم » .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : « اللهم نُقْ صدره ، وَحَصِّنْ فَرْجَه » فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزنى ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نفسي بشيء من هذا ، إلا ذَكَرْتُ أُمِّي وَأَخْتِي وَزَوْجَتِي ^(١) .

فلنتأمل هذا التلطف في بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات في المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وَحُسْنُ تَصَرُّفٍ ، إِنَّا نَرَى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُرّاً يظفونه بغلالة رقيقة حلوة العذاق ليستسيغها المريض ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب في هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة في الدعوة إلى الله : النصيح ثقيل فلا تُرْسِلْهُ جَبَلًا ، ولا تجعله جدلاً .. والحقائق مُرَّة فاستعيروا لها خِفَةَ البَيَانِ .

وكان ﷺ إذا سمع عن شيء لا يرضيه من ذنب أو قاحشة في مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا » ^(٢) .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٥ ، ٢٥٧) ، والطبراني في معجمه الكبير ١٩٠/٨ ، (٢١٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبي وطهر قلبه وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٠١) كتاب النكاح من حديث أنس رضي الله عنه أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا أزواج النساء . وقال بعضهم : لا أكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا » ، لكنني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

ويكتفى بالتوجيه العام دون أن يجرح أحداً من الناس على حد قولهم في الأمثال : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء في الريف حينما يتعرض أحد للسرقة ، أو يضيع منه شيء ذو قيمة ، فكانوا يعلنون عن فقد الشيء الذي ضاع أو سرق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمي التراب .

ومعنى « نرمي التراب » أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشيء المفقود ، وفي الصباح يبحثون في التراب حتى يعثروا على ما فقد منهم ، ويصلوا إلى ضالّتهم دون أن يُفتضح الأمر ، ودون أن يُجرح أحد ، وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعتدت المسألة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالْتِي هِيَ أَحْسَنُ ۖ ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

والجدل مناقشة الحجج في قضية من القضايا ، وعلى كل من الطرفين أن يعرض حجته بالتى هي أحسن . أى : في رفق ولين ودون تشنج أو غطرسة .

ويجب عليك في موقف الجدل هذا ألا تُغضب الخصم ، فقد يتمحك في كلمة منك ، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾ [النحل]

[النحل]

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يبين لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله في توجيه النصيحة ، ولا يتغنى للداعية أبداً أن يغش في دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفي نفسك استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس - والعياذ بالله - مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر مما ينفعهم .

إذن : إن قُبِلَ الغش في شيء فإنه لا يُقبل في مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أن تغش بالله في الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمن يضل الناس ، ويصدّهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه^(١) :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ

لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١١٦)

نلاحظ أن هذا المعنى ورد في قوله تعالى :

﴿لَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ (١١٤)

[البقرة]

(١) سبب نزول الآية : روى الدارقطني عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظرًا ساء ، رأى حمزة قد شُن بطنه ، واضطلم انفه ، وحُذعت أنفاه ، فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لشركت حتى يبعث الله من بطون السباع والطير لأمتلئن مكانه بسبعين رجلاً ، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (١١٧) [النحل] فصيّر رسول الله ﷺ ولم يمثّل بأحد . ذكره القرطبي في تفسيره (٢/٢٩٨) والواحدى في « أسباب النزول » (ص ١٦٢) .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية في رد الاعتداء :

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلٍ...﴾ (١٢٦) [النحل]

و ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ...﴾ (١٩١) [البقرة]

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمَنْ الذي يستطيع تقدير المثلية في الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة في العقوبة ، وكان في صعوبة تقدير المثلية إشارة إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

﴿وَلَيْنَ صَبْرَتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) [النحل]

فقد جعل الله في الصبر سعة ، وجعله خيراً من رد العقوبة ، ومقاسة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما في الصبر من تكليف القلوب ونزع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٤) [فصلت]

ففي ذلك دفع لشراسة النفس ، وسدّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) [النحل]

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : في الصبر وعدم رد العقوبة بمثلها إنهاء الخصومات ،

وراحة للمجتمع أن تقرعه سلسلة لا تنتهى من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْخَلْقِ ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى فى جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله فى معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدّه الله للمظلوم لَضُنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر فى القرآن الكريم يجد تشابهاً فى تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى :

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دقة التعبير القرآنى .

ولما كانت المصائب التى تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أصيب فى صحته أو تعرض لجائحة فى ماله ، أو انهيار بيته .. إلخ .

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بالهم الفقد والذعة والخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .

إنّ : الصبر على هذه الأحداث قريب ؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ،
فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى تأكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [البقره]

أما النوع الآخر : فهو المصائب التي تقع بفعل فاعل ، كالقتل
مثلاً ، قلى جانب الفقد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج
غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر في هذه أصعب
وحمل النفس عليه يحتاج إلى تأكيد كما في الآية الثانية :

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٢)﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد : لأن الصبر هنا شاق ، والفرصة متاحة
للسيطان ليؤلب القلوب ، ويثير الضغائن والاحقاد .
كما نلاحظ في الآية الأولى قال : (وَأَصْبِرْ) .

وفي الثانية قال : (صَبَرَ وَغَفَرَ) لأن أمامه غريماً يدعو له لأن
يغفر له .

ويحكى في قصص العرب قصة اليهودى المرابى الذي أعطى
رجلاً مالا على أن يرده في أجل معلوم ، واشترط عليه إن لم يق
بالسداد في الوقت المحدد يقطع رطلاً من لحمه ، ووافق الرجل ،
وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودى الأمر إلى القاضى وقص عليه ما بينهما من اتفاق ،
وكان القاضى صاحب فطنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ،
وأمر له بسكين . وقال : خذ من لحمه رطلاً ، ولكن في ضربة

واحدة ، وإن زاد عن الرجل أو نقص أخذناه من لحملك أنت .

ولما رأى اليهودى مشقة ما هو مُقَدِّم عليه أثر السلامة وتصلح مع خصمه ،

والسؤال الآن : ما علاقة^(١) هذه الآية :

﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾ (١٢٦) [النحل]

بما قبلها :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (١٢٥) [النحل]

الدعوة إلى الله منهج يلفت الإنسان - خليفة الله في أرضه - أن يلتزم بمنهج الله الذى استخلفه ، ووضع له هذا المنهج لينظم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يفسدون في الأرض ، ويحققون لانفسهم مصالح على حساب الغير ، والذى يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدَّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطفى ويستعلى ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويخرجهم مما ألفوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذى يستفيدون به ، فلا بُدَّ أن يُجَادِلُوهُ وَيَصَادِمُوهُ وَيَقْفُوا فِي وَجْهِهِ ، فقد جمع عليهم شدة النصيح والإصلاح ، وشدة ترك ما ألفوه .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٢٩٢٨/٥) : « المعنى متصل بما قبلها من المكي اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الترتب من الذى يُدعى ويوعظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يجازي على فعله ، ولكن ما روى الجمهور أثبت ، وذلك في أن هذه الآية منثية .

فعلَى الداعية - إذن - أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، فإذا ما تعدى أمرهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف تحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يعد يُجدى أسلوب الحكمة .

ولا بدّ لنا أن نقفَ الموقف الذى تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذى شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لدّد فى الخصومة ، أو إسراف فى العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ.. (١٢٦)﴾ [النحل]

وفى الآية تحذير أن يزيد الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوى أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذى أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هدأها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهى فى تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته ﷺ توجه إليه ﷺ فى تصرف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداءضى الله عنه .

فقد مثل به الكفار فى أحد ، وشقت هند بطنه ، ولاكت كبده .

فَشَقُّ الأَمْرِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَثَرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَوَاجِهٌ هَذَا الْمَوْقِفُ بِعَاطِفَتَيْنِ : عَاطِفَتِهِ الْإِيمَانِيَّةِ ، وَعَاطِفَةِ الرَّحْمِ وَالْقَرَابَةِ فَهُوَ عَمَهُ الَّذِي أَرْزَهُ وَنَصَرَهُ ، وَوَقَفَ إِلَى جَوَارِهِ ، فَقَالَ فِي انْفِعَالِهِ بِهَذِهِ الْعَاطِفَةِ :

« لَنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِأَمَلِكُنَّ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ » ^(١) .

وَلَكِنْ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ الْعَادِلُ الَّذِي أَنْزَلَ مِيزَانَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فِي الْخَلْقِ هَذَا مِنْ رَوْعِهِ ، وَعَدَّلَ لَهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَلَامَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَالَ :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وَالْمُتَأَمِّلُ لِلْأَسْلُوبِ الْقُرْآنِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَلْحَظُ قِسْمَهَا دَعْوَةً إِلَى التَّحَنُّنِ عَلَى الْخُصْمِ وَالرَّأْفَةِ بِهِ ، قَالَ مُتَحَدِّثٌ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ ، فَكُلُّ حَرْفٍ لَهُ مَعْنَى ، فَلَا تَأْخُذُ الْكَلَامَ عَلَى إِجْمَالِهِ ، وَلَكِنْ تَأْمَلْ فِيهِ وَسَوْفَ تَجِدُ مِنْ وَرَاءِ الْحَرْفِ مَرَادًا وَأَنْ لَهُ مَطْلُوبًا .

لِمَاذَا قَالَ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ : (وَإِنْ) وَلَمْ يَسْتَخْدَمْ (إِذَا) مِثْلًا ؟

إِنْ عَاقَبْتُمْ : كَانَ الْمَعْنَى : كَانَ يَحِبُّ أَلَّا تَعَاقِبُوا .

أَمَّا (إِذَا) فَتَفْيِيدُ التَّحْقِيقَ وَالتَّكْيِيدَ ، وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ يَرِيدُ أَنْ يُحَنِّنَ الْقُلُوبَ ، وَيَضَعُ رَدَّ الْعَقُوبَةِ بِمِثْلِهَا فِي أَضْيَقِ نِطَاقٍ ، فَهَذِهِ رَحْمَةٌ حَتَّى مَعَ الْأَعْدَاءِ ، هَذِهِ الرَّحْمَةُ تُحِبُّهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، وَبِهَا يَتَحَوَّلُ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ إِلَى جُنُودٍ فِي صَفُوفِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ .

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٥٩٦/٣) وعزاه لمحمد بن إسحاق في السيرة .

كما أن في قوله : (عَاقِبْتُمْ) دليل على أن رد العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ﴾ [الأنفال]

كانه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفي حال قوة تمكنكم من الرد إذا اعتدى عليكم ، كما أن في وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويرهبه ، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن في المجتمع ، فالقوى لا يفكر أحد في الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم في صراعها المحموم حول التسلح بأسلحة فائقة .

وكلمة : ﴿مَا عَوْقِبْتُمْ بِهِ﴾ [١٢٦] [التحل]

نلاحظ أن الرد على الاعتداء يُسمى عقوبة ، لكن الاعتداء الأول لماذا نسميه أيضاً عقوبة ؟

قالوا : لأن هذه طريقة في التعبير تسمى « المشاكلة »^(١) ، أي : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى :

(١) المشاكلة : مصطلح من مصطلحات بديع القرآن معناه : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحنته تحقيقاً أو تقديراً - [الأنفال : ١٢٦] قوله تعالى : ١٢٦

[الشورى]

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۚ﴾

لأن رد السيئة لا يُسمى سيئة .

ولسائل فى هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى فى هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرره من البداية ؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل ؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أمن كل إنسان فيه على نفسه وعرضه وماله .. إلخ . وهذا الأمن لا يتأتى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن فى المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان فى المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية فى تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أن يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها : فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على جريمته ، ففى تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحفظ لسلامته وأمنه .

وترى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون من يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : فى تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضيق لمنافذ الدخول فى هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمره الحرية يدخل

أو لا يدخل ، لا ينصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم^(١) .

إذن : شرع الإسلام العقوبة ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعت يلجأ إلى علاج آخر يجتث جذور الغل والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر في صعيد مصر : إنه يظل في سلسلة من القتل والثأر لا تنتهى ، وتفزع المجتمع كله ، حتى الأمنيين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات في هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجع واحد منهم ، فأخذ كفه على يديه وذهب إلى ولي القتل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفنى معى ، فاصنع بى ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أن يثأروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التى لا تنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه^(٢) :

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧)

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٢/١ ، ٢٨٣) ، والبخارى في صحيحه (٢٦٧/١٢) - فتح البارى ، وابن ماجه في سننه (٢٥٢٥) ، وكذا الترمذى (١٤٥٨) .
(٢) قال ابن زيد : هى منسوخة بالقتال - وجمهور الناس على أنها محكمة . أى : اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المثلة . [تفسير القرطبي ٢/٨٠٢] .

بعد أن ذكرت الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكان الآية السابقة تمهد للأمر هنا (وَأَصْبِرْ) لياتم الجميع بأمر الله ، بعد أن قدم لهم الحثيثيات التي تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كما يقولون في الحكمة : من الشجاعة أن تجبن ساعة .

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارث نفسك ، فالشجاعة أن تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ ۝١٢٧ ﴾ [النحل]

من حكمة الله ورحمته أن جعلك تصبر على الأذى ؛ لأن في الصبر خيراً لك ، والله هو الذي يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التي تهيج غضبك ، وتجرك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولى أمره وأعانته ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٢٨ ﴾ [محمد]

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ، وحين تتجه إليه يُجَنِّدَ الله لك الخواطر الطيبة التي تُعينك عليه وتيسره لك وترضيك به ، فيأتي صبرك جميلاً ، لا سخط فيه ولا اعتراض عليه .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ۖ ۝١٢٩ ﴾ [النحل]

لقد امتنَّ الله على أمة العرب التي استقبلت دعوة الله على لسان رسوله ﷺ ، بأن يعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حسبه ونسبه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ محباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾
[التوبة]

أى : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عنتكم وتعيبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص : الضنّ بالشئ ، فكانه ﷺ يضمن بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى فى الحديث الشريف :

« إنما مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراس يقعن فيه ، فآنا آخذ بحجزكم^(١) وأنتم تقصصون فيه ،^(٢) .

لذلك حزن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وغناهم وتكبرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببت إنساناً أحببت له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدل عليها من يحب من أهله ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحب أن يشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

(١) حُجْزَةُ الْإِنْسَانِ : مَفْعَدُ السَّرَاوِيلِ وَالْإِزَارِ . وَاحْتِجَازُ بِالْإِزَارِ إِذَا شَدَّ عَلَى وَسْطِهِ . فَمَسْتَعَارُهُ لِلانْتِهَاءِ وَالْاعْتِمَالِ وَالتَّمَسُّكِ بِالشَّيْءِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِ . [لسان العرب - مادة : حَجَزَ] .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٢٢٨٤) كِتَابُ النِّسَائِ ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

سُورَةُ الْخَالِكِ

﴿٨٢٩٩﴾

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسَلِّي رسوله ، ويخفف عنه ما صُدِمَ
في قومه ، يقول له : لا تحزن عليهم ولا تُحْمِلْ نفسك فوق طاقتها ،
فما عليك إلا البلاغ . ويخاطبه ربه في آية أخرى :

﴿فَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

[الكهف]

أى : لا تكن مهلكاً نفسك أسفاً عليهم .

وقوله : ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل]

الضيق : تأتي بالفتح وبالكسر ، ضَيْقٌ ، ضَيْقٌ^(١) .

والضيق : أن يتضاءل الشيء الواسع أمامك عما كنت تُقَدِّره ،
والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى
بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفي هذه الحالة يمكن أن تسعه
نفسه ، فإذا ضاقت عليه نفسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما
قال تعالى عن الثلاثة^(٢) الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله :

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ.. (١١٨)﴾ [التوبة]

(١) قال الفراء : الضَيْقُ ما ضاق به صدرك . والضَيْقُ ما يكون في الذي يتسمع ويضيق .

مثل النار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء . [تفسير القرطبي ٢٩٣٠/٥] .

(٢) هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية . ومرادة بن الربيع . تخلفوا عن رسول الله ﷺ في
غزوة تبوك دون عذر . فعوقبوا بأن هجرهم المسلمون نحرًا من خمسين ليلة بأيامها
وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكنهم صبروا لأمر الله وثبتوا .
حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم مع رسول الله ﷺ في تخلفهم وأنه كلن عن غير عذر .

[تفسير ابن كثير ٢٩٩/٢] بتصريف .

فالحق سبحانه ينهى رسوله ﷺ أَنْ يَكُونَ فِي ضَيْقٍ مِنْ مَكْرِ الْكَفَّارِ : لَأَنَّ الَّذِي يَضِيقُ بِأَمْرٍ مَا هُوَ الَّذِي لَا يَجِدُ فِي مَجَالِ فِكْرِهِ وَبِدَائِلِهِ مَا يَخْرُجُ بِهِ مِنْ هَذَا الضَّيْقِ ، إِنَّمَا الَّذِي يَعْرِفُ أَنَّ لَهُ مَنَفَذًا وَمَخْرَجًا فَلَا يَكُونُ فِي ضَيْقٍ .

فالمعنى : لَا تَكُ فِي ضَيْقٍ يَا مُحَمَّدُ ، فَاشْ مَعَكَ ، سَيَجْعَلُ لَكَ مِنَ الضَّيْقِ مَخْرَجًا ، وَيُرِدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ مَكْرَهُمْ :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [النحل: ٤٠]

ولذلك يقول : لَا كَرْبَ وَأَنْتَ رَبِّ . فَسَاعَةً أَنْ تَضِيقَ بِكَ الدُّنْيَا وَالْأَهْلُ وَالْأَحْبَابُ ، وَتَضِيقَ بِكَ نَفْسُكَ فَلَيْسَ بِكَ رَبِّكَ ، وَلَتَكُنَّ فِي مَعِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]

هَذِهِ قَضِيَّةٌ مَعِيَّةُ اللَّهِ لِمَنْ اتَّقَاهُ ، فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ فَهُوَ فِي جَوَارِهِ وَمَعِيَّتِهِ ، وَإِذَا كُنْتَ فِي مَعِيَّةِ رَبِّكَ فَمَنْ يَجْرُقُ أَنْ يَكِيدَكَ ، أَوْ يَمْكُرُ بِكَ ؟

وَفِي رَحْلَةِ الْهَجْرَةِ تَتَجَلَّى مَعِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى وَتَتَجَسَّدُ لَنَا فِي الْغَارِ ، حِينَئِذَا أَحَاطَ بِهِ الْكَفَّارُ ، وَالصَّدِيقُ يَقُولُ لِلرَّسُولِ ﷺ : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَأَى ، فَيَجِيبُهُ الرَّسُولُ ﷺ وَهُوَ وَاثِقٌ بِهَذِهِ الْمَعِيَّةِ :

« يَا أَيُّهَا بَكْرُ ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا » ^(١) .

(١) متفق عليه . أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي مُصْنَفِهِ (٤٦٦٢) ، وَمُسْلِمٌ فِي مُصْنَفِهِ (٢٣٨٩) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر ؟

المعنى : مادام أن الله ثالثهما إذن فهما في معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمن كان في معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : ﴿ اتَّقُوا... (١٧٨) ﴾ [النحل]

التقوى في معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعملاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمثمل يجد معناهما يلتقى في نقطة واحدة .

فمعنى « اتق الله » : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه : لأن الحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

ونقول : اتقوا النار ، أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرةً باللازم ، ومرةً بلازم اللازم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٧٨) ﴾ [النحل]

المحسن : هو الذى يلزم نفسه فى عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به ، فإن كان الشرع فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فالإحسان أن تزيد ما تيسر لك من النوافل ، وإن كان الصوم شهراً ومضان ، فالإحسان أن تصوم من باقى الشهور كذا من الايام ، وكذلك فى الزكاة ، وغيرها مما فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح في حديث جبريل حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ^(١) .

والآية الكريمة تُوحِي لنا بأن الذين اتقوا لهم جزاء ومعية ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعية ، كُلٌّ على حسب درجته ؛ لأن الحق سبحانه يعطى من صفات كماله لخلقه على مقدار معييتهم معه سبحانه ، فالذى اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوى ومن أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثاني مزية وخصوصية .

وفي سورة الذاريات يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾

[الذاريات]

لم يقل « مؤمنين » ؛ لأن المؤمن يأتي بما فُرض عليه فحسب . لكن ما وجه الإحسان عندهم ؟

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال ابن حجر في الفتح (١/١٢٠) : « إحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود . بأن يغلّب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه . وهو قوله « كأنك تراه » . وأن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل . وهو قوله « فإنه يراك » .

مِنْ مَوْكِ الْأَمْرِ

لو تأملنا خواتيم سورة النحل لوجدناها مقدمة طبيعية لأحداث سورة الإسراء^(١) ، ولوجدنا توافقاً وتناسباً في ترتيب هاتين السورتين ، فقد خُتِمَتِ النحل ببيان حُكْمِ رَدِّ العقوبة بمثلها ، ثم أمرت رسول الله ﷺ بالصبر وبيّنت جزاء الصابرين ، ونهت رسول الله عن الضيق من مكر الكفار .

نستشف من هذا أن رسول الله ﷺ سيستقبل أحداثاً تحتاج إلى صبر وشدائد ، تحتاج إلى سعة صدر ، وكان هذه التوجيهات جاءت بمثابة مناعات إيمانية ، تُحصِّن رسول الله وتُعده لما هو مقبل عليه من أحداث في سورة الإسراء ، وكأنها إشارات لما سيحدث من شدائد حتى لا يُفاجأ رسول الله بها ، ولا تأتيه على غرة .

هذه المناعات التي جاءت في نهاية سورة النحل أشبه بما نلجأ إليه في حفظ سلامة البنية وسلامة القلب ، حينما نخاف من

(١) سورة الإسراء ، هي السورة (١٧) في ترتيب المصحف ، وعدد آياتها (١١١) آية . وهي

سورة مكية ، إلا ثلاث آيات :

قوله تعالى : ﴿وَرَادُّنَا تِلْكَ إِنَّ رَبَّكَ اشَاعَ ذِكْرَكَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً

لِلنَّاسِ..﴾ [الإسراء]

- قوله تعالى : ﴿وَأَن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْفُتُونَ إِلَّا قَلِيلًا

﴾ [الإسراء]

- قوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّي أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

سُلْطَانًا مُّصِيراً﴾ [الإسراء]

وبدايتها يبدأ الجزء (١٥) من القرآن .

ولسورة الإسراء أسماء أخرى . منها : سورة سبيلان ، سورة بني إسرائيل .

الامراض ، إنه ما نسميه بالتطعيم ضد المرض ، فيأخذ الجسم من هذا الطعم حصانة تحميه إذا هاجمه المرض .

كذلك الحق سبحانه وتعالى يُعطي رسوله هذه التحصينات ، حتى يواجه الأحداث والشدائد القادمة بصبر وجَدَد ، ويعلم أن الله تعالى لن يخذله ، ولن يتخلى عنه ، فما أرسل الله رسولاً وخذله أبداً ، فإن خذله الناس ، وضاعت عليه الدنيا بما رحبت وجد الملجأ في معيته سبحانه وتعالى .

وفعلاً نزلت الشدائد برسول الله ﷺ ، وكانت قمة هذه الأحداث عند فقد عمه أبي طالب ، وزوجه خديجة في عام واحد ، ولقسوة هذا عليه سماء عام الحزن .

ففقد ﷺ بموت عمه الحماية الخارجية التي كانت تدفع عنه أذى المشركين ، وتصدد عنه صناديد قريش ، وفقد بموت زوجته الحماية الداخلية والملجأ الذي كان يأوي إليه ، حيث كانت تواسيه وتهديء من روعه في أول نزول الرحي عليه . وتبين له بفقده أن ما يجده في الفار من علامات النبوة ، وأن الله لن يتخلى عنه وتقول له : « والله إنك لتصل الرحم ، وتغيث الملهوف ، وتحمل الكل^(١) ، وتعين على نوائب الدهر^(٢) »

نعم لقد كان عام حزن فعلاً ، فقد فيه السكن الخارجي والداخلي معاً ، فابن يذهب ﷺ .

فما عاد يشعر بأمن في مكة ، ففكر في أهل الطائف ، عساه يجد الأمن والأمان بينهم ، ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد

(١) الكل : الذي هو عيال وثقل على صاحبه . والكل : اليتيم . [التيسار - مادة : كل] .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣) من حديث عائشة رضي الله عنها في كتاب بدء الوحي .

سُورَةُ الْاِنشِرَافِ

83.9

أَذَوْهُ أَشَدُّ الْإِيْذَاءِ ، وَقَذَفُوهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى أَذْمَوْا قَدَمَهُ الشَّرِيفَةَ ،
وَأَغْرَوْا بِهِ صَبِيَّانَهُمْ وَسَفَهَاءَهُمْ ، وَعَادَ مِنْهَا حَزِينًا مُنْكَسِرًا إِلَى مَكَّةَ
مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَجِيرُهُ إِلَّا مَطْعَمَ بَيْنِ عَدَى .

وَمِنْ هُنَا نَعْلَمُ أَنَّ نِهَآيَاتِ سُورَةِ النَّحْلِ جَاءَتْ فِي مَوْقِعِهَا
الْمُنَاسِبِ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ يَقُولُ لِنَبِيِّهِ ﷺ : لَقَدْ ضَآقْتُ عَلَيْكَ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَآقْتُ عَلَيْكَ نَفْسُكَ ، وَلَكِنْ مَلْجَأُكَ إِلَى اللَّهِ
سَيْرُكَ أَنَّ قَسْوَةَ الْأَرْضِ وَتَجَهُمُ الْحَيَاةُ لَكَ سَأْبَدُكَ بِهِ تَحْيَةً مَبَارَكَةً ،
فَإِنَّ أَنْ أُرِيكَ حِفَاوَةَ السَّمَاءِ بِكَ ، فَيَعِدُ مَا حَدَثَ لَكَ فِي مَكَّةَ وَالْمَطَائِفِ :

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ ﴿ (١٢٨) ﴾

وَجَاءَ حَدَثُ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ لِيَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِفَاوَةَ الْمَلَأِ
الْأَعْلَى بَعْدَ مَا أَصَابَهُ مِنْ أَذَى الْبَشَرِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِفَاوَةَ
السَّمَاءِ غَيْرَ أَنَّ لَهُ نِظَامَ الْكَوْنِ ، فَقَالَ تَعَالَى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَّا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَنِ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١)

اسْتَهْلَ الْحَقَّ سَبِّحَانَهُ هَذِهِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ (سُبْحَانَ) : لِأَنَّهَا
تَتَحَدَّثُ عَنْ حَدَثٍ عَظِيمٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ ، وَمَعْنَى سَبِّحَانَ : أَيْ تَتَزَيَّهَا اللَّهُ
تَعَالَى تَتَزَيَّهَا مُطْلَقًا ، أَنْ يَكُونَ لَهُ شَبِيهٌ أَوْ مَثِيلٌ فِيمَا خَلَقَ ، لَا فِي

الذات ، فلا ذات كذاته ، ولا فى الصفات فلا صفات كصفات ، ولا فى الأفعال ، فليس فى أفعال خلقه ما يُشبه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزّه الله أن يكون وجوده كوجودك ؛ لأن وجودك عن عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس عن عدم ، وهو ذاتى فيه سبحانه .

فذااته سبحانه لا مثيل لها ، ولا شبهة فى ذوات خلقه . وكذلك إن قيل : لك سَمْعٌ والله سَمِع . فنزّه الله أن يُشابه سَمْعُهُ سَمْعَكَ ، وإن قيل : لك فِعْلٌ ، والله فَعَلَ فنزّه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معانى (سُبْحَانَ) أى : أتعجب من قدرة الله .

إن : كلمة (سُبْحَانَ) جاءت هنا لتشير إلى أن ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر ، فإذا ما سمعته إياك أن تعترض أو تقول : كيف يحدث هذا ؟ بل نزّه الله أن يُشابه فعله فَعَلَ البشر . فإن قال لك : إنه أسرى بنبى محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فأياك أن تنكر .

فربك لم يقل : سَرَى محمد ، بل أسرى به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعه لمقاييس الزمن لديك ، ففعل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَانَ) نجدها فى الأشياء التى ضاقت فيها العقول ، وتحيرت فى إدراكها وفى الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) ﴿يس﴾

فالأزواج أى : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر فى
النبات ، وفى الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله : ﴿رَبِّمَا
لَا يَعْلَمُونَ﴾ بما توصل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما
السالب والموجب الذى يساوى الذكر والأنثى : لذلك قال تعالى :

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٦)

[الذاريات]

ومنها قوله تعالى :

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧)

[الروم]

فَمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ،
ويرى كيف يحلُ الظلام محلُ الضياء ، أو الضياء محلُ الظلام ،
لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول : سبحان الله .

ومنها قوله تعالى :

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٨)

[الزخرف]

هذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردت فيها كلمة
(سبحان) فى خلال السور وفى طيات الآيات .

و (سُبْحَانَ) اسم يدلُ على الثبوت والدوام ، فكان تنزيه الله
موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المتزّه . كما نقول فى الخلق ،
فأش خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أن يخلق شيئاً .

وكما نقول : فلان شاعر ، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ،
فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

(١) أنشور الشيء : قدر عليه وأطاقه وأخضعه وسخره ، كأن مع آخر فى قرن واحد

[القاموس القويم ١١٤/٢] .

إذن : تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنَزِّهه سبحانه ، فإذا
وُجِدَ المنزّه تحول الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه :

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝١﴾ [المشر]

وهل سُبِّحَ وسكت وانتهى التسبيح ؟ لا ، بل :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... ۝١﴾ [الجمعة]

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح
ثابت له ، وتُسَبِّحُ له الكائنات في الماضي والحاضر ، فلا تنقاس
أنت أيها المكلف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى :

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى]

وقوله : (أُسْرَى) من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، وفي الحِكَم :
(عند الصباح يحمّدُ القومُ السُّرى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد ﷺ
فلا تنقُسُ الفعل بمقياس البشر ، ونزّه فعل الله عن فعلك ، وقد استقبل
أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذّب . فقالوا : كيف هذا ونحن
نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون في قولهم : لأن رسول
الله لم يدّع أنه سَرَى بل قال : أُسْرَى بي .

ومعلوم أن قطع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة
التمثلة في السرعة . أي : أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو
أردنا مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية سيختلف الزمن لو سَرَرنا على
الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ،

فما يالك لو نسب الفعل والسرعة إلى الله تعالى ، إذا كان الفعل من الله فلا زمن .

لإن قال قائل : صادم الفعل مع الله لا يحتاج إلى زمن ، لماذا لم يأت الإسراء لمحّة فحسب ، ولماذا استغرق ليلة ؟

نقول : لأن هناك فرقاً بين قطع المسافات بقانون الله سبحانه وبين مرآة عُرِضَتْ على النبي ﷺ في الطريق ، فرأى مواقف ، وتكلم مع أشخاص ، ورأى آيات وعجائب ، هذه هي التي استغرقت الزمن .

وقلنا : إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قدر قوة الفاعل . هب أن قائلًا قال لك : أنا صعدتُ بابني الرضيع قمة جبل « إفرست » ، هل تقول له : كيف صعد ابنك الرضيع قمة « إفرست » ؟

هذا سؤال إذن في غير محله ، وكذلك في مسألة الإسراء والمعراج يقول تعالى : أنا أسريتُ بعبدي ، فمن أراد أن يحيل المسألة وينكرها ، فليعرض على الله صاحب الفعل لا على محمد .

لكن كيف فانت هذه القضية على كفار مكة ؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج نأخذ ردًا جميلًا على هؤلاء الذين يخوضون في هذا الحادث بعقول ضيقة وبإيمانية سطحية في عصرنا الحاضر ، فيطالعونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان .

ونسلم منهم مَنْ يقول : إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد .

ونقول لهؤلاء : لو قال محمد لقومه : أنا رأيتُ في الرؤيا بيت المقدس ، هل كانوا يُكذِّبونه ؟ ولو قال لهم : لقد سيحتُ رُوحى الليلة حتى أتتُ بيت المقدس ، أكانوا يُكذِّبونه ؟ أتُكذِّب الرُّؤى أو حركة الأرواح ؟

إذن : في إنكار الكفار على رسول الله وتكذيبهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله ﷺ بروحه وجسده ، وكان الحق سبحانه الأخر الموقف التكميلي لمكذبي الأمس ، ليردَّ به على مُكذِّبي اليوم .

وقوله سبحانه :

﴿عَبْدِهِ... (١)﴾

[الإسراء]

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً ، هذا مدلولها ، لا يمكن أن تُطلق على الروح فقط .

لكن ، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله ﷺ هذه الصفة بالذات ؟

نقول : لأن الله تعالى جعل في الكون قانوناً عاماً للناس ، وقد يُخرِّق هذا القانون أو الناموس العام ليكون معجزةً للخاصة الذين ميَّزهم الله عن سائر الخلق ، فكان كلمة (عبده) هي حيثية الإسراء .

أي : أسرى به : لأنه صادق العبودية لله ، وما دام هو عبده فقد أخلص في عبوديته لربه ، فاستحق أن يكون له ميَّزة وخصوصية عن غيره ، فالإسراء والمعراج عطاء من الله استحقَّه رسوله بما حقَّق من عبودية لله .

وَفَرَّقَ بَيْنَ الْعِبَادِيَّةِ لِلَّهِ وَالْعِبَادِيَّةِ لِلْبَشَرِ ، فَالْعِبَادِيَّةُ لِلَّهِ عِزٌّ وَشَرَفٌ
يَأْخُذُ بِهَا الْعَبْدُ خَيْرٌ سَيِّدِهِ ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَعِزًّا وَكَدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَا الثَّرِيًّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَنَدَ لِي نَبِيًّا
أما عبودية البشر للبشر فنقصٌ ومذلةٌ وهوانٌ ، حيث يأخذ السيد
خير عبده ، ويحرمه ثمرة كدّه .

لذلك ، فالمتتبع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتي إلا في
المواقف العظيمة مثل :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ ۝ (١٦) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ۚ ۝ (١٩) ﴾ [الجز]

ويكفيك عِزًّا وكرامة أنك إذا أردت مقابلة سيدك أن يكون الأمر في
يدك ، فما عليك إلا أن تتوضأ وتترى المقابلة قائلاً : الله أكبر ، فتكون
في معية الله عز وجل في لقاء تحدد أنت مكانه وموعده ومُدَّتُهُ ،
وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل في حضرة ربك إلى أن تنتهي
المقابلة متى أردت .

وما أحسنَ مَا قَالَ الشَّاعِرُ :

حَسْبُ نَفْسِي عِزًّا بِأَنِّي عَبْدٌ يَحْتَفِي بِي بِلَا مَوَامِيدَ رَبُّ
هُوَ فِي قُدْسِهِ الْأَعَزُّ وَلَكِنْ أَنَا أَلْقَى مَتًى وَأَيْنَ أَحْسَبُ

فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا ؟ وكم أنت مُلَاقٍ
من المشقة والعنت ؟ وكم دونه من الحِجَابِ والحِرَاسِ ؟ ثم بعد ذلك
ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان ، ولا الموضوع ولا غيره .

وقد كان الرسول ﷺ وهو المتخَلَّقُ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ إِذَا سَلَّمَ عَلَى أَحَدٍ لَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ يَدَهُ ^(١) .

وقوله : ﴿لَيْلًا.. (١)﴾ [الإسراء]

سبق أن قلنا : إن السُّرَى هو السير ليلًا ، فكانت هذه كافيةً للدلالة على وقوع الحدث ليلًا ، ولكن الحق سبحانه أراد أن يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً ؟

نقول : حدث الإسراء ليلًا ، لتظل المعجزة غيباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله ﷺ ، فلو ذهب في النهار لراه الناس في الطريق ذهاباً وعودة ، فتكون المسألة - إذن - حسيّة مشاهدة لا مجال فيها للإيمان والغيب .

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال : إن صاحبكم يزعم أنه أسرى به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، فمَنهم مَنْ قَلَبَ كُفْيَهُ تَعَجُّبًا ، وَمَنهم مَنْ أَنْكَرَ ، وَمَنهم مَنْ ارْتَدَّ .

أما الصديق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدق ، ومن هذا الموقف سُمِّيَ الصديق ، وقال قولته المشهورة : « إِنْ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَّقَ » ^(٢) .

(١) عن أنس رضي الله عنه قال : ما رأيت رجلاً قط أخذ بيد رسول الله ﷺ فيترك يده حتى يكون الرجل هو ينزع يده . أخرجه أبو الشيخ الأصبهاني في « أخلاق النبي » (ص ٢٩) .

(٢) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٦١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « لما أسرى بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك ، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدّقوه ، وسعوا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فقالوا : هل لك في صاحبك يزعم أنه أسرى به في الليل إلى بيت المقدس . قال : أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح . قال : نعم ، إني لأصدق به ما هو أبعد من ذلك ، أصدّقه بخبر السماء في غمرة أو روعة . فلهذا سُمِّيَ أبو بكر الصديق » . وكذا أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٦٢) ، وقال : « صحيح الإسناد » ولم يخرجاه . .

إذن : عمدته أن يقول رسول الله ، وطالما قال فهو صادق ، هذه قضية مُسلم بها عند الصديق رضى الله عنه .

ثم قال : « إِنَّا لَنُصَدِّقَهُ فِي أَبَعَدَ مِنْ هَذَا ، نُصَدِّقَهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ (الوحي) ، فكيف لا نُصَدِّقَهُ فِي هَذَا ؟ »

إذن : الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحَكًّا للإيمان ، ومُحْصَصًا لليقين الناس ، حتى يغربل مَنْ حول رسول الله ، ولا يبتلى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذي لا يهتز ولا يتزعزع .

لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ۚ ﴾ [الاسراء]

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يَكُنْ مناماً ، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً ، فالمنام لا يُكْذِبُهُ أحد ولا يختلف فيه الناس .

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعنى المنامية ، ولم يقل رُؤية « يعنى البصرية ؟ »

قالوا : لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية ، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة .

وورد في الإسراء أحاديث كثيرة تكلم فيها العلماء : أكان بالروح والجسد ؟ أكان يقظة أم مناماً ؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانئ^(١) ؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء ، وتوضَّح ما فيها من تقارب .

(١) هي : أم هانئ بنت أبي طالب الهاشمية ابنة عم النبي ﷺ . قيل : اسمها فاختة ، فاطمة . عند . والأول أشهر . وكانت زوج هبيرة بن عمرو المخزومي . [الإصابة في تمييز الصحابة (٢٨٧/٨)] .

فمن حيث : أكان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد ؟ فقد أوضحنا وَجْهَ الصواب فيه ، وأنه كان بالروح والجسد جميعاً ، فهذا مجال الإعجاز ، ولو كان بالروح فقط ما كان عجيبياً ، وما كذَّبه كفار مكة .

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤياً مناماً ، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحي لرسول الله ﷺ كان الرؤيا الصادقة ، فكان ﷺ لا يرى رؤياً إلا وجاءت بكفَلَقِ الصبح^(١) ، فرؤيا النبي ﷺ ليست كرؤيانا . بل هي صدق لا يُدَّ أن يتحقق . ومثال ذلك ما حدث ، مَنْ إرادةِ الله له رؤيا الفتح .

قال تعالى :

﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لِنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ..﴾ (٢٧) [الفتح]

وقد أخبر ﷺ صحابته هذا الخبر ، فلما ردُّهم الكفار عند الحديبية ، فقال الصحابة لرسول الله : ألم تُبَشِّرْنَا بدخول المسجد الحرام ؟ فقال : ولكن لم أقل هذا العام^(٢) .

لذلك يسمون هذه الرؤى رؤى الإيناس ، وهي أن يرى النبي ﷺ

(١) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٢٩٢ ، ٢) كتاب بدء الوحي .

(٢) أورد هذا ابن كثير في تفسيره (٢٠١/٤) ولفظه أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : أفلم تكن تخبرنا أنا سنانى البيت ومطوف به ؟ فقال ﷺ : « بلى ، أناخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال عمر : لا . فقال النبي ﷺ : « فلنك آتية ومطوف به » .

الشيء مناماً ، حتى إذا ما تحقق لم يُفاجأ به ، وكان له أنس به .
وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح فلا بد أن هذه الرؤيا
ستأتى واقعاً وحقيقة ، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل
التذكيرة بذلك الإيمان .

إذن : مَنْ قَالَ : إن الإسراء كان مناماً نقول له : نعم كان رؤيا
إيمان تحققت في الواقع ، فلدينا رؤى الإيمان أولاً ، ورؤى التذكير
بالتعمة ثانياً ، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثاً ، وبذلك نخرج من
الخلاف حول : أكان الإسراء يقظة أم مناماً ؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من
التسلية لرسول الله ﷺ ، فكان كلما اشتدت به الأهوال يُريه الله تعالى
ما حدث له ليُبَيِّنَ له حفاوة السماء والكون به ﷺ ؛ ليكون جُلُوداً
يتحمل ما يلقى من التعنت والإيذاء .

أما من قال : إن الإسراء كان من بيت أم هانئ ، فهذا أيضاً ليس
محللاً للخلاف ؛ لأن بيت أم هانئ كان مُلاصقاً للمطاف من المسجد
الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن : لا داعي لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة ؛ لأن
الفعل فعل الحق سبحانه وتعالى ، والذي يحكيه لنا هو الحق سبحانه
وتعالى ، فلا مجال للخلاف فيه .

وقوله تعالى :

﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (١)

[الإسراء]

المسجد الحرام هو بيت الله : الكعبة المشرفة ، وسُمِّي حراماً ؛
لأنه حُرِّمَ فيه ما لم يحُرِّم في غيره من المساجد . وكل مكان
يخصص لعبادة الله تسميه مسجداً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ ﴾ (١٨) [الثوبة]

ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت الله
باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خلق الله ؛
لذلك كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله .

وقد يُراد بالمسجد المكان الذي تسجد فيه ، أو المكان الذي
يصلح للصلاة ، كما جاء في الحديث الشريف : « .. وَجُعِلَتْ لِي
الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً »^(١) .

أي : صالحة للصلاة فيها .

ولا بُدَّ أَنْ تُفَرَّقَ بَيْنَ الْمَسْجِدِ الَّذِي حُيِّزَ وَخُصِّصَ كَمَسْجِدٍ
مستقل ، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة ،
فالعامل يمكن أَنْ يَصِلَ فِي مَصْنَعِهِ ، وَالْفَلَّاحُ يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ فِي
مَزْرَعَتِهِ ، فَهَذِهِ أَرْضٌ تَصْلَحُ لِلصَّلَاةِ وَلِمُبَاشَرَةِ حَرَكَةِ الْحَيَاةِ .

أما المسجد فللصلاة ، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير
آية ، أو بيان حكم ، أو تلاوة قرآن .. إلخ ولا يجوز في المسجد
مباشرة عمل من أعمال الدنيا .

(١) من جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي :
نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي
أبركته الصلاة فأبطل ، وأبطلت لي المغانم ، ولم تجعل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة .
وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخاري في صحيحه
(٢٢٥) ومسلم في صحيحه (٥٢١) .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

○ ٨٣٢١ ○

لذلك حينما رأى النبي ﷺ رجلاً ينشد ضالته في المسجد ، قال له : « لا رُدُّها الله عليك »^(١) وقال لمن جلس يعقد صفقة في المسجد : « لا يارك الله لك في صلفتك »^(٢) .

ذلك لأن المسجد خُصَّص للعبادة والطاعة ، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل ، فإياك أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفى ما أخذته منك ، وما أنفقته في سبيلها من وقت .

والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شيء من منافع الدنيا ، كمن يبنى مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودُعَاكَ من نيته عندما خُصَّص هذا المكان للصلاة : أكانت نيته لله خالصة ؟ أم لمارب دنيوى ؟
وقد قال تعالى :

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) [الجن]

فمثل هذا المكان لا يُسمَّى مسجداً : لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقُدسية المسجد ، وما لا يليق بحرمة الصلاة ، فالصلاة في مثل هذا المكان كالصلاة في أى مكان آخر من البيت .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالته في المسجد فليقل : لا رُدُّها الله عليك . فإن المساجد لم تبن لهذا » .

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إننا رأينم من يسبع أو يتتاع في المسجد لقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذى في سننه (١٢٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلق فوق مكة : لأن جو الحَرَم حَرَمٌ .

وقوله تعالى :

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى . (١)﴾ [الإسراء]

في بُعد المسافة نقول : هذا قصي . أي : بعيد . وهذا أقصى أي : أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجد آخر قصي ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله ﷺ .

فالمسجد الأقصى : أي : الأبعد ، وهو مسجد بيت المقدس .

وقوله سبحانه : ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ . (١)﴾ [الإسراء]

البركة : أن يُؤتي الشيء من ثمره فوق المأمول منه ، وأكثر مما يُظن فيه ، كان تُعد طعاماً لشخصين ، فيكفي خمسة أشخاص ، فنقول : طعام مبارك .

وقول الحق سبحانه :

﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ . (١)﴾ [الإسراء]

دليل على المبالغة في البركة ، فإن كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى ، فالبركة فيه من باب أولى ، كان تقول : مَنْ يعيشون حول فلان في نعمة ، فمعنى ذلك أنه في نعمة أعظم .

لكن بأي شيء بارك الله حوله ؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية ، وبركة دينية :

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خصبة عليها الحدائق

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

٨٣٢٢

والبساتين التي تحوى مختلف الثمار ، وهذا من عطاء الربوبية الذى يناله المؤمن والكافر .

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين ، هذه البركة الدينية تتمثل فى أن الأقصى مهدِّ الرسلات ومهبط الأنبياء ، تعطرت أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الروحى وتنزلت الملائكة .

وقوله : ﴿لَرَبِّهِ مِنْ آيَاتِنَا... (١)﴾ [الإسراء]
اللام هنا للتعليل .

كان مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن تُرى رسول الله الآيات ، وكلمة : الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول : هذا آية فى الحُسْن ، آية فى الشجاعة ، فالآية هى الشيء العجيب .

والله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذى يراه الناس ، كما قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ... (٢٧)﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)﴾ [الشورى]

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله ﷺ خصوصية ، وأن يُرى من آيات الغيب الذى لم يَرَهُ أحد ، ليرى ﷺ حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذى قال له :

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)﴾ [النحل]

لأنك فى سعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء فى الملا الأعلى ، وإن كنت فى ضيق من الخلق فأنت فى سعة من الخالق .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١ ﴾ [الإسراء]

أى : الحق سبحانه وتعالى .

السمع : إدراك يدرك الكلام . والبصر : إدراك يدرك الأفعال والمرائى ، فلكل منهما ما يتعلق به .

لكن سميع وبصير لمن ؟

جاء هذا فى ختام آية الإسراء التى بيّنت أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول ﷺ بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم ، وكان معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثت فيها أقوال وأفعال من الجانبين .

ومن هنا يمكن أن يكون المعنى : (سَمِيعٌ) لأقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله ، حيث آذاه قومه وكذبوه والجؤوه إلى الطائف ، فكان أهلها أشد قسوة من إخوانهم فى مكة ، فعاد مُنْكَرًا داميًا ، وكان من دعائه :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »^(١) .

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤١٩ ، ٤٢٠) ، والبيهقى فى « دلائل النبوة » .

فأشبه سميع لقول نبيه ﷺ . وبصير لفعله .

فقد كان ﷺ في أشد ظروفه حريصاً على دعوته ، فقد قابل في طريق عودته من الطائف عبداً ، فأعطاه عنقوداً من العنب ، وأخذ يحاوره في النبوات ويقول : أنت من بلد نبي الله يونس بن متى ^(١) .

أو يكون المعنى : سميع لأقوال المشركين ، حينما آذوا سميع رسول الله وكذبوه وتجهموا له ، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورموه بالحجارة .

الحق تبارك وتعالى تعرض لحادث الإسراء في هذه الآية على سبيل الإجمال ، فذكر بدايته من المسجد الحرام ، ونهايته في المسجد الأقصى ، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مجملة .

وجاء ﷺ ففسر لنا هذا المجل ، وذكر الآيات التي رآها ، فلو لم يذكر لنا رسول الله ﷺ ما رأى من آيات الله لقُلْنَا : وأين هذه الآيات ؟

فالقُرآن يعطينا اللقطة الملزمة لبيان الرسول ﷺ :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قُرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة]

إذن : كان لا بدُّ لتكتمل صورة الإسراء في نفوس المؤمنين أن يقول الرسول ﷺ ما قال من أحاديث الإسراء .

(١) هذا العبد يُسمى عداس ، وهو غلام نصراني . قال له رسول الله ﷺ : من أهل أي البلاد أنت يا عداس ، وما دينك ؟ قال - نصراني . وأنا رجل من أهل ثينوى . فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى . فقال له عداس . وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : لذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبي . فكتب عداس على رسول الله ﷺ بقبْل رأسه ويديه وقدميه . [السيرة النبوية لابن هشام ٤٢٦/٢] .

لكن يأتى المشككون وضعاف الإيمان يبحثون فى أحاديث الإسراء عن مأخذ ، فيعترضون على المرائى التى رآها رسول الله ، وسأل عنها جبريل عليه السلام .

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث فى الآخرة ، فكيف رآها محمد ﷺ ؟

ونقول لهؤلاء : لقد قصرت أفهامكم عن إدراك قدرة الله فى خلق الكون ، فالكون لم يُخلق هكذا ، بل خلق بتقدير أزلى له ، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل :

هَبْ أُنْكَ أَرَدْتَ بِنَاءَ بَيْتٍ ، فَسَوْفَ تَذْهَبُ إِلَى الْمُهَنْدِسِ الْمُخْتَصِ وتطلب منه رَسْمًا تفصيلياً له ، ولو كنت ميسور الحال تقول له : اعمل لى (ماكيت) للبيت ، فيصنع لك نموذجاً مُصَغَّراً للبيت الذى تريده .

فالحق سبحانه خلق هذا الكون أزلاً ، فالأشياء مخلوقة عند الله (كالمالكيت) ، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدره .
وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢)

[يس]

انتظر : ﴿ أَنْ يَقُولَ لَهُ ﴾ كان الشيء موجوداً والله تعالى يظهره فحسب ، لا يخلقه بداية ، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر فى عالم الواقع ؛ لذلك قال أهل المعرفة : أمور يُبدِئها ولا يبتدئها .

وإن كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة فى هذه الآية ، فقد ذكر المعراج بالالتزام فى سورة النجم ، فى قوله تعالى :

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

8327

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَفَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾
[النجم]

ففى الإسراء قال تعالى :

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا . (١٦)﴾
[الإسراء]

وفى المعراج قال :

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨)﴾
[النجم]

ذلك لان الإسراء آية أرضية استطاع الرسول ﷺ بما آتاه الله من الإلهام أن يدل على صدقه فى الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ لان قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أن رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فسألوا له : صفه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يره ، فتحدوه أن يصفه .

والرسول ﷺ حينما يأتى بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً ؟

إنن : صورته لم تكن واضحة أمام النبی ﷺ بكل تفاصيلها ، وهنا تدخلت قدرة الله فجلاه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فأخبرهم ﷺ أن غيراً لهم فى الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تصلهم مع شروق شمس يوم معين .

وفعلًا تجمعوا في صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم : ها هي الشمس أشرقت . فردَّ الآخر : وها هي العير قد ظهرت^(١) .

إذن : استطاع ﷺ أن يُدَلِّل على صدق الإسراء : لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلَمُه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من غيرهم في الطريق .

أما ما حدث في المعراج ، فأيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول ﷺ التدليل عليها أمام قومه ، فأراد الحق سبحانه أن يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء ، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المُنْتَهَى ، فيصفها له رسول الله ؟

إذن : آية الأرض أمكن أن يُدَلِّل عليها ، فإذا ما قام عليها الدليل ، وثبت للرسول خَرَقَ نواميس الكون في الزمن والمسافة ، فإنَّ حَدَّثَكُمْ عن شيء آخر فيه خَرَقَ للنواميس فصدَّقوه ، فكان آية الإسراء جاءت

(١) وقد أورد ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢-٤) من حديث لم يات به أن النبي ﷺ قال : آية ذلك أتى مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا ، فانفرغ جسر الدابة ، فتدَّ لهم بعير ، فدللتهم عليه . وأنا موجه إلى الشام ، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضيحجان مررت بعير بني فلان ، فوجدت القوم نياماً ، ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه ، وشربت ما فيه ، ثم غطيت عليه كما كان . وآية ذلك أن عيرهم الآن يصوب من الجحشاء ثنية التنعيم ، ولدها جبل أروق ، عليه هزارتان ، إحداهما سوان ، والأخرى برقاء . قالت : فابتدر للقوم الثنية فلم يلقيهم أول من الجبل كما وصف لهم ، وسألهم عن الإناء ، فأخبرهم أنهم وضعوه مملوئاً ماءً ثم غطوه ، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه ، ولم يجدوا فيه ماء . وسألوا الآخرين وهم بمكة ، فقالوا : صدق والله ، لقد أنفردنا في الوادي الذي ذكر ، ولنا له بعير ، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه ، حتى أخذناه .

لِنُقَرِّبَ لِلنَّاسِ آيَةَ الْمَعْرَاجِ .

فالذي خرق له النواميس في آيات الأرض من الممكن أن يخرق له النواميس في آيات السماء ، فإله تعالى يُقَرِّبُ الْغَيْبِيَّاتِ ، التي لا تدركها العقول بالمحسَّات التي تدركها .

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة الذفقة في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف ، فأراد الحق سبحانه أن يُبَيِّنَ ذلك ويُقَرِّبَهُ للعقول ، فقال :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ مِصْرَ مِصْرَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ مِائَةٍ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة]

ومن لطف الله سبحانه بعقول خلقه أن جعل آيات الإسراء بالتصريح الملزم الصريح ، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام في سورة النجم ؛ لذلك قال العلماء : إن الذي يُكذَّبُ بالإسراء يكفر ، أما مَنْ يَكذَّبُ بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يَكذَّبُ بالمعراج أيضاً ؛ لأن المعراج وإن جاء بالالتزام فقد بيَّنه الرسول ﷺ في حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ (٧) [الحشر]

والمثال في الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أشراً ، وهو بيان أن رسول الله ﷺ مُؤَيَّدٌ من الله ، وله معجزات ، وتُخَرِّقُ له القوانين

والنواميس العامة : ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .

فالمعجزة : أمر خارق للعادة الكونية يُجْريه الله على يد رسوله ؛
ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل - عليه
السلام - حيث ألقاه قومه فى النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل
كان المراد نجات إبراهيم من النار ؟

لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكّنهم من الإمساك به ،
ولو أمسكوا فيمكن أن يُنْزِلَ الله المطر فيطفىء النار .

إذن : المسألة ليست نجات إبراهيم ، المسألة إثبات خرق النواميس
لإبراهيم عليه السلام ، فشاء الله أن تظل النار مشتعلة ، وأن يُمسكوا
به ويرموه فى النار ، وتتوفر كل الأسباب لحرقه - عليه السلام .

وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين ، فمن
خواص النار الإحراق ، وهى خلق من خلق الله ، ياتمر بأمره ، فامر
الله النار ألا تحرق ، سلبها هذه الخاصية ، فقال تعالى :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الانبياء]

وربما يجد المشككون فى الإسراء والمعراج ما يُقَرِّبُ هذ المعجزة
لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدّم علمي يُقَرِّبُ لنا المسافات ، فقد
تمكّن الإنسان بسلطان العلم أن يغزو الفضاء ، ويسعد إلى كواكب
أخرى فى أزمنة قياسية ، فإذا كان فى مقدور البشر الهبوط على
سطح القمر ، أتستبعدون الإسراء والمعراج ، وهو فعلٌ لله سبحانه ؟!

وكذلك من الأمور التى وقفت أمام المعترضين على الإسراء

والمعراج حادثة شقّ الصدر التي حكّاها رسول الله ﷺ ، والمثال فيه يجده عملاً طبيعياً لإعداد الرسول ﷺ لما هو مُقبل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف في طبيعتها عن الطبيعة البشرية .

كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر ، فيقولون لك : البس ملابس كذا . وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد . وتتأقلم معه ، فما بالك ومحمد ﷺ سيلتقى بالملائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقى بإخوانه من الأنبياء ، وهم في حال الموت ، وسيكون قاب قوسين أو أدنى من ربه عز وجل ؟ إذن : لا غرابة في أن يحدث له تغيير ما في تكوينه ﷺ ليستطيع مباشرة هذه المواقف .

وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدل على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقاءه بالأنبياء في هذه الرحلة ، قال تعالى :

﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا..﴾ (١٥)

[الزخرف]

والرسول ﷺ إذا أمره ربه أمراً نفّذه ، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر : وأسأل مَنْ سيقك من الرسل ؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا في لقاء مباشر ومواجهة ، فإذا حدثنا بذلك رسول الله في رحلة الإسراء والمعراج نقول له : صدقت ، ولا يتسلل الشك إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة في هذه القضية - الإسراء والمعراج - دائرة بين يقين

المؤمن يصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أن يفهم كل قضايا الكون من حواك ؟

فما أكثر الأمور التي وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَهَا ، ومع مرور الزمن وتقدم العلوم رآها تتكشف له تدريجياً ، فما شاء الله أن يُظهره لنا من قضايا الكون يسر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أن يتعداها ، وإياك أن تظن أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهي وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رأيت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغر تدريجياً حتى يختفى عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أن تسمع صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قلّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئاً .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلب على قانون العين وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تمكن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعد على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إذن : فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أن تظن

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

﴿ ٨٣٣٢ ﴾

أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حَدَّثَتْ بِشَيْءٍ فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصَّدِيقِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جِئْتُمَا حَدَّثُوهُ عَنْ صَاحِبِهِ ﷺ ، وَانْهَ أُسْرِيَ بِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ قَالَ : « إِنْ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ » .

فَالْحُجَّةُ عِنْدَهُ إِذْنُ قَوْلِ الرَّسُولِ ، وَمَا دَامَ الرَّسُولُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ فَهُوَ صَادِقٌ ، وَلَا مَجَالَ لِعَمَلِ الْعَقْلِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، ثُمَّ قَالَ : « كَيْفَ لَا أُصَدِّقُهُ فِي هَذَا الْخَبَرِ ، وَأَنَا أُصَدِّقُهُ فِي أَكْثَرِ مِنْ هَذَا ، أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ الْوَحْيِ يَأْتِيهِ مِنَ السَّمَاءِ » ^(١) .

فَأَيَّةُ الْإِسْرَاءِ - إِذْنٌ - كَانَتْ آيَةً أَرْضِيَّةً ، يُمْكِنُ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهَا الدَّلِيلُ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَفْهَمَ النَّاسُ عَنْهَا أَنَّ الْقَانُونَ قَدْ خَرِقَ لِمُحَمَّدٍ فِي الْإِسْرَاءِ ، فَإِذَا مَا أَتَى الْمَعْرَاجَ وَخَرِقَ لَهُ الْقَانُونَ فِيمَا لَا يَعْلَمُ النَّاسُ كَانَ ادَّعَى لِتَصْدِيقِهِ .

وَالْعَتَاَمَلُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ يَجِدُهَا تُسَمَّى سُورَةُ الْإِسْرَاءِ ، وَتُسَمَّى سُورَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَلَيْسَ فِيهَا عَنِ الْإِسْرَاءِ إِلَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَقَطْ ، وَأَغْلِبُهَا يَتَحَدَّثُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَمَا الْحِكْمَةُ مِنْ ذِكْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ الْإِسْرَاءِ ؟

سَبَقَ أَنْ قُلْنَا : إِنَّ الْحِكْمَةَ مِنَ الْكَلَامِ عَنِ الْإِسْرَاءِ بَعْدَ آخِرِ النَّحْلِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَالَةِ النُّبُوَّةِ (٢/ ٣٦٠) مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَكَذَلِكَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ (٢/ ٦٢) وَقَالَ : « صَحِيحُ الْإِسْتِادِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ ، وَوَافِقُهُ الذَّهَبِيُّ » .

أن رسول الله ﷺ كان في ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أن يُخَفِّفَ عنه ويُسَلِّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما أَلَفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبْعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رأوا موسى عليه السلام .

فعندما يأتي محمد ﷺ ويقول : أنا رسول للناس كافة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون : إن كنتَ رسولا فعلا وسَلَّمنا بذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخَلَ لك ببني إسرائيل ، فلنا رسالتنا وبيت المقدس علم لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت بني إسرائيل إلى عموم رسالة محمد ﷺ ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلة للمسلمين في بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله ﷺ إليه ؛ ليدلّل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل في مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث في حوزة المسلمين .

ثم يبدأ الحديث عن موسى عليه السلام وعن بني إسرائيل ، فيقول تعالى :

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾

قوله : ﴿وَأَتَيْنَا﴾ أي : أوحينا إليه معانيه ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..﴾ (٥٦) [الشورى]

سُورَةُ الْاِنْتِزَالِ

٨٣٣

فليس فى هذا الامر مباشرة .

و (الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإن أُطلق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوَحْيُ قد يكون بمعانى الاشياء ، ثم يُعبّر عنها الرسول بالفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه بالفاظهم .

ومثال ذلك : الحديث النبوى الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول ﷺ ، وهكذا كان الامر فى التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل : ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، فى حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط ؟

نقول : لان القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، فلا دخّل لاحد فيه ، ولا بدّ أن يظلّ لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول ﷺ أوحىَ إليه لفظُ ومعنى القرآن الكريم ، وأوحىَ إليه معنى الحديث النبوى الشريف .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ ﴾ (٢) [الإسراء]

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل ليُبلغه لبني إسرائيل ،

وليرسم لهم طريق الهدى إلى الله سبحانه ، وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ^(١) مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَآئِيلَ (٢٣)﴾
[السجدة]

والهْدَى : هو الطريق الموصِّل للغاية من أقصر وجه ، وبأقل تكلفة ، وهو الطريق المستقيم ، ومعلوم عند أهل الهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى خلاصة هذا الكتاب ، وخلاصة هذا الهدى لبني إسرائيل فى قوله تعالى :

﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٧)﴾
[الإسراء]

ففى هذه العبارة خلاصة الهدى ، وتركيز المنهج وجماعه .

والوكيل : هو الذى يتولَّى أمرك ، وأنت لا تولَّى أحداً أمرك إلا إذا كنت عاجزاً عن القيام به ، وكان مَنْ تَوَكَّلَته أحكمَ منك وأقوى ، فإذا كنت ترى الأغيار تنتاب الناس من حولك وتستولى عليهم ، فالنفسى يصير فقيراً ، والقوى يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكذلك ترى الموت يتناول الناس واحداً تلو الآخر ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لتولَّى أمرك والقيام بشأنك ، فربما وكَّلتَ واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن : إذا كنت لبیباً فوكل مَنْ لا تنتابه الأغيار ، ولا يدركه

(١) العرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢٢٤/٢] .

الموت ؛ ولذلك فالحق سبحانه حيثما يُعلمنا أن نكون على وعى
وإدراك لحقائق الأمور ، يقول :

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (٥٨)

[الفرقان]

وما دام الامر كذلك ، فإياك أن تتخذَ من دون الله وكيلًا ، حتى لو كان
هذا الوكيل هو الوساطة بينك وبين ربك كالأنبياء ؛ لأنهم لا يأتون بشيء
من عند أنفسهم ، بل يناولونك ويبلغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول :

﴿وَلَنْ شَيْئًا لَّنْذَهَبَ بِالَّذِي أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ..﴾ (٨٦)

[الإسراء]

ولو شئنا ما أرحمنا إليك أبدًا ، فمن أين تأتي بالمنهج إذن ؟

وقد تحدث العلماء طويلاً في (أن) في قوله :

﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ (٢)

[الإسراء]

فمنهم من قال : إنها ناهية . ومنهم من قال : نافية ، وأحسن
ما يُقال فيها : إنها مفسرة لما قبلها من قوله تعالى :

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى..﴾ (٢٠)

[الإسراء]

ففسرت الكتاب والهدى ، كما في قوله تعالى :

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا

[طه]

يَلْكِي﴾ (١٢٠)

فقوله : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ ﴾ تفسر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

ومثله قوله تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ (٧) [القصص]

(فَأَنَّ) هنا مُفسَّرة لما قبلها . وكان المعنى : وأوحينا إليه ألا تتخذوا من دوني وكيلاً .

أو نقول : إن فيها معنى المصدرية ، وإن المصدرية قد تُجر بحرف جر كما نقول : عجبت أن تنجح ؛ أي : من أن تنجح ، ويكون معنى الآية هنا : وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل لأن لا تتخذوا من دوني وكيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٢)

(ذرية) منصوبة هنا على الاختصاص لقصد المدح ، فالمعنى : أخصكم أتم يا ذرية نوح ، ولكن لماذا ذرية نوح بالذات ؟

ذلك لأننا نجينا الذين آمنوا معه من الطوفان والفرق ، وحافظنا على حياتهم ، وأنتم ذريتهم ، فلا بد لكم أن تذكروا هذه النعمة لله تعالى ، أن أبقاكم الآن من بقاء آبائكم .

فكان الحق سبحانه يمتن عليهم بأن نجى آبائهم مع نوح ، فليستمعوا إلى منهج الله الذي جرَّبه آبائهم ، ووجدوا أن من يؤمن بالله تكون له النجاة والأمن من عذاب الله .

ويقول تعالى :

[الإسراء]

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

أى : أن الحق سبحانه أكرم ذريته : لأنه كان عبداً شكوراً ، والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه ؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبطون فى مآهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجَنِّبُهم الزلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفّر للإنسان قوت يومه تطلّع إلى قوت العام كله ، فإذا توفّر له قوت عامه قال : أعمل لأولادى ، فتوى خير أولاده أكثر من خيره ، وثرأه ينشغل بهم ، ويؤثرهم على نفسه ، ويترقى فى طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، للإنسان عُرْضَةٌ للأغيار ، وقد يأتية أجله فيترك وراءه كل شيء ؛ ولذلك قالحق سبحانه يدلنا على وجه الصواب الذى يتفح الأولاد ، فيقول تعالى :

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٦﴾﴾

[التساء]

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلِّمنا أن تقوى الله تتعدى بركتها إلى أولادك من بعدك ، يعطينا مثلاً واقعياً فى قصة موسى والخضر عليهما السلام - التى حكاهما لنا القرآن الكريم .

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية ، واستطعما أهلها فأبوا أن يُضيّفوهما ، وسؤال الطعام يدل على صدق الحاجة ، فلو طلب منك السائل مالاً فقد اتهمه بكنْزِه ، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شك

انه صادق فى سؤاله ، فهذا دليل على أنها قرية لثام لا يقومون
بواجب الضيافة ، ولا يُقدِّرون حاجة السائل .

ومن هنا تعجَّب موسى - عليه السلام - من مبادرة الخضر إلى
بناء الجدار الذى أوْشك على السقوط دون أن يأخذ أجره من هؤلاء
اللثام :

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَعْلَاهَا فَبِأَوَّلِهَا قَوْمٌ مِّنْهَا فَجَعَلَا
فِيهَا جِدَارًا يُّرِيدُ أَنْ يَبْنِيَهُ فَاثْقَاهُ قَالُوا شَبَّابٌ لَّا تَحْذَرُ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ [الكهف]

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الامر ، ويُظهر له ما أطلعه الله
عليه من يواظن الأمور التى لا يدركها موسى عليه السلام ، فيقول :

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَالِحًا فَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ
رَّبِّكَ ۖ﴾ [الكهف]

فالجدار ملك للغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من
هؤلاء اللثام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخر الله لهما من يخدمهما ،
ويحافظ على مالهما .

إذن : فعلت هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من
أجله ، وجعلهما فى حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل : ومن أين للغلامين أن يعلموا بامر هذا الكنز
عند بلوغهما ؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً
موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادرين على
حمايته والدفاع عنه .

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

٨٢٤١

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية في آية أخرى ،
فيقول سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتَاهُمْ^(١) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢١) [الطور]

فكرامة للآباء تلحق بهم الأبناء ، حتى وإن قَصُرُوا في العمل عن آياتهم ، فنزيد في أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٢) [الإسراء]

وشكور صيغة مبالغة في الشكر ، فلم يقل شاكر ؛ لأن الشاكر الذي يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام : إنه كان لا يتناول شيئاً من مَقُومَاتِ حياته إلا شكر الله عليها ، ولا تنعم بنعمة من ترف الحياة إلا حمد الله عليها ، فإذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني من غير حول مني ولا قوة ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني من غير حول مني ولا قوة ، وهكذا في جميع أمره^(١) .

(١) لا يلبث حقه لبثاً : نقصه ولم يزده كاملاً ، قال تعالى : ﴿لَا يُلَاحِظْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ (٥٥)

[الحجرات] أى : لا يتفحصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٢٩٤١) من قول عمران بن سليم قال : (نسا سمي نوحاً عبداً شكوراً) لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعتني . وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذي كسبني ولو شاء لأعراني . وإذا احتذى قال : الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأحفاني . وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذي أخرجني مني ولو شاء لحبسني في .

ويقول بعض العارفين : ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جهدهم أن يقولوا : بسم الله في أول الطعام والحمد لله في آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعد ولا تُحصى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نعم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قيد للنعمة ، تجده يعمل ما تُسمّيه حمد القضاء مثل الصلاة القضاء أى : حمد الله على نعم فاتت لم يحمده عليها ، فيقول : الحمد لله على كل نعمة أنعمتها علىّ يا ربّ ، ونسيت أن أحمّدك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دأبه ودينه .

وقد يتعدى حمد الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمده ، فيقول : الحمد لله عن كل ذي نعمة أنعمت عليه ، ولم يحمّدك عليها .

ولذلك يقولون : إن النعمة التي تحمد الله عليها لا تُسأل عنها يوم القيامة ؛ لأنك أدّيت حقها من حمد الله والثناء عليه .

والحمد والشكر وإن كان شكراً للمنع سبحانه وثناء عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧)﴾

[إبراهيم]

فمن أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفُفٌ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَنَّٰ عَلْوًا كَبِيرًا﴾^(١)

قوله تعالى :

﴿وَقَضَيْنَا...﴾

[الإسراء]

أى : حكمنا حكماً لا رجعة فيه ، وأعلنا به المحكوم عليه ،
والقاضى الذى حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى .

والقضاء يعنى الفصل فى نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفصل
لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤَمَّل ، وعلى علم بالقانون الذى يحكم به ،
ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُدَّ أن يكون القاضى مُؤَمَّلًا ، ولو فى عُرْبِ المتنازعين ،
ويمكن أن يكونوا جميعاً أميين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، لكنهم
واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْلَ الحق والعدل فى
حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويحكمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضى لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بيعة على
المدعى أن يُقدِّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبيعة تحتاج إلى سماع
الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم فى القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل

(١) قضينا : أعلمنا وأخبرنا . قاله ابن عباس . وقال قتادة : حكمنا . وأصل القضاء الإحكام
للشيء والفواخ منه . وقيل : قضينا أوحينا . [تفسير القوطى ٢/٥ : ٢٩٤٢] .

هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو في أثناء ذلك عُرضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أن يُعمى عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكماً يستميل القاضي ، فيحول الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث في قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضي هو رب العزة سبحانه وتعالى ؟

إنه سبحانه وتعالى القاضي العدل الذي لا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أن يُعمى عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً في قضاء قضاه النبي ﷺ ، وهل القضية أفصل من رسول الله ؟!

ففي الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إليّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن^(١) بحجته فأقضى له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار »^(٢) .

فردّ ﷺ الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أن يراجع نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول ﷺ بشر يقضى كما يقضى البشر ، ولكن إن عميت على قضاء الأرض فلن تُعمى على قضاء السماء .

(١) ألحن بحجته : أي أفطن له وأجمل . واللحن : اللطنة . [لسان العرب مادة : لحن] .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧١٣) كتاب الاقضية من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿ ٨٣٤٥ ﴾

ولذلك يقول ﷺ قِيمَنْ يَسْتَفْتِي شَخْصًا فَيُفْتِيهِ فَتَوَى تَخَالَفَ الْحَقَّ وَتَجَانِبَ الصَّوَابَ :

« اسْتَفْتِ قَلْبِكَ ، وَإِنْ أَفْتَوْكَ ، وَإِنْ أَفْتَوْكَ ، وَإِنْ أَفْتَوْكَ »^(١) .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُمَيِّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : ﴿ فِي الْكِتَابِ ۖ ﴾ (٢)

أى : فى التوراة ، كتابهم الذى نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس فى كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أى : حكم عليهم حكماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به فى التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملايسات استقبال منهج الله على السنة الرسل ، أُنْفِذُونَهُ وَيَنْصَاعُونَ لَهُ ، أم يخرجون عنه ويفسدون فى الأرض ؟

وإذا كان رسولهم - عليه السلام - قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أن يخلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا فى تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأن يُطِيعُوا أَمْرَهُ .

(١) عن وابصة بن معبد أن رسول الله ﷺ قال له : يا وابصة ، استفتت نفسك ، البر ما أحسن إليه ، القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والاثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك ، أخرجه أحمد فى المسند (٢٢٨/٤) والدارقطنى فى سننه (٢٤٦/٢) .

وقوله تعالى :

﴿لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ.. (١)﴾

[الإسراء]

جاءت هذه العبارة هكذا مؤكدة باللام ، وهذا يعنى أن فى الآية تَسْمًا دَلُّ عليه جوابه ، فكان الحق سبحانه يقول : ونفسى لتفسدن فى الارض ، لأن القسم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمنا قد قضينا وحكمنا حكماً مؤكداً ، لا يستطيع أحد الفكاك منه ، ففى هذا معنى القسم ، وتكون هذه العبارة جواباً لـ « قضينا » : لأن القسم يجرى للتأكيد ، والتأكيد حاصل فى قوله تعالى :

﴿وَلَقَضَيْنَا.. (١)﴾

[الإسراء]

فما هو الإفساد ؟

الإفساد : أن تعتمد إلى الصالح فى ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكلُّ شيء فى الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركته ليوئدى غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخللت به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التى خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مقومات حياتنا فى السماء والأرض والشمس والهواء .. إلخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل واعد لنا فى كونه ما يُمكن الإنسان بعقله وظافته أن يزيد الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إن لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبقِ الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فلماذا أن تحتفظ بها على حالها فلا تطمسها ، ولماذا أن تزيد في صلاحها بأن تبني حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخه في مواسير لتسهل على الناس استعماله ، وغير ذلك من أوجه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۖ ﴾ (٦١)

[مود]

أى : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مقومات حياتكم ، فإن أحببت أن تُثري حياتك فأعمل عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله في الكون ، فأنت لا تأتي بشيء من عندك ، فقط تُعمل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثري حياتك ، ويُوفّر لك الرفاهية والترقى .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من ميزات وفُرت علينا رقع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا في عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد في الماديات كمن أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوثات ، كذلك يكون في المعنويات ، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق والزُمن بتفسيده ، فكونك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبني إسرائيل :

﴿تُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ...﴾ (١)

[الإسراء]

وهل أفسد بنو إسرائيل في الأرض مرتين فقط ؟

والله إن كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والأمر إذن هين ، لكنهم أفسدوا في الأرض إفساداً كثيراً متعدياً ، فلماذا قال تعالى : مرتين ؟

تحدث العلماء كثيراً عن هاتين المراتين^(١) ، وفي أي فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتُ منهم في حضن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى يعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بني إسرائيل ، فدل ذلك على أن الإسلام تعدى إلى مناطق مُقدَّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قبلة للمسلمين ، ثم أُسْرِيَ برسول الله ﷺ إليه ، وبذلك دخل في حوزة الإسلام ؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأولى أن يُفسَّروا هاتين المراتين على أنهما في

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٢٣٩/٥) آثاراً في تفسير هذه الآية ، فقال :

- أخرج ابن عساکر في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال : الأولى : قتل زكريا عليه الصلاة والسلام . والآخرى : قتل يحيى عليه السلام .

- وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية العوفي قال : أفسدوا المرة الأولى ، فبعث الله عليهم جالوت فقتلهم ، وأفسدوا المرة الثانية ، فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث الله عليهم بختنصر .

حُضِنَ الْإِسْلَامُ ؛ لَأَنَّهُمْ أَفْسَدُوا كَثِيرًا قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَلَا نَدْخُلُ لِلْإِسْلَامِ
فِي إِفْسَادِهِمُ السَّابِقَ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ سَبَّحَانَهُ يَقُولُ :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ۝ (١) ﴾ [الْإِسْرَاءُ]

فَإِنْ كَانَ الْفُسَادُ مُطْلَقًا ، أَيْ : قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْإِسْلَامَ فَقَدْ تَعَدَّدَ
فُسَادُهُمْ ، وَهَلْ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْ قَوْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ جَاوَزَ بِهِمُ الْبَحْرَ فَرَاوَا
جَمَاعَةً يَعْكُفُونَ عَلَىٰ عِبَادَةِ الْعَجَلِ ، فَقَالُوا لِمُوسَىٰ - عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۝ (١٣٨) ﴾ [الْأَعْرَافُ]

هَلْ هُنَاكَ فُسَادٌ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ قَتَلُوا الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ مُثَلًّا
تَكْوِينِيَّةً وَأَسْوَةً سَلُوكِيَّةً ، وَحَرَّفُوا كِتَابَ اللَّهِ ؟

وَالنَّازِلُ فِي تَحْرِيفِ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لِلتَّوْرَةِ يَجِدُ أَنَّهُمْ حَرَّفُوهَا مِنْ وَجْهِهِ
كَثِيرَةً وَتَحْرِيفَاتٍ مُتَعَدِّدَةً ، فَمِنْ التَّوْرَةِ مَا نَسُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۝ (١٣) ﴾ [الْمَائِدَةُ]

وَالَّذِي لَمْ يَنْسُوهُ لَمْ يَتْرُكُوهُ عَلَىٰ حَالِهِ ، بَلْ كَتَمُوا بَعْضَهُ ، وَالَّذِي
لَمْ يَكْتُمُوهُ لَمْ يَتْرُكُوهُ عَلَىٰ حَالِهِ ، بَلْ حَرَّفُوهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۝ (١٣) ﴾ [الْمَائِدَةُ]

وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ بِهِمْ عِنْدَ هَذَا النِّسْيَانِ وَالْكَتْمَانِ وَالتَّحْرِيفِ ، بَلْ
تَعَدَّى إِلَىٰ أَنْ أَتَوْا بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، وَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ،
قَالَ تَعَالَى :

﴿قُرْآنٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (٧٩)

[البقرة]

فهل هناك إفساد في منهج الله أعظم من هذا الإفساد ؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث في قصة طالوت وجالوت في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ^(١) لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا...﴾ (٢٤٦)

[البقرة]

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضوه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصلوا منه ولم يقاتلوا .

ويرى أن الفساد الثاني قد حدث بعد أن قويت بولتهم ، واتسعت رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيرات على أن الفسادين سابقان للإسلام ، والأولى أن

(١) اختلف في تحديد من هو هذا النبي على أقوال منها :

- إنه يوشع بن نون - قاله قتادة :

- إنه شمعون - قاله السدي .

- إنه شمويل - قاله مجاهد ورهب بن منبه - ذكره ابن كثير في التفسير (١/٢٠٠) .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية (٢/١٠٥٦) : « لا يعني

ذلك ، لأن القرآن لا يذكر في أي عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام » .

نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد في هذا ربطاً لقصة بنى إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كان يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد ﷺ ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين في المدينة كانوا يقولون لهم : لقد أظلم زمان نبي يأتي فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم^(١) .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ : إنهم يتكبرون عليك أن الله يشهد ومن عنده علم الكتاب ، فمن عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيتك ، وأنت صادق ، ويعرف علامتك ، يدلل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد ﷺ .

ويقول أحدهم^(٢) : لقد عرفت حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، لأنه قد يشك في نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك في شخصية الرسول ﷺ لما قرأه في كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ، لأنه ﷺ موصوف في كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا

(١) قال تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة] .

(٢) هو : عبد الله بن سلام . قال له عمر : اتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٩٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/٢٥٧) للعلامة من طريق السدي الصغير عن الكلبى عن ابن عباس .

مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مُقَدِّمَات لبعثته ﷺ .

ومع ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ﴾ (٨٩) ﴿ [البقرة]

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه ﷺ بعد أن هاجر إلى المدينة ؟

فى المدينة أبرم رسول الله ﷺ معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفى لهم رسول الله ما وقوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرَمَات المسلمين وأعراضهم ، جاس^(١) رسول الله ﷺ خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتَلَ ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر ؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، فقال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ (٧) ﴿ [الحشر]

وهذا هو الفساد الأول الذى حدث من يهود بنى النضير ، وبنى قَيْنَقَاع ، وبنى قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُ الآية القادمة يؤيد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

(١) جاسوا : ذهبوا وجاموا فى الأرض ، وفى الصحاح : جاسوا خلال الديار أى : قطعافوا فى خلال الديار ينتظرون هل يلقى أحد لم يقتلوه ، [لسان العرب - مادة : جوس] .